عزيز ضياء

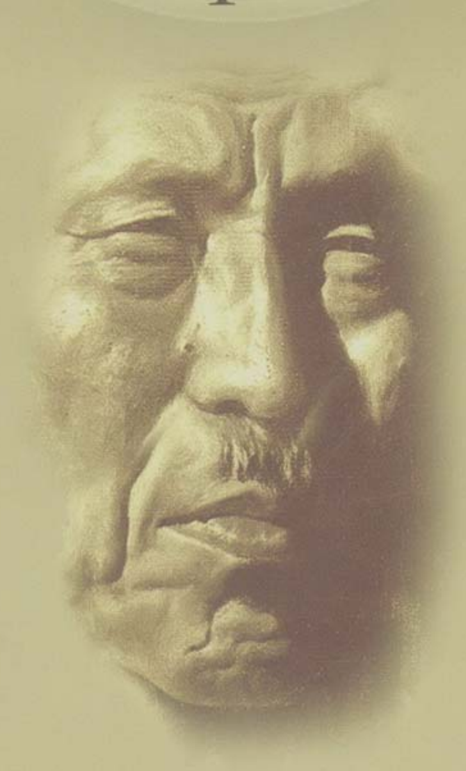
حياتي

مع الجوع والحب والحرب

I









عزيز ضياء



حياتي

مع الجوع والحب والحرب

الجزء الأول



عزيز ضياء

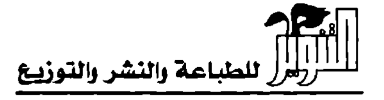
حياتي

مع الجوع والحب والحرب

الجزء الأول

الكتاب: حياتي مع الجوع والحب والحرب/ الجزء الأول
المؤلف: عزيز ضياء
عدد الصفحات: 268
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية 2012

الناشر:

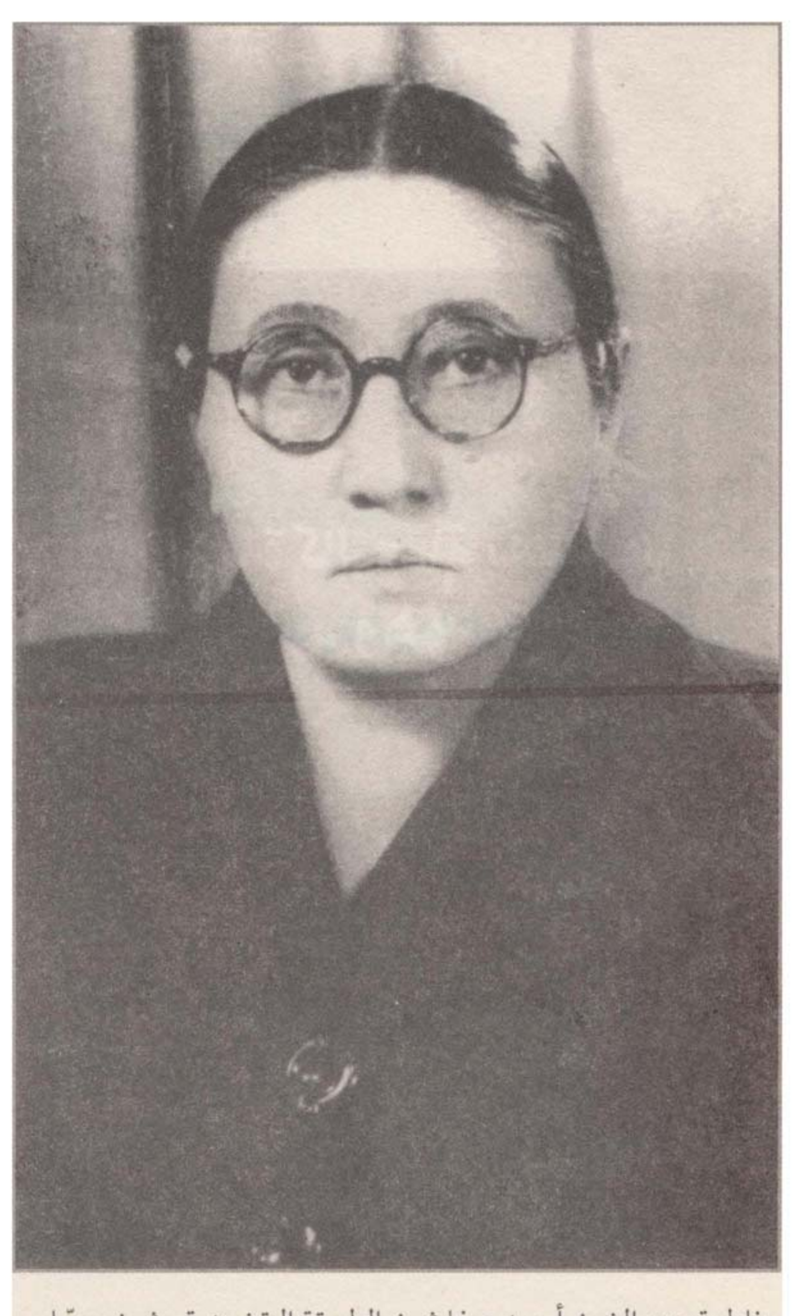


الجناح - مقابل السلطان ابراهيم - سنتر حيدر التجاري
الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 340 843 1 00961
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.altanweer.com

التنفيذ الطباعي: مؤسسة ديمو برس للطباعة والتجارة بيروت / لبنان

الحياة كالبصلة يقشّرها المرء وهو يبكي

مثل فرنسي



فاطمة بنت الشيخ أحمد صفا شيخ الطريقة النقشبندية وشيخ حجّاج القازاق في روسيا - وأنا أسميها (ففّم)

الإهداء

إلى أمي



ضياء عزيز ضياء

ولدي..

هذا أنا.. في سطور قد تطول وتتلاحق إذا أتيح لي ما يتاح الآن من بعض الوقت نهاراً أحياناً، وليلاً أحياناً أخرى، وقد تقصُر ويقف بها السبيل. إذا طغت مشاغل الحياة ومتاعبها، ومشاكل ذهني ومساربه على كل ما لديّ من ساعات والنهار، كما يحدث في كثير من الأحيان.

ربما رفَّت على شفتيك ابتسامة حيّة، وأنت تقرأ هذه السطور لتمهّد بها إلى سؤال تتوق إلى أن تسمع مني الإجابة عنه. وهو: ما هي البواعث التي تحملني على الكتابة عن حياتي..؟ تُرى هل هذه الحياة تستحق أن يُكتب عنها فصل أو فصول.. أليست هي مثل حياة الناس جميعاً.. سلسلة متلاحقة الحلقات من الاضطراب على وجه هذه الأرض، والكفاح في سبلها الملتوية. بحثاً عن لقمة العيش، بين الملايين من الذين جاءوا من الطريق نفسه. وسلكوا السبل نفسها. وركضوا لاهثين. وراء الغاية نفسها؟ وماذا في هذا؟.. أيّ جديد فيه يستحق أن يكتب عنه فصل أو فصول؟ أليس الأجدى، أن أستفيد من الوقت الذي أبدده في كتابة هذه الفصول، فأفرغ لعمل من الأعمال الكثيرة، التي يطالبني بأدائها واجبي نحو أسرة ما زالت تتعثّر في طريقها الشائك نحو حياة وادعة كالحياة التي ينعم بها الكثيرون ممن أعرف وتعرف من الناس.. «ترى هل كانت حياتي قط كحياة هؤلاء الذين لمعوا في آفاق العالم الكبير، ثم وجدوا مداخلهم إلى التاريخ؟.. هل بلغ من قوة الصراع الذي أدّعيه مع الحياة – وفي سبيلها – أو من أجل لقمة العيش. في أضيق حدود التعبير، إن كان في يوم ما مثيراً رائعاً. إلى الحد الذي أستحق معه أن أفرغ للكتابة عنه».

وأصارحك يا بني أن هذه الأسئلة قد ظلّت تدور في نفسي وظلّت القدرة على الإجابة عنها حبيسة في أعماقها وقتاً طويلاً، وربما يجب أن أقول دهراً أو عمراً. فقد

أحسست بالباعث على الكتابة عن حياتي، منذ فرغت من كتابة أول قصة قصيرة، نُشرت لي في جريدة صوت الحجاز. كنت يومها شاباً تعبث بمشاعري وخيالي لمسات غامضة الاتجاه والغرض، من نوازع اليفع المجنون وأحلامه المحلقة وراء آفاق. أدرك اليوم بعد أن طويت السبعين، كم كانت بعيدة مترامية الأطراف موحشة، ومع ذلك، كم كانت تبدو قريبة، محددة، واضحة المعالم، غنية بالاحتمالات الواعدة، والفرص المواتية، والسبل المفروشة بالورود والرياحين..

كنت شاباً.. وكانت صوت الحجاز، يوماً تُصْدِرُ أعدادها الأولى من سنتها الأولى.. وقد نشرت لي هذه القصة القصيرة، ولم يبخل محررها يومئذ، أن ينشرها في إطار أرضى غروري، وجعلني أدخل دار الجريدة برأس لا ترى ما يحملها على الانحناء أو الخشوع أو الإحساس بصغر السن، إن لم يكن بضآلة القدر... ووجدت نفسي أمام شخصيات كنت أسمع عنها فأرسم لكل منها صورة في خيالي استمد ألوانها وملامحها من هؤلاء الذين أتيح لي أن أقرأ عنهم أو لهم من أدباء فرنسا وألمانيا. فهذا فولتير، وذلك روسو، والآخر، وقد قيل إنه فيلسوف، فهو إذاً صورة طبق الأصل من غوته... أو لعله أقرب إلى شيلر، كلا لا يشبه نيتشه، فذلك فيلسوف فقط، أما غوته أو شيلر فهما أديبان فيلسوفان... أما أنا، فقد استطعت أن أشق طريقي إلى مجلس هؤلاء «العباقرة» وأن أناقشهم في الأدب والفلسفة والفن. وأن أراهم يصغون إليّ!، ولا يستهجنون رأياً من آرائي، ولا يجدون ضيراً في أن يخلعوا عليّ لقب «الأستاذ»... فإن كل ما يرضي غروري، أن أكون صورة طبق الأصل من... ممن؟...

في هذه الفترة بالذات كنت قد قرأت تاييس لأناتول فرانس للمرة العاشرة على الأقل، بحيث بلغ بي الأمر أن حفظت عن ظهر قلب تلك الكلمات المجنّحة التي ينثرها فرانس في حوار أبطاله... وكان بافنوس في صراعه الرهيب، مع أفاعي الجنس التي تنهش صدره، والذئاب الجائعة في أعماق نفسه.. كان صورة أخّاذة، عبقرية الملامح والألوان لمقدرة فرانس كفنان منطلق لا سبيل إلى أن تقف أمام ريشته أية سدود أو قيود... فأنا يومئذ، صورة من فرانس؟

أنا الشاب، الذي لم يبلغ العشرين، والذي يلتقط غذاءه الثقافي من فتات الموائد الحافلة الكبيرة، كما يلتقط الديك حبات من القمح أو كسرات من الفضلات التي تُلقى في عرض الطريق.. أنا صورة طبق الأصل من أناتول فرانس في أقصى درجات السلّم التي ظلّ يرتقيها واحدة واحدة خلال مرحلة من العمر الطويل، والكفاح المثابر الصابر، والجهد المتواصل الواعي...

وأغرب من هذا... أني لم أكن أكتفي بالتمثّل به - أو التوّهم أني في مستواه، بل كنت أذهب إلى حد المحاولة الطائشة في نقد وتحليل صوره وأفكاره ومعانيه، وحين أخذت أقرأ له «الزنبقة الحمراء» بدا لي، أن إنسانيته التي تجلّت وحلّقت في تاييس قد أخذت تنطوي وتلتف وتندثر في الجو الخاص الذي تدور فيه حوادث الزنبقة، وأن حريته الواعية في تصور تاييس الغانية، ثم تاييس القديسة ، قد جمدت، جمود البلور على الموائد المترفة. وجمود الماس واللؤلؤ على صدور النساء في مآدب العشاء التي يدور حولها حوار الأبطال في الزنبقة...

وما دمت أنا هذا العبقري فلم لا أكتب - بعد القصة القصيرة التي نشرتها جريدة الحجاز- قصة حياتي...

ومرة أخرى... ماذا في حياة ابن العشرين؟ مما يستحق أن يُكتب؟... قد يكون معقولاً أن أجد اليوم بعد السبعين الكثير مما يمكن أن يُكتب أو يُقال عن هذه المرحلة أو تلك من العمر الذاهب... ولكن ماذا لدى ابن العشرين؟

لكن، وفي الواقع أني، بعد هذه الأعوام الطويلة، ما زلت أرى أن في حياتي قبل العشرين ما يمكن أن يملأ فصولاً طويلة.. أو ما يمكن أن أجد فيه عناصر قصص لا قصة واحدة.

هل يدهشك هذا؟

لك أن تُدهَش فإنك لا تدري كم كانت حياتي حافلة بالأحداث قبل العشرين؟... إنك لا تدري مثلاً، أني قضيت طفولة فتحت عينيها على مآسي الحرب العالمية الأولى. فعرفت الكثير الذي لن يتاح لأحد أن يعرفه إلا إذا عاش تلك الفترة من تاريخ البشر. عرفت الرعب الذي لا يملأ القلب فحسب، وإنما يملأ الأحلام لسنين طويلة من العمر. وعرفت اليتم الذي يعلّق عين الطفل بوجه كل رجل يراه، في أمل محموم بأن يكون من يراه هو الأب الذي تؤكد الأم الشابة أنه عائد إلى البيت في الصباح، ثم تعود لتؤكد أنه عائد في الليل... عرفت التشرّد.. في الأزقة والشوارع التي يتساقط على أرصفتها صرعى التيفوس، والتي تتلاحق في عرضها عربات تجرها البغال وقد امتلأت بجثث الموتى.. والتي تزدحم فيها مواكب الجياع.. مئات من الهياكل العظمية لرجال ونساء وأطفال تمشي في الشوارع، بلا حافز، ولا أمل، ولا هدف سوى الحصول على جرايتها من الخبز الأسود... الذي لا يكاد يصل إلى

الأيدي حتى تنهشه أفواه الهياكل العظمية، في نهم رهيب. ما زلت أؤمن كلما تذكرته أن الجوع وحده، يظلّ أخطر أعداء الإنسان... وعرفت المرض الذي كان يهددني بالموت في كل لحظة، ومع هذا لا أجد من يسقيني نهلة الماء، أو من يطرد عن فمي المفتوح الملتهب أسراب الذباب، لأن أمي، وهي أمي.. مشغولة بدفن من يموتون من الأسرة واحداً بعد واحد، خلال أيام.

عرفت الجوع.. الجوع الذي يمزّق الأمعاء، الجوع الذي جعل وجبة الخبز الأسود أشهى وألذّ وجبة تذوقتها حتى اليوم.. الجوع الذي كبرت فقرأت عنه قصصاً وأساطير راعني أنني عشتها حقائق، الجوع الذي يجعل المرء حين يمشي في الشارع أو الزقاق لا ينظر إلى ما حوله أو أمامه وإنما ينظر إلى الأرض وحدها، حيث يتحرّى العثور على كسرة خبز أو حبة فاكهة أو عظمة، فلا يكاد يرى ما يبحث عنه فيركض لالتقاط ما رأى حتى تكون الهياكل العظمية السائرة في الطريق نفسه قد مدت أيديها تتنازع كسرة الخبز، أو حبة الفاكهة العطنة أو العظمة التي زهدت فيها الكلاب. ويبلغ النزاع أو هو الصراع أوجه الأعلى حين تمتد الأيدي التي أخفقت في التقاط هذه اللقمة إلى فم الهيكل العظمي، وإلى شدقيه، وما بين فكيه تستخرج منه ما بقي، ولو أدّى ذلك إلى شق الشدقين وتمزيقهما..

أفلا يستحق هذا أو بعضه، أن أكتب عنه؟

ثم بعد هذه المشاهد – وقبل العشرين – قصص أخرى.

قصة التفتح للحياة، وسط الخرائب والأنقاض... تماماً، كما تتفتح زهرة يتيمة. وسط حقل مهجور... ألم تر هذه الزهرة يوماً ما ونحن نتمشى في الحسينية في مكة، وكانت الأحواض كلها جافة. ليس فيها حتى الأعشاب الطفيلية، التي تنبت عادة، ومع ذلك كانت هناك نبتة واحدة، تتوجّها زهرة نضرة قوية... كنت أنا أيضاً مخلوقاً كهذه الزهرة.. كنت أتفتح على الحياة بقوة، رغم ما يحيط بي من الخرائب، والأنقاض... لماذا يا ترى... وكيف... وماذا بعد ذلك؟

ثم... الحب... الحب... كم كانت هذه الكلمة حلوة الرنين والصدى في نفسي يوم عرفت الحب.

كلا.. لا أعني الحب في مرحلة الشباب... وإنما قبل ذلك في مرحلة الطفولة. أرى كيف تتسع عيناك دهشة... أو استنكاراً... كيف يعرف الطفل الحب؟.. وإني

لأذكر حتى اليوم، كيف اسودَّت الدنيا، وأظلمت في عينيّ، يومٍ سافرت الحبيبة وكيف مشيت وراء القافلة التي تحملها، معولاً ثم وقفت مشدوهاً محترق الجوانح حين غابت القافلة أخيراً عن الأنظار. ثم كيف رجعت إلى البيت بعد الغروب... فلا أعرف للأكل طعماً ولا للنوم سبيلاً... وأظلّ في فراشي الصغير مسهد الجفنيين إلى أن سمعت أذان الفجر... فإذا استيقظت بعد ذلك، وقد فتحت عينيَّ على الحقيقة القاسية المريرة، أخذت في البكاء من جديد...

***

ثم الحرب مرة أخرى.. والجوع مرة أخرى.. والليل الرهيب، تهتز فيه أركان المنزل، كلما أطلقت قلعة سلع في المدينة مدافعها، في اتجاه العوالي وقبا، وعواصف الذعر والهلع كلما قيل إنهم يهجمون، أو إنهم يتقدمون، أو إنهم قد يدخلون...

ولكنا، أنا وأمي، لسنا وحدنا، في هذه المرة، وإنما معنا أطفال.. أختي وأخي. كيف جاءا؟.. ومن أين؟ هذه أيضاً قصة، ولي فيها ذكرياتي الضاحكة.. وذكرياتي الباكية. فيها ليالٍ من الانطواء على النفس، وفي الصدر ما يشبه طعنات الخناجر. وفيها ليالٍ أخرى من الانطلاق، وفي الصدر ما يشبه أمواج البحر توافزاً وتوثباً. ورغبة في الحبِ والحياة...

ثم لفترة ما بعد الحرب ذكرياتها...

***

فترة من الوعي... من الإدراك العميق، لحقيقة الأرض التي أضع عليها قدميَّ.. الأرض الرخوة التي تغوص فيها الأقدام... تغوص، إلى الحد الذي يجعل المرء يشعر بأنه غارق في بحر من الوحل..

***

ثم النضال... المحاولة اللاهثة، للخروج من الأرض الرخوة... للوقوف على أرض صلبة.

***

ثم... حرب أخرى... حرب عالمية... حرب... حرب... ولكن دعني أبدأ قصتي... وتأهّب لتقرأ فصولاً من حياة أعجب ما فيها أنها تافهة وأجمل ما فيها أنها قصة التفاهة، يحياها ألوف من أمثالي الصغار التافهين... الذين لم يتح لهم أن يلمعوا في آفاق العالم

الكبير، ولم يجدوا مداخلهم إلى التاريخ... ليس في حياتهم بطولة أو مجد، أو مغامرات أو مفاجآت، أو إثارة من أي نوع... وإنما فيها، حياة الألوف... والملايين من الصغار التافهين.

أول صباح في حياتي

أول صباح في حياتي... من الذي يستطيع أن يتذكَّر أول صباح في حياته ما دام قد استقبل الحياة ذات يوم، ودرج مع الأحياء يستقبِل معهم الأصباح كما يستقبل الأماسي، ويرفع عينيه إلى النجوم ويبهره القمر، هلالاً، ثم مراحل من استداراته، إلى أن يصبح بدراً...

ولكن أنا... أنا أذكر أول صباح في حياتي... أدركه، ولعله حتى بعد أن أوغلت في طريق العمر، وحتى بعد أن رأيت مئات من سويعات الصباح، في طفولتي وصباي وشبابي، بكل ما عرفت في أيام ذلك الشباب من أفراح ومآسٍ، ومن تغلب على المشاق والمتاعب أو اندحار وتراجع أمام الواقع بكل تَجهّمه وعبوسه... لا أزال أذكر أول صباح في حياتي... وكأنه أول ساعة من عمري.

لا أعرف كم كان لي من العمر، في ذلك الصباح... في تلك الساعة من المسيرة التي رأيت نفسي أبدأها... بل لم أكن أعرف إلى من كنت أنتمي من أولئك الذين كانوا حولي أو كنت أنا حولهم.

كلّهم في ذلك الصباح الباكر، والشمس لا تزال تلتمس سبيلها إلى الغرفة التي وجدتهم يوقظونني فيها... كلّهم يصرخ في وجهي، أن أفتح عينيّ، أن أتحرّك.. وأن أغادر الفراش الذي عرفت - في ذلك الصباح فقط - أني أنام عليه، وإلى جانبي مخلوق صغير مثلي يتعثّر في مشيته، ويصرّ على أن ينهض كلما تعثّرت قدماه، وأن يستأنف المشية المتعثّرة الطائشة وأن يمد يديه ليتناول بهما أي شيء تقع عليه عيناه. وهو غالباً ما يرتفق خاصرة فتاة سوداء تنتقل به من مكان إلى آخر، وتُسكت صراخه المتواصل بمزقة من الشاش تغمسها في الحليب ثم تحشو بها فمه. وفي يدها طرف

هذه المزقة تسحبها من حلقومه كلما بدا لها أنه يكاد يبتلعها... ولم أعرف أن ذلك المخلوق المزعج كان شقيقي إلا في ذلك الصباح...

وما لا يزال يذكّرني بذلك الصباح «حتى اليوم»، رائحة تلك الأكلة التي كانت تملأ أنفي ورئتيّ – وقد عرفت في ما بعد أنها (الحيسة)، تصنع من معجون التمر ومحمّس الدقيق بالسمن... وفي ذلك الصباح فقط عرفت أن التي تصنعها هي أمي، وأن الرجل العجوز الذي خفقني على قفاي، لأكف عن مناداتها ففَمْ وأنا أناديها (أمي)، هو أبوها وجَدّي.

وإن يكن ذلك الصباح هو أول صباح عرفته، ولم أستطع قط أن أنساه، فإني لا أشك أن جميع الذين كانوا حولي ... أمّي وجدي وخالتي والفتاة السوداء، وأخي على خاصرتها، وتلك السوداء الأخرى العجوز التي كانت تقفل الصناديق والغرف بعد أن تكدِّس فيها ما لا حصر له من الأمتعة والأثاث، وتجمع المفاتيح وتنظمها في حبل مجدول من الصوف الأسود، كلهم لو قُدِّر لهم أن يعيشوا حتى اليوم – لما استطاعوا أن ينسوا ذلك الصباح.

مع ذكراي التي لا تنسى عن أول صباح عرفته في حياتي، أذكر أني قد عرفت إلى جانب جدّي الذي خفقني على قفاي... أمّي التي كنت حتى هذه الخفقة لا أعرف إلا أنها ففَّمْ وخالتي الجميلة في ميعة الصبا، وأخي الذي كان يدير ساقيه حول خاصرة الفتاة السوداء، ثم تلك السوداء العجوز الأخرى، التي تكدِّس الأثاث والصناديق في الغرف وتُحكم رتاج أقفالها وتنظم المفاتيح في الحبل المجدول من الصوف الأسود، مع رائحة (الحيسة) التي ملأت خيشومي ورئتيَّ وظلّت تُسيل لعابي من دون أن يؤذن لي بتناول لقمة منها، وقد عرفت وأنا أخرج من المنزل ويدي في يد أمّي تارة، وفي يد خالتي تارة أخرى، وقدْر الحيسة على رأس الفتاة السوداء، وأخي على كتف أمي، وجدّي يحكم إغلاق باب المنزل، والعجوز السوداء تُعول وتبكي وترطن بالتركية كلاماً ترفع معه يديها إلى السماء، وتقف لحظات ثم تتهالك على العتبة... عرفت أن الزقاق الذي يمشون خارجين منه واحداً وراء الآخر، إذ لا يتسع لمشي اثنين في صف واحد، هو زقاق (القفل) من أزقة حي الساحة في المدينة المنوّرة، وإني قد ولدت في ذلك البيت، كما ولدت فيه أمّي وخالتي وعدد من الأخوال يتردد على لسان أمّي اسم واحد منهم، مات بعد أن بلغ العاشرة من العمر. ويصعب عليَّ أن أتذكر كيف وجدت نفسي مع جدّي العجوز وأمي وعلى كتفها أخي، وخالتي تتناول قدْر (الحيسة) من

الفتاة السوداء والدموع تملأ عيون الجميع، ما عدا جدّي الذي رأيته واقفاً على باب عريض ظننته باب بيت تجاوره بيوت كثيرة مفتوحة الأبواب، متشابهة الأشكال، وجميعها بلون واحد، وكل واحد منها قائم على عدد من العجلات الحديد... ولم يطل وقوفنا مع أمّي وخالتي وأخي فقد ملأ الفضاء دويُّ صفارة، التفتّ لأرى على امتداد بصري في اتجاه دوي الصفارة الذي تكرر، دخاناً أسود وجرماً هائلاً أسود أيضاً يملأ الساحة ضجيجاً وجلبة وينفث هذا الدخان الذي بدا لي وكأنه قد حجب ضوء الشمس.

امتدت يد جدّي إلى الفتاة السوداء يتناول منها أخي ويضعه بجانبه ثم عاد يمد يده ليتناولني وقد رفعتني أمّي بين ذراعيها، فيطرحني أرضاً كما يطرح قطعة من متاع، ثم عاد يمد يده ليساعد أمّي وخالتي على الصعود والوقوف إلى جانبه، حيث يقف، وأرى الجميع يبكون، وهم يرون الفتاة السوداء تولول واقفة على الأرض، رافعة بصرها إلى أخي الصغير ومعها خلق كثير ممن عرفت - في ما بعد - أنهم الأصدقاء يودّعون جدّي الشيخ، وأن هذا البيت الذي تسلقوا إليه بمساعدة جدّي، يزدحم، ليس فقط بعشرات من الناس، شيوخاً وشباناً، ورجالاً ونساءً وصبية وأطفالاً، وإنما أيضاً بأكداس من الحقائب والأكياس واللفائف والصناديق إلى جانب كميات من الحطب والفحم والمواقد. والسلال والزنابيل، ومع كل ذلك قدْر «الحيسة» الذي بدا لي أن خالتي هي التي عهد إليها بالمحافظة عليه فكان بين يديها. وقد ألزموها أحد أركان المكان قريباً من النافذة. وإلى جانبها أمّي وعلى صدرها أخي الذي لا أدري كيف التزم الصمت في هذه اللحظات. فلم يكن يصرخ كعادته، ولم يعد فمه محشواً بتلك القطعة من الشاش المغموسة في الحليب، أما أنا، فقد احتضنني جدّي الشيخ واقتعد عدداً من الحقائب تحتي معه بحيث كان يتاح لي أن أرى عبر النافذة المرتفعة تلك الجموع الغفيرة من الخلق تتلاحق وهي تتصايح، وتتزاحم، تتنادى، وفي العيون مع الدموع ما أصبحت أعرف اليوم أنه «جحوظ» واحمرار الرعب والفزع، والإحساس بالتشرّد والضياع الداهمان.

لا أذكر كم مضى من الوقت، فقد غلبني النعاس وأنا في حضن جدّي، ولكني لا أنسى أن زلزالاً عنيفاً قد أيقظني من نعاسي، ففتحت عيني. وأخذت أدير حملاقيَّ في ما لم يسبق أن رأيت مثله قط... فالأرض تمشي... الجبال تمشي، والأشجار الصغيرة المتناثرة هنا وهناك هي أيضاً تمشي. والخلق الذين كانوا يتجمّعون، أمام

عينيّ عندما غلبهما النعاس، قد ابتعدوا إلى الوراء ومَنْ وراءهم عن بعد، كانوا هم أيضاً يمشون من دون أن يحرّكوا أرجلهم... ورفعت بصري إلى جدّي الشيخ، فرأيته ينظر إلى بعيد وفي عينيه، وعلى لحيته يسيل الدمع من عينيه عبرات، وشفتاه تهمسان بالصلاة على النبي وبآيات من القرآن الكريم استطعت أن أحفظ منها لكثرة ما سمعت الشيخ يردّدها في ما بعد: «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد».

لم يكن في وسعي أن أدرك سبباً لهذا الزلزال الذي أيقظني من غفوتي، وتعذر أن أفهم كيف يمكن أن يظلّ هذا البيت الذي أشرف من نافذته واقفاً حيث هو بينما الأرض والأشجار والمباني البعيدة والجبال هي التي تمشي، وإلى الوراء، وأنا أعرف أن المشي إنما يكون دائماً إلى الأمام.

لم أستطع أن أسأل جدّي الشيخ شيئاً. فهذه الدموع التي تملأ عينيه، وتتلألأ على لحيته وتجمد على خديه، تؤكد أنه ليس في حال يستطيع معها أن يتكلّم، أو أن يقول شيئاً سوى هذه الهمسات التي تتلاحق من شفتيه بالصلاة على النبي وبما يتلو من آيات من القرآن الكريم.

التفت إلى ذلك الركن الذي التزَمتْه خالتي وإلى جانبها أمّي وبينهما «قدْر الحيسة» وتململت في حضن جدّي بحيث استطعت أن الفت انتباهه إليّ، ولم تغب عن الشيخ رغبتي في الذهاب إلى حيث تجلس أمّي وخالتي فرفعني بين ذراعيه، ودلاني إلى أن لامست قدماي الأرض، فانطلقت أعدو إليهما ورأيت أخي مستغرقاً في النوم في حضن أمّي تحت ملاءتها، ورأيت الحجابين المسدلين على وجه أمّي وخالتي مبللين. وفي يد كل منهما منديل، تدسه أسفل الحجابين فترقآن به ما تفيض به عيونهما من عبرات.

لم أفهم ما الذي يُبكي هذا الجد، وهو الذي كان لا يكاد يطأ عتبة المنزل حتى يخفت كل صوت وتتلاشى كل نأمة، خوفاً من عكازه وتحسباً لحرصه على ألا يسمع الجيران صوت النساء في منزله، ثم ما الذي يبكي أمّي وخالتي؟ وجال في ذهني الصغير أن شيئاً ما يحدث في هذه اللحظات، وفي هذا الذي آوينا إليه مع كل هؤلاء الناس، وفوق ما تراكم من الأمتعة والحقائب واللفائف والصناديق. ومع أن خيالي بدأ يتصور حالة من الرعب تسيطر على الجميع، ووجدت نفسي أيضاً أصرخ باكياً، فقد سطعت رائحة الحيسة في القدْر بين أمّي وخالتي وأحسست لذعة الجوع، إذْ لم

أتبلغ لقمة من طعام منذ أيقظوني في ذلك الصباح ومع ذلك لم أجرؤ على أن أطلب شيئاً. وأنا أرى هذا البكاء... فتذرّعت بالصبر واقتربت من حضن خالتي فضمتني إلى صدرها، وأضجعتني على فخذيها.. وتركت يدها الناعمة تمر على جبهتي فاستغرقت في نوم عميق..

لا أدري إن كان نومي في حضن خالتي قد طال أم قصر، فقد سمعت أمّي وخالتي توقظاني، وفتحت عينيّ وجلست لأرى جدّي أيضاً، وأخي على صدر أمي، وقد تحلّق الجميع حول قطعة من قماش عليها قدْر الحيسة وطبق من الجبن وكسر من أرغفة الخبز وإلى جانب الشيخ إبريق يسكب منه الشاي لأمي وخالتي ويخرج لكل منهما قطعة من السكر وهو لا يزال يهمس بالصلاة على النبي وبتلك الآية من القرآن. وكنت جائعاً، واشتهيت أن أمد يدي وأن أقتطع ما أشاء من قدر الحيسة التي ما زلت مشغولاً باشتهائها منذ رأيت أمّي تصنعها، عندما أيقظوني في الفجر. ولكن الشيخ كان هناك وقد تعود ألا يسمح للصغير بأن يمد يده إلى شيء وأن أنتظر ليعطيني هو أو أمّي أو خالتي نصيبي من أي لون من ألوان الطعام. لم يطل انتظاري فقد امتدت يد جدّي إلى القدر بملعقة ملأها ثم وضعها في طبقه ثم ثانية وثالثة، ثم بقطعة سخية من الجبن، وبجزء من رغيف من خبز الحنطة وزاد على كل ذلك أن ملأ كوباً من الشاي وضع فيه قطعة السكر...

مع أن جوعي كان أشد من أن يجعلني التفت إلى شيء مما هو حولي فقد رأيت أن الركن الذي تحلقوا فيه قد أحيط بستارة من قماش تحجب عنهم أنظار الآخرين، وأن أمّي وخالتي قد أزاحتا عن وجهيهما حجابيهما، والأهم من كل ذلك أن هذا المكان الذي أصبحوا يجلسون فيه ويتناولون طعامهم كما كانوا يتناولونه وهم في منزلهم الذي خرجوا منه في ذلك الصباح، ولا يكف عن الاهتزاز والتأرجح مع هذه الضجة التي تصم الآذان.

قطع الشيخ همسه بالتلاوة ليقول:

سوف لن يبقى في المدينة أحد... هكذا أمر الباشا وقد سمعت أنه لم يأمر بإخلاء المدينة إلا بعد أن استأذن السلطان.

وسمعت أمّي تقول:

لكن العم محمد سعيد، ومعه زوجته الخالة فاطمة، والعم عبدالقيوم وزوجته

«خاتون»... رفضوا أن يسافروا وهم لا يزالون في بيوتهم.

ورأيت جدّي يضحك ساخراً وهو يقول:

لا يستطيع الباشا إكراههم على السفر. ولكن من أين يأكلون؟

سوف لن يجدوا ما يأكلونه، بعد أقل من شهر... كل الأكل سيوفر للعكسر...

وقالت أمي:

- حسناً... ولكن نحن وهؤلاء الذين يسافرون معنا، إلى أين نذهب؟

- إلى الشام بالطبع... قلت لكم هذا منذ أكثر من شهر..

سألت خالتي:

- وهل سنجد عبدالغني في الشام؟

ضحك الشيخ ضحكته الساخرة... وقال:

- عبدالغني؟... لست أدري أين يكون؟ لا أظنه يختلف عن زاهد.

سافر هذا ليعود بعد ثلاثة شهور وقد انقطعت أخباره وها هو ابنه قد بلغ الرابعة - ولم نتلق عنه أي خبر... وزوجناك أنت من عبدالغني... قلنا هو أيضاً ابن عمك من لحمنا ودمنا، وقد سافر ولم يصلنا منه شيء.

وقالت أمي:

- ربما يكون قد استشهد في الحرب... إننا نسمع من الذين كانوا يقدمون إلى المدينة بهذا (البابور) أن الذين استشهدوا كثيرون.

استشهدوا؟؟؟... حبذا لو صدق ظنك فليس أحب عند الله من أن يستشهد المسلم، وهو يجاهد الكفار في هذه الحرب... ولكن زاهد سافر إلى روسيا ليجمع من المسلمين فيها هذه الأموال التي اعتزموا أن يؤسسوا بها الجامعة الاسلامية، والأرجح أنه لا يزال هناك ولن نراه قبل أن تنتهي هذه الحرب التي أغلقت الطرق... وأرسل ضحكة ساخرة قصيرة خافتة وهو يرتشف آخر ما في كوبه من الشاي، ثم قال:

أما عبدالغني... لكم عارضت في زواجه من خديجة ولكنه النصيب، وإصرار أمكم حميدة يرحمها الله، لأنه من أبناء قبيلتها. وأخرج من جيب في صدره منديلاً كبيراً مسح به فمه، ثم قال:

- لا شك أننا سنجده في الشام، سيأتي من يقول لنا إنه...

ثم التزم الشيخ الصمت. وهو يغمر خديجة بنظرة إشفاق اكتفى بها عن أن يفضي بما في نفسه عن زوجها من شكوك وظنون. وحين أخذت أمّي تجمع الأطباق وأكواب الشاي والملاعق واحتضنت خالتي أخي على صدرها، نهض الشيخ عن المائدة وارتفق يدي إلى مكاني معه على الحقائب، أمام النافذة حيث عاد إلى التلاوة والصلاة على النبي. وإلى تلك النظرة الشاردة في الصحراء تتلاحق في أفقها البعيد سلاسل الجبال، في ألوانها الزرق الداكنة، أو الحمر الشاحبة، تحجبها نتف من السحاب، فيغيب بعضها وتتلامح قمم بعضها ناهدة كأنها تدعو عشاقها في عالم ما وراء الأبد السحيق.

رحلتنا بـ«البابور» من المدينة إلى دمشق

لا بدّ لي اليوم من أن أبدّد بما يسعني من العناء ما تراكم على ذاكرتي من غبار الألم، لأرى نفسي، ويدي في يد جدّي الشيخ، في دوامة من تزاحم كثير من الناس يتجهون لاهثين، نحو ذلك السوق المسقوف هرباً من زخات المطر، كانت قطرات ماء، ثم لم تلبث أن استحالت إلى حجارة بيض شفافة، عرفت حين رجعت إلى المنزل أن اسمها (بَرَد). وقال الشيخ وهو يحدث ابنتيه عن هذا البرد، إنه غضب من الله، إذ لم يسبق أن رأى منه في مثل هذا الحجم الذي زخت به السماء الناس في ذلك اليوم، وسمعت أمّي وخالتي ترددان: (يا لطيف).

ولا يكاد جدّي يفرغ من حديثه حتى يقف على السجادة التي بسطتها أمّي ويأخذ في صلاة خاشعة، تحرص أمّي ومعها خالتي على أن يسود خلالها صمت مطبق، مما يضطرهما إلى أن تبتعد إحداهما بأخي إلى خارج الغرفة بينما تقوم الأخرى بإعداد وجبة العشاء.

على المائدة وقد تحلّق حولها جدّي وأمي وخالتي وفي حضنها أخي وقد استغرق في النوم. سمعت مرة أخرى حديث الشيخ عن (البابور) الذي قال إنهم سيسافرون به بعد يومين إلى (حماه). لم أفرح بشيء فرحتي بهذا الخبر، إذ لم أنس بعد، ما كانت تحفل به الرحلة من المدينة بهذا (البابور) من متع ومباهج، أهمها أو ما لن أنساه منها ذلك العدد الكبير من الأطفال الذين كان يؤذن لي أن ألهو معهم طيلة الرحلة، وعلى الخصوص حين يقال إن البابور قد وصل إحدى المحطات وإنه يطيل الوقوف، فليس ما يمنع أن ينصرف الكبار إلى قضاء حوائجهم، بينما ينصرف الصغار إلى اللعب حيث هم في العربة، بين الصناديق والحقائب والسلال، أو على أكوام الرمل والحصى التي يجدونها أمامهم حين يأذن لهم الكبار ويساعدونهم على الهبوط من العربة إلى الأرض. ثم هناك ما لا يقل أهمية عندي من اللعب مع الأطفال، وهو تلك

(الحيسة) التي لم أعد أرى شيئاً منها على المائدة منذ غادرنا القطار، وحتى الآن ونحن متحلقون حول هذه المائدة، لا أرى أثراً لهذه (الحيسة) التي أيقنت أنها ستعود إلى الظهور عندما نسافر بالبابور بعد يومين.

التفت جدّي نحو خالتي خديجة، وقال لها إنه لم يجد لزوجها عبدالغني في الشام أثراً، ولكن قيل له إنه كان هنا، منذ أسبوعين ويرجح أنه هو أيضاً قد سافر إلى حلب. أما زاهد فلم يسمع عنه أحد شيئاً، وأكد وهو يلقي نظرة عليّ ويمسح رأسي بيده، أن الطريق من أوديسا إلى استامبول مغلق، ثم قال:

«اسمعي يا فاطمة... هاتي ذلك الكيس فقد جمعت فيه كل ما اشتريته من ملابس وأحذية».

نهضت أمّي وجاءت بالكيس من ركن الغرفة ووضعته بين يدي الشيخ، وجلست إلى جانبه تساعده على إخراج ما فيه، وقبل أن يفرغ ما في الكيس قال:

«لا تنزعجي... غداً سأشتري حذاء للصغير أيضاً، ولست أدري كيف نسيته اليوم ونحن في سوق الحميدية... لا شك أنها الأمطار والزحام الشديد قد أنسياني كل شيء، إلا أن أمسك بيد أخيه إذ لو أفلت مني لضاع، ومن يدري فقد تنقطع أخباره كما انقطعت أخبار أبيه منذ سافر حتى اليوم».

ما أخذ جدّي يخرجه من الكيس كان أشياء كثيرة عرفت أنها أكسية وأحذية للبرد، فرحت بها أمي، كما فرحت خالتي، فأخذت كل منهما تجرب الثياب والمعطف علي وعلى أخي.

بعد أن جمعت أمّي ما انتثر في الغرفة من هذه الأشياء رأيتها تنهض وتنحني على يد الشيخ تقبلها وتتبعها خالتي ورأيت الشيخ يحتضنهما معاً بعينين دامعتين وأنا أنظر إليه ولا أفهم ما الذي يبكيه.

وأذكر في ما أذكره عن سوق الحميدية في دمشق الذي اشترى منه جدّي تلك الملابس والأحذية، أنه سوق طويل جداً والدكاكين على جانبيه والناس يتزاحمون فيه إلى حد يصعب فيه المشي ويدي في يد جدّي، ولا أنسى ما ظلّ يعانيه الشيخ بعد أن امتلأ الكيس بما ظلّ يشتريه من دكان على هذا الجانب ومن دكان ثان على الجانب الآخر.. كان الكيس ثقيلاً يحمله الشيخ بيد واحدة بينما الأخرى تمسك بيدي أنا... إلى أن خرجنا من السوق حيث ظللنا نخوض في أوحال الشارع، تحت زخات عنيفة

من المطر والبَرَدِ تبرق معها السماء وترعد إبراقاً وإرعاداً ظلّت ذكراهما تعود إلى ذهني في كل مرة أرى فيها البرق أو أسمع الرعد طيلة أيام العمر.

استوقف الشيخ عربة يجرها حصان، عرفت في ما بعد أن اسمها (فيتون) رمى فيها الكيس الذي يحمله، ثم ساعدني على الصعود إلى مقعدها وما كاد يجلس إلى جانبي حتى أخرج من جيب ثوبه الفضفاض منديلاً راح يمسح به وجهي ورأسي ثم يضمني إليه وهو يقول: برد... برد شديد... أليس كذلك؟

وانطلقت العربة بنا في طريق طويل، والمطر لا يزال ينهمر، والناس يتراكضون تحت زخاته إلى الأرصفة، على الجانبين، ويتجمعون تحت مظلّات الدكاكين، وظللت أنا وادعاً على صدر جدّي وقد أغراني الدفء بأن أهجع وأنا أرمق الطريق بعينين يراودهما النعاس لكني وجدت نفسي أفتحهما، متنبهاً وأنا أرى صفوفاً من الجند تسير، وعلى أكتافهم هذه الأشياء التي عرفت في ما بعد أنها البنادق، يطلقون منها قذائف تخترق أجساد الناس فتقتلهم ،كما عرفت أن لانطلاق هذه القذائف من البنادق أصواتاً مفزعة يسمعها الناس فيعرفون أن الحرب لا تزال تدور، وفي الحرب يموت هؤلاء الجنود، كما يموت أولئك الذين يطلقون عليهم القذائف القاتلة من بعيد.

بعد مرور صفوف الجند، واصلت العربة سيرها في شارع آخر على شاطئ نهر على ضفته المقابلة شارع آخر يمشي فيه الناس ويتراكضون تحت المطر الذي لا ينقطع فترة حتى يعود فينهمر.

كما تمشي فيه عربات، ولكن من دون أن يجرها حصان كالعربة التي تنطلق في الشارع الطويل... وقبل أن أسأل جدّي كيف تمشي هذه العربات، ظهرت عربة يجرها حصانان، ويقودها جندي... عربة طويلة مكشوفة، أعجب ما تحمله تلك الجثث.. جثث آدميين تتدلى رؤوس بعضهم من نهاية العربة... أفواههم مفتوحة يتطاير أو يتجمع حولها ذباب كثير... وعيونهم.. مفتوحة أيضاً جامدة لا تتحرك... وإلى جانب هذه الرؤوس أقدام زرق، أو سود تتدلى وتهتز معها هذه الرؤوس.. ولا أدري لِمَ إرتعبت، وكدت أصرخ وأنا أشدد من انضمامي إلى صدر جدّي الذي رأيته يضع كفه على فمه وأنفه وهو يردِّد: (إنّا لله وإنّا إليه راجعون)، لم لا تكاد العربة تتقدم حتى يرفع يديه، ويقرأ (الحمدلله رب العالمين...).

***

حين فتحت عينيّ في الليل رأيت وجه أمّي منحنية عليّ، وهي في ملاءتها التي لا ترتديها إلا حين تخرج إلى الشارع وفي يدها ذلك المعطف الذي اشتراه لي جدّي من السوق الطويل... عرفت أنها تستعجلني أن أستيقظ وأن أرتدي هذا المعطف... كانت قد ألبستني وأنا نائم الحذاء الأسود اللامع الجديد... وكان ذلك المصباح الصغير المعلق على الجدار لا يزال يضيء جوانب الغرفة المظلّمة... فإلى أين تريد أن تذهب بي والدنيا ليل؟

أين يا ترى خالتي وجدّي وأخي؟... ولكن ما لبثت أن سمعت خالتي تسعل وصوت أخي يبكي... إنهم مع جدّي في غرفة أخرى... كلهم مستيقظون في الليل... وحين مشيت أتقدم أمّي خارجاً إلى الغرفة أدركت أنهم يتأهبون للخروج... كان جدّي هناك في ركن الغرفة جالساً على سجادة الصلاة وبين يديه ما أعرف الآن أنه القرآن، يقرأه كلما فرغ من الصلاة، كما تقرأه أمّي وخالتي أحياناً... وعلى الرفّ في الجدار مصباح كبير يلقي ضوءه على عدد من الحقائب ومعها تلك السلة الكبيرة التي كانوا يخرجون منها الطعام وقدر الحيسة في أيام رحلتنا بـ"البابور".

فهو إذاً (البابور) مرة أخرى... وهو أولئك الأطفال الذين كنت ألعب معهم كلما وقف، أو حتى وهو منطلق... سأجدهم أخيراً، وسألعب معهم بين الحقائب والسلال والصناديق... وسيأخذني جدّي في حضنه لنرى من النافذة الجبال البعيدة وقطعان الماشية، وقوافل الجمال... وأولئك الناس الذين أجدهم واقفين، وفي أيديهم أطباق أو سلال، يعرضون فيها أطعمة وفواكه منها التمر والبيض، والطماطم.. يشتري منها ركاب البابور، ويشتري منها جدّي، ليعطيني أنا أولاً، ثم يوزع بقية ما في يده على أمّي وخالتي وأخي فإذا رأى أطفالاً ينظرون إلى ما يوزع، يناديهم ويعطيهم وهو يبتسم ويمسح بيده رؤوسهم أو وجناتهم.. ثم يدير وجهه إلى النافذة وأسمعه يتنهد... ويهمس (يا رب).

لا أنسى كيف ظللنا واقفين جميعاً في دهليز البيت، مع الرجل الغريب الذي لا أدري من أين جاء؟ ولماذا يتشاجر مع جدّي شجاراً انطفأت خلاله تلك الشعلة الموضوعة في حفرة في الجدار، فاشتدّ صراخ الرجل الغريب واشتدّ معه صياح جدّي واختلط معهما بكاء وعويل أخي الصغير، والكل في ظلّام دامس مخيف وأنا واقف، ويدي في يد خالتي التي التزمت مع أمّي الصمت. وانتهى الموقف عندما سمعنا الباب يطرق بعنف، وحين فتح، تسلل إلى الدهليز ضوء الفجر ورأيت جندياً

يسأل عن اسم جدّي، ثم لا يكاد يراه حتى يقدم إليه غلافاً، ثم يصافحه متودّداً ولا يكاد يبتعد عن عتبة الباب حتى تظهر عربة (الفيتون) واقفة، ويهبط السائق عن مقعده فيها ويتقدم إلى جدّي، ويسرع في حمل الحقائب والسلال ليضعها في العربة ويلتفت جدّي إلى الرجل الغريب الذي كان يتشاجر معه، فإذا هو أيضاً يتودّد إليه ويعانقه، ويسرع إلى حمل ما تبقى في الدهليز من الأغراض.

وما كدت أستقر في حضن جدّي في عربة أخرى مع أمّي وخالتي وأخي حتى استغرقت في النوم لم أستيقظ منه إلا عندما كان جدّي يدخلني عربة (البابور).

لكن حين جال بصري هنا وهناك لم أر أولئك الأطفال الذين كنت ألعب معهم إلى أن وصلنا الشام.. والأهم من ذلك، لم أر بين الحقائب والصناديق والسلال أي أثر لقدر (الحيسة) الحبيب... وجدّي الذي كان يجلس على الصناديق إلى النافذة ويجلسني معه لأرى عبرها المناظر والناس كان في هذه المرة جالساً على الأرض، وأدهشني أن أرى عدداً من الرجال والنساء قد جلسوا على صناديق وزكائب، بحيث كانت رؤوسهم تكاد تلامس السقف. ثم ليس هناك ذلك الحاجز الذي يفصل بين الساحة التي يجلس فيها جدّي مع أمّي وخالتي، وبين غيرهم من الموجودين في القطار، ولذلك فقد جلس جدّي - وأنا في حضنه كالمعتاد - بحيث يفصل هو بين أمّي وخالتي وبين رجال ونساء أسدلن على وجوههن الأحجبة السود، وأمام بعضهن أو في أحضانهن الأطفال لا يكفون عن البكاء ومعهم أخي في حضن خالتي، يصرخ هو أيضاً وقد غمرت وجهه الصغير الدموع، ويزداد صراخه كلما انتهرته أمّي ودفعت يده عن صدرها. حين يحال أن يصل إليه.

ارتفع صوت صفارة القطار أخيراً، وأنا أعرف الآن أنه سيمشي، وأن هناك على الأرض أولئك الناس الذين يقفون وفي عيونهم الدموع ومعهم آخرون يحملون ما يبيعونه من الفواكه والحلوى، ولكني في هذه المرة لا أراهم، ولا أرى كيف يظلّون واقفين، ولكنهم مع ذلك يمشون ويمشي معهم كل ما تقع عليه العين، حتى الأشجار والجبال، إنني الآن في حضن جدّي وحوله هؤلاء الناس الذين جلسوا على أرض العربة وإلى جانبهم أو حولهم الحقائب والصناديق والسلال. ومرة أخرى لم أنس أنني لا أرى أثراً لقدر (الحيسة)... بل ولا أرى أثراً لإبريق الشاي، فلا أمل في أن نأكل شيئاً كما اعتدنا أن نفعل في مثل هذا الوقت من الصباح.

مشى القطار بعد أن أغلق أحدهم الباب العريض في الوسط، وارتفع ضجيجه وهديره وضاع معه صراخ الأطفال، وبدأ كل شيء يهتز ويرتعد. أخذت همهمة جدّي تتلاحق كالعادة بما يتلوه من أدعية وأذكار، واستغرقت أنا في نوم عميق لا أدري كم طال، حين أحسست بأن جدّي يزيحني عن حضنه وينهض مسرعاً ويفتح صندوقاً صغيراً يحرص على أن يظلّ في متناول يده، ليخرج زجاجة صغيرة يأخذها في يده ثم يشرع في التحرك متجهاً إلى الجهة المقابلة حيث كان الجميع يلتفتون وفي عيونهم تساؤل وقلق، وبعضهم يردِّد (لا حول ولا قوة إلا بالله)... وآخرون يقولون (قد تموت قبل أن نصل)... ويعلق آخر: (لو ماتت قبل أن نصل، فلا بد أننا كلنا (نتكرتن)).

لم أفهم شيئاً... أكثر من أنها قد تموت وأنا أعرف أن التي تموت، لا بد أن تؤخذ إلى مكان بعيد، لا أدري أين هو؟ ولكنهم قالوا لي إنه الجنة... وأن الجنة مكان طيب فيه أشجار، وأزهار، ومياه، وعصافير... هذا ما سمعته عندما قالوا إن جدتي حميدة قد ماتت، وحملوها إلى ذلك المكان البعيد.

وقفت ورأيت جدّي يشق طريقه إلى حيث انحنى رجلان وامرأة وطفلة على امرأة ملقاة على الأرض.

وسمعت أمّي تقول لخالتي: يا لطيف... كثيرون ماتوا في الشام... يقولون إنه مرض لا يدخل بيتاً إلا ويأخذ أكبر عدد من العائلة.

ورددت خالتي: (يا لطيف...).

رأيت جدّي يعود بعد قليل إلى مكانه مبتسماً، وهو يقول: «الحمد لله ليس بها شيء... مجرد (دوخة) يظهر أنها حامل، وقد تعبت من السفر»... ثم بعد لحظات سمعت أمّي تهمس في أذن خالتي:

«وأنتي... عساك طيبة يا خديجة».

«الحمدلله».

قالتها خديجة وهي تتنهّد، ثم حنت رأسها على أخي في حضنها وضمّته إلى صدرها، وردّدت:

«الحمدلله»...

سرحت بخيال الطفل في هذه الجنة التي أسمع عنها كلما طرأت ذكرى الأموات. وعجبت في نفسي وتساءلت لِمَ لا يذهب كل الناس إليها؟... لماذا يتركون الموتى هناك وحدهم ويعودون... وجدتي حميدة التي أذكر أنهم حملوها إلى ذلك المكان

البعيد... إلى الجنة كما ظلّوا يقولون لي كلما سألت عنها، ترى كيف لم تصحب معها (الشيشة) وأنا لن أنسى أني تسببت في ميَلانها وسقوطها وبعثرة قطع الجمر على الأرض عندما رميت بنفسي بين ذراعَيْ جدَّتي في الديوان...

من الشام إلى حماة بحثاً عن أبي وزوج خالتي

أكاد لا أذكر اليوم عن الرحلة من دمشق إلى حماة شيئاً ذا بال إلا (الفيتون) الذي ارتفقناه من المحطة إلى بيت الصابوني. كان سائقه رجلاً تركياً أو يعرف اللغة التركية.. ولا أدري كيف تعرف جَدّي عليه أو تعرف هو على جدي.. فهمت في ما بعد أن الفيتون «عربة خاصة» يملكها بيت الصابوني، إذ كنت كثيراً ما أراه يقف عند باب ذلك البيت الذي وجدنا أنفسنا مع جدّي نعيش في غرفتين منه تقعان في فناء واسع تتوسطه حديقة صغيرة.. ولكل من الغرفتين نافذة تطل على هذه الحديقة..

هناك غرف في هذا الفناء يعيش فيها آخرون، عرفت مع الأيام أنهم أفراد أسرة الصابوني من رجال وشبان ونساء عجائز وشابات، كما عرفت من تنبيهات جدّي على أمّي وخالتي بملاحظة تصرفاتي بالذات، ولأننا ضيوف على أهل هذا البيت، فلا بد من الهدوء وعدم إزعاج أحد.

لا أذكر كم مضى من الزمن ونحن ضيوف. ولكني لا أنسى ذلك الشيخ الوقور الذي عرفت أن أسمه (الحاج بشير). كنت أراه يدخل البيت مع غروب الشمس، فلا يكاد يخطو بضع خطوات في الفناء حتى يتوافد لاستقباله الشبان والفتيات والأطفال من أسرته.. يقبلون يده ويربت هو على أكتافهم، ويحتضن الأطفال ويضاحكهم... ثم يلتفت إلى ابنته الكبرى ويسأل:

«هل الشيخ موجود؟».

الشيخ هو جدي.. فلا يكاد يسمع منها أنه عاد بعد صلاة العصر حتى يسرع إلى الغرفة التي خصصت له من الغرفتين حيث يقف جدّي لاستقباله... يجلسان فترة يسبّحان أو يتبادلان أحاديث قصيرة خافتة، ثم ارى الشيخين ينهضان بعدها لصلاة

المغرب جماعة يؤمّها الحاج بشير، ويحضرها جميع الشبان والذكور من الأطفال، فإذا فرغ الشيخان من الصلاة، وأشعل المصباح ذو الزجاجة الطويلة والفتيلتين يخرج الجميع من الغرفة، ولا يدخلها أحد على الشيخين إلا عند صلاة العشاء، وبعد أدائها، ينتقل الجميع إلى غرفة أخرى لتناول وجبة العشاء.

من أهم الأطباق التي لا أزال أشتهيها حتى اليوم وقد عرفتها في ذلك البيت هو طبق «الكبة» بأنواعها المختلفة الكثيرة و(المغمومة) و(داود باشا)، ومن وجبات الصباح التي لا أنساها تلك الكرات السمر التي يسمونها (شنكليش) واللبنة (والدبس) وزيت الزيتون.

ظللت لا أدري شيئاً عن العلاقة بين بيت الصابوني في حماة وبين جدّي القادم مع أسرته من المدينة المنوّرة. لم يكن في ذهني في تلك السن خلفيات تمكنني من تفسير ما يدور حولي والحوار الذي أسمعه وأصغي إليه يدور أحياناً بين أمّي وخالتي أو بينهما من جانب وبين جدّي من جانب آخر، كان بالنسبة لي ألغازاً، لم أعن أو لم أجد ضرورة لحلها.. لقد سمعت كلاماً قاله جدّي عن «الباشا» في المدينة، ثم عن «السلطان» في استامبول، وعن أن على أهل المدينة - ونحن منهم - أن يسافروا إلى الشام، لأنهم لن يجدوا ما يأكلونه، وأن كل الموجود من الأغذية محجوز «للعسكر». وقد سمعت كلمة «الحرب» تتردّد على ألسنة الناس، وأنها السبب في ركوب «البابور» من المدينة إلى الشام. ولكن هذا والكثير من أمثاله، لم يستوقف ذهني قط... إذ لم يكن عليَّ أنا، إلا أن أسلّم يدي إلى يد جدّي وانطلق معه حيثما يتجه منذ يخرج من المنزل إلى أن يعود، وأن أطيع كل أمر أسمعه من أمّي أو من خالتي أو حتى من هؤلاء الذين يحدث أن يتواجدوا معنا سواء في «البابور» أو في الشوارع أو بيت الصابوني ما داموا هم «الكبار».. كانت حكاية طاعة الكبار هذه ترسخ في نفسي بتوجيه كثيراً ما يكون شرساً وغاضباً إذا لاحظت أمي، أن واحداً، أو واحدة من هؤلاء الكبار قد طلب مني شيئاً فتجاهلته أو غفلت عنه...

مع هذا الركام من الغفلة أو البلاهة أو عدم التوقف عند الكثير من التصرفات حولي... كان الغريب حقاً أن كلمتيْ «الباشا» والسلطان ظلّتا تأكلان صدري، فأيّ شيء هذا الباشا يا ترى؟ وأي شيء هو السلطان؟ لعلي لم أحاول أن أكوّن صورة للسلطان في ذهني ولكن لا شك أبداً في أني قد كونت لـ«الباشا» صورة ظلّت تظهر كلما طرق سمعي كلام عن الباشا - أيُّ باشا - ليس فقط في مرحلة الطفولة

والترحال أو التشرّد هذه وإنما أيضاً بعد ذلك، إلى أن بلغت مرحلة الشباب. كانت أهم ملامح الصورة هي «الضخامة» و«الأبهة» والمهابة، وربما القوة التي ليس قبلها ولا بعدها قوة.. ومنطق هذا التكوين - على الأرجح - هو كثرة ما ظللت أسمعه عنه في «البابور» أولاً ثم بعد ذلك كلما دار حوار بين جدّي وأمي، أو بين أحدهما وبين إنسان آخر.. فهو الذي أمر الناس بالخروج من المدينة، وهو الذي يملك هذا «البابور» بكل ما يحمله من البشر وبكل ما يحدثه من ضوضاء تصم الآذان، بل بكل ما ينفثه من دخان أسود رهيب يحجب السماء، ثم بتلك الصيحة أو الصرخة التي تملأ الدنيا عندما يتأهّب للحركة على تلك العجلات من الحديد تنزلق أو تدور على قضبان من الحديد أيضاً.. فلا تكاد هذه الصرخة تدوّي حتى يتقاذف الناس من مواقعهم خارجه متزاحمين على العودة إليه.. فإذا تحرك، فلا صوت ولا نأمة إلا هديره هو، ولا حركة لأي مخلوق من الركاب في داخله، وقد جلسوا على الحقائب والصناديق والزكائب - ومع الهدير المتواصل صراخ الأطفال وقد أفزعهم الهدير، ولم يجدوا مأمنهم حتى وهم على صدور الأمهات أو على أكتاف الآباء. فالمخلوق الذي يملك هذا البابور الرهيب، ويملك أن يحشر الناس فيه من المدينة، ثم من دمشق ومنها إلى حماة، وبعد ذلك إلى ما يظلّ علمه عند الله من البلدان والمدن، هذا المخلوق هو «الباشا» لا بد أن يكون - في تصوّري - رجلاً بالغ الضخامة، بالغ الرهبة، إلى الحد الذي يجمد القدرة على المقارنة بينه وبين أي رجل أو مخلوق سواه.

لا أعتقد أن القارئ، يتوقّع أو حتى يتوهّم أني بعد هذه الرحلة الطويلة في قفار الزمن وفيافيه أستطيع أن أتذكر كم ظللنا نقيم ضيوفاً في بيت الصابوني في حماة، ولكني أتذكر اليوم الذي سمعت فيه جدي يقول لأمي، إنه قد وجد بيتاً ننتقل إليه، ويضيف بالتركية كلاماً لم أفهم منه شيئاً، ولكني رأيت كيف تترقرق في وجه أمّي ابتسامة عبّرت عنها فرحتها أو امتنانها، ثم رأيتها تسرع إلى خالتي، وكأنها تبشّرها بأننا سننتقل إلى بيتنا..

كانت خالتي في أواخر شهور حملها.. وقد استقبلت البشرى بأسارير نمّت عن فرحتها هي أيضاً، ولكن الفرحة عجزت عن إخفاء إعيائها وتأخر صحتها وذبول نضرتها... وسمعتها تسأل أمي، وهي تسعل سعلتها الخفيفة التي تكاد لا تسمع:

- متى يا ترى ننتقل؟

– خلاص يمكن بعد ثلاثة أيام... بس لما أروح مع أبويا السوق، عشان نشتري مفارش أو حنابل هندية ومراتب للنوم ومخدّات، ولوازم المطبخ.

– طيّب... لكن أنت شفتي هادا البيت؟

– لا... لسه. رايحة أشوفه اليوم.. لكن أبويا «قالوا» إنو قريب من «العاصي» وفيه أربعة «أوضات».. وحدة منها كبيرة للضيوف.. ووحدة لو هوّه.. وكمان يا خديجة أبشرك البيت فيه «بخشه» صغيرة.. وبير مويه حلوة... و«طرنبه» نشغّلها بيدنا زي هاديك اللّي في بستاننا في «العنبرية» في المدينة.

– لا تفكريني يا أستيته بالمدينة... أنا لما باسمع في الليل صوت اللّي بيسموها «الناعورة» هنا، باتذكر السواني اللّي في «بلدان المدينة»... صوت السواني... متى؟ متى يا ربي، نرجع المدينة ونسمعه؟

– فرج الله قريب يا خديجة... أبويا «قالوا» كلها يمكن سنة ولاّ سبعة أشهر وتخلص هادي الحرب... بالله قولي يا خديجة؟؟ ربنا ينصر المسلمين على النصارى والكفار.

– يا رب... ويرجع زاهد، ويرجع عبدالغني.

– هوّه أنا ما قلت لك؟... أبويا «قالوا» إنهم سمعوا أنو عبدالغني في حلب.

– في حلب؟... وفين حلب هادي؟

– أنا كمان ما أدري فين حلب.. لكن أبويا «قالوا» إنهم كتبوا له «مكتوب» ولازم إذا استلم المكتوب، يكتب هوه كمان مكتوب يخبرنا عن أحواله.

– بس يا ترى ليه راح حلب؟

– عشان يا خديجة... عشان هو رجّال وشباب، والسلطان يبغا الشباب كلهم يكونوا معاه عشان ربنا ينصره على النصارى والكفار.

– يعني عبدالغني صار من عسكر السلطان؟

– لا.. ما هو عسكري.. لكن إنتي عارفة أنو يفهم في شغل «البابور»... لا بد أنو بيشتغل في البابور.

– أنا باسمع صفَّيرة البابور وهو جاي من الشام كل يوم... يا ترى عبدالغني ما يقدر يجي يشوفنا ونشوفه.

- طيب. لازم ما تنسي أنو ما يدري أننا هنا في حماه.

- صحيح.. صادقة.. يمكن ما يدري أننا سافرنا من الشام وجينا هنا.

- أيوه.. لا بد أنو ما يدري.. لكن أبويا «كتبوا» له المكتوب زي ما قلت لك.

- يا ترى أبويا «قالوا» له إني حبلى.

- والله ما أدري يا خديجة.. ولما التقيه رايق أسأل لك هوه.

فجأة قطعت أمّي حوارها مع خالتي.. والتفتت إليّ تقول بحدّة:

- أنت قاعد تسمع الهرج؟؟.. فين عبدالغفور يا ولد؟؟

وعبدالغفور هذا الذي تسالني عنه هو شقيقي الذي أصبح الآن يمشي بخطوات أكثر ثباتاً، ولذلك فهو يكاد لا يستقر إلا عندما يستلم صدرها أو عندما تمد خالتي ساقيها وعلى قدميها وسادة يضطجع عليها ويسمع منها بصوتها الحنون وهي تؤرجحه يمنة ويسرة أغنية: «يالله يرقد يالله ينام / على مخدة ريش نعام».. فينام فعلاً ولكن على سرير من ساقيها وقدميها.

أصبحت أمّي توكل إليّ ملاحظته أو متابعة انطلاقه في الممر بين الغرف، أو انحداره، إلى الفناء حيث نجده أحياناً يكاد يسقط في أحد أحواض الورد.

لا أذكر كم يوماً قضينا لننتقل إلى «بيتنا» كما أصبحت أمّي وخالتي تسميان هذا البيت... ولقد كنت أسعد حظاً من خالتي إذ كان جدّي لا ينسى أن يصطحبني معه وهو يخرج مع أمّي لشراء الأثاث إلى هذا البيت. بينما تظلّ خالتي في بيت الصابوني لرعاية عبدالغفور إلى أن نعود.. كان البيت جميلاً، تفصله مع بيوت أخرى إلى جانبه عن نهر العاصي بساتين غاصّة بأشجار الفاكهة.. فيه باب صغير يتيح الخروج إلى هذه البساتين ولكن جدّي لم يرض عن وجود هذا الباب... فقال إنه سيقوم «بتسميره» لمنع الخروج منه.. ولكن أمّي استطاعت أن تقنعه بأن يحكم مزلاجه فقط، ووعدت بأن لا تسمح لي بالخروج منه أبداً إلا معها أو معه هو... أما الحديقة الصغيرة في البيت، فقد كان أهم ما فيها، شجيرات ورد ونبات آخر له ثمرة يُسمونها «حب الآس» تعطر رائحة الفم حين تؤكل ولا تخلو من حلاوة وطعم لذيذ، ثم أزهار أخرى منها النرجس، والمرجان، وشجيرة تعطي زهراً يسمونه «المضعف» له أريج يملأ الساحة في الصباح الباكر وبعد الغروب.

أما «طرنبة» بئر الماء العذب فقد كانت شغل ذهني الشاغل منذ اللحظة التي حرّكها

جدّي ورأيت الماء يتدفّق منها في الحوض الصغير.. فهي اللعبة التي استهوتني وأخذت أخطط للتهلي بها عندما نسكن هذا البيت.

أما يوم غادرنا بيت الصابوني إلى بيتنا، فقد كان يوماً لا أزال أذكره حتى اليوم.. كانت ابنة الحاج بشير الكبرى، واسمها «أسماء»، تبكي بحرقة وتقول لأمي كلاماً كثيراً ثم تلتفت إلى خالتي فتقول شيئاً عن «الداية» والولادة وكأنها تطمئنها إلى أن كل شيء سوف ينتهي على ما يرام.

وخلال اللحظات التي اتّجهنا فيها إلى الباب كان الحاج بشير، ومعه المجموعة الكبيرة من بناته وأحفاده، يقفون وعلى وجوههم ما جعلني أفهم أنهم يحبوننا كثيراً، بحيث تساءلت بيني وبين نفسي... ترى ما الذي يجعلنا ننتقل إلى بيتنا؟ وما الفرق بين أن نقيم معهم؟ وبين أن نذهب إلى بيتنا؟

الانتقال من بيت «الصابوني» إلى بيتنا الخاص بعد أن زاد علينا طفل جديد هو «عبدالمعين»

أذكر أني استيقظت ذات صباح لأرى في يد خالتي مخلوقاً صغيراً، تحاول أن ترضعه كما تفعل أمي، مع عبدالغفور... وجاءت أمّي وأخذت يدي في يدها وهي تقول:

- هيا سلّم على عبدالمعين.

لم يمض وقت طويل لأفهم أن عبدالمعين هذا هو الذي كان قابعاً في بطن خالتي، فهو ابنها الذي قدَّرْت أنه قد خرج من مكمنه ونحن نيام في الليل.

لي في هذا البيت، في مدينة حماة ذكريات أيام أعتبرها سعيدة بمنطق الطفولة وهمومها. وقد ظللت أحن إليها فترة طويلة من العمر، فاللعب أو التلهّي بطلمبة البئر مثلاً، كان مطلباً لا أستغني عنه، وأتمنى أن أمارسه أطول وقت من دون أن أتعرض لسخط وغضب أمّي وتحذيراتها. والفرصة المتاحة دائماً هي الفترة التي كان يصطحبها فيها جدّي حين يخرج لقضاء بعض حوائجه التي تستلزم أن يمشي على قدميه مشواراً طويلاً فيستعين بها إذا أدركه الوهن والأمم عرفت بطول الصحبة أنه يشكو منها بحيث قد يجد نفسه مضطراً أحياناً إلى الجلوس حيثما اتفق.

قبل ولادة عبدالمعين كانت خالتي تُعنى بأخي عبدالغفور الذي لم يعد يستقر في مكان منذ أن يستيقظ في الصباح وحتى ساعة النوم بعد الغروب... أما وقد أصبحت هي نفسها، أمًّا وأصبح عبدالمعين ابنها محتاجاً للرضاعة فهو في حضنها أحياناً أو إلى جانبها في فراشها الذي أصبحت تكاد لا تقوى على مغادرته لما طرأ على صحتها بعد الولادة من الضعف والهزال، فملاحظة عبدالغفور في حركته المتواصلة أصبحت بالنسبة لها مشكلة مرهقة. ولذلك فكثيراً ما كنت أسمع صوتها الناعم الرقيق يرتفع من مكانها في الغرفة التي تنام فيها، تناديه، أو تناديني أنا وهي تقول:

- يا عزيز.. جيب غفوري هنا... إصحا لا يكون باب الزقاق مفتوح... وينفلت. وهي تدلّل عبدالغفور فتسميه «غفوري» كما تدلّلني أنا فتناديني «عزيز» وقد كانت رحمها الله تصر على هذا التدليل، رغم عشرات المرات التي سمعت فيها جدّي ينبهها في حدة وهو يقول:

- الغفور هو الله.. والعزيز هو الله يا خديجة. قولي عبدالغفور.. عبدالعزيز.. ولكن لا سبيل إلى أن يصغي عبدالغفور أو أن يترك ما يلهو به في «البخشة». ويبدو أن ما كان يحب أن يلهو به هو طين حوض الزهر الكبير، إذ يملأ يديه الصغيرتين منه ثم ينثره على البلاط، أو يهيله على رأسه، أو يدهن به وجهه..

أما حين يراني أحرِّك ذراع «الطرنبة» ويرى الماء يتدفّق منها في الحوض الصغير، فإنه يترك كل شيء حتى الطين، ويسرع ليقف إلى جانبي. وأفهم من نظراته ومن الكلام غير المفهوم الذي يرفع به صوته، أنه هو أيضاً يريد أن يمارس اللعبة، فيُخرج الماء كما أخرجه بهذه الطريقة من البئر.

كانت المشكلة التي أتورّط فيها دائماً هي أن يمتلئ الحوض بالماء فلا أعرف كيف ينصرف منه إلى حوض الزهر.. وفي حسابي أن أمّي سوف لن تغفر لي مخالفة أوامرها الصارمة بأن لا أمارس لعبة الطرنبة هذه، حين ترى الحوض ممتلئاً فتكتشف أني أنا الذي ظلّ يلعب حتى امتلأ.. وهذا ما كان يحدث في كل مرة أتورّط فيها مع الحوض الممتلئ، ولا فائدة أبداً من محاولة الهرب عن وجهها حين أراها تتجه إلي وهي تقول:

- يعني برضه لعبت في الطرنبة؟؟... تعال!!

لا أكاد اقترب منها أو تقترب هي مني، حتى أجد نفسي مشدوداً من أذنيَّ الاثنتين بين يديها وأصابعها، وليس هذا العقاب، هو النهاية... إذ لن أنسى الطشت الذي توقفني في وسطه بعد أن تجرّدني من ملابسي لتغسلني كل مساء، ومع عملية الاستحمام اللعينة هذه، مزيد من مصع الأذنين، وصفعات كفها اليمنى تتلاحق على الإليتين، مع التذكير بكل مخالفة ارتكبتها في ذلك اليوم أو حتى في أيام مضت، ولا يخلّصني منها إلا خالتي التي تسمع صرخاتي مع كل صفعة كف، ومصعة أذن فتخف لتخليصي... بل ولم يكن جدّي يتردد في نجدتي حين يسمع هذه الصرخات.. فلا تكاد تراه أمّي داخلاً الحمام، حتى تسرع إلى الفوطة تلفني بها، وتدفعني أمامها وهي تقول:

- يا بويا... هلكني... ما يسمع الكلام أبداً!

أما بساتين الفاكهة التي أحكم جدّي إغلاق الباب الذي يفضي إليها، بقفل غليظ، فقد كانت الحلم الذي يسرح خيالي في أجوائه عندما أجلس بجانب جدّي حين يجلس وهو يفتح النافذة المطلة على هذه البساتين في الصباح الباكر أو في المساء قبل صلاة المغرب... لقد اصطحبني مع أمّي ذات صباح في الخروج من هذا الباب المغلق... وأخذ يتجوّل بنا بين أشجار ثمار كثيرة عرفت منها شجرة التين، وشجرة المشمش، وشجرة اللوز التي قطفت أمّي وأعطتني حبات من ثمارها الخضراء، جعلت آكلها فأجد لها طعماً لذيذاً، ثم شجرة الجوز، المحملة بثمارها الخضر كبيرة الحجم التي قطفت منها أمّي حبات فأسرع جدّي ينبهها إلى عدم الإكثار من أكلها، لأن «الجوز الأخضر» يسبب سقوط الشعر... لم يطل بنا التجوال فقد شارفنا على النهر ونحن نخرج من بين الأشجار... وكانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها نهراً... بهرني مرآه ومنظر الضفة المقابلة وقد التفت فيها الأشجار، وامتد على طولها العشب والأزهار البرية بألوانها الصفر.. والحمر.. ومن موقفنا تحت ظلّال شجرة تدلّت أغصانها إلى الماء كأنها تشرب أو تستحم بدا النهر ساكناً هادئاً، بحيث لم أدرك أن مياهه تمشي إلا حين ألقت أمّي على سطحه عوداً جافاً فانطلق مسرعاً وغاب عن الأنظار... والتفت جدّي يحذرها من أن أقترب من الحافة... وأضاف بضع كلمات بالتركية لم أفهم منها شيئاً... ولكنه التقط حجراً ورماه في النهر... وأشار بإصبعه وكرّر تحذيره.. والأرجح أنه كان يقول لها إن النهر عميق، وخطر على من يحاول أن يخوض فيه...

أخذ جدّي يدي في يده، واتجه على طول الضفة بين الأشجار، إلى أن وقف بنا أمام الناعورة، التي رأيتها لأول مرة، وقد كنت أسمع صوتها الحزين، الذي كانت خالتي تقول إنه يذكرها بصوت السواني في المدينة.. كانت الناعورة تدور وترسل هذا الصوت المتّصل الحزين... رأيت كيف يتدفق الماء في أعلاها... ومع أن جدّي حاول أن يقول لأمي كيف تنقل الناعورة هذا الماء من سطح النهر إلى أعلاها، فالأرجح أن أمّي لم تكن تختلف عني... لم نفهم شيئاً... واستدار جدّي وعدنا إلى المنزل، وفي السلة الصغيرة التي كانت تحملها أمّي منذ خرجنا إلى البساتين، مجموعة من ثمار التين، واللوز، والمشمش، والجوز أسرعت بها إلى خالتي، وشقيقي عبدالغفور، بينما ظلّ جدّي يعالج إغلاق الباب بالقفل الغليظ.

كان الخروج، أو حتى التسلّل إلى تلك البساتين وحدي هو الحلم الذي كنت أتحسر على أنه لن يتحقق ما دام جدّي يحكم إغلاق الباب الخلفي بذلك القفل الضخم. ومفتاح هذا القفل لا ينسى جدّي أبداً أن يضعه في الجيب الداخلي على صدره من ثوبه. ومع أنه كان يثق بأمي ويعتمد عليها، ويترك لها التصرف في الكثير من الشؤون، فإنه نادراً ما كان يوافق على إعطائها المفتاح حين تطلبه منه لتخرج مع خالتي وابنها عبدالمعين وفي يدها أخي عبدالغفور الذي أصبح يمشي الآن بخطوات ثابتة، كما أصبح يتكلّم ويكثر من الأسئلة التي تعجبها كما تعجب خالتي، فأراهما تضحكان له وقد تنحني أمّي عليه فتقبّله وتدلّله. كان ذلك يغيظني ويثير حفيظتي عليها، وعليه معاً، كما أصبحت بعد مجيء عبدالمعين واشتغال خالتي به، أشعر بأني مخلوق لم يعد يحبه أحد سوى جدّي الذي وجدت نفسي أسعد بمرافقته حين يخرج في زيارة للحاج بشير الصابوني أو للتسوق، بل أصبحت لا أملّ الجلوس إلى جانبه عند تلك النافذة المطلة على البساتين رغم أنه كان يقضي وقتاً طويلاً وبين يديه واحد من كتبه الضخمة ينهمك في القراءة وعلى أنفه وعينيه تلك النظارة بإطارها الأبيض، التي تتدلى على صدره أحياناً، حين يرفع عينيه عن الكتاب.

كانت أمّي هي التي تحفظ لجدي في صندوقها الخشبي الأسود نقوده، ومع النقود تلك الأنابيب مختلفة الأطوال من الصفيح التي عرفت في ما بعد، أنها محافظ للوثائق والحجج، كنت أراه حين يستدعيها ويتكلّم معها بالتركية، فتسرع تفتح الصندوق، وتأخذ في عد قطع النقود التي أسمع رنينها وعرفت أن منها الفضية الكبيرة، ومنها الذهبية بين صغيرة وكبيرة... وأكثر ما يطلبه جدّي وتقدمه أمّي إليه هذه القطع الفضية... وقد كنت أحرص على التطفل لأكتشف ما في هذا الصندوق.. فأرى مجموعة من العلب الكبيرة والصغيرة فتحت أمّي واحدة منها ذات مرة، فإذا فيها صفوف من الملاعق والسكاكين والشوك، وسمعت خالتي تقول:

- يا ترى متى نرجع بيتنا في المدينة، ونقعد مع الضيوف على السفرة، وقدامنا هادي الملاعق؟؟

- والصيني يا خديجة... الصيني اللّي أبويا جابوه من استامبول... داده (منكشه) الله يذكرها بالخير رصّته في الدولاب الكبير في المؤخر.. إن شاء الله نلتقيه صاغ سليم...

- إن شاء الله.. ويا ريت يا ستيته خليتي هادي الملاعق مع الصيني.

- خفت يا خديجة من الجوار (سندولات) داده منكشه يجو يهرجوا معاها ويغافلوها وياخدوا العلبة وما تنتبه لهم.

- ربنا كريم يا ستيته.. نرجع ونلتقي كل شيء زي ما هوه.

- بس أنا خايفة على الفراش والمفارش اللّي في بيت باب المجيدي..

- لا.. لا تخافي، أمّي حليمه..

- ايوه.. الله يذكرها بالخير، لا تروح لأحد ولا أحد يجيها... بس ما أدري.. كيف تسوي داده منكشة، وأمي حليمة. لما تغلق الفلوس اللّي عندهم.

- لا.. لا تخافي.. أبويا لابد (انهم مرتّبين) لهم كل شيء.

- بس ترى غيابنا طوّل يا خديجة!!

- ايوه.. وما هو باين متى نرجع.

- لما الحرب تخلص.

- يا رب.

***

ولا يزال في ذاكرتي عن حياتنا في ذلك البيت من مدينة حماة ليلة رعب وإرهاب لم أنسها قط. لا أذكر الكثير من التفاصيل.. كان الظلّام حالكاً، عندما فتحت عينيّ وأنا أسمع صوت أمّي إلى جانبي ولكنه يكاد لا يظهر.. مكتوم، أو مبحوح أو مخنوق، وقد ضمتني إلى صدرها حيث أحسست بأنها تضم عبدالغفور أيضاً، وعلى مبعدة منا ربما في أحد أركان الغرفة التي تنام فيها، جلبة وحركة وتحطيم وتكسير وأصوات عدد من الرجال يتهامسون، وقد يرتفع صوت أحدهم ولكن سرعان ما يعود إلى الهمس...

سمعت صوت أمّي ينطلق في صيحة مخنوقة تقول:

- حرامي... حرامي، يا ناس حرامي.

ما كادت.. حتى سمعت صوت خالتي في صيحة أخرى باكية مرتعشة، ومعها عدد من سعلاتها المعتادة تقول:

- حرامي.. حرامي..

- وما هي إلا لحظات حتى تسلل إلى الغرفة ضوء مصباح ثم ظهر داخلاً من الباب

جدّي وفي يده فانوس صغير، وفي الأخرى الفأس التي يكسر بها أعواد الحطب التي كان قد اشتراها منذ أيام وقالت أمّي إنها للتدفئة في أيام الشتاء.

صاحت به أمّي وخالتي معاً:

- خليهم يا بويا.. خليهم ياخدو اللّي يبغوه...

- لكن جدّي بدا محتدماً وكأنه لم يسمع، واندفع إلى حيث رأيت ثلاثة أشخاص.. إثنان يحملان ما وجدوه في الصناديق.. والثالث صرخ في جدّي وانطلق في اتجاهه، تبعه الاثنان بما يحملان.. وما كاد الثالث يرى جدّي يرفع الفأس في وجوهم، حتى سمعت صوت طلقات مسدس ورأيت زجاج الفانوس يتطاير وينطفي.. ويغمرنا الظلّام.. ومع صوت الطلقات، وانطفاء الفانوس، صيحات أمّي وخالتي وصراخي أنا وعبدالغفور معاً..

كل ذلك تم في لحظات.. إذ سمعنا خطوات اللصوص وهم يتراكضون في الفناء الصغير.. ثم يسود الصمت.. ولم نر أثراً لجدي. نهضت أمي، ومعها خالتي تناديان بصوت يخنقه البكاء:

- أبويا.. انت فين يا بويا؟

تركتانا.. أنا وعبدالغفور، وعبدالمعين حيث نحن على الفراش واتجهتا نحو باب الغرفة وهما تبكيان وترددان:

- أبويا.. انت فين يا بويا؟

ولم يطل بحثهما عنه إذ سمعتُ صوته يهديء من روعهما في الفناء ويكلمهما بالتركية. وفهمت أنه لاحق اللصوص... ولكنهم هربوا من باب الشارع الذي لا يدري كيف فتحوه ودخلوا البيت.

ومنذ تلك الليلة الليلاء بدأت المرحلة السوداء في حياتنا.. مرحلة شقاء هذا الجد ومعاناته مع العوز والفاقة ، وكدِّه في سبيل لقمة العيش يدخل بها على البنتين والأطفال...

***

سرقة اللصوص أهم محتويات بيتنا
وبدء الرحلة السوداء في حياة الأسرة

كان اللصوص قد أفرغوا الصندوق الخشبي الأسود الذي تحتفظ فيه أمّي بأغلى مقتنياتها ومنها ما يملكه جدّي من النقود الفضية والذهبية من كل ما فيه تقريباً ومن تلك المجموعة من الشوك والسكاكين والملاعق بعلبتها الأنيقة، وعلب الوثائق والحجج.. كما فتحوا صندوقاً آخر لخالتي، وأفرغوا أيضاً كل ما فيه ومنه حليّها، بل لم يتركوا حتى تلك الملابس الغالية من الحرير والقطيفة الموشاة... وملابس الأطفال وأحذيتهم التي كان جدّي اشتراها لنا من الشام.

كان جدّي في صباح تلك الليلة، يقف على الصندوق الخشبي الأسود بينما تخرج أمّي تلك الأشياء التافهة التي زهد فيها اللصوص، وتتناولها منها خالتي، لتعيد ترتيبها.. كان عبدالغفور في هذه اللحظات يرتمي على صدر أمّي يريد أن يرضع، ومع أنه قد تجاوز سن الرضاعة تقريباً، وأصبح يمشي ويتكلّم بفصاحة ملحوظة، فإن أمّي لم تحاول فطامه.. كانت تحبه وتكره أن ترفض إرضاعه.. وعبدالمعين ذلك القادم الجديد كان هو الآخر يبكي وهو في فراشه على الأرض...

كان جدّي رجلاً عصبي المزاج، سريع التوتر والغضب، بل أكاد أقول إنه سرعان ما يفقد أعصابه، فلا يتردد في التهديد بالضرب، بل قد تمتد يده فيضرب، حتى أمّي أو خالتي. ولا شك أن حركة عبدالغفور، وصراخ عبدالمعين، قد شحنا أعصابه، وهو يرى أن كل ما يملكه من النقود بل ومعها الحلي والمصوغات، قد سرقه اللصوص... كنت أنا أعي وأدرك أنه يضيق بصراخ الأطفال... ولذلك فقد جلست بعيداً، من دون أن أنبس بأي كلمة، مع أني جائع، والصباح هو موعد وجبة الإفطار كل يوم...

رأيته يلتفت نحو أمّي ويصرخ في وجهها بالتركية، ثم يصرخ في خالتي، ثم

ينحني على أمّي وينتزع من حضنها عبدالغفور، ويحمله من يده، ويكاد يلوح به، ثم يلقيه بعيداً على الفراش... وارتفع تبعاً لذلك صراخ الطفل وانهمرت مع هذا الصراخ الدموع من عينيّ أمي... بل حتى خالتي... أفزعها التصرف فهرعت إلى ابنها عبدالمعين واحتضنته وعيناها زائغتان تنهمر منهما الدموع، مع نظرات مرتعبة تنتقل بين أمي، وجدي.

اتّجه جدّي نحو باب الغرفة، وخرج مسرعاً، وهو يتكلّم. لعله كان يشتم أو يهدد، أو يعبّر عن سخطه، ولكن بالتركية، التي تغلب عليه في مثل هذه الظروف.. ومن الفناء سمعته يناديني... امتلأت رعباً وكدت أجمد في مكاني... ولكن أمي التفت إلي وقالت ساخطة:

- ما تتحرك.. روح شوف ايش يبغا..

قبل أن أنهض، سمعت نداءه الصارخ مرة أخرى، فنهضت ورحت راكضاً... كان واقفاً أمام حوض للزهر، وفي يده السلة التي يملأها بما يتسوقه كلما احتاج البيت إلى مواد التموين.. ناولني السلة.. وأدخل يده في جيب الصدر، وأخرج كيساً من الجلد... تحسسه بين أصابعه.. ثم فتحه، وأخرج ما فيه من قطع النقود... لم تكن كثيرة.. لعلها أربع أو خمس من هذه القطع التي عرفت في ما بعد أن القطعة منها تسمى (مجيدي.. أو حميدي) وهي من الفضة، والواحدة منها تساوي عدداً من قطع النيكل أو النحاس.. أعاد القطع إلى الكيس، ثم إلى جيبه.. ومشى أمامي إلى غرفته من دون أن يتكلّم.. لبس عمامته وجبته السوداء.. وانطلقنا معاً إلى الشارع...

وفي بيت الصابوني، ظلّ يقص على الحاج بشير حادث اللصوص والسرقة... وحين رأتني السيدة أسماء كبرى بنات الحاج بشير، أخذتني في يدها، إلى غر فتها.. لم يكن لديها أطفال، ولعلها لم تتزوج قط.. كانت جميلة، أو هكذا كنت أراها.. أخرجت من صندوق صغير قطعاً من الحلوى... تناولتها منها، بينما احتضنتني هي وقبّلتني... وهي تقول: (لا حول ولا قوة إلا بالله).

عندما كان الحاج بشير يودع جدّي عند الباب، سمعته يقول ما معناه: (لا فائدة من الشكوى... الجندرمة والعساكر، ينتقلون إلى حلب.. الشام، يقولون إنها سقطت يوم الجمعة)... وقبل أن نخرج من الباب، قال مسرعاً: لكم مكتوب، وصلنا أمس... من

حلب.. واستدار... وغاب لحظات ثم عاد وسلم جدّي هذا الذي سماه (مكتوب)...

وفي السوق، اشترى أرغفة من الخبز... وكمية من الجبن، والخيار... والطماطم... وقطعة من اللحم، وحمل السلة وعدنا إلى البيت.

***

لا أذكر كم من الأيام بعد حادث السطو... ظلّ كل من في البيت، وكل من يحدث أن يزرن أمّي من الجارات، لا حديث لهن إلا اللصوص، وأخبار سطوهم على كثير من المنازل، وعلى الخصوص منها هذه التي تقع بالقرب من النهر... وكان التعقيب، دائماً أن العسكر، قد ذهبوا إلى حلب ولم يبق في حماة من يحرسها..

كان جدّي بعد هذا الحادث، يكاد يلتزم الصمت، فلا يدور بينه وبين أحد أي حديث... في مجلسه ذلك، وبين يديه الكتاب، وعلى عينيه النظارة يقرأ.. وكثيراً ما كنت أرى شفتيه تتحركان، ربما بتلاوة، أو دعاء... فإذا جلس للصلاة، يطيل الركوع والسجود حتى ليخيل إليّ أنه سيظلّ ساجداً، إلى ما شاء الله... ولم تمض أيام كثيرة حتى بدا عليه الهزال والضيق والتوتر... إلى أن كان ذلك اليوم الذي دخلت عليه أمّي فرأته يمسح بمنديله الكبير عينيه ووجهه.. كان يبكي من دون شك.. وحين ألحّت عليه تسأله عما حدث أدخل يده في جيب الصدر، وأخرج الكيس.. كان فارغاً ليس فيه من قطع النقد، الفضة أو النيكل أو النحاس، أي قطعة.. واستطعت أن أفهم منه وهو يحدثها بالتركية، أنه لا يعرف كيف يؤمّن حاجة البيت من الغذاء.

ثم أخرج من جيبه الآخر الغلاف الذي أعطاه إياه الحاج بشير... وهو يقول:

- في حلب... قولي لها إنه في حلب وهو لا يستطيع المجيء إلى حماة... اسأليها إن كانت تريد السفر إليه..

- (ردّت بدهشة واستنكار): تسافر إليه مع عبدالمعين؟؟؟؟

- ونحن أيضاً سنلحق بها... الكفار في الطريق إلى هنا... الشام سقطت في أيديهم.

- ولكنْ لماذا لا نسافر كلنا إلى حلب... ما دام الكفار في الطريق إلى هنا؟؟

- انتظر الأمر بترحيل المهاجرين من المدينة... يمكن يرحلونا كلنا إلى حلب.

- ليتهم يرحّلونا إلى المدينة.

- (علّق بنبرة ساخرة)... المدينة؟؟؟ (ثم رفع يديه إلى السماء).. يا رب.. قولي يا رب... ينصر عساكر السطان.

- يا رب..

ثم أخذ يتحدث إليها بالتركية، ويشير بيديه، كأنه يصف لها شيئاً يريده... ورأيت وجهها يتهلّل ويبدو عليه الارتياح... ثم خرجت وغابت دقائق، وحين عادت كانت تحمل في يدها كيساً أو لفافة، من قماش أسود قديم.. ما كاد جدّي يراها حتى انبسطت أساريره وأسرع يفتحها... توهمت أن فيها نقوداً أو شيئاً من هذا القبيل، فإذا ما فيها أشياء تافهة، أسطوانة من خشب، ومسمار طويل أو ما نسميه الآن (مفك)... وكمية من أشياء نحاسية صغيرة، عرفت في ما بعد عندما رأيت جدّي يعالجها، أنها أشياء تحفر على الدائرة في كل منها كتابة... الواحدة منها تسمى (مُهُر).. والمهر هو (الختم) الذي يحفر عليه الاسم.

رأيته، يردِّد بفرحة وارتياح: (الحمدلله... الحمدلله...).

وقد مضت أيام قبل أن أراه يعالج، هذه الأشياء... ولكنه كان حريصاً على أن يرى اللفافة ومحتوياتها إلى جانبه مع كتبه.

***

لم أكن أفهم، شيئاً مما يدور حولي، ولكن لم أغفل عن لون أرغفة الخبز التي لا أدري كيف كان، ومن أين يجيئنا بها جدي... عرفت أن عليه أن يذهب هو، أو أمي، أو هما معاً، في وقت محدد في الصباح، ليعودا بهذه الأرغفة، ذات اللون الداكن، وفي السلة معها حبات من الطماطم، والخيار والخس،... لم أعد أرى على المائدة التي نجتمع حولها، الحساء، أو (المعرق) أو محشي الباذنجان الأسود والكوسة... لم يكن أمامنا إلا أن نأكل ما يوضع أمامنا.. فإذا حدث أن جاءت أمّي أو خالتي من المطبخ، أحياناً بقدر حساء، ساخن، لا أعرف مم صنع، فإننا ننهمك، في تقطيع أو تفتيت الرغيف من الخبز الداكن، في هذا الحساء، ونلتهمه بشراهة، ونشعر بالشبع بعد أيام من الجوع، لا نتناول في كل وجبة سوى الخبز، والطماطم أو الخيار، وقد نجد قطعة من الجبن، يوزّعها علينا جدّي بكثير من الحساب.

***

في هذه الفترة من أيامنا في مدينة حماة، وبعد حادث السطو، والتغير الذي طرأ

على الغداء، ازداد تدهور صحة خالتي، ومع أنها كانت بيضاء البشرة، فقد غلب على محياها الجميل الشحوب والاصفرار... وأصبحت سعلتها تتكرّر، وتتلاحق... وأخذ الحديث الهامس يدور بين جدّي وأمي عنها... وعن (الدم) الذي لاحظت أمّي أنها نفثته من صدرها... وفي ذات مساء قبيل الغروب، أخذوها إلى الطبيب مع طفلها الرضيع عبدالمعين... وتركوني أنا وعبدالغفور في البيت... وكالعادة كانت «الطرنبة» هي لعبتي وكان عبدالغفور، يحفر حفرة في طين حوض الزهر... حين رأيته يستلقي على البلاط.. ظننت أنه يلعب، فأسرعت انتهره، وأهيب به أن ينهض قبل أن يجيء جدّي فيراه على هذا الوضع... ولكنه ما كاد يحاول النهوض، حتى رأيته يتهالك، ويعود إلى الاستلقاء... أخذت يده في يدي... فإذا بي أجدها ساخنة... ساعدته على النهوض ثم مشينا معاً إلى الغرفة، حيث ما كاد يصل إلى الفراش، حتى ارتمى عليه... أدركت أنه مريض... فجلست إلى جانبه... وعيناي إلى باب الغرفة، أنتظر عودة جدّي وأمي وخالتي..

لا أدري ما الذي قاله الطبيب عن خالتي... ولكن الأدوية التي جاءت بها في أكثر من زجاجة كانت تشير إلى أن حالتها ليست على ما يرام... وسمعت أمي، تنبهّها إلى أن تكف عن إرضاع ابنها عبدالمعين... أما عبدالغفور، فقد قالت أمّي إنه مصاب (بالحصْبة)... خلعت عنه ثوبه، ليرى جدّي طفح الحصبة على صدره وظهره... ثم أسرعت تخيط له بيدها قطعة من القماش حمراء، صنعت منها ثوباً... ألبسته إياه... ونام به من دون أن يجلس معنا لتناول وجبة العشاء من أرغفة الخبز الداكنة اللون، والخيار، والجبن.

في صبيحة اليوم التالي، رأيت أمّي تحاول خلع أسورة ذهب من يدها، بعد أن دهنتها بقطرات من الزيت... كانت تقوم بذلك، وحدها بعيداً عن خالتي... ثم بعد أن خلعتها أسرعت إلى جدي... وقدمتها إليه، وهي تقول:

- الحكيم قال..لازم خديجة تشرب مرقة دجاج... وتاكل أكل طيب.. وتشرب عسل وحليب... وعبدالمعين ما دام ما يرضع لازم نجيب له حليب...

لم ينبس جدّي بكلمة واحدة... كان في عينيه الكثير مما يريد أن يقوله، ولكنه لا يجد الكلمات... تناول الأسورة، لبس عمامته، وجبته السوداء... وأشار إليّ أن أحمل السلة... وخرجنا... ووجدت أننا نطرق باب بيت الصابوني... ولم يكن الحاج بشير

موجوداً... ولكن أسماء ابنته الكبرى استقبلت جدي... وفهمت منه أنه يريد أن يبيع الأسورة... احتقن وجهها، ثم امتلأت عيناها بالدموع... واستأذنته. غابت عنا ونحن في الفناء، ثم عادت، وفي يدها نقود... وقد رفضت أن تتناول منه الأسورة... وطال الجدل، أو الحوار... ثم رأيت جدّي، يضع الاسورة في جيب صدره... مع النقود... وعدنا إلى المنزل وفي السلة عدد من حبات البيض ودجاجة صغيرة أو ديك، وعلبة من (الدبس) ومرطبان صغير فيه كمية من العسل.

لست أدري حتى اليوم... كيف، ولماذا أقدم جدّي على ذلك التصرف البالغ القسوة الذي ظلّت أمّي لا تنساه أبداً... قالت، إنه تضايق من بكاء عبدالغفور المتواصل، وهو يعاني من حمّى الحصبة... فإذا به ينتزعه من فراشه، ويخلع عنه الثوب ويأخذه إلى الحمام، ومن حوض الماء الذي تملأه الطرنبة وبمغراف كبير في يده، أخذ يدلق على جسم الصغير الماء البارد... ثم يتركه هكذا وهو يصرخ إلى أن هرعت إليه أمّي وخالتي... لم أشهد الحادث... أعني لم أشهد جدّي وهو يدلق الماء البارد على جسم الصغير... ولكني رأيت أمّي تدخل به وهو يرتعد على صدرها.. كانت تبكي... وكانت خالتي تخفق صدرها بيدها عدة مرات... وهي تبكي أيضاً..

لم يطل بعبدالغفور مرضه أو حمى الحصبة، فقد مات، على صدر أمّي وهو يردّد (أتوب.. أتوب).. ولم تتمالك أمّي وخالتي أعصابهما، فقد كانتا تردّدان معاً أن جدّي قد قتل عبدالغفور... ولم أسمع من جدّي أي كلمة... التزم الصمت... وكانت في عينيه منذ ذلك الحادث الرهيب، نظرة فيها ما ينذر بأنه يمكن أن يبطش بأمي وخالتي إذا ما بدرت من إحداهما أي بادرة... ولذلك كان الجو في المنزل شديد التوتر... واستمر هكذا أسابيع بعد دفن عبدالغفور، الذي لم تكفّ أمّي عن البكاء لفقده، فقد كانت تحبه ربما أكثر مما تحبني...

اشتدت العلة بخالتي، واشتد هزالها وهزال ابنها عبد المعين... وفي الوقت نفسه، أصبح تأمين الغذاء في المنزل، مشكلة يواجهها جدي... ولا يعرف لها حلاً... كل الذي كان يحصل عليه هو هذه الأرغفة التي كانت داكنة اللون... ثم أصبحت من الشعير... فهمت مع الأيام، أنها، التموين الذي توزّعه الدولة على الذين هجّرتهم من المدينة المنوّرة...

كانت إحدى المشاكل الكبرى التي واجهت الأسرة أجرة المنزل الذي نسكنه... لا

أدري كم هو؟؟؟ ولكني أذكر أن أمّي أخذت تقترضها من صديقتها أسماء الصابونية على وعد التسديد، في يوم ما... في يوم ربما لم يأت حتى اليوم..

***

وأخيراً طرق باب المنزل، جندي تركي... ناول جدّي ورقة... وأخذ يتحدث معه، ثم عندها ذهب وأغلق الباب... نادى أمّي وهو يقول:

إلى حلب... جهّزي كل شيء... سنسافر إلى حلب، بعد يومين كل أهالي المدينة لا بد أن يسافروا إلى حلب... والذي لا يسافر، خائن..

موت أخي «عبدالغفور»
ورسالة إلى جدّي تأمره بالسفر إلى حلب

خلال اليومين اللذين انقضيا، قبل الرحيل إلى حلب كانت مشاهد التوتر والأسى والخوف تتلاحق، وكان أهم ما يشغل الشيخ، هو - على قدر ما استطعت أن أفهم - حاجته إلى المال، لشراء ما كانت تلح أمّي على ضرورة تأمينه، لخالتي خديجة التي كنت أرى كيف يتزايد هزالها، وشحوب طلعتها... حتى صوتها الحنون بغنته الرقيقة الناعمة، أمسى كأنه يذوب، أو يضيع، فلا يكاد يسمع إلا بشيء من الجهد يرهقها أن تبذله، وهي تحاول هدهدة رضيعها (عبدالمعين) لينام وهي تضمه إلى صدرها... لم يكن هناك ما يستطيع أن يفعله جدّي، ليشتري الدجاجة مرة كل ثلاثة أيام، والكفاية من الحليب لعبد المعين، غير أن يبيع ما سبق أن اشتراه من أثاث للبيت يوم انتقلنا إليه من بيت الصابوني... ويوم تقرر الرحيل إلى حلب، كان يوم شقي فيه هذا الجد شقاء جعل أمّي وخالتي لا تكفان عن البكاء.. كان يحمل على كتفه. ويلف بعمامته الأشياء التي يذهب بها لبيعها والعودة بثمنها حفنة من النقود، يفتح كفه بعد أن يخرجها من جيبه لتراها أمي... ثم تتناولها وهي تهمس بكلمات، ارجح أنها تطيّب بها خاطر، وفي عينيها دموع تجهد ألا تنذرف... فيبتسم، ويضع يده الأخرى على كتفها ثم اسمعه يقول هامساً:

- قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا... وعلى الله فليتوكل المؤمنون...
- الله كريم... البابور.. في الليل... الله كريم...

وتسأله أمّي في نبرة تنم عن خوفها:

- في الليل؟؟؟
- هذا أمر الباشا...
- فخري؟؟؟

- لا.. لا..

وبدا على أمّي وخالتي أنهما تخافان السفر في الليل... ودار بينهما حوار، عن المشي من البيت إلى البابور... وتردّد ذكر (فيتون) بيت الصابوني... وأن الحصان الذي يجره قد أخذته (الدولة)... ثم (الحرامية) الذين ينتشرون في الليل، وفي أيديهم تلك المسدسات، يتقلون بها من يعترض طريقهم، كما فعلوا ليلة دخلوا علينا، وكادوا يقتلون جدّي، حين دخل بفانوسه والفأس في يده...

لم يبق في المنزل أثاث، سوى المراتب والوسائد واللحف، وقد أحكمت أمّي حزمها، فلم يجد جدّي ما يجلس عليه، في مكانه المعتاد فافترش جبته بعد أن طواها عدة طيات، وجلس، وإلى جانبه حقيبة الكتب، التي لا ينسى أن تكون في متناول يده حين يجلس للقراءة في ذلك الكتاب الضخم... أما الصندوق الأسود، الذي أفرغه اللصوص من أغلى محتوياته، فقد ملأته أمّي بما بقي لها ولخالتي من ملابس، وكذلك بما لا يستغنى عنه من أوانٍ ولوازم الطبخ، وهناك حقيبة صغيرة، من الصفيح، ملأتها أيضاً بملابسي، وما تركه عبدالغفور من ملابسه، التي كانت كلما أدخلت قطعة منها في هذه الحقيبة، تقرّبها من وجهها، وكأنها تستنشق رائحتها، وتنهمر الدموع من عينيها، وتراها خالتي، فتبكي هي الأخرى، وتضم رضيعها عبدالمعين إلى صدرها، وهي تتأوه آهتها مع تلك السعلة التي تكاد لا تنقطع..

في ذلك اليوم طال غياب جدّي الذي خرج في الصباح وحده، رافضاً أن يصطحبني كما يفعل غالباً، أو أن تصحبه أمي، وبدأ قلق أمّي وخالتي لغيابه، بعد الظهر، وعندما تساءلت خالتي قالت أمي:

- أنا شفته شايل معاه الكيس اللّي فيه هادي (الأمهار) والأشياء التي بيقول إنها (العدة).

- يمكن رايح يبيعها هيه كمان...

- ... لا يا خديجة... هادي ما يبيعها أبداً.. أنا سمعته من زمان يحكي امي - رحمة الله عليها... أنه تعلم الصنعة من شيخه، اللّي وصاه أنو ما يفرط فيها أبداً..

- صنعة؟؟؟ صنعة إيه؟؟؟

- ما أدري... لكن أنا شايفه من يوم ما طلب الكيس والتقاه، وفرح لما التقاه، انها صنعة رايح يشتغل فيها..

- وهوّه يا ستيتة عنده عافية يشتغل؟؟؟

- طب.. بس لازم يشتغل... ويمكن حتى أنا لازم اشتغل... يا خديجة الحكومة ما عاد بتعطي غير العيش الأسود، و(القنيطة) وعلبة (اللحمة المفرومة) كل خمستاشر يوم...

- أيوه صحيح... وما هو باين متى نرجع المدينة..

- الله يعلم متى... بيقولوا يا خديجة أنو يمكن ما نرجع..

- ما نرجع؟؟؟ طيب، يعني نفضل قاعدين في هادي البلدان؟؟؟ الشام.. وحلب... و...

- يمكن يودونا استامبول..

- يا ريت يا ستيتة... أنا يا ما سمعت أمّي رحمة الله عليها، تحكينا عن استامبول.

- انتي أصلك ما انتي عارفة إيش اللّي حاصل يا خديجة... بيقولوا الكفار... إيوه الكفار بينتصروا على عساكر السلطان.

- كفار وينتصروا على المسلمين؟؟؟

- إيوه يا خديجة.. أبويا (قالوا) أنو فيه مع الكفار مسلمين..

- مسلمين يا ستيتة مع الكفار يحاربوا عسكر السلطان...

- كده أبويا قالوا... وعشان كده الكفار بينتصروا... بيغلبوا عساكر السلطان... انتي ما سمعتي أنهم أخدوا الشام... ورايحين ياخدوا حماه... يعني هادي البلد اللّي رايحين نسافر منها إلى حلب.

- طيب.. والمدينة يا ستيتة؟؟؟

- المدينة يا خديجة... قولي الله لا يقدر إنهم ياخدوها كمان... والحمدلله... أبويا (قالوا)... أنو فخري باشا ما هو راضي يخرج ويسلمها للكفار..

- ربنا ينصره عليهم... ونرجع المدينة... قولي يا رب..

- يا رب... يا رب يسمع منك... أنا بأدعي له في صلاة الصبح.

- وأنا كمان بأدعي لعساكر السلطان.

وارتفع صوت المؤذن في هذه اللحظة، فخفقت أمّي صدرها بيدها مرتعبة وهي تقول:

- العصر يا خديجة... وأبويا ما جو...

- عمرهم ما غابوا عننا..

- طيب.. كيف نسوي؟؟؟ وفين التقيهم؟؟؟ يا ترى يكونوا عند الحج بشير؟؟؟

- بس ايش يسووا عند الحج بشير..

سرعان ما نهضت أمي، وأخذت تلتمس ملاءتها... وراحت ترتديها على عجل، وتحكم عصب ما يسمونها (البيشة) على جبينها لتسدلها على وجهها، كما هي العادة عندما تخرج إلى الشارع، وظلّت عينا خديجة تلاحقها ثم قالت:

- خدي معاكي عزيز يا ستيتة... لا تروحي لحالك...

والتفتت إليّ أمّي وهي تقول:

- هيا البس (كندرتك)... قوم... اتحرك.

وأسرعت ارتفق حذائي... ونهضت خالتي تساعدني، إذ لم أكن أوفّق في حزم فتحته بالأربطة التي تحزم بها... ولكن قبل أن تخطو أمّي إلى الفناء، سمعنا باب المنزل يفتح وخطوات جدّي وهو يمشي على أرض الفناء وأسرعت أمّي تستقبله وهي تقول:

- يا بويا إتأخرتو كتير.

كان مرهقاً، تتلاحق أنفاسه، ولكنه رغم ذلك ضاحك السن، وهو ما أصبح نادراً منذ تلك الليلة التي داهمنا فيه اللصوص.. ومع أنفاسه المتلاحقة قال:

- وانتي فين كنتي رايحة؟؟؟

- رايحة أدور عليكم.

وضحك وهو يقول:

- تدوري علينا؟؟؟ فين؟؟؟

ثم، أدخل يده في جيب ثوبه الأيمن... وأخرجها بكيس، متورّم... هزّه لنسمع صوت قطع النقد وقال، وهو لا يزال يبتسم بل يضحك:

- خمسة وعشرين مهراً...

- يعني يا بويا... جبت خمسة وعشرين مهراً...

واستغرق في ضحكة لم أسمعه يضحكها قط... ثم قال:

- فلوس... فلوس... كل مهر نص مجيدي..

ثم فتح الكيس، وأفرغ ما فيه على الحقيبة الصغيرة أمامه وهو يقول:

- خلاص.. كل يوم دجاجة.. حليب.. وجبنة.. ويمكن لحم كمان..

- يعني اشتغلتوا يا بويا؟؟

- ايوه... اشتغلت.. حفرت أمهار... خمسة وعشرين مهر..

- بس فين قعدتو يا بويا..

- باب المسجد الكبير... عند الباب... كل الناس يبغوا أمهار...

- لكن انتو قلتو إننا رايحين نسافر... رايحين حلب...

- إيوه... عشان نروح المحطة لازم فلوس... لازم عربية... لازم حمّال... مين يشيل مراتب... صندوق... كيف خديجة يمكن تمشي إلى المحطة؟؟؟

وأسرع إلى الفناء، وعاد وفي يده كيس... فتحه وأخرج ما فيه... خبز أبيض.. وقطعة كبيرة من الجبن... وقرطاس فيه سكر... وآخر فيه شاي... وكمية من البندورة والخيار... وقال وهو لا يزال يبتسم:

- هيا... شاهي قوام...

ثم أدخل يده في جيبه الأيسر، وأخرج منه أربع بيضات... والتفت إلى خديجة وهو يقول:

- خديجة.. لازم تاكلي بيض.. في حلب.. كل يوم دجاج... وحليب...

ونهضت أمّي مسرعة إلى الصندوق الأسود، حيث أخرجت منه (السماور) الصغير و(البراد) الصيني الكبير والأكواب... وغادرت الغرفة وهي تبتسم، ولكن ما لبثت أن عادت لتخلع عنها الملاءة، التي كانت لا تزال ترتديها، لتأخذ حبات البيض، التي قال جدّي إن خالتي يجب أن تأكلها.

***

السفر إلى حلب
والإقامة مؤقتاً في بيت الكيخيا

كانت الكلمات القليلة التي حدّد بها جدّي موعد الرحيل إلى حلب قد حُفرت في ذهني بكثير من الارتياح، فلم يكن يشغلني طوال ذلك اليوم، وإلى أن أظلّم الليل إلا (البابور... في الليل) ولذلك فقد ظللت أقاوم النعاس بعد الغروب فترة لا أدري كم طالت إذ وجدت أمّي توقظني، وحين فتحت عيني، رأيتها في ملاءتها، ورأيت خالتي وعبدالمعين بين ذراعيها، وهي تحاول أن تحكم لف الملاءة حول جسمها. و(البيشة)، على جبينها... وصوت جدّي يسمع في الفناء، وهو يتحدث إلى من عرفت بعد هنيهة، أنه من أقارب الحاج بشير، ومعه سائق العربة التي ستقلّنا إلى محطة البابور وكانوا يسمونها (الأستاسيون)..

لا أحتاج أن أقول إني قد فرحت بالعربة، إلى الحد الذي أطار النعاس من عينيّ، لم تكن (الفيتون) التي عرفناها في الشام، وفي بيت الصابوني... كانت أقرب إلى تلك التي رأيت فيها جثث الموتى في الشام... وأذن جدّي (للعربجي).. أن يدخل ليحمل الطرود، وهي المراتب، والصندوق الأسود والحقيبة الصغيرة من الصفيح... ولم تستغرق العملية إلا دقائق، أمرني بعدها أن أدعو أمّي وخالتي..

كان ركوب هذه العربة مشكلة بالنسبة لأمي وخالتي... فقد ظلّ جدّي يساعدهما، ثم رفعني ووضعني إلى جانب أمي.. وركب هو أيضاً، بعد أن صافح قريب الحاج بشير... الذي رأيته ينحني على يد الشيخ يحاول تقبيلها..

ولا أزال أذكر الطريق إلى المحطة، ونحن في هذه العربة... كان طويلاً، أو لعل هذا كان إحساسي، وأنا أتطلع إلى المحطة والبابور الذي استقرّت له في ذهني ذكرى تلك الرحلة من المدينة في ذات صباح، كان الطريق مظلّماً في البداية، ولكن ما

لبث أن أضاءه ضوء القمر الذي يتراءى وراء أغصان الأشجار العالية فأتيح لي أن أرى جماعات من الناس وقد حملوا على كواهلهم أو رؤوسهم طروداً أو حقائب، وجميعهم يسيرون في الاتجاه نفسه... كما كانت هناك عربات أخرى مثل العربة التي نرتفقها... بل كنا نرى عربات (الفيتون)، منها ما يجره حصان واحد، ومنها ما يجره حصانان... ثم تراءت أنوار المحطة أخيراً، وعندما وقفت بنا العربة أمام بوابة المحطة، أسرع جدّي، بالهبوط، وبعد أن حملني وأوقفني على الرصيف الحجري أمام البوابة، ذهب يساعد أمّي وخالتي وبين ذراعيها رضيعها، في الهبوط... كان الرصيف مزدحماً بكثيرين، والساحة أمامه تحت أضواء المصابيح مزدحمة أيضاً بالناس، رجالاً ونساءً وأطفالاً في أيدي أمهاتهم، يصرخون باكين، كما كان على امتداد الرصيف الذي أخذنا نشق طريقنا عليه إلى المدخل، مجموعات من أولئك الذين يحملون البنادق، وعلى ظهر كل منهم حقيبة أو شيء يشبهها... كانت يدي في يد جدي... واشتد الزحام فلم أعد أرى شيئاً سوى أجساد المتزاحمين حولنا على الدخول عبر البوابة الكبيرة... إلى ساحة مسقوفة، واسعة، خرجنا منها إلى رصيف رأيت وأنا أقف عليه تلك القضبان التي ينزلق عليها القطار... ولكنها خالية... لم يكن (البابور) هناك... ومشيت مع جدّي، وأمامنا أمّي وخالتي ورضيعها، إلى حيث أشارت أمي إلى الصندوق الأسود والحقيبة وطرود المراتب... جلسنا على الأرض وظهورنا إلى أمتعتنا... وتركني جدّي ليجلس هو إلى جانب خالتي بحيث يفصل بينها وبين من كانت تجلس إلى جانبه، وبحيث أفصل أنا بين أمّي وبين امرأة في ملاءتها السوداء، وقد رفعت عن وجهها (البيشة)... ولم يطل الوقت ليدور بين أمّي وهذه المرأة حوار، فهمت منه أنها من المدينة، وأنها راحلة إلى حلب... وقد ماتت أختها وأمها، أما أبوها فقد مات قبل ذلك في الشام، وهي الآن مع زوجها... قالوا لها إن كانت تريد العودة إلى المدينة، فلا بد أن تذهب إلى حلب... زوجها كان يريد الذهاب إلى (الشام) ولكن قالوا له إن (الكفار) قد غلبوا السلطان وأخذوها... والطريق إليها من حماة (مقطوع) بالحرب بين عساكر السلطان والكفار..

لا أدري، كم طال انتظارنا على ذلك الرصيف، فقد وجدت أمّي توقظني، وما كدت أفتح عينيّ حتى رأيت وسمعت تلك الضجة الرهيبة، التي يحدثها البابور وقد وقفت عرباته أمامنا، وأخذ الناس يتقاذفون متزاحمين لركوبه... كانت عملية نقل أمتعتنا إلى العربة، عملية شاقة بالغة الإرهاق والمعاناة بالنسبة لجدّي،... كان يصرّ

على أن ينقل هو كل قطعة بنفسه، ويكاد يبطش بأمي وخالتي إذا ما حاولت إحداهما مساعدته... أذكر أن عمامته انزلقت عن رأسه وسقطت على الأرض، ولو لم تدركها أمي، لكانت مما تدوسه أقدام المتزاحمين في اتجاه العربة...

وحين أخذنا مجلسنا في العربة، جعل يتحسَّسْ وجودنا إلى جانبه، إذ كان الظلّام حالكاً والزحام شديداً، والضجيج وصراخ الأطفال وصيحات الركاب، وهم يتنادون، تصم الآذان...

بعد أن تحرك القطار، بكل ما يترافق مع بداية هذه الحركة من صفير وهدير، شرع جدّي يقرأ، أو يتلو أدعيته بصوت أقرب إلى الهمس... لم يطل صحوي في هذا الظلّام إذ يبدو أني استغرقت في النوم، وحين سمعت صوت أمّي وجدي يوقظاني، وفتحت عيني، رأيت الباب العريض مفتوحاً، وعَبره كان الضوء ساطعاً، والركاب، ومنهم نحن، يتسابقون على الخروج من العربة، وما كدنا نهبط من العربة، حتى كان جدّي يعالج إخراج الأمتعة، وإلقاءَها على أرضِ الرصيف الحجري الطويل... وحين هبط، ودار ببصره هنا وهنا، رأيناه يستدعي رجلاً لعلّه (حمّال)، يعهد إليه بنقل الأمتعة إلى خارج المحطة، حيث وقفنا مرة أخرى على رصيف يعج بالناس، ولكن أهم ما استوقف نظر جدّي ذلك العدد الكبير من الذين نقلوا على المحطات إلى عربات كانت تستقبلهم... فهمت في ما بعد أنهم الجنود الذين جرحوا في المعارك، وتعذَّر أن يعالجوا في الميادين فهم ينقلون إلى مستشفيات حلب، وقال جدّي إنهم لا بد أن ينقلوا إلى أضنة، لأن حلب أيضاً سوف تصبح ميداناً للمعارك بين الكفار وعساكر السلطان.

لم نكن ندري أين سوف نسكن في حلب... والأصح أن أمّي وخالتي كانتا لا تعلمان شيئاً عن المصير في هذا البلد الذي انتقلنا إليه... دار حوار عن الموضوع بين أمّي وخالتي، بكلمات عاجلة هامسة... يبدو أن جدّي قد سمعه فقال وهو يخرج الورقة التي جاءه بها الجندي في حماة.

- بيت الكيخيا إلى أن نجد بيتاً ننتقل إليه.

قال ذلك وأمرنا أن نقف حيث نحن إلى أن يعود... وغاب في الزحام..

وحين عاد بعد فترة لم تطل، كان معه رجل طويل حسن الهندام، له شاربان طرفهما معقوفان، وعلى رأسه قبعة من الصوف بنية اللون... وفي يده كرباج أسود... أشار له

جدّي إلى طرود الأمتعة، فذهب يعدو وعاد برجلين حملاها، ومشينا نحن خلفها...

كانت الفيتون في هذه المرة، شيئاً يختلف عن أي فيتون رأيناها أو ارتفقناها... يجرها حصانان وكان الرجل ذو الشاربين المعقوفين، هو (العربجي).... عقدت الدهشة ألسنتنا جميعاً... كانت الأبهة والفخفخة في داخل العربة المسقوفة والمحاطة بسور وحاجز يفصل بين مقعد (العربجي) ومقاعد الركاب... وتلك النوافذ من الزجاج المزخرف، وكسوة المقاعد ومواطئ الأقدام بنوع من القماش أو اللباد الأحمر (الملكي).

لم أفهم ما الذي كان يقوله جدّي، وتجيبه أمّي وخالتي بالعربية.

- طيب يا بويا... إيوه يا بويا...

كنا جميعاً مبهورين بهذه الأبّهة في الفيتون، حتى جدّي، كان واضحاً أنه مبهور، وأنه وجد ما لم يكن يتوقعه قط.... والسؤال الذي ظلّ حائراً، هو الطريقة التي وجد بها جدّي هذا الفيتون الفخم... ثم إلى أين يذهب بنا...؟؟؟ كان اسم (الكيخيا) يتردّد في حديثه باللغة التركية، واستطعت أن أحزر أننا سنسكن مكاناً اسمه (بيت الكيخيا)، كما سبق أن سكنا بيت الصابوني في حماة...

في طريقنا كنا نرى الشوارع مكتظة بخلق كثير،... وكان الرجل (العربجي) ذو الشاربين يلتفت من مقعده إلى جدّي، ويكلمه بالتركية... كان يعرِّفه بالشوارع، والمباني التي نمر بها ومنها ما سماه (السرايا)... وأخيراً (قلعة حلب).... ثم انطلق بنا في منعطفات كثيرة وشوارع أكثر ضيقاً من تلك التي مررنا بها ليقف عند بوابة ضخمة، وما كاد يقف حتى أسرع يهبط ويفتح البوابة ويغيب لحظات، ليعود ماشياً خلف رجل بادي الوجاهة، قالت أمّي لخديجة:

- أظن هذا هو الكيخيا.

- كانت حفاوة الرجل بجدّي وترحيبه به (باللغة التركية)، تؤكد نوعاً من العلاقة أو سابق المعرفة... وحين اجتزنا البوابة، بهرتنا تلك الحديقة الكبيرة بأشجارها العالية وفي وسطها ما يسمونه (بحرة) أو (بحيرة)، وهي البركة، وفي وسطها نافورة يتدفق منها الماء عالياً فوّاراً...

ما كدنا نتقدم خطوات، حتى ظهرت مجموعة من السيدات، والفتيات الشابات، ومنهن فتاة في مثل سني، في يدها كرة صغيرة، كانت تراوحها بين يدها والأرض... ومع عبارات الترحيب بأمي وخالتي، دخلنا قاعة كبيرة مترفة الأثاث، نوافذها تطل على

الحديقة، وأحواض الزهر والورد. وعلى البحرة بنافورتها القوية... أما جدّي فالأرجح أنه كان مع هذا الرجل الذي ظللنا لا نعرف له اسماً إلا (الكيخيا) في قاعة أخرى.

***

لا أذكر اليوم كم من الأيام ظللنا في ضيافة (الكيخيا)، ولكن ما زلت لا أنسى تلك الفتاة في مثل سني، والسلحفاة التي رأيت كيف تقف على قوقعتها... كانت المرة الأولى التي عرفت فيها أن في الدنيا حيواناً اسمه (سلحفاة)... وأنه رغم صغر حجمه يستطيع أن يمشي بمن يقف على قوقعته مسافات في الحديقة، والفتاة تراوح بين الكرة في يدها والأرض، وتملأ الحديقة مرحاً وضحكاً... كان الضحك دائماً عليّ أنا... لأني ظللت أخاف السلحفاة وأرفض أن أركب على قوقعتها كما تفعل هي... كان يضحكها خوفي فإذا طال رفضي، تهبط عن قوقعة السلحفاة، وتجري نحوي، وتمسك بيدي، فنمشي معاً إلى شجرة (التوت) الأبيض، وتقترح أن نتعاون على هشها، فنفعل، ونسرع نلتقط حبات التوت، ونلتهمها... لست أدري لم ظللت لا أرى أو لا أجد هذا التوت، حتى اليوم...

أذكر أن جدّي، كان يخرج في الصباح، وفي يده حقيبة جلدية صغيرة... فيها (العدّة) كما ظلّت أمّي تسمي هذه الأدوات التي يحفر بها (الأختام)... كنت أراه حين يعود قبل صلاة العصر، فيقول، إنه لا يزال يبحث عن بيت ودكان... وسمعته مرة يتحدث إلى الكيخيا عن البيت والدكان فيؤكد له هذا، أن البيوت القريبة من القلعة هي التي تؤجر (بالشهر)... أما الدكان فالأفضل أن يجد أي دكان بالقرب من (السرايا)... لأن جميع الناس في حلب، لا بد أن يراجعوا الحكومة في السرايا، ثم ينتهي الحديث بكلمات مجاملة، تطمئن الشيخ على أنه لا يزال محل الترحيب والإكرام.

وأذكر ذلك اليوم، الذي كنت فيه مع (مطيعة) في الحديقة ورأيت الكيخيا يدخل مسرعاً فيسألها عن جدي... وتسرع أمّي إليه، فيقول الرجل:

- الدولة ترحّل (المهاجرين) إلى أضنة... إذا أرادوا...

- ولكن نحن نريد الذهاب إلى المدينة المنوّرة...

- المدينة؟؟؟ أظن الطريق حتى إلى حماة والشام أصبح مغلقاً...

- يعني يا عمي، الكفار يمكن يدخلوا (حلب)... يعني عساكر السلطان يخرجوا منها؟؟؟

- الله أعلم يا بنتي... المهم الذي أريد أن أقوله للشيخ أحمد... إني أنا والجميع يمكن نسافر إلى اسكندرونة... ما نقدر نفضل في حلب أكتر من عشرة خمستاشر يوم... إيه رأيك تسافروا معنا؟؟؟ أظن الوالي يوافق.

- الوالي؟؟؟

- إيوه... إنتو لازم تاخدوا رأي الوالي...

لم أزل، حتى اليوم أجهل كل شيء عن حقيقة العلاقة بين جدي وبين الباشا في المدينة، ثم بينه وبين الوالي أو غيره في حماة، ثم في حلب... حكايا أمّي عن هذه الأيام وقد سمعتها منها مرات ومرات، لم أجد فيها تفسيراً، أكثر من أن جدّي كان شيخاً للطريقة (النقشبندية) وشيخاً للحجاج من (القازاق) و(التركمان)... ولا أستطيع أن أفهم أثر هذه (المشيخة) على الباشا في المدينة، أو في غيرها... بحيث كان - رحمه الله - يتمتّع برعاية خاصة... منها على سبيل المثال أن جرايته من خبز الشعير في حماة ومن علب اللحم المفروم و(القنيطة) كانت وافية وربما أكثر مما يحظى به الآخرون... فكانت أمّي توزع بعضها على الجارات من أهل المدينة أو من أهل حماة.... ومنها كذلك - وهو الأهم - استضافتنا في بيت الصابوني في حماة، ثم في بيت الكيخيا في حلب.

وقبيل صلاة العصر، رأيت جدّي يدخل الغرفة التي نشغلها، ليقول باهتمام:

- اليوم ننتقل إلى بيتنا... بالقرب من القلعة كما قال لنا الكيخيا... وقد وجدت دكاناً بالقرب من السرايا... هيا جهزوا كل شيء... قبل المغرب.

قبل أن تخبره، بما سمعت من (الكيخيا) قال:

- كثيرون من أهل المدينة، يسافرون إلى أضنة... وإلى استامبول...

- طيب... ونحن يا بويا؟؟؟

- نحن هنا... في حلب... وبعدين... إلى المدينة...

ثم أخذت يتحدث إليها بالتركية، حديثاً يبدو أنه كان سارّاً أو مطمئناً إذ سمعتها هي وخالتي ترددان:

- يا رب... يا رب...

***

الانتقال إلى بيت جديد بالقرب من القلعة تملكه عجوز اسمها «لتافت باجي»

كان واضحاً أن سكان الزقاق أو العطفة، التي استأجر فيها جدّي البيت الذي آوينا إليه أخيراً في حلب، لم يسبق أن شهدوا فيتون الكيخيا، الذي يجره حصانان مطهمان، ويقوده عربجي له كل ذلك المظهر المنتفش بشاربيه المعقوفين، وقبعته من الفرو البني، - وقد عرفت في ما بعد من أيام العمر أن اسمها التركي (كالبك) - يرتفقه ذوو الحيثية والمكانة من الناس، فإذا ارتفقه (العربجي)، فإن ذلك لا يعني أقل من أن صاحب العربة واحد من أكابر الناس وعظمائهم.

وفي اللحظة التي وقف بنا فيها الفيتون أمام بَاب البيت الذي أسرع جدّي فهبط من مقعده وفتح بابه، كان الذين تجمعوا حولنا من الأطفال، وحتى الرجال، يتساءلون متهامسين عنا: من نحن؟؟؟ من نكون؟؟؟ ومن أين جئنا؟؟؟ وكانت الشمس قد مالت إلى الغروب، وبدأ الظلّام يتسلل إلى مسارب العطفة. وحين شرع جدّي يتناول من العربجي المنتفش طرود المراتب، والصندوق الأسود، وبعض المتعلقات الصغيرة، كانت أمي وخالتي، قد دخلتا البيت، ويبدو أني كنت مرتاحاً إلى الجلسة في مكاني من الفيتون الفخم، إذ لم أهبط إلى أن فتح جدّي باب العربة، وهو يقول:

- أدخل... نادي لتافت باجي... هِيّه يمكن فوق.

دخلت دهليز البيت... ورفعت صوتي بالنداء.. لتَافَتْ باجي... لتَافَتْ باجي... ووجدت أمي، ترفع هي الأخرى صوتها بالنداء... لنسمع أخيراً صوتاً مرتعشاً يؤكد أن صاحبته عجوز وأنها آتية.

لم يطل انتظارنا، إذ رأينا هذه العجوز السوداء، في أعلى السلم، على أرنبة أنفها الأفطس نظارة بيضاء، وقد لفت رأسها بما يشبه عمامة سوداء، يبدو منها شعرها

الأبيض، تتوكأ على عكاز، بذراعها اليسرى، وفي يدها اليمنى مصباح صغير يكاد لا يملأ كف يدها، ولكنه يضيء طريقها في هبوطها إلينا... لم تكد ترى أمّي وخالتي والرضيع، وأنا إلى جانب جدّي، حتى أخذت ترحّب بنا بلغتها التركية، وبعبارات الترحيب المألوفة. ثم استدارت، وأخذت تمشي أمامنا إلى باب، فتحته، وهي تكرّر ما معناه: (تفضلوا...).

كانت غرفة فسيحة، خالية من الأثاث تماماً، ولكنها نظيفة، أرضها مبلطة ممسوحة وجدرانها بيضاً لا أثر فيها للغبار أو أنسجة العنكبوت، مما يدلّ على أنها بذلت جهداً طيباً لإعدادها للمستأجر... لم يكن في الغرفة ما يمكن أن نجلس عليه، وكانت خالتي ورضيعها في يدها، مرهقة تتلاحق أنفاسها... لم تستطع أن تظلّ واقفة، فرأيناها تكاد تسقط أعياء... رأتها العجوز، فأسرعت إليها تسندها وتساعدها على الجلوس على الأرض... كما أسرعت أمي، ومعها جدّي، يفككان المراتب... ويفرشان إحداها، ويساعدان خالتي على الانتقال إليها. كان جو الغرفة حاراً، والمصباح الصغير، في يد العجوز يكاد لا يضيء من الغرفة إلا المنطقة التي تقف فيها العجوز...، بحيث كنا نبدو في مواقفنا في أطرافها كالأشباح... ولأول مرة رأيت جدّي يلتمس مكاناً للجلوس إلى جانب خالتي... كان هو أيضاً مرهقاً يتصبب من جبينه العرق... التفت إلى العجوز، وأخذ يحادثها بالتركية التي يبدو أنها لا تتكلم سواها.. فاتجهت إلى جانب الغرفة مما يلي الباب، حيث فتحت نافذة عريضة تطلّ على الدهليز أو هو الفناء الصغير، واتجهت إلى الجانب الآخر المقابل، وأشارت إلى جدّي أن يفتح درف نافذة لا تصل إليها بقامتها القصيرة... وتنفّست الغرفة، إذ تخللتها نسمة باردة أنعشتنا.

ظلّت تلك العجوز السوداء لغزاً طوال تلك الليلة، إذ لم أعرف علاقتها بهذا المنزل. وإلى أن غلبني النعاس، كنت أنتظر وجبة العشاء التي لم أر لها أثراً... كما لم أر حتى محاولة تجهيز أي شيء يؤكل... وحين أغمضت عينيّ، كنت أتساءل، أين هذا المكان، الذي آوينا إليه في هذه الليلة، من ذلك القصر الذي غادرناه... وعلى الخصوص تلك المائدة الحافلة بألوان من الطعام نتحلّق حولها في المساء على أضواء تلك المصابيح الضخمة بزجاجاتها الملونة المزخرفة... وأين أولئك السيدات، في ملابسهن الزاهية، ومعهن (مطيعة) بضفائرها الطويلة، من هذه العجوز السوداء، وفي يدها هذا المصباح الذي يكاد لا يملأ كف اليد؟؟

استيقظت عند الفجر تقريباً، على حركة جدّي الذي رأيته يحمل إبريقاً ويخرج من باب الغرفة وحين أدرت بصري حولي رأيت أمي، وخالتي نائمتين وإلى جانب الخالة ابنها عبدالمعين، أما أنا فيبدو أني نمت إلى جانب جدّي الذي رأيت مرتبته مما يلي النافذة العريضة. كانت بقايا الظلّام لا تزال تستقرّ في أركان الغرفة... وذلك المصباح الصغير الذي كانت تحمله تلك العجوز السوداء، موضوعاً على الصندوق الأسود.

نهضت من الفراش ولحقت بجدّي، الذي رأيته في الفناء أو الفسحة الصغيرة والإبريق في يده، يريد أن يقضي حاجته ويتوضأ للصلاة... لمحني... وألقى عليّ نظرة أحسست بأنه يفكر في أمر له علاقة بي... اقتربت منه، فقال:

- هيا... اطلع فوق... وأنا معك...

واستلمت السلم، وأخذت أصعد درجاته القليلة لأقف أمام الباب المغلق... التفتّ إلى جدّي الذي كان يتابع خطواتي... وقفت متسائلاً، عما ينبغي أن أفعله أمام هذا الباب المغلق... أشار بيده أن أطرق الباب... وما كدت أطرقه مرة وثانية حتى انفتح.. لم يكن مغلقاً... كنت أتوقع أن تكون تلك العجوز السوداء هناك... ولكن لا أثر لها... أخذنا نتجوّل في المكان... أكثر من غرفة... كلها بادية النظافة. وقف جدّي امام إحدى الغرف، ودخلها ثم فتح درف النافذة وقال:

- خديجة... وعبدالمعين... هوا... شمس..

ثم رفعني بيديه إلى مستوى النافذة... وهو يشير بأصبعه ويقول:

- قلعة... قلعة حلب...

ورأيت منظر هذه القلعة جبلاً عالياً ممتداً يكاد لا يستوعبه النظر، ويحجب الأفق. فالناظر يكاد لا يرى ما وراءه أو ما يرتفع عنه، وفيه، على امتداده عرضاً وارتفاعاً، مبانٍ تبدو كأنها محفورة في قلب الصخر...

حين عاد أوقفني على أرض الغرفة، وكان الذي يشغلني تلك العجوز السوداء، أين هي يا ترى؟؟؟ وإذا لم تظهر، فمن الذي سيجهّز لنا وجبة الإفطار؟؟؟ في بيت الكيخيا، كنت لا أكاد أستيقظ وأخرج إلى تلك الحديقة الغنّاء، حتى أسمع من يناديني لهذه الوجبة، ويسمونها "كسر السفرة" وأجد مقعدي إلى جانب مطيعة وفي عينيها لمسة نُعاس وكسل... وتلك الألوان من المآكل ومنها الدبس واللبْنة، وأكواب الحليب، والشّنْكليش، وأرغفة الخبز التي تعد في المنزل ويسمونها "الخبز

التنّوري"... وها نحن في منزل هذه العجوز السوداء، ولا شيء يدل على أننا سنأكل شيئاً - أي شيء - ولم أنس أننا لم نتناول شيئاً حتى الماء منذ دخلنا هذا البيت.

هممت أن أسأل جدّي، ولكني كنت قد نسيت تماماً اسم العجوز... ومع ذلك وجدت نفسي أقول له:

- هيّه فين؟؟

- في بيتها...

- وفين بيتها؟؟؟

واكتفى بإشارة من يده فهمت منها أنها تسكن بيتاً بجانبنا. رفع بصره إلى النافذة وكان ضوء الفجر الآن، يملأ الأفق، فأسرع وفي يده الإبريق، وفتح باباً صغيراً دخل منه إلى حيث قضى حاجته وتوضأ وأسرع فخلع جبّته، وبسطها وبدأ الصلاة.

ومن دون أن يوقظ أمي، همس يأمرني بأن ارتفق حذائي... وانحنى يساعدني على إدارة أربطته وبهدوء أخذ يدي في يده وخرجنا إلى الشارع... لم ينس أن يغلق الباب، ويدير مفتاحه بإحكام وانطلقنا نخرج من العطفة إلى الشارع على امتداد القلعة... يبدو أن الوقت كان لا يزال مبكراً... كان الذين يمشون على الرصيف الحجري الطويل أمامنا، عدداً قليلاً من الناس... معظمهم في أسمال بالية، على أكتافهم حبال أو ما يشبهها. حركتهم بطيئة متكاسلة... منهم من يمشي في الاتجاه نفسه الذي نمشي فيه ومنهم من ينطلق في الاتجاه المضاد... لم يطل بنا المسير لنرى تلك العربات الطويلة التي تحمل جثث الموتى... عربتان... ثلاث... ثم صف طويل منها فيها جنود مدججون بالسلاح... كانت رائحة جثث الموتى لا تطاق... كان واضحاً أن الموتى جنود أيضاً... وقبل أن يمر هذا الموكب الرهيب، ملأت الجو جلبة عربات لا تجرها البغال أو الخيل... عرفت مع الأيام أنها سيارات... يقودها ويرتفقها جنود مدججون بالسلاح أيضاً... قال جدّي وهو يرمقهم بنظره.

- ... ألمانْ... ألمانْ...

لم أكن أدري إلى أين يذهب جدّي في هذا الوقت المبكر من الصباح... إلى أن وقف أمام بوابة كبيرة، يقف أمامها خلق كثير... في أيديهم محافظ أو دفاتر في حجم جواز السفر.. ما كاد جدّي يتسلل بين الواقفين حتى عرفه أحدهم، ثم آخر... ثم ثالث... كانوا من أهل المدينة... ولكن ما أشد هزالهم... وشحوب وجوههم...

معظمهم يلف رأسه بخرقة أو قطعة بالية من القماش... واحد فقط كان يعتمر "العمامة المدنية" ولكن من دون جبة... رأى جدّي فأسرع إليه يصافحه ويتحدث معه بالتركية... وناول جدّي المحفظة التي يحملها. وهو يكرّر عبارات الشكر.

كانت المسألة كلّها استلام الجراية من خبز الشعير وعلب اللحم المفروم، والقِنّيطة. وكان هؤلاء المتزاحمون على البوابة، يتلاحقون في الدخول ليتناولوا من رجل يطلع على هذه المحفظة ثم يأمر أحد الواقفين إلى جانبه، بتقديم العدد المقرر من أرغفة الخبز "من الشعير" وعلبة اللحم المفروم... والعدد المقرر من "القِنّيطة"... كان واضحاً أن هؤلاء كلهم من أهل المدينة الذين هجّرهم فخري باشا، إلى الشام، ومنها الآن إلى حلب.

وضع جدّي جرايته، في كيس كان مطوياً تحت إبطه... وتناول يدي في يده وخرجنا، إلى الشارع... كان الآن أكثر ازدحاماً بالناس، وبمسيرات الجنود وبالعربات تنقل جثث الموتى... وبالسيارات التي يرتفقها ويقودها أولئك الذين قال جدّي إنهم "ألمانْ". وتوقف جدّي يسأل عن السوق أو عن دكاكين تبيع ما أدركت أنه يريد شراءه من مأكولات... أشار له أحدهم إلى عطفة مسقوفة دخلناها لنجد صفين من الحوانيت الصغيرة، ومعروضاتها من الخضروات، والجبن ومَرْطَبانات تعلّمت مع الأيام أنها لزيت الزيتون... والزعتر، ومخلل الفلفل... كان جدّي يتوخى أن يجد البيض، والخبز من القمح أو الدقيق الأبيض، ولكن لم يكن في أي دكان شيء من هذه الألوان...

كان يحاول أن يستفسر عن السوق الذي يجد فيه المأكولات... وقف أمام صاحب دكان أمامه، وأخذ يتكلّم بلغته العربية الضعيفة، والتي تؤكد أنه لا يعرف إلاّ التركية... ما كاد يلفظ بضع كلمات، حتى وقف إلى جانبه شاب... ثم آخر... ثم ثالث... ثم لحق بهم، رجل يضع على رأسه عمامة تشبه العمامة التي يرتفقها جدّي... كان الشبان ينتهرون جدّي ويرفعون أصواتهم بكلمات عربية فهمت أنا منها أنهم لا يريدون سماع اللغة التركية التي يتكلّمها... كانت الدهشة بادية على وجه جدّي، إذ يبدو أنه لم يواجه موقفاً كهذا قط... كان الشبان صغاراً، أحدهم من دون الحلمْ، يرتدون سراويل واسعة ولكنها ضيقة في اتجاه الساقين، وأقمصة من قماش مخطط بألوان، وعلى رؤوسهم قبعات ذات نهايات كالطرطور... استطاع الرجل أن يفض الاشتباك، منتهراً الشبان، في اشتباكهم مع رجل في عمر جدّهم بكلمات مثل:

"عيب... حرام... رجل... غريب..." إلخ... وعندما انصرفوا جعل الرجل يحدّث جدّي بلغة تركية، وهو يرافقه في خروجه إلى عطفة أخرى في السوق المسقوف... ولعله كان يطيب خاطره ويلتمس لتصرفات الشبان عذراً... أنا من جانبي لم أفهم شيئاً بالطبع... ووجد جدّي ما يريد شراءه... قطعة الجبن... والبيض... وكمية من السكر أسمر اللون، وأربعة أرغفة صغيرة من خبز القمح... وفي طريق عودتنا إلى المنزل على امتداد المساحة التي تحتلها القلعة، رأينا المشاهد نفسها... عربات نقل الموتى... جثث بلا أكفان... متراكمة في تلك العربات... وواضح أنها ليست لجنود... خطر لي أن أسأل جدّي... من اين يجيء هؤلاء وإلى أين يذهبون بهم؟؟؟ ولكنه كان بادي الانفعال والغضب... أعرف ذلك حين أرى حاجبيه يتجمّعان، على أعلى أنفه، وكأنهما ينتفشان... فالتزمت الصمت... ولم يطل بنا المسير لنرى صفاً طويلاً من عربات تجرها البغال... عربات تحمل ما عرفت مع الأيام أنها مدافع طويلة المواسير لامعة السواد، ثم عربات أخرى... سيارات فيها أولئك الألمان... وأعداد كبيرة من الجنود، وأنواع من الأسلحة... كلّها تتجه بمحاذاة القلعة في الاتجاه نفسه الذي نسير فيه...

عندما فتح جدّي باب المنزل بالمفتاح الذي يحمله، كانت أمّي والعجوز السوداء في الفناء الصغير... تتحدثان باللغة التركية... رحّبت العجوز بجدّي، وقالت أمّي وهي تبتسم:

- لتافت باجي، يا بويا، جابت لنا حليب لعبد المعين... وبيض لخديجة... والشاهي كمان...

قالت العجوز السوداء كلاماً طويلاً، لم أفهم منه شيئاً... ولكن لا شك أنه ترحيب ومجاملات وشيء من هذا القبيل... وكان جدّي في وجهه الكثير من الامتنان... وعندما دخلنا الغرفة وتحلّقنا حول ما بسطته أمّي "كمائدة"، وجالستنا العجوز... قالت أمّي وهي تلتفت إلى العجوز:

- يا بويا... لتافت باجي بتقول... العرب كلهم بيحاربوا عساكر السلطان.

- العرب كلهم؟؟ غير صحيح... عرب في مصر... عرب في طرابلس الغرب... عرب في اليمن... عرب في بغداد... كلهم... كل المسلمين في الدنيا... يساعدوا... يحاربوا الكفار... إنكليز... نصارى... يونان... بلغار...

يبدو أن لتافت باجي لا تجهل اللغة العربية، إذ أخذت تقول بلكنتها وصوتها المرتعش:

- عرب في الشام... في حماه... كمان في حلب... أطراف... طرق... كله... كله..

وقطع الحوار فجأة صيحات بكاء عالية التفتت معها لتافت باجي، وهي تقول:

- مات!!! إنا لله وإنا إليه....

سألها جدّي، وأمي، وحتى خالتي، في تفجّع ورعب...

- مين؟؟؟ مين الي مات؟؟

نهضت لتافت باجي مسرعة وهي تقول:

- أبو داود... داود.. كمان عبدالرحمن... تيفوس... تيفوس... اللهم احفظنا يا رب مسكين...

أخذت تقول كلاماً طويلاً... فهمت في ما بعد أن "أبو داود" هو أحد الجيران... وأن ابنيه داود، وعبدالرحمن، قد ماتا بحمى التيفوس... وهو أيضاً... ولكن المشكلة هي أن عائلة هذا الرجل... لم يبق فيها رجل... وزوجته العجوز... وبنتاه الصبيتان فقط... فمن يجهّزه ويقوم بإجراءات دفنه؟؟؟

***

إصابة جارنا «أبو داود» بحمى التيفوس والذعر من انتشار هذا المرض الوبائي

بعد أن أفضت "لتافت باجي" بمعلوماتها الضافية عن "أبو داود" عن حياته وعن ابنه داود الذي كان نجاراً ماهراً... ينفق من دخل عمله على الأسرة، بعد أن تقاعد أبوه عن العمل في "السرايا"... وعن ابنه عبدالرحمن الذي كان مدرّساً في المدرسة المجاورة ثم أصيب بحمى "التيفوس" ومات، ولحقه داود، وها هو الأب نفسه يلحقهما... بعد حديثها الطويل مدّت يدها المرتعشة إلى صدرها حيث أخرجت منديلاً نظيفاً، ثم أزاحت نظارتها عن عينيها وأخذت ترقأ الدموع وقد غطت جوانب أنفها الأفطس المفلطح... واستدارت تتجه نحو الباب وهي تتوكأ على عصاها وتردد بصوتها المرتعش الباكي "إنا لله وإنا إليه راجعون".

وبينما كنت أواصل التهام نصيبي من الخبز وقطعة الجبن، وحبة الخيار الصغيرة، أدهشني جدّي حين هبّ ناهضاً، وهو يمسح فمه بمنديله، ولحق بالعجوز، وهو يستوقفها، ثم يلتفت إلى أمّي وخالتي، يحدثهما بنبرة محذّرة... لم أفهم منها شيئاً... ولكن بعد أن خرج وراء العجوز قالت أمي:

– طيب... كان لازم هوّه كمان، ما يدخل البيت... بيقول إنّو هادي الحمى تعدي.

وقالت خالتي معقّبة:

– ولتافت باجي كمان... دحّين راحت، ورايحة ترجع تجينا من بيت الميت... يعني تجيب لنا الحمى معاها...

وأضاقت أمي:

– أنا سمعت من حماة... إنو هادي الحمى هي اللّي بتموّت الناس... في الشام، وفي حماه... وفي حلب... وحتى في استامبول... وكمان بيقولوا ما لها دوا... حتى عساكر السلطان، بيموتوا بسببها..

والتفتت إليّ خالتي وهي تقول:

- انت سامع؟؟؟ يعني لازم ما تخرج من باب الزقاق أبداً...

لم يكن في وسعي طبعاً أن أفهم العلاقة بين الخروج من باب الزقاق، وبين هذه الحمّى التي يموت الناس بسببها... وارتفعت في هذه اللحظة أصوات الباكيات في بيت "أبو داود". وأدركت، أو لعلّي تصورت، أن هذا الموت، شيء رهيب مخيف إلى أقصى حد... وطافت بذهني - وأنا لا أزال ألتهم الخبز والخيار - ذكرى جدتي - والدة أمّي - التي قالوا إنها يوم ماتت، نقلوها إلى "الجنة"... والجنة كما ظللت أسمع، هي المكان الذي فيه الكثير من الأشجار والينابيع، والطيور، والأزهار... وحتى الورد، والنغارى التي تغرّد وتنادي في تغريدها "خديجة" وتردّد "غداً... خديجة غداً... غداً..."... وتذكرت ذلك القفص الصغير، الذي كانت تحمله معها تلك الفتاة السوداء التي تحمل أخي عبدالغفور على خاصرتها يوم خروجنا من بيتنا في زقاق القفل بالمدينة إلى "البابور"... كان في القفص هذا النغري الذي غاب وأرجّح أن الفتاة السوداء قد عادت به إلى البيت بعد سفرنا... وتساءلت ربما للمرة الأولى: إذ كان الذين يموتون ينقلون إلى تلك الجنة... فأين هي؟؟؟ ولماذا لا نسافر إليها ما دمنا نسافر منذ ذلك اليوم الذي ركبنا فيه ذلك البابور من المدينة إلى الشام وإلى ما بعدها من هذه البلدان. ولكن، في هذه اللحظة من تلاطم الأسئلة في ذهني، عاد نواح الباكيات يرتفع، ورأيت في عيون أمّي وخالتي دموعاً تكاد تنذرف، فإذا بي أتساءل بيني وبين نفسي... ترى ما الذي يجعل كل هؤلاء يبكون، أو يبكين، ما دام المعروف أن الذي يموت يذهب إلى تلك الجنة التي قالوا، إن جدّتي، وحتى عبدالغفور قد ذهبا إليها؟؟؟ ومع ارتفاع نواح الباكيات، وما أخذ يزحف على ملامح أمّي وخالتي من التغيّر معبراً عن الفجيعة والخوف أو هو الحزن والأسى، داهمت ذهني مناظر تلك العربات التي تحمل آدميين، قال جدّي حين رأيناها لأول مرة في الشام إنهم "أموات"، وأخذ يقرأ الفاتحة، ويردِّد "إنا لله وإنا إليه راجعون..." وما أكثر العربات التي رأيناها بعد ذلك تنقل هؤلاء الأموات، ومنها هذه التي رأيناها صباح اليوم، ونحن في طريقنا على امتداد شارع قلعة حلب لاستلام الجراية من الخبز، ولشراء ما اشتراه جدّي من المأكولات... جميعهم ينقلون إلى "الجنّة" من دون شك.

فأين هي؟؟؟ ما الذي يمنع جدّي أن يأخذني، أو يأخذنا جميعاً إليها؟؟؟

نهضت أمي، وتبعتها خالتي وفي حضنها عبدالمعين، واتجهنا نحو باب الغرفة ثم إلى الفناء الصغير... حيث كان نواح الباكيات يملأ الفضاء حولنا.. وارتفع صوت خالتي فجأة يستوقف أمّي التي رأيتها تتجه نحو باب الزقاق...

- لا يا ستيته... لا تروحي... إنتي عارفه إنّو هادي الحمى تعدي...

- طيب وأبويا؟؟؟ ايش قاعد يسوّي مع لتافت باجي؟؟؟ أبغا أقول لهم لا يمسكوا الميت.

- باين يا ستيته إنهم خارجين بالميت دحّين... شوفي صوت البنات قريب من الباب يمكن يكونوا في الزقاق... تعالي إنتي... وأبويا دحّين يجو...

قبل أن تصل أمّي إلى باب الزقاق، اقتنعت في ما يبدو بعدم الخروج فوقفت... واستدارت نحو موقفي أنا وخالتي عند باب الغرفة... وقالت تخاطبني:

- هات الملاية... شوفها فوق الصندوق..

أدركت أنها تنوي الخروج... تنوي أن تذهب إلى بيت هذا الذي مات... وملأني رعب شديد كاد يجمّد أوصالي... دخلت الغرفة، ورأيت الملاية فوق الصندوق كما قالت... فلم أتقدم لأخذها... وقفت بعيداً عنها... بل سرعان ما جلست... وفي ذهني جميع هذه الأمور والأفكار التي لا تزال تتراكم عن الموت والأموات... وعن هذه الجنة التي يذهبون بهم إليها... لم أستطع أن أفهم سبب بكاء الباكيات، بل سبب هذا الخوف التي انتابني أنا أيضاً... ولأول مرة ربما رأيت أو أحسست بالدموع تتلاحق من عينيّ، وتملأ حتى أنفي، بحيث وجدتني استفرغه على كم ثوبي... سمعت صوتها تستعجلني... مرة وثانية وثالثة... ولكن لم أكن أستطيع حتى أن أرفع صوتي بأي كلمة...

أحسست بكفيّ خالتي تحتضنان وجهي، وهي تهتف بي:

- عزيز... عزيز... إيش بك يا عزيز؟؟؟

وقبل أن أجيب بشيء... أحسست بأن أمّي داخلة وهي تعنّفني... كانت المائدة التي كنا نتناول حولها فطورنا لا تزال على الأرض... قالت بنبرتها الصارمة:

- أقول لك جيب الملاية... تقوم تقعد تتسمّم؟؟

هذا الذي خطر لها وهي تراني جالساً، وخالتي لا تزال تحتضن وجهي بين كفيها الصغيرتين الرقيقتين:

- لا يا ستيته... عزيز... قاعد يبكي... شوفي جبينه عرقان... يمكن ما هو قادر يقوم عسى ما تكون هادي الحمى...؟؟؟

وأسرعت أمّي إليّ... جلست أمامي... أخذتني على صدرها وفي حضنها... ورأيت في عينيها الفجيعة واللهفة والقلق وهي تردد..

- قولي خير يا خديجة... برّه وبعيد... هاتي لي كاسة موية... شوفي في الصندوق قارورة ماء الزهر... هاتيها قوام...

وبينما نحن على هذا الحال... دخل جدّي وهو يقول:

- فاطمة... شرشف... شرشف قوام..

- شرشف؟؟؟ شرشف ايه يا بويا؟؟؟ شوف عزيز ما أدري ايش بو؟

- عزيز؟؟؟

وأسرع إليّ، وضع كفه على جبيني... وأخذ يتلو همساً... ثم رفع رأسه إلى أمّي وهو يقول:

- ما في شي... عزيز... قوم... قوم دحّين سوا سوا... نروح (السرايا..)

ثم التفت إلى أمي، يستعجلها أن تعطيه (شرشف)... وكان واضحاً أن أمّي لم تفهم شيئاً... ولكنها نهضت... وأخرجت من الصندوق الأسود قطعة مطويّة من القماش... زرقاء اللون... رآها جدي... فأسرع يقول:

- لا... لالا... شرشف أبيض...

- إيش تبغو به؟؟؟ الشرشف الأبيض، بنفرشه على المرتبة اللّي بنّام عليها.

- هادا.. أبو داود... ما فيه فلوس... ما في كفن..

- طيب يا بويا... أهله يمكن عندهم شرشف أبيض... قولوا لهم يعطوكم اللّي تبغوه...

- فيه ثلاثة شراشف بيض... لكن كلّه وسخ... كفن لازم يكون طاهر... نظيف...

- طيب يا بويا... هادا الشرشف الأزرق طاهر نضيف... الشراشف البيضا نحن بنّام عليها. وقبل أن يتناول جدّي قطعة القماش الزرقاء، سمعنا عكاز لتافت باجي وهي تتقدم في الفناء يسبقها صوتها المرتعش الباكي... وهي تقول:

- شيخ أفندي... شيخ أفندي...

وبلغتها التركية قالت ما فهم منه جدّي، أن مشكلة (الكفن) قد انتهت... ولكن بقيت مشكلة نقله من البيت إلى المقبرة...

كانت أصوات النائحات لا تزال تتلاحق... حين أسرع جدّي يتجه إلى الباب وهو يردّد:

- لا حول ولا قوة إلا بالله...

وقالت أمّي تحدث خالتي:

- طيب، كيف يسوّوا... يعني يفضل الميت في البيت؟؟؟ ما عندهم تابوت... وما في أحد يشيل الجنازة...

- يعني أهل حلب هادي بيدفنوا اللّي بيموتوا في بيوتهم؟؟؟

- لأ يا خديجة... أنا لما كنا في حماه سمعت أنهم في حلب، وفي الشام كمان بيخلّوا الحكومة هيّه اللّي تشيل اللي بيموتوا... وتدفنهم في حفر كبيرة... كل عشرة وعشرين مع بعض...

- طيب ليه يا ستيته؟

- عشان اللّي بيموتوا كتيرين... كتيرين بالمرة... بيلتقوهم أموات في الأزقة وفي المساجد... وحتى في الشوارع والأسواق... تقوم الحكوم تلمّهم، وتشيلهم في العربيات... وتدفنهم مع بعض في هادي الحفر...

لم يعد جدّي إلينا، ومعه لتافت باجي إلاّ بعد فترة طويلة من الزمن... وحين دخل الغرفة، خلع عمامته عن رأسه، كما خلع جبّته السوداء، ومسح بمنديله الكبير العرق الذي كان يتفصّد من جبينه... واستلقى على إحدى المراتب التي كانت هي كل ما يكسو الغرفة من الأثاث. كان واضحاً أنّه قام بجهد أرهقه أشد الإرهاق... لم يجرؤ أحد على أن يوجّه إليه أي سؤال عن مصير جثمان (أبو داود)... كان عبدالمعين في هذه اللحظات يرفع صوته بالمألوف من مناغاة الأطفال... أخذته خالتي عن الأرض إلى صدرها ثم نهضت تبتعد به عن الغرفة حرصاً على عدم إزعاج جدّي... لاحظها، وهو مضطجع وذراعه على جبهته... فقال:

- لا... لا تبتعدي به... إنتي يا فاطمة... سوّي شاي...

نهضت أمّي مسرعة، وبعد أن خرجت إلى الفناء سمعناها تنادي لتافت باجي، ثم

ابتعد صوتها، مما جعلني أدرك أن تلك العجوز، هي التي تزوّدنا بالشاي كما فعلت في الصباح. واستطاعت خالتي، أن تسكت صغيرها، وهي تناوله ثديها، وبدا أن جدّي قد أخذته سنة من النوم لحظات، وجدت ذهني خلالها يسترجع الكثير مما سمعت عن الموتى، وعن حكاية حاجة الميت إلى ما يسمّى الكفن، وأن مصير هؤلاء الذين يموتون، هو أن يدفنوا في الحفر الكبيرة... فهم إذاً، لا ينقلون إلى الجنة كما ظللت أسمع عنهم... وتساءلت:

- ترى لماذا يموتون؟؟؟

بل لماذا يزعم الناس، أن الذين يموتون ينقلون إلى الجنّة؟؟؟

تكشفت لي حقيقة أحسست بأنها تعصر قلبي عصراً ... وهي أن جدّتي، وبعدها عبدالغفور، قد دفنا في هذه الحفر، كما يدفنو جميع الذين يموتون... وماذا بعد ذلك؟؟؟ وكأني اكتشفت مع هذا السؤال، ما يفسّر حكاية الجنّة التي يذهبون إليها... وجدت نفسي أقول:

- الطريق إلى الجنة... هو الدفن في تلك الحفر... من تلك الحفرة إلى الجنة... خطر لي أن أسأل جدّي عن كل هذه الألغاز... فهو وحده الذي يعرف كل شيء... ولكنه سريع الغضب... ليس من السهل أن يسمع منّي أنا كلاماً من أي نوع... كان سلوكي معه أو سلوكه هو معي ينحصر في أن يأمرني بما يريد أن أقوم به من خدمات صغيرة... منها أن يأخذ يدي في يده... وينطلق بي إلى حيث يذهب للتسوق، أو لأي غرض من الأغراض.

لم يمض وقت طويل لتدخل أمّي بصينية عليها براد الشاي، وثلاثة أكواب... وهي تقول:

- لتافت باجي، تقول إن مرسول من بيت الكيخيا جاء يريد أن يكلّمكم يا بويا..

التفت جدّي، وعرك عينيه... ثم جلس،... وتساءل:

- من بيت الكيخيا؟؟؟ أين هو؟؟؟

رسالة مفاجئة لجدي
تعلن عن قدوم «عبدالغني» خلال أيام

قبل أن يهم جدّي بالنهوض من مجلسه، تابعت أمّي تقول، وهي تلاحظ ما بدا عليه من الاهتمام:

- يا بويا... المرسول لمّا جا إنتو كنتو مشغولين بالجنازة... لتافت باجي بتقول، المرسول، قال الكيخيا، يبغا يشوفكم.

وأسرع جدّي بالنهوض من مجلسه... وكما هي عادته، ارتفق عمامه، وجبّته السوداء وتحسّس جيوبه في صدره وعلى جنبيه... وقال:

- لازم خبر مهم... مهم كتير...

إنتو رايحين بيت الكيخيا...؟؟؟ هادا يا بويا بعيد كتير... لازم تاخدو عربية.

وضحك جدّي ضحكة خفيفة ساخرة وهو يقول:

- عربية؟؟؟ فين فيه عربية؟؟؟ أنا لازم نمشي... ويمكن ما أرجع إلاّ في المغرب...

نجيب دجاجة... هناك فيه سوق كبير... فيه دجاج... فيه لحم... فيه سكر كمان...

وقاطعته خالتي، تقول:

- يا بويا... خلّو الدجاجة، واللحم والسكر بعدين...

وأضافت أمّي تقول:

- أيوه يا بويا... الموجود يكفينا اليوم وبكرة كمان...

قبل أن يخرج من الغرفة... أدخل يده في جيب صدره... وأخرج كيس النقود ورفعه بيده ضاحكاً وهزّه لنسمع صوت قطع النقود فيه... كأنّه يطمئننا أنه يستطيع أن يشتري الدجاج واللحم والسكّر وخرج من الغرفة إلى الفناء... لنسمع باب الزقاق يُطرق، وخطوات جدّي تبتعد في اتجاهه..

... لم تكن لتافت باجي هي التي تطرق الباب، لأنها - كما أدركت في ما بعد - تستطيع أن تجيء إلى منزلنا... وأن تذهب إلى منزلها المجاور عبر باب صغير في الدور العلوي... لم يطل تطلعنا وانتظارنا فقد عاد جدّي وهو متهلّل الأسارير... وقبل أن يسمع أي سؤال من أمّي أو خالتي قال:

- مكتوب... مكتوب... من عبدالغني....

أخذ يفتح الغلاف، بتؤدة، ونشر الرسالة أمام عينيه وشرع يقرأ بينه وبين نفسه... ثم التفت إلى خالتي، وهو يناديها بنبرة لا تخلو من فرحة وحنان:

- خديجة... خديجة...

ثم جعل يكلمها بالتركية... ثم يكمل بعربيته الضعيفة.

- عبدالغني... فيه مأذونية... أر بعة أيام... يجي هنا... حلب... يمكن بعد ثلاثة أيام.

ثم التفت إلى أمّي وكلّمها بالتركية، كلاماً لم أفهم منه شيئاً باستثناء اسم (سلطان مراد)... وكنت كثيراً ما سمعت هذا الاسم يتردد في الأحاديث التي تدور بين أمّي وخالتي بحيث، استقرّ في ذهني أنه ابن عمّهما... جاء إلى المدينة بعد الحج... وقبل أن يعود إلى (خيوة) في بلاد التركمان، أغلقت الحرب الطرق... فلم يستطع أن يعود... وتقدم أو تطوّع للجهاد... وكان نصيبه أن يعمل هو أيضاً في (البابور)... بين المدينة والشام أو هي تلك المدن التي تغطيها سكة حديد الحجاز... ولم يكن لها عندنا اسم سوى (البابور)... ذلك الشيء الرهيب الذي يقترن في ذهني بشخصية (الباشا)... والباشا هو الذي رحّل أهل المدينة المنوّرة عنها إلى بلدان الشام، ولم يحدث قط أن رأيت (سلطان مراد) هذا، وحتى عبدالغني زوج خالتي خديجة، أكاد لا أذكر ملامحه، لأني لم أره إلا مرة أو مرتين ربّما قبل ترحيلنا من المدينة... ولكني أعرف أنه زوج خالتي، وبعد ميلاد عبدالمعين، أدركت أنه والد عبدالمعين... وأن خالتي كثيراً ما كانت تتساءل: (ترى متى يجيء عبدالغني ليرى ابنه عبدالمعين؟؟؟)... وكان ما تجيب به أمّي دائماً هو: (الله كريم... فرج الله قريب).

والآن ها هو جدّي يبشّر خالتي أن عبدالغني قادم ربما بعد ثلاثة أيام... وها هي خالتي تحتضن عبدالمعين، وتدلـله قائلة: (بكره بابا يجي... ونروح المدينة... وتصير رجّال... إلخ. إلخ..)..

أعجز الآن عن تفسير ذهولي أو عدم اشتغال ذهني الصغير، بسؤال عن والدي...

أبي... الذي لم أكن أسمع أحداً ينتظر مجيئه... كما لم أسمع أمّي تتساءل كما تفعل خالتي (ترى متى يجيء زاهد، ليراني أنا ابنه؟)... كما سوف يرى عبدالغني ابنه عبدالمعين؟؟؟ كان يدور بذهني بكاء أمّي يوم مات عبدالغفور... وكلامها عن أبي الذي لم يره... وأنه لو كان موجوداً لما تصرّف جدّي معه ذلك التصرف الذي ظلّت هي وخالتي تزعمان أنه السبب في موته... أرجّح اليوم بعد هذا العمر الطويل، أن ما قاله ذات مرة جدّي عن أن الحرب قد أغلقت طريق عودته من روسيا، قد مسح عن ذهني، أو مشاعري، الأمل في عودته ومن ثم رؤيته، إلى أن تفتح هذه الطرق... التي لم أكن أتصوّر بالطبع كيف أغلقت، فضلاً عن أن أتصوّر كيف تفتح ومتى؟

***

بعد هذه البشرى، عن قرب مجيء عبدالغني، بدا كأننا نعيش حالة ارتياح ودعة واطمئنان، وكانت لتافت باجي من جانبها عنصر تفريج أو ترويح، بل زادت على ذلك... أن أخذت على عاتقها، أن تؤثث غرف الدور العلوي، وفيه تلك الغرفة التي قال جدّي إنها لخديجة، إذ فيها الكفاية من الشمس والهواء... وحين دار بين جدّي وأمي حديث عن هذه البادرة الطيبة من هذه العجوز، وكم ينبغي أن يدفعوا لها إضافة إلى أجرة المنزل.. قال جدّي إنّه قد فاتحها في ذلك، فاحتجّت غاضبة، وقالت إن كل قطع الأثاث التي وضعتها زائدة على حاجتها، وكانت دائماً في المخزن، وتسميه (الكيلار)... ثم قالت إن كل ما أثثت به المنزل، ليس أكثر من أبسطه، و(كرويتتين)... ثم أضافت ما معناه أن خديجة (عروسة) تذكرها بابنة سيدها الذي انتقل منذ الحرب، إلى استامبول... والعروسة لا بد أن تكون لها غرفة وسرير ومرتبة إلخ... وهذا كل ما زوّدتها به من الأثاث...

مع أن الغرفة في الدور الأرضي كانت واسعة ونظيفة، فقد اختار جدّي غرفة في الدور العلوي، قريبة من الحمّام، لها تلك النافذة التي ما زلت أذكرها حتى اليوم... صغيرة نسبياً وعالية... تسمح بدخول الضوء والقليل من الهواء، وكانت الغرفة مفروشة بالبساط الذي تبرّعت به لتافت باجي، وإلى أحد جانبيها بسطت أمّي مرتبته، التي ينام عليها دائماً. وتلك الحقيبة من الجلد البني اللون، فيها كتابه الضخم، وكتب أخرى، ما زال يحرص على ألا يفقدها.

أمّا خالتي خديجة، فقد ظهر بوضوح أنها تشعر بسعادة غامرة، منذ جاءتها بشرى

قرب مجيء عبدالغني... وفي تلك الغرفة التي أحسنت تأثيثها لتافت باجي ومعها أمّي رأيتها على ذلك السرير الجميل من النحاس. وأغطيته الوردية اللون، ووسائده المؤطرة بالدانتيلا... وهو صغير، لشخص واحد، قالت لتافت باجي إنه كان السرير الذي تنام عليه سيدتها الصغيرة الشابة.

كان عبدالمعين في حضنها، ظاهر الضعف والهزال، وكانت أمّي هي التي تتولّى تغيير حفاضه كلّما اتّسخ... لأن خالتي كانت تحتاج إلى هذه المساعدة، بعد أن أصبح (الإسهال) الذي يعانيه عبدالمعين مشكلة، أو حالة، يبدو أنها أصبحت تلازمه رغم كل ما جرّعوه من الأدوية، ومنها في ما لا زلت أذكر ما يسمّى (المحلب)... و(الكراوية) إضافة إلى تلك السوائل في الزجاجات التي يجيء بها جدّي من الصيدلية.

راق لي أن ألازم خالتي، أو الأصح، (غرفتها) الجميلة بأثاثها، وبالشمس والهواء فيها... كان يضايقني بكاء عبدالمعين، عندما تجرّعه أمّي الدواء أو تغيّر له حفاضه، ولكن كان يستهويني أن أرى خالتي وهي تحتضنه، وتناغيه، أو تمرجحه على ساقيها كما كانت تفعل عندما تنوّم عبدالغفور... لا بد أن أقول اليوم، إنها كانت جميلة.. بل قد لا أبالغ إذا قلت، إني حتى اليوم وبعد هذا العمر الطويل، ما زلت أذكر جمالها الرائع، كلّما وقعت عيناي على صورة فتاة من أولئك اللائي اختارهن كبار الفنّانين في أواخر وأواسط القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لتجسيد صور الملائكة، أو حوريات الفراديس والجنان.

كانت، إذا نام عبدالمعين، تستدعيني إلى جانبها، وتحتضنني بين ذراعيها وعلى صدرها بلهفة حميمة، فأستكين، ولعلّي أتمنى ألا أنفصل عنها... لكن تلك السعلة اللعينة، التي أصبحت الآن تكاد لا تتوقف إلا لتعاودها، تضطرها إلى التخلّي عن عناقها واحتضانها لي،... وهي تمسح بيدها الرقيقة الناعمة الصغيرة وجهي ورأسي... أحسست أكثر من مرة بأن يدها أكثر دفئاً أو حرارة من وجهي... كانت أمّي حين تراها تسعل تسرع، فتتحسّس جبينها وجيدها، وصدرها... فتجيئها بزجاجة العلاج، وإذا كان وقت وجبة الغداء قد حان، فما أسرع ما تجيئها بـ(المسلوقة).

كان الجميع، في انتظار عبدالغني... وكان المنتظر أنّه سيجيء بعد ثلاثة أيام ولكن، هذا لم يمنع أن تلتفت خالتي، وترهف السمع كلما سمعت أو أحسّت بحركة أو وقع أقدام فناء في الدور الأرضي... كنت أرى هذه الالتفاتة، فأترك الغرفة مسرعاً

وفي نفسي أن أدخل عليها مع عبدالغني... ولكن سرعان ما أعود... وأتسلّل إلى مكاني من الغرفة... من دون أن أنبس بشيء... فتفهم هي... وتغضي بنظرتها إلى عبدالمعين... وكأنها تقول له:

- طوّل بالك... لسّه ما جا...

لم يكن أحد يدري، هل سيجيء عبدالغني في النهار أم في الليل؟؟؟ ولذلك، كانت كل ساعة من النهار، مفعمة بالقلق... والترقّب... جدّي كان يخرج من المنزل، إلى الدكان التي قال إنه استأجرها بالقرب من السرايا، حيث يمارس مهنته وهي (حفر الأختام)... وكان يعود قبيل صلاة العصر... فلا يكاد يدخل حتى يبادرنا بالسؤال عن عبدالغني... وقد يسأل عن أي خبر من بيت (الكيخيا)... وبعد أن يدفع إلى أمّي السلّة التي يحملها بما فيها من جراية خبز الشعير، وما استطاع أن يجده في الأسواق من الأغذية، وعلى الخصوص (البيض) و(العسل) لخديجة، كان يصعد إلى غرفته لألحق به أنا، فلا يفوته أن يمسح رأسي بيده، وهو يخلع عمامته وجبّته... ثم يأمرني أن أذهب لأملأ له الإبريق حيث يأخذ في الوضوء لصلاة العصر...

انقضت الأيام الثلاثة والجميع ينتظرونه، طوال ساعات النهار والليل... ولكن لم يظهر له أثر.. ولم يسمع له أو عنه أي خبر...

وفي صبيحة اليوم الرابع... بدا جدّي غاضباً شديد القلق... تحاشى أن يدخل على خالتي كما يفعل عادة قبل أن يخرج من المنزل... وفي فناء المنزل... طال وقوفه مع أمّي وهو يتحدث إليها بالتركية... كلاماً تردد فيه اسم عبدالغني عدة مرات...

حين دخلت على خالتي، في هذا الصباح رأيت كيف اشتد هزالها... وكيف بدت مرهقة ببكاء عبدالمعين... ولكن أعجب ما لفت نظري، تورّد وجنتيها... وتلك الهالة شبه الداكنة أو الزرقاء، على أو حول أجفانها... وأهدابها... بالله... كم طالت واحلوّت...

كان واضحاً أنها يائسة من أن ترى عبدالغني.. ليرى عبدالمعين كما ظلّت تنتظر وتتمنّى... وحين لحقت بي أمّي، وأخذت تقول كلا ما تروّح بها عنها، أن تحثّها على المزيد من الصبر... رأيت عينيها الجميلتين، وراء تلك الأهداب الوُطف، تمتلئان بالدموع.

***

موت «عبدالمعين» قبل أن يراه أبوه

لا أستطيع أن أتذكر اليوم كم من الأيام ظللنا جميعاً نتوقع أن يطرق الباب، وأن يكون عبدالغني هو الذي يدخل... وكانت أمّي على الخصوص، هي التي لم يبدُ عليها أنها يائسة، أو لعلّها، ظلّت تفضّل أن تتظاهر بأنها لم تقطع الأمل، خوفاً على ما يمكن أن تتطور إليه حالة خديجة، وقد اشتدّت عليها العلّة بحيث لم يعد في وسعها أن تعنى بابنها فتضطرّ أمّي إلى التواجد إلى جانبها أطول وقت ممكن.. تأخذ الطفل وتبتعد به عنها... حيث تجرّعه الأدوية، أو الحليب، الذي قامت لتافت باجي بانتظام تزويدنا به كل صباح، بفضل عميل لها قالت إنه لم ينقطع عنها إلا فترة قصيرة، بعد الحرب، ولكن مشكلة الطفل لم تكن في الأدوية التي يتجرعها أو الحليب، وإنما في حالة (الإسهال) التي لم ينجح أي علاج في القضاء عليها. كانت صحة المسكين تتدهور يوماً بعد يوم... نتأت عظام وجنتيه.. وغارت عيناه، واتسعتا تحت جبهة ينسدل على جزء منها شعره الأشقر الغزير وتبدو كأنّها اتّسعت ونتأت هي أيضاً... وقد أدركتُ، مع الأيام بعد فترة من الوقت قصيرة في حلب، أن الجوع هو الذي أحال العشرات أو المئات من الناس الذين نراهم في الشوارع إلى الصورة نفسها، التي انتهت إليها صورة عبدالمعين... العظام الناتئة، والعيون المحملقة الغائرة، والوجوه الممصوصة الصفر، والأعناق الرفيعة التي تكاد تنوء تحت الجماجم أو الرؤوس...

يبدو، أن الأطفال يختارون، أو الأصح أن الله سبحانه يختار لهم أن يموتوا في الليل... هذا ما حدث يوم مات عبدالغفور... كنت نائماً ولم أعرف أنه مات، إلا بعد أن استيقظت في الصباح، ورأيت أمّي وخالتي تبكيان، ولا أثر لعبد الغفور الذي أخذه جدّي إلى المقبرة... وهو ما حدث بالضبط، مع عبدالمعين... فقد استيقظت في الصباح لأسمع من أمّي وهي تبكي وتواسي خالتي بكلام فهمت منه أن عبدالمعين

قد مات... وقد أخذه جدّي إلى المقبرة كما سبق أن أخذ عبدالغفور... ومرة أخرى تذكرت أولئك الموتى الذين رأيتهم تحملهم العربات في الشوارع ليدفنوا - كما قيل لي - في حفر كبيرة تتسع لهم جميعاً... كما تذكرت جدّتي وهي أول من سمعت أنها ذهبت إلى الجنّة، وبعدها عبدالغفور، واليوم عبدالمعين وما زال الجواب الذي أسمعه من أمي، وكذلك من لتافت باجي التي جاءت وأخذت لنفسها مجلساً على الأرض بجانب السرير الذي تكوّمت عليه خالتي بوجهها بين يديها وركبتيها... الجواب الذي يقول إنهم الآن - بعد أن ماتوا - أصبحوا في الجنة، بأشجارها وأزهارها وينابيعها وأطيارها... وقد ينبغي ألا أخفي، أني ظللت أتساءل بيني وبين نفسي، كلّما سمعت هذا الكلام: كيف؟؟... كيف تتم الرحلة أو الانتقال إلى الجنة بعد أن يدفنوا... وعلى الخصوص جماعات، في تلك الحفر؟؟؟ وسؤال آخر، كان في هذا اليوم أشد إلحاحاً على ذهني، وهو: ترى كيف يطيق هؤلاء الذين يدفنون في هذه الحفر، ومنهم عبدالغفور وعبدالمعين، أن يظلّوا مدفونين ويلتزموا الصمت، فلا يطلبون العودة إلى أمّهاتهم وذويهم؟؟

لم يعد جدّي مبكراً... وحين دخل علينا قبيل صلاة العصر، كان مرهقاً ومتوتّراً، عاقداً أو مقطّباً حاجبيه الكثّين... أسرع إلى غرفته، وأسرعت من جانبي أملأ له إبريق الماء كما هي العادة... ولكنّه قبل أن يصلي... ذهب إلى غرفة خديجة، وكانت لا تزال أمّي ولتافت باجي جالستين معها إلى جانب سريرها... نهضتا حين دخل، وهمّت خديجة أن تنهض له أيضاً... ولكنه أسرع إليها... احتضنها إلى صدره.. وهو يجلس إلى جانبها، كان يتجلّد ويكبت الدموع التي تكاد تنذرف من عينيه المحمرّتين... لم يقل كلمة واحدة... ولكنّه ظلّ يحتضنها إلى صدره، في صمت لم يجرؤ أحد منا أن يقطعه بأي كلمة...

غادر الغرفة من دون أن ينبس بكلمة واحدة... لحقتُ به إلى غرفته، وفي نفسي أن أسأله هذه الأسئلة التي ما زالت تلوب في ذهني عن الموتى، والحفر التي يدفنون فيها، والجنة التي ينقلون إليها... وكيف؟؟؟ إلخ... ولكن لا سبيل إطلاقاً... التزمت الصمت كما هي عادتي حين أكون بحضرته... وبعد أن أدّى صلاته، وتلا أدعيته، التفت إليّ وهو يقول:

- أنت دايماً... هناك... مع خالتك... مسكينة خديجة، لازم أنت معها.

فهمت ما يقصد... يريد ألا أفارق خالتي... كأنّه يتعشّم أن يخفّف وجودي إلى جانبها من لوعتها وحزنها على عبدالمعين... ولم يبتعد في تقديره... فقد وجدت خالتي تستدعيني للجلوس إلى جانبها على السرير، وتلتفت إليّ... تتأملني بنظراتها الساجية، وفي عينيها ما لا أستطيع أن أفهمه في تلك السن من معان، لعلّي بعد ذلك كلما تذكرتها في أيام صباي، أزعم أنها معاني الحيرة، واليأس، والتساؤل القلق عن المصير؟؟

مع مرور الأيام مع موت عبدالمعين، كاد ينقطع تماماً ذكر زوجها الذي لم يظهر له أثر أو خبر... بل لعلّ الأصح أن أمّي بالذات، كانت تحرص على ألا تجيء ذكراه على لسانها ربّما لتتجنّب إثارة مشاعر خالتي، التي فقدت طفلها قبل أن يراه أبوه... كان جدّي يستدعي أمّي أحياناً بعد صلاة المغرب، ثم يصرفني، ليتحدث إليها بالتركية حديثاً يطول، فإذا خرجت من غرفته، ودخلت علينا في غرفة خالتي، كنت أرى في وجهها التوتر والاختناق، فأدرك أن جدّي قد أفضى إليها بأخبار أو قال لها كلاماً أقلقها... وتدرك لتافت باجي التي تكون في كثير من الأحيان قابعة في مجلسها على الأرض إلى جانب السرير الذي تنام عليه خالتي... تدرك أن جدّي قد أخبرها أو حدّثها عن أمور مقلقة... فتأخذ في إصلاح نظارتها على أنفها الأفطس المفلطح، ثم تسدِّد نظرتها إلى أمي، وترفع يمناها وتدير كفها بحركة أصبحت أفهم أنها تعني (ماذا هناك)؟؟؟ فتقول أمّي بالتركية كلمة تعني (سأخبرك في ما بعد). واكتشفت بالتدريج، أنها تتجنّب الكلام إذا كان فيه ما يمكن أن يمس مشاعر خالتي أو يحرّك حزنها وفجيعتها في ابنها، وفي زوجها إذ لم يجئ، وانقطعت الأخبار عنه... ولكن لم يطل هذا التعتيم على ما تسمعه من جدّي، إذ كانت تخبر العجوز في حديث يطول عن الكفار، وعن (العسكر) وعن الألمان، ورسخت في ذهني كلمة عرفت في ما بعد أنها تعني (السلطان) (باديشاه) ثم عن (الباشا...) إلخ.. إلخ..

بعد مرور بضعة أيام، أخذ جدّي يصطحبني في خروجه صباحاً إلى الدكان بالقرب من (السرايا)، حيث يجلس بعد أن يفتحه، وهو - كعادته - يقرأ ويتلو أدعيته.... وما يكاد حتى يقف عليه بعض من يبدو أنهم كانوا ينتظرونه... يسأل جدّي الواحد منهم.

- اسمك... اسم أبوك؟؟؟

فإذا سمع الاسم، يكتبه على صفحة في دفتر أمامه، ثم يأخذ في تركيز وضع نظارته

البيضاء، قبل أن يبدأ حفر الاسم على الختم... فإذا انتهى من حفره يغمسه في محبرة خاصة ثم يختم به أمام الاسم الذي كتبه في الدفتر... ويقدمه إلى الرجل، أو المرأة، ويتناول قطع النقد الفضية من فئة (نصف مجيدي) ولكن لم يكن يرفض أحياناً القطعة من فئة (ربع المجيدي)... فإذا انصرف الزبون، أسمعه يردِّد: (الحمدلله... الحمدلله...).

كان الدكان في موقعه، يتيح، أن أرى الشارع الذي تقع فيه هذه (السرايا)... وأن أرى الناس، يتوافدون، ذاهبين إليها، أو عائدين منها... وحين أقول (الناس) اليوم فإني أعني أولئك الذين كان يغلب عليهم أو على أكثرهم شكل الهياكل العظمية هزالاً وتهالكاً فيقف بعضهم... بينما يمضي الآخرون في طريقهم... ومن يقف منهم لا يطيل الوقوف، وإنما يستأنف حركته، تاركاً الذي سقط... فإذا لمحه جدّي، أو الزبون الذي ينتظر الختم، وهو لا يختلف عنهم كثيراً... أسمع: (لا حول ولا قوة إلا بالله)... و(إنا لله وإنا إليه راجعون) وتعوّدت أن أفهم أن الذي سقط قد مات... أو أنه لا بد أن يموت... يظلّ منكفئاً على وجهه هكذا وقتاً، إلى أن تظهر تلك العربة التي تحمل الموتى... أو عربة أخرى تظهر على أحد جوانبها صورة أو رسم (الهلال الأحمر)... تحمله إحداهما مع أمثاله ثم تنطلق في طريقها الذي أصبحت أعلم الآن أنه الحفرة التي يُدفنون فيها... في ذلك المكان الذي دَفن فيه جدّي عبدالغفور في حماة... ثم عبدالمعين في حلب واسمه (المقبرة).

إلى فترة طويلة من وجودنا في حلب... في ذلك المنزل، لم أكن أعرف أسماء الأيام، ولكن ما لبثت أن عرفت أن اليوم الذي لا يذهب فيه جدّي إلى دكانه، هو يوم (الجمعة...) الذي أخذت أمّي تسمح لي فيه أن أخرج من باب الزقاق، لألعب مع أطفال الجيران... مع التحذير العنيف بأنها سوف تحبسني في تلك الغرفة التي تقع تحت السلّم الصاعد إلى الدور العلوي... إذا ابتعدت عن الباب... وهذه الغرفة تحت السلّم أذكر أني رأيتها في الأيام الأولى من سكننا في هذا المنزل... لها باب خشب قصير في أعلاه فتحة مستديرة أو منور صغير... كنت مع أمي... وما كدنا نفتح الباب... وقبل أن نخطو خطوة واحدة... سمعنا حركة دبيب أو ركض حيوان... كان ما قالت أمّي إنه (فأر) أو إنها عدد من الفئران... رأيتُه... شيء ملأني رعباً جعلني أصرخ وأنفلت من يد أمّي إلى الفناء... فهي حين تسمح لي بالخروج من باب الزقاق، تنذرني بهذا الحبس إذا ما ابتعدت...

ما زلت أذكر هذا اللعب مع أطفال الجيران... لقد بدأت بالتخوّف منهم، ثم ما لبثت أن ألِفتهم، وعرفت أسماء بعضهم... فإذا أخذوا يركضون في اتجاه الشارع الرئيسي، كنت لا أجد ما يمنع أن أركض أنا معهم... والعطفة التي نخرج منها إلى هذا الشارع تكاد تواجه قلعة حلب... كان الخوف من الحبس في تلك الغرفة يجعلني أحرص على أن أقف بينما الأطفال يتّجهون على امتداد الشارع... إلى حيث لا أدري... ولكن لاحظت ذات مرة، أنهم يعودون وهم يحملون في ثيابهم وقد رفعوا ذيولها ولفّوها حول نصفهم السفلي، نباتات خضر، أو هي ذات ورق أخضر... يأكلون منه، وأسمع بعضهم يفاخر بأنّه قد جاء بما يكفي (الطبخة)... لم يكن صعباً أن أفهم أنهم يجيئون بما يؤكل، رأيتهم يأكلونه، وسمعتهم يقولون إنه يكفي (الطبخة) وهذا يعني أنهم يطبخونه أيضاً...

وفي يوم الجمعة التالي كنت قد عقدت العزم، على أن أذهب إلى حيث يذهبون، وأن أعود بما يعودون به من هذه الخضرة التي تؤكل وتطبخ... وما كادت أمّي تأذن لي بالخروج مع التحذير المعتاد، حتى خرجت، متلهّفاً على الذهاب مع الأطفال حين يطيب لهم الذهاب... لم يطل انتظاري... إذ رأيت أكبرهم يقترح أن نبكر بالذهاب، قبل أن يسبقنا آخرون... وانطلقنا... كنا ثلاثة، في سن متقاربة، ولحق بنا آخر وهو يبكي لأن أحدهم منعه من اللحاق به.

كانت الرحلة طويلة بالنسبة لي... على امتداد الشارع في موازاة القلعة... ثم عبرنا الجانب المقابل حيث رأيت أن القلعة كما تصعد شاهقة لمن يراها عن بعد، فإنها تهبط متعمّقة في أخدود غائر في الأرض... وحين اقتربت من حافة الأخدود صاح الطفل الكبير، أن (احذروا السقوط...) وظلّ يتقدمنا لنمشي مسافات لم يسبق لي قط أن مشيت مثلها حتى أشرفنا على ربوة، تلامحت عليها الخضرة، والأشجار القصيرة... وما كدنا نراها حتى بدأنا نتراكض، للوصول إليها... لم تكن الربوة مسوّرة، وأرضها الممتدة معشوشبة بكثافة بأزهار برّية يغلب عليها اللون الأصفر... وأخذنا نمشي على الأعشاب، من دون أن نقف لأن من أخذ مركز القائد منّا - وهو أكبرنا سناً - ظلّ ينطلق إلى حيث يجد تلك الخضرة التي تؤكل (وتطبخ)... أو هكذا كان تقديري ونحن نمشي حوله أو خلفه... وأخيراً رأيته يقف ويأخذ في انتزاع النبات من جذوره.... ونحن نتابعه ونفعل ما يفعل... وعندما امتلأت أيدينا الصغيرة رفعنا أذيال ثيابنا واتخذنا منها أوعية نضع فيها ما نقطف أو ننتزع... ويبدو أن العملية قد استهوتني كنوع من اللعب...

فلم أتنبّه إلى أن الأطفال قد تفرّقوا وابتعدوا عنّي... داخلني شيء من الرعب... ولكن هناك كان كبيرنا... أسرعت ألحق به... وقفت إلى جانبه حيث يقف، وحين تأملت ما حولي، ر أيت على مسافة بعيدة من موقفنا تلك العربات التي تنقل الموتى... لم يقل صاحبي شيئاً... ولم أجرؤ أن أسأله شيئاً... بل لعلّي لم أجد ضرورة للسؤال إذ كنت أعرف مسبقاً أنها العربات التي ينقلون فيها الموتي، إلى الحفر التي يدفنون فيها... واستدار صاحبي، وأخذنا طريقنا إلى البيت. أحسست بحرقة الظمأ... وفي الوقت نفسه تذكرت أني قد خالفت أوامر أمي... فابتعدت عن باب الزقاق... وهذا يحدث لأول مرة... وسرعان ما رنّت في أذني كلمة (الحبس) في تلك الغرفة والفئران التي تتراكض فيها... فألقيت نظرة على ما جمعته في (عبّي) من الخضرة التي تؤكل و(تطبخ)... وكأني وجدت مبرراً لما اقترفت..

ما كدنا ندخل العطفة التي يقع فيها المنزل... حتى رأيتها... أمّي في ملاءتها قادمة في اتجاهي... أدركت أنها خرجت تبحث عني.. ولم أستبعد أن جدّي أيضاً قد عاد من صلاة الجمعة وخرج هو أيضاً يبحث عني... ولم تتكلم... وكانت (البيشة) على وجهها فلم أستطع أن أرى ما يعبّر عن غضبها... ولكن ما كدنا ندخل من الباب... حتى أغلقته، ثم انهالت تخفقني أو هي تصفعني على كتفيّ وظهري... كانت يداي تمسكان بذيل الثوب وفيه الخضرة إياها... فلم أستطع أن أتحاشى الصفعات... ولكن خوفي من (الحبس) في تلك الغرفة اللعينة جعلني أسرع إلى الدور العلوي، وفي غرفة خالتي... أطلقت لذيل الثوب أن ينفلت... لتسقط كمية الخضرة على الأرض... ثم أسرعت إلى حضنها... فهي وحدها التي تستطيع أن تحميني... وسمعتها تقول بنبرة لا تخلو من إعجاب:

- خبّيزة؟؟؟ منين اشتريتوها؟؟؟

وأحسست بشيء، ربّما، من الاطمئنان، أو الزهو فقلت:

- ما اشتريتها... يا خالتي... أنا جبتها من هناك...

- فين هناك؟؟

- من هناك... بعيد...

وحين جاءت أمّي ورأت الخبيزة مكوّمة على الأرض... لم تلتفت... أو لم يستوقفها ما رأت واندفعت نحوي، ولكن خالتي أحاطتني بذراعيها... وهي تقول:

- يتوب يا ستيتة... يتوب... كمان شوفي إيش جايب...

وفي هذه اللحظة دخل جدّي مقطباً متوتّراً... امتلأت رعباً قاتلاً... ولكن خالتي استطاعت أن تشفع لي... كما استطاعت (الخبّيزة) أن تأخذ طريقها إلى المطبخ... وأمي تقول:

- يمكن نلتقي عند لتافت باجي شويّة (بُرْغل)...

وغادر جدّي الغرفة محنقاً.. ولحقت به أمي... وحين التفتُّ إلى خالتي رأيت تلك الابتسامة الرقيقة، كأنها تعبّر عن الامتنان أو الانتصار في الدفاع عني.

حين تحلقنا حول المائدة الصغيرة في المساء... كان طبق (الخبّيزة) يحتل مكانه عليها وبأنصاف الأرغفة من خبز الشعير، أخذنا نلتهمها، إلى جانب حبات الخيار، ونصيب كل منا من قطع الجبن... كانت لذيذة جداً...

قال جدّي وهو يبتسم: هادا عبدالعزيز... يا فاطمة... إن شاء الله رجّال...

لم تقل أمّي شيئاً، كأنها تتجنّب تشجيعي على تكرار المغامرة... ولكن خالتي وتلك الابتسامة تملأ محيّاها الجميل قالت:

- أيوه يا ستيتة... إن شاء الله رجّال...

***

تدهور صحة خالتي «خديجة»

انقضت فترة من الزمن لا سبيل اليوم إلى تحديدها، أخذت خلالها الأحوال تتغيّر، ليس في حياتنا فقط، وإنما - على الأرجح - في حياة الناس من حولنا... لم يكن من السهل أن أفهم أو أن أعي حقيقة ما يجري، ولكن ما أسميه (حاسّة التخمين) جعلتني أدرك أن هناك أخطاراً كبيرة تزحف على حلب وسكانها ونحن - بطبيعة الحال - من هؤلاء السكان.

فمع أن جدّي كان لا يزال قادراً على العمل في حفر الأختام في دكانه بالقرب من (تلك) السرايا، وبما يتجمّع له من المال القليل، كان يستكمل ما تحتاجه خالتي من الغذاء، وما لا بد منه من المواد الأخرى، كحبّات من الطماطم، والخيار، وأحياناً وفي النادر - كمية هزيلة من أوراق الكرنب، تتجنّب أمّي طهوها، لأن لمائها رائحة عفنة، تضايق خالتي، فنأكلها نيئة بالملح والخل، تعجبنا، فما أسرع ما تلتهم قبل غيرها... ويعلّق جدّي أحياناً بأنها مغذية لا تقل عن اللحم... ومع ذلك فقد طرأ ذات يوم، أن مقدار الجراية من أرغفة خبز الشعير هبط إلى أقل من النصف... أو هذا ما سمعت أمّي تخبر به لتافت باجي... و(أنهم) - ولا أدري من هم - قد قطعوا (القنّيطة)، وعلب اللحم المفروم التي تعطى كل أسبوعين. وإلى جانب هذا الطارئ كانت المشكلة التي يتحدث عنها جدّي، وأمي، وتشترك في التعليق هذه العجوز، وبلهجة تنم عن التخوّف والقلق، هي أن الذين لم يموتوا في الحرب من عساكر السلطان يتجمّعون في حلب... كلّهم في حلب، ومنها، لا أدري إلى أين؟؟؟ وهذا هو السبب في نقص كمّيات الجراية... بل لم تمض فترة أخرى من الزمن، حتى رأينا جدّي يعود من رحلته الصباحية التي يقوم بها يومياً لاستلام هذه الجراية... والكيس المعهود خالياً تماماً... ويقول لأمي، بصوت يكاد يختنق في تكسّره وتعثّر مخارجه:

- ممكن، ما في (تعيين)... خلاص... ما في بكرة... ما في أبداً... خلاص...

وهو يقصد (تعيين) هذه - المقرر له ولأسرته من الجراية - ورأيت كيف يقع الخبر على أمي... أطالت التحديق في وجهه، كأنها لا تصدق... ثم أغضت ومرّت بكفيها على عينيها، تمسح الدموع... ثم تقول:

- الله كريم يا بويا...

ويردّد جدّي (الله كريم)... ثم يضيف في همس لئلا تسمعه خديجة، ما فهمت من أمّي بعد ذلك: (أن انقطاع الجراية أو توقفها... لا بد أن يصرف الناس عن حفر الأختام) لأنهم يحفرون هذه الأختام، لاستلام المقرّر لهم من التموين... أو من... الجراية...

وعندما استوعبت لتافت باجي هذه الأخبار، بدا عليها من الإحساس بالرعب ما جعلها تكاد تسقط على الأرض لولا أن تداركتها أمي، وذلك العكاز... والغريب - مع ذلك- أن تقول لأمي كلاماً مطمئناً، أو شيئاً مما يعني (ولا يهمّك)... وقبيل صلاة المغرب في ذلك اليوم ر أيت أمّي تختار فستاناً للخروج، ترتديه، ثم تختار فستاناً آخر من القطيفة عميق الخضرة في لونه، تصرّ على خديجة أن ترتديه أيضاً... ولا تنساني أنا أيضاً فتجعلني أرتدي ثوباً بدا ضيقاً وقصيراً على جسمي، ولكن لم يكن لديها سواه... وفهمت، أننا ننتظر جدّي لننتقل إلى منزل لتافت باجي، إذ نحن مدعوون عندها...

وبعد صلاة المغرب، التي أدّاها جدّي في غرفته، اعتمر عمامته، وجبّته، وعبْر ممرّ قصير، وقفنا أمام باب صغير ولكنّه أنيق، مزخرف بنقوش... وسمعنا صوتها المرتعش، وهي تقول: بالتركية:

- بيورونز... بيورونز...

وهي التي تعني: (تفضّلوا... تفضّلوا...).

قبل أن نخطو خطوة أو أخرى، في ممر صغير... كانت لتافت باجي تدب على عكازها العتيد، وهي تردد عبارات الترحيب: (هوش جيلدينز... صفا جيلدينز... بيورونز... بيورونز) مما تعلّمت، أنه يعني (أهلا... وسهلاً... تفضلوا...) أو شيئاً من هذا القبيل..

وفي غرفة واسعة، فخمة الأثاث، وعلى الخصوص تلك الستارة العريضة على

النافذة المطلة على الشارع، ستارة لا أزال أذكر أنها مغطاة بالدانتيلا وردية اللون... أخذ جدّي مقعده الفخم، وأخذنا بدوره مقاعدنا... أما هي لتافت باجي... فقد أصرّت على أن تقف مرحّبة لحظات طالت... ثم جلست على كرسي صغير، في آخر الصالون يواجه جدّي... الذي، كانت أمامه منضدة مغطّاة هي أيضاً بقماش ثمين... ويتوسّط المنضدة طبق كبير من البلّور الأبيض المزخرف، فيه كمّية لا بأس بها من مقشر اللوز والجوز... وحبات فاخرة من البندق... والفستق... وأداة لامعة على طرف الطبق - عرفت بعد عمر طويل - أنها كسّارة للبندق.

هذه إذاً حياة هذه العجوز السوداء، وهي بالنسبة لي أنا بالذات في تلك الأيام السود التي بدأت في البابور الذي ارتحلنا عليه إلى الشام، ولا تزال على ما هي عليه... هي بالنسبة لي لا تقل إبهاراً وترفاً عن بيت الكيخيا، في ذلك الصالون الفخم الذي تضيئه تلك المصابيح الكبيرة المزخرفة، عندما نجلس فيه وإلى جانبي (مطيعة) تهمس بتعليقاتها على خوفي من السلحفاة.

بعد أن دارت أحايث بالتركية بين الجميع، نهضت لتافت باجي، والتمست بأدب جم أن تصحبها أمي... لا أدري ماذا كانت تريد.. فقد همت خالتي أن تنهض أيضاً... ولكن ما أسرع ما انتفضت العجوز... مستكثرة أن تراها تترك مقعدها.. إذ قالت كلاماً لا شك أنه كان يعني شيئاً من قبيل: (العروس... الجميلة... تتحرك... وتخدم؟؟؟ مستحيل)... وخرجت من الغرفة مع أمّي لتعودا بصينية تحملها أمي... فيها برّاد الشاي والأكواب من الصيني الأحمر الموشي بالذهب أو باللون الذهبي... وأطباق فيها ألوان من الكعك... أذكر منها - (الغريّبة).

كانت لتافت باجي أكثرنا التفاتاً واهتماماً بخالتي... لا تنفك تردد كلمات تدليل بالتركية، مما تعلّمت في ما بعد أنها تعني (حبيبتي... صغيرتي الدلوعة... جميلتي... روحي) إلخ... وقد لفتت نظر جدّي وأمي حين قالت ما معناه: (أظن أن عروستي محتاجة إلى الراحة) ونهضت من مقعدها، وتقدمت نحو عروستها تريد أن تساعدها على النهوض...

كانت خديجة تحاول أن تقاوم ما يزحم صدرها من السعلة... ولكن من دون جدوى... فأخذت تسعل وهي تدير وجهها إلى الخلف، وكفّها بالمنديل على فمها، تحبس ما يمكن أن تنفثه السعلة من رذاذ.

نهض جدّي ومعه أمّي ووقفا إلى جانب العجوز... وفي نظراتهم الارتباك والقلق بل، ربما، الخوف والهلع... سرعان ما اتضح للجميع أنها تحاول أن تنهض ولكنّها لا تستطيع... استبعد جدّي العجوز وأمي عن موقفهما، واحتضن خالتي بيسراه... وبالعصاه ساقيها وحملها... واتجه مسرعاً نحو الباب إلى منزلنا... ظلّت لتافت باجي تهيب به بلهجة محتدمة، أن يريحها على (الكنبة) في الغرفة... ولكنه لم يلتفت إليها ولحقنا به أنا وأمي... ولم تتأخر لتافت باجي، إلا ريثما ارتفقت عكازها... وذلك المصباح الصغير الذي رأيناه في يدها في أول يوم دخلنا فيه منزلنا تستضيء به وهي تهبط من الدور العلوي. أسرعت وأمي تشعل الفوانيس، و(اللمبة) في غرفة خالتي.

وضعها جدّي على سريرها... وانحنى عليها، يسألها... كيف هي الآن؟؟؟ وسمعناها تجيب بصوت أقرب إلى الهمس مع أنفاسها المتهدّجة: (الحمدلله)... وردّدت بعدها لتافت باجي... (الحمدلله... الحمدلله) ومعها، ولكن بصوت تزحمه محاولة التماسك عن البكاء، كلمات التدليل، تتزاحم وتتلاحق، وكأنّها تسترضيها، أو تتأسف على أنها كانت هي السبب في ما طرأ على حالة خالتي من تطور، أحسسنا أنه خطير... وجاءت أمّي وهي تحمل كوباً من الماء يسطع معه أريج الورد الذي تدّخره في زجاجة صغيرة قالت أكثر من مرة إنه (ماء ورد المدينة) ولا ترش منه في كوب الماء الذي تسرع إلى تقديمه في الحالات الطارئة، إلا بحساب وتحسّب، وهي تردد (اللهم صل على الحبيب... اللهم صل على الحبيب...) ويتابعها من يسمع (اللهم صل وسلم وبارك عليه)...

انحنى جدّي على خالتي، يريد أن يجلسها لتشرب... هوّنت عليه المحاولة، إذ رأيناها تجلس، وتتناول كوب الشاي بيد مرتعشة، تداركتها أمي، وفي يدها ملعقة ملأتها بعلاج لتسكين السعال من زجاجة تناولتها عن الرف. شربت جرعات من الماء، ثم شربت العلاج... ومرة أخرى أخذت تردد (الحمدلله)... وعادت تستلقي وبرأسها المتوّج بشعرها الأشقر على الوسادة، وقد كنت أنا في لحظات هذه المشاهد، جالساً في أحد أركان الغرفة، أرى وأسمع ويتزايد عندي الإحساس بأن الأمور ليست على ما يرام... شيء أو أشياء كثيرة تتغيّر وتتعقد، فلا أفهم إلا أن الجميع يخافون من مجهول بالنسبة لي، وإن كان معلوماً عندهم فلا أدري أنا ما هو على أية حال.

سمعتها تقول بصوت أكثر وضوحاً.

- فين عزيز يا ستيتة؟؟؟

وقبل أن أسمع أمّي تجيبها، قفزت، وأسرعت إليها... تنحّى جدّي عن السرير وسحبني من يدي يقرّبني إليها... قالت وهي تحدّق في وجهي بعينيها، تحت أهدابها التي أذكر اليوم أنها تلقي ظلّاً على وجنتيها... قالت:

- انت قلت، في البستان اللّي جبت منّو الخبيزة... فيه ورد... وزهر أصفر... مو كده؟

- إيوه يا خالتي... فيه زهر أصفر كتير كتير بالمرة...

- وإيش كمان؟؟؟

- والخبيزة...

- لأ... وإيش كمان...

- إيوه يا خالتي فيه كمان شي قالوا البزورة اسمه (سالبين)... لكن ما يتاكل.

ضحكت، بصوت مسموع... ضحكة خفيفة ثم قالت:

- طيب... لكن... تبغا تروح مرة تانية؟؟

- بس أمّي تحبسني... مع الفيران.

ضحكت... وقالت:

- يا ستيتة خليه يروح.. خليه يجيب من الورد والزهر الأصفر.. والخبّيزة كمان.

التفتّ إلى أمّي وقد جلست على الأرض، إلى جانب لتافت باجي... وجدّي واقف وهو لا يزال يعتمر عمامته وجبّته عند نهاية السرير.. رأيت عينيّ أمّي محمرتين دامعتين مع أني لم ألحظ أن هناك ما يستلزم البكاء... فهذه خالتي تتحدث وتضحك... التزمت الصمت منتظراً أن تقول أمّي أي كلمة... ولكنها أغضت... ثم رفعت كفيها إلى وجهها تمسح بهما الدموع..

كدت أسألها عمّا بها... ولعلّي كنت أنتظر أن تقول إنها سوف تأذن لي بالذهاب إلى ذلك الذي سميناه (البستان)... كما اقترحت خالتي... ولكن خرست حين رأيت جدّي يكاد يبكي هو أيضاً.

ما هي المسألة... ما الذي حدث؟؟؟ أسئلة كانت تتلاحق في ذهني وأنا لا أرى ما يبرّر أن تبكي أمي... وجدّي... وهذه العجوز السوداء، التي التزمت الصمت ورأسها منحنياً على صدرها.

أحسست بيد خالتي تلتف عليّ، وتشدني إلى صدرها... طاوعتها وكدت أستقرّ بجسمي كله على هذا الصدر الحنون... لكن... جدّي مدّ يده في هذه اللحظة وهو يقول:

- بعدين... بعدين... دحّين انت لازم نوم..

أراد أن أترك مكاني في حضنها وأن أذهب للنوم... وقبل أن أنهض كما أمرني جدّي كانت خالتي تسعل سعالها، وتضع كفها بالمنديل على فمها... نهضت وابتعدت عنها... وعدت إلى مكاني في إحدى زوايا الغرفة... حيث اعتدت أن أنام على مرتبة أو هو لحاف صغير...

غالبني النعاس.. وأنا أرى خالتي في سريرها... والجميع حولها... وفي ذهني أمل أن توافق أمّي على أن أذهب إلى البستان، لأجيء منه بالخبّيزة، وبالورد والزهر والأصفر الذي طلبته مني خالتي منذ قليل..

***

موت خالتي الحبيبة

صباحٌ ثانٍ، لا أكاد أذكره اليوم، بعد الترحال الطويل في دروب الحياة بكل ما نطويه ونجتازه فيها من فلَوات ومفاوز وآجام، بل ومن أدغال يراوغنا فيها المجهول الذي يظلّ متحفزاً لا ندري من أين... ومتى يطيب له أن يمارس لعبة العبث بالمصير... لا أكاد أذكر ذلك الصباح، إلا وفي الأغوار البعيدة من النفس إحساس لم يغْفُ قط، بأن الحب هو وحده الينبوعُ الذي كان ولا يزال يروى دَوْحَ المشاعر والعواطف النبيلة، ومنها الحزنُ الذي توغل له الجذور في الأعماق وتمتد، وتتكاثر له، وتتواشجّ الفروع والأغصان، في آفاق المسيرة مهما طالت وترامت الدروب.

في ذلك الصباح، لم يوقظني أحد، بل لعلّ أمّي وجدّي كانا يحرصان على ألا أتنبّه فضلاً عن أن أستيقظ.. ولكن الهمس بينهما وتلاحق الأنفاس اللاهثة تنفلت لها النأمة فتُسمع رغم محاولة الكبت، نبّهتْني ففتحت عينيّ، ولعلّي قد التفتُّ صوبَ هذا الهمس لأرى جدّي وأمّي يقفان إلى جانب سرير خالتي مما يلي الرأس... ولم يطل بي الوقت لتَكرَّ على ذهني النعسان نفس الصورة التي غلبني النوم في الليلة البارحة، وأنا أتأمّلها... خالتي في سريرها الصغير من النحاس الأصفر اللامع، وحولها جدّي وأمي، وتلك العجوز لتافت باجي التي لم أرها في هذه اللحظات من الصباح، الباكر... أرهفتُ السمع، للهمس بين جدّي وأمي، ولكنني لم أفهم شيئاً إذْ كانا يتحدثان باللغة التركية...

مرةً أخرى، وجدتُ نفسي أتساءل... ما هي المسألة؟؟؟ ما الذي حدث؟؟؟ أعلم، من دون شك، أن خالتي تعاني من هذا السعال، ولم أنسَ كيف أسرع جدّي يحملها من المقعد الذي كانت تجلس عليه في تلك الغرفة المترفة من منزل لتافت باجي ومشى بها مسرعاً إلى هذا السرير... وأعلم كذلك، أن أمّي تحرص على أن

تعطيها أكثر من نوع من الأدوية التي يجيء بها جدّي مع تلك الأغذية، التي كان يتكلّف الحصول عليها من السوق القريبة من دكانه بالقرب من (السرايا)... والتي كثيراً ما يعود متوتراً، إما لأنه لم يجد ما يحتاجه في تلك السوق، وإما لأن المبلغ الذي تجمّع لديه من حَفرِ الأختام لم يكن كافياً لشراء ما يريد. ولكنّها البارحة بعد أن استراحت على السرير، أذكر أنها سألتْ عني، وأني أسرعت إليها فسألتني عن البستان، والخبّيزة، وعن الورد، والزهر الأصفر الذي قلت لها إنه كثير جداً في ذلك البستان... بل أذكر أنها طلبت من أمّي أن تأذنَ لي بالذهاب لأجيئها بهذا الزهر... ثم - وهذا هو الذي لم أنْسَه - لقد رأيتها تبتسم... بل وتضحك ضحكتها الخفيفة الخافتة فما هي المسألة في هذا الصباح؟؟؟ وما الذي حدث أو يحدث؟؟؟ كنت لا أزال مستلقياً في فراشي في تلك الزاوية من الغرفة، وكانت أشعة الشمس الشاحبة قد أخذت طريقها عبر تلك النافذة إلى هذه الزاوية بالذات حيث رأيت وجه جدّي واضحاً الآن، وهو يتلفت إلى أمّي بجانبه... وعلى الأرض كانت السجادة التي يصلّي عليها في غرفته... فما الذي جعله يجيء بها إلى هذه الغرفة؟؟؟ قال لها شيئاً واستدار يتّجه إلى الباب... وتحت إبْطه المصحف الصغير... وفي كفّه منديله الأبيض الكبير الذي يجفّف به عرقه في العادة... لم يكن مقطباً أو عاقداً ما بين حاجبيه الكثين كما يكون حين يستبد به الغضب والتوتر... على العكس من ذلك كان هذان الحاجبان قد ارتفعا إلى أعلى في جبهته العريضة تحت (الطاقية) البيضاء... رأيته يمسح بالمنديل عينيه ووجهه... كان يبكي من دون أدنى شك... جلست، ثم أخذت أنهض، قبل أنه يخرج من باب الغرفة، فما كاد يلحَظُني حتى توقف، واستدار نحو أمّي التي رأيتُها تنحني على خالتي في سريرها وتجهش بالبكاء، بدا كأنه قد يئس من أن يمنعها عن البكاء، فالتفت إليّ، ومدّ يده... وهي الحركة التي أفهم منها، أن أضع يدي في كفه لنمشي معاً إلى حيث يريد.

ولكني لم أضع يدي في كفه، وإنما اتجهت إلى أمي التي كانت تدفنُ وجهها بين كفيها على صدر خالتي.. ذُهلتُ حين لم أرَ وجه خالتي، ولم تبد منها حركة رغم أن جسم أمّي كان يهتز مع النشيج الذي لم تنقطع عنه... كان وجهها... رأسها كلّه تحت ذلك الغطاء، ورديّ اللون، على الوسادة المؤطّرة بالدانتيلا..

تهيّبت أن أرفع الغطاء عن وجهها، فهي على الأرجح مستغرقة في نوم عميق وعندي الكفاية من التحذير بأن أتوخّى عدم إزعاجها إذا كانت نائمة... ولكن هذا

البكاء وهذه الحركة على صدرها كيف لا توقظها؟؟؟ وفجأة أحسست كأن قلبي يغوص، بل أحسست كأني أنا نفسي أسقط في هاوية بعيدة القرار... يبدو أن جدّي قد أدركَ ما أعانيه، إذ وجدت نفسي بين ذراعيه، على صدره، يحملني ويخرج بي من الغرفة، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا مضطجعٌ على الأرض في تلك الغرفة من منزل لتافت باجي وأسمع جدّي يحادث العجوز التي كانت هي أيضاً تبكي بحرقة... وتقول له كلاماً رجّحت أنه وعد بألا تسمح لي بالخروج... ما كاد يغادر الغرفة، حتى ارتفع صوتي بعويل، لعلّي لم أعهده من نفسي قط... شرعت العجوز تحاول أن تضع رأسي في حضنها وهي جالسة إلى جانبي على الأرض، ومع بكائها وصوتها المرتعش أخذتْ تردد كلمات التدليل... الكلمات نفسها، التي كانت تدلّل بها خالتي...

لم أكن، بطبيعة الحال، أحتاج إلى فطنة أو ذكاء، لأستوعب فكرة أن خالتي قد ماتت، كما مات قبلها رضيعُها عبدالمعين، وشقيقي عبدالغفور... وكما يموت هؤلاء الذين تلتقطهم عربات نقل الموتى من الشوارع والطرقات... وفي اللحظات التي كنت أرفع فيها صوتي بذلك العويل الصارخ، وأسمع كلمات التدليل، تردد لتافت باجي، تحاول أن تُدَهدِه عني الأحساس بالفجيعة، كان يلح على ذهني هاجسُ إصرارٍ غريب على رفض الواقع برمّته... كان هذا الهاجس، يحفزني على أن أصرخ، في وجه هذه العجوز، بل وفي وجه جدّي وأمي... وأقول لهم... لا... لا.. أبداً. خالتي خديجة لم تمتْ كما مات عبدالغفور وعبدالمعين... خالتي لا يمكن... أبداً لا يمكن أن يأخذها جدّي إلى (المقبرة) كما سبق له أن أخذ عبدالغفور وعبدالمعين... لا.. أبداً وهنا تعصف بذهني، وتصعقُني فكرةُ أنها ستدفن... خالتي أيضاً تدفن كما يدفنون الموتى في تلك الحفر؟؟؟ ويهيلون عليها التراب؟؟؟ ثم تظلّ هناك، لا تستطيع أن تعود إلينا... كما ظلّ عبدالغفور وعبدالمعين... فلم يخطر لهما أن يطلبا العودة إلى أحضان أميهما؟؟؟

ولا أكاد أستوعب هذه الصورة بكل بشاعتها وهولها، حتى وجدت نفسي أنهض عن الأرض وانفلت من يَدَيْ لتافت باجي، وما أسرع ما وصلت إلى الباب الذي نخرجِ منه إلى منزلنا قبل أن تتحركَ العجوز، وتتناول عكازها... ولكن الباب كان مغلقاً... ومع العويل الصارخ أخذت أضربُ الباب بقبضتيْ يدي الاثنتين، ضرباتٍ متتالية سريعة، يدهشني اليوم، بعد هذا التجوال الطويل في مسيرة العمر، أني مارست تلك الحركة العاصفة، في تلك السن.

ولست أدري، كيف أخذت أناديها؟؟؟ بلى... أناديها هي... هي خالتي... خالتي...وحين رأيتُ لتافت باجي تتقدم بعكازها، وقد سقطت عن عينيها نظارتها البيضاء لتستقرّ تحت أنفها المفلطح الأفطس، والدموع تملأ وجهها... انقضَّ على قلبي رعب ساحق... فأخذت أصرخ مستنجداً بها... بخالتي التي تعودت أن أستنجد بها، فتحميني، تضمني إلى صدرها بين ذراعيها... (تعالي قوام يا خالتي... افتحي الباب... يا خالتي قوام... قوام... قوام...).

لكن لتافت باجي كانت قد اقتربت مني يسبقها نشيجُها، وعباراتُ التدليل والهدهدة تتعثر وتتهاوى في حنجرتها المختنقة بالنشيج وبصوتها المرتعش... أدركت عدم جدوى محاولة الخروج من الباب، فارتميت على الأرض منكفئاً بوجهي إليها على ذراعيّ. ظللتُ أبكي بصمت... وظلّت لتافت باجي واقفة، ربما، حائرةً لا تدري كيف تتصرف وكل ما يسعها أن تفعله، هو بكاؤُها الذي لا ينقطع، وعبارات التدليل، ولكن... هذه خطوات مسرعة، وحركة أسمعها آتيةً من منزلنا وراء الباب المغلق... وقد سمعتْها العجوز أيضاً فالتزمت بالصمت لتنْصِت.. رفعت رأسي عن الأرض، ثم جلست وفي حسباني أنهم - هناك قد سمعوا صراخي فجاء جدّي ليأخذني إليها... إلى خالتي... ولست أدري كيف امّحت عن ذهني تماماً حقيقة أنها ماتت... كان يقيني في هذه اللحظة أنها قد استيقظت من نومها وسمعتني استنجدُ بها، وهي التي طلبت من جدّي أن يأخذني إليها.

لكنّها لحظات قصيرة... إذ تلاشى وابتعد وقع الخطوات... وساد الصمت... غير أني لم أيأس... ظللت أتوقع أن أسمع تلك الخطوات تقترب... ولكن من دون جدوى... فقد عادت العجوز إلى تنهداتها، ثم جلست إلى جانبي ووضعت يدَها على كتفي، وجعلت تتوسّل إليّ بعربيتها السورية المكسّرة، أن أنهض معها، فالباب مغلق ولا يستطيع أن يفتحه أحد إلا جدّي... ثم لا أدري كيف خطر لها أن تَعِدَني بأن تخرج بي من (باب الزقاق)، ونستطيع أن ندخل منزلنا من (باب الزقاق) أيضاً... وأدخلت يدها المرتعشة في جيب على جانب من بطنها، لتخرج مجموعة من المفاتيح، تؤكد لي وهي ترفعها أمام عينيّ أن عندها مفتاح باب بيتنا... اقتنعت بأنها جادّة فنهضتُ ووقفتُ، بينما تناولت هي عكازَها ونهضت وأخذت تمشي ويدها اليسرى على كتفي، وقبل أن نصل إلى تلك الغرفة المترفة التي غادرناها البارحة، استدارت لنجتاز معاً باباً صغيراً إلى غرفة رحبة في صدرها سرير بفراش وثير... أدركت أنها غرفة

نومها... أجلستني على مقعد بالقرب من السرير وهي تمسح رأسي، وتقول إنها (ترجوني) - هكذا - أن آذن لها أن تتوضأ لتصلّي... ثم أخذت تدبّ إلى باب صغير هناك، غابت خلفه، وعادت بعد لحظات تطل، وفي يدها منشفة مبلّلة، أخذت تمسح بها وجهي وعنقي... ثم ذهبت لتتوضأ كما قالت.

أحسست، في مجلس على المقعد، بحاجة إلى الاستلقاء، وترامت إلى سمعي أصوات أطفال رجَّحْتُ أنها أصوات أولئك الأطفال الذين ذهبتُ معهم إلى (البستان) وعدت بالخبيزة وأخبار الأزهار الصفر التي تمنّت خالتي البارحة أن تأذن لي أمّي أن أذهب لآتيها بها... خطر لي، والعجوز لا تزال غائبة، أن أتسلل إلى (باب الزِقاق)، وأن ألحق بالأطفال في رحلتهم إلى ذلك البستان... وأن أملأ الثوب الذي ألفّ ذيله على خاصرتي، ليس بالخبيزة وإنما بتلك الأزهار الصفر، وأيضاً بأي زهرة من أي لون... فإذا عدت بها، أضعها كلها بين يديها... حتى لو غضبت أمّي وأرادت أن تضربني أو أن تحبسني مع الفيران، فإن خالتي تستطيع أن تشفع لي... ولكن كيف الوصول إلى باب الزقاق؟؟؟ لم أكن أعرف شيئاً عن منزل لتافت باجي... وعادت أصوات الأطفال تترامى إلى سمعي، ومع هذه الأماني في نفسي اشتد احساسي بالحاجة إلى الاستلقاء، ولم تظهر العجوز من مكمنها وراء ذلك الباب الذي دخلته لتتوضأ... تهيَّبتُ أن أستلقي على فراشها الوثير... ولكن قبل أن أتزحزح عن المقعد الذي أجلستني عليه، رأيتها مقبلة تحمل طبقاً وضعته على منضدة أمامها... وأخذت تدعوني لآكل... ولكن يبدو أنها تنبّهت إلى أني أغالبُ النعاس... فأسرعت تردّد عبارات التدليل المألوفة بنبرةٍ فيها شحنة كبيرة من الإشفاق والعطف... ثم عندما وقفت أمامي، تناولت يدي ومشت بي خطوة إلى الفراش.

***

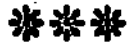
استيقظت لأرى جدّي إلى جانب لتافت باجي... وكان الذي أيقظني هو جدّي إذ يبدو أنه كان يَهُمُّ بحملي، وقد أدركت ذلك حين أحسست بيده توضع تحت عنقي في الفراش الذي كنت أنام عليه... وانقضت فترة، قبل أن أستجمع ذاكرتي وأدرك أو أتذكر ما مرّ بنا من الأحداث... أسرعت أجلس، وأتأهَّب للمشي. وحين رفعت نظري إلى وجه جدّي رأيت عينيه محمرّتين ولكنّه يحاول أن يبدو هادئاً بابتسامة خفيفة لا تكاد تظهر. أما لتافت باجي وهي تقف إلى جانبه، فقد كانت لا تزال دامعة العينين... استوعبت في هذه اللحظة الموقف برمّته... وحين مدَّ جدّي يده، أسلمتُه

يدي، كما هي العادة ، ومشينا معاً، إلى منزلنا. وبعد اجتياز الممر الصغير، كان في ذهني أن ندخل غرفة خالتي، ولكن جدّي اتّجه نحو غرفته التي وجدت فيها أمّي قابعةً فيها على المرتبة التي كانت تنام عليها في غرفة خالتي... لم يسبق أن رأيتها كما أراها الآن... شعرها منكوش... ووجهها محمّر محتقن... وما كادت تراني أدخل... متقدماً جدّي، حتى انخرطت في البكاء... مدّت ذراعيها فأسرعت إليها وارتميت على صدرها... وقال جدّي، بالتركية، ما فهمت منه أن لتافت باجي أخبرته أني لم آكل شيئاً حتى الآن... وأضاف وهو يتناول الكيس الذي يضع فيه مشترياته الصغيرة من الأغذية:

- أصلّي العصر... وإنتي وعبدالعزيز تاكلوا...

لم أجرؤ أبداً في تلك اللحظة أن أسأل عن خالتي... أين هي؟؟؟ وكرّت على ذهني مشاهد عربات نقل الموتى... وأولئك الذين يسقطون في الشارع وتلتقطهم هذه العربات... ثم عبدالغفور وعبدالمعين، اللذين أخذهما جدّي إلى (المقبرة)... أيقنت الآن أنه نقلها هي أيضاً إلى تلك المقبرة... أحسست كأن الدم يتجمّد في عروقي حين تصوّرت أنها هي أيضاً قد دفنت وأهيل عليها التراب...

واليوم... بعد هذا الترحال الطويل في دروب الحياة... وأنا أكتب هذه المذكرات أو الذكريات، تزدحم في القاع السحيق من أغوار النفس، الكثير من مشاعر الحزن والأسى ومشاهد الفجائع والحسرات، ولكن هذا الحزن الذي أطبق على قلبي يوم ماتت تلك الخالة الحبيبة، كان هو أول الأحزان وأبعدها أثراً وتأثيراً في النفس... لأنه كان الحزن الذي ارتوى من ينبوع الحب الخالد، فامتدّت له الجذور في الأعماق، والفروع والأغصان في الآفاق... لأنه كان الحزن على حبيب... لا أجد ما يمنع أن أقول إنه أول حب وأول حبيب.



ضئيلة جداً ومهزوزة، ذكرياتي عن الأيام التي قضيتها أصارع تلك الحمى... كل الذي لا يزال عالقاً بذهني، هو أن أحد الباقين من أهلي، وأعني جدّي وأمّي، كان في غالب الأحيان عاكفاً عليّ... ولكن أين؟؟؟ في أي غرفة من هذا المنزل؟؟؟ لا أذكر شيئاً على الإطلاق... ولكن أرجّح أن الغرفة كانت مظلمة، أو لعل هذا كان إحساسي... وأذكر أني كنت أعجز عن تحريك ذراعي، لأطرد عن فمي، ووجهي الذباب، فأظلّ أحاول تحريك رأسي يمنة ويسرة إلى أن تجيء أمّي فتعكف عليّ، وتجرّعني ما لا أعرف من الأدوية، وتظلّ تطرد ذلك الذباب اللعين.

كنت أرى أحياناً وجهها، وهي عاكفة عليّ، أو حين تضع أذنها على صدري، ربّما لتتأكد أن قلبي لا يزال يخفق، وأني لا أزال على قيد الحياة... فإذا تأكدت، تنهمر الدموع من عينيها وتنهض مسرعة وتغيب، لتتهافت الأرتال الذباب، على فمي وعينيّ، بل ووجهي كلّه، بينما تعجز ذراعي عن أي حركة لطرده... أمّا ذلك الشيخ المسكين جدّي، فقد كان يجلس إلى جانبي، بينما شفتاه تتحركان بتلاوة وأدعية تنتهي بأن ينفخ أو ينفث في وجهي، وسائر جسمي، ثم يبدأها أو يعود إليها، ويظلّ على هذه الحال، إلى أن يطرأ له ما يضطره إلى النهوض والابتعاد عني لأدخل أنا في معركتي مع الذباب، أو في غيبوبة لا أدري كم تطول.

لعلّ أولى بوادر إحساسي بأني أفضل حالاً، كانت حين انتبهت منزعجاً مرتعباً إلى صوت انفجار صاعق أو قصف رهيب، ومعه زخّات سريعة جداً من انفجارات، تعلّمت في ما بعد أنها تصدر عن مدفع يسمّونه (الرشّاش)... كانت أمّي هي أول من أسرع إليّ في اللحظات التي توالت فيها الانفجارات وزخّات الرشّاش... انحنت عليّ بكل صدرها وذراعيها، ربما لتحميني مما توقعت أو ظنّت أنه لا بد أن يتساقط علينا... وسرعان ما لحق بها جدّي، وهو يقول كلاماً يطمئنها، ويشجعها، لأن القذائف كلها تذهب إلى بعيد... بعيد.

لا أذكر كم يوماً قضيت، وأنا أصارع التيفوس، وأرتال الذباب... ولكني لا أستطيع أن أنسى أن هزيم القصف والانفجارات المروّعة، كان إذا غاب أيّاماً يعود أشدّ وأعنف صخباً وضجيجاً، ليستمر فترة طويلة من الليل... ولا أستطيع أن أنسى أيضاً، كيف كانت تنقضي تلك الليالي... لم يكن هزيم القصف والانفجارات وحده، هو الذي نعايشه أو نكابد الخوف والرعب منه، وإنما كان هناك ما لا بد أن أقول اليوم، إنه البلاء أو المصيبة التي ربما يهون بالنسبة إليها كل بلاء... إنه الجوع... فقد انقطع عنّا حتى

ضئيلة جداً ومهزوزة، ذكرياتي عن الأيام التي قضيتها أصارع تلك الحمى... كل الذي لا يزال عالقاً بذهني، هو أن أحد الباقين من أهلي، وأعني جدّي وأمّي، كان في غالب الأحيان عاكفاً عليّ... ولكن أين؟؟؟ في أي غرفة من هذا المنزل؟؟؟ لا أذكر شيئاً على الإطلاق... ولكن أرجّح أن الغرفة كانت مظلمة، أو لعل هذا كان إحساسي... وأذكر أني كنت أعجز عن تحريك ذراعي، لأطرد عن فمي، ووجهي الذباب، فأظلّ أحاول تحريك رأسي يمنة ويسرة إلى أن تجيء أمّي فتعكف عليّ، وتجرّعني ما لا أعرف من الأدوية، وتظلّ تطرد ذلك الذباب اللعين.

كنت أرى أحياناً وجهها، وهي عاكفة عليّ، أو حين تضع أذنها على صدري، ربّما لتتأكد أن قلبي لا يزال يخفق، وأني لا أزال على قيد الحياة... فإذا تأكدت، تنهمر الدموع من عينيها وتنهض مسرعة وتغيب، لتتهافت الأرتال الذباب، على فمي وعينيّ، بل ووجهي كلّه، بينما تعجز ذراعي عن أي حركة لطرده... أمّا ذلك الشيخ المسكين جدّي، فقد كان يجلس إلى جانبي، بينما شفتاه تتحركان بتلاوة وأدعية تنتهي بأن ينفخ أو ينفث في وجهي، وسائر جسمي، ثم يبدأها أو يعود إليها، ويظلّ على هذه الحال، إلى أن يطرأ له ما يضطره إلى النهوض والابتعاد عني لأدخل أنا في معركتي مع الذباب، أو في غيبوبة لا أدري كم تطول.

لعلّ أولى بوادر إحساسي بأني أفضل حالاً، كانت حين انتبهت منزعجاً مرتعباً إلى صوت انفجار صاعق أو قصف رهيب، ومعه زخّات سريعة جداً من انفجارات، تعلّمت في ما بعد أنها تصدر عن مدفع يسمّونه (الرشّاش)... كانت أمّي هي أول من أسرع إليّ في اللحظات التي توالت فيها الانفجارات وزخّات الرشّاش... انحنت عليّ بكل صدرها وذراعيها، ربما لتحميني مما توقعت أو ظنّت أنه لا بد أن يتساقط علينا... وسرعان ما لحق بها جدّي، وهو يقول كلاماً يطمئنها، ويشجعها، لأن القذائف كلها تذهب إلى بعيد... بعيد.

لا أذكر كم يوماً قضيت، وأنا أصارع التيفوس، وأرتال الذباب... ولكني لا أستطيع أن أنسى أن هزيم القصف والانفجارات المروّعة، كان إذا غاب أيّاماً يعود أشدّ وأعنف صخباً وضجيجاً، ليستمر فترة طويلة من الليل... ولا أستطيع أن أنسى أيضاً، كيف كانت تنقضي تلك الليالي... لم يكن هزيم القصف والانفجارات وحده، هو الذي نعايشه أو نكابد الخوف والرعب منه، وإنما كان هناك ما لا بد أن أقول اليوم، إنه البلاء أو المصيبة التي ربما يهون بالنسبة إليها كل بلاء... إنه الجوع... فقد انقطع عنّا حتى

ذلك الخبز الأسود من الشعير مخلوطاً بما أذكر أنه يسمّى (الكرسنَّة)، واستطعت أن أدرك في ما بعد أن ما بقي من الدولة العثمانية في حلب، في تلك الأيام، هو فلول الجيش، الذي كان يتراجع أمام زحف العرب والقوات البريطانية، ولكنه التراجع المحسوب، والعنيد في الوقت نفسه، بحيث كان غياب القصف والانفجارات، يعني تراجع القوات المهاجمة، أو اندحارها في وجه الصمود فترة تصل أحياناً إلى أسبوع أو أكثر. ومن هنا، لم يعد في وسع هذه البقية الباقية من أجهزة الدولة في حلب، أن تواصل تزويد الذين هجّرتهم من المدينة ، وربما من غيرها من المدن التي حاصرتها القوات المهاجمة في هذه الحرب، بما ظلّت تزودهم به من الأغذية التي تحفظ لهم الرمق.

كان الجوع شيئاً، لا أزال أقول حتى اليوم، إنه أخطر ما يتعرّض له الإنسان من مصائب وكوارث... إذ ما أشدّ ما كان يعانيه جدّي، ومعه أمّي من آلام، وعذاب، حين يجدان نفسيهما عاجزين تماماً عن أن يؤمنا حتى هذا الخبز، ليس لهما، وإنما لي أنا، في المرحلة التي بدأت أشفى فيها من التيفوس...

تقول أمي، في حكاياتها عن تلك الأيام، إنها لا تدري بأي معجزة شفيت من الحمى التي كانت تحصد الألوف... وتستدرك فتقول، إنه العمر، وفضل الله عليها وعليّ، إذ فوجئت بي ذات يوم من الأيام التي كنت خلالها ألتزم الفراش... أقف وأمشي متعثّراً نحو ما كنا نسمّيه (بيت الماء) وهو ما يسمّى اليوم (الحمّام)... وأدركتني قبل أن أسقط ولكنها لم تستوقفني، وإنما ظلّت تسندني، وتساعدني في المشوار القصير، إلى أن قضيت حاجتي. تقول:

- كنت رايحة أغطرف، لولا خوفي من أبويا - (الذي كان يكره ويمنع هذه (الغطرفة) كما يكره ويمنع (العويل والنواح، وارتفاع الأصوات بالبكاء).

ثم تضيف:

- كنت في هادي اللحظة هيكلاً عظمياً... تمام زي الهياكل العظمية اللّي كنا بنشوفها بتمشي هيّه كمان في الشوارع في حلب. لكن عجيبة... ما أدري كيف قدرت تقوم وتوقف وتمشي كمان..

وتضحك ضحكتها الخفيفة الحذرة كعادتها لتقول مازحة:

- أصله صدق اللّي قال: (عمر الشقي بقي).

وتتنهّد بحرقة وهي تضيف:

- رحمة الله عليه... جدّك فرح كتير لما رحت تجري، وهوّه قاعد زي عادته بيقرا في غرفته، وبشّرته أنك قمت ومشيت، ورحت بيت الماء بنفسك... ترك الكتاب على المخدّة... وجا قوام، شافك... وقعد جنبك، يقرا عليك... وبعدين لبس عمامته وجبّته وخرج... راح يدبّر لنا شي ناكله... وغاب مدة طويلة... قلقت عليه... كنت عارفة إنّو خلاص ما عاد يروح الدكان... أظن كان عَزَّل منه... أصله ما بقي شغل وطال غيابه... دخل علينا بعد كل عصر... تعبان... تعبان كتير... وفتح الكيس اللّي كان دايماً يشيل فيه الأشياء اللّي يشتريها... وأخرج منّه حبّة (قنّيطة)... حبة وحدة بس... لكن يا سلام... دي ما نشوفها بعدما انقطعت الجراية... فرحت بها... وقوام قمت، وفوّرت الموية... عشان هيّة ما تتاكل إلا بعد ما نبلّها في الموية الفايرة... دي تسير قرص عيش فينو... ما أدري من فين قدر يجيب جدّك، رحمة الله عليه، هاديك القنّيطة...

وتضحك، وهي تستعيد تلك الذكريات المريرة وتقول متسائلة:

- يا ترى تظن أننا أكلنا هادي الحبّة ساعة ما جات؟؟؟ لا أبداً... دي خلّيناها وقعدنا نأكّلك إنت... وناكل نحن كمان منّها أكتر من أربعة أيام... أيوه... أكثر من أربعة أيام... وتضحك لمّا أقول لك... إني أشمّها بس، لما أجوع وأشتهيها... ما آكل الفتفوتة منّها، إلاّ مع أبويا... بعدما نقطع منها حصّتك... واللي يضحّكني إنو نفسك انفتحت بعد المرض..كنت تاكل الوصلة الي نعطيك هيّه... وتطلب غيرها... كان جدّك، رحمة الله عليه، يعطيك الوصلة اللّي تكون في يدّه... وتترقرق في عينيها دمعة كبيرة وهي تتنهّد لتقول:

- رحمة الله عليه... كان يحبّك أكتر منّنا كلّنا يا عزيز..

وإذا سألتها: كيف يمكن أن تكفي (القنّيطة الواحدة) ثلاثتنا، أربعة ايام؟؟؟ أذكر أنها كانت تقول:

- الجوع يا ولدي علّمنا كيف نعرف قيمة النعمة... كيف نحافظ عليها... إنت ناسي إني علّمتك إنك ما تخلّي فتفوتة وحدة من الأكل اللّي بتاكله ترتمي على الأرض؟؟؟ لازم تلمّها بيدّك، وتصونها في صحن أو ورقة نضيفة، وتخلّيها للطيور، أو للدجاج..

ولا يفوتها، حين تصل إلى هذه النقطة، أن ترفع صوتها متوعّدة وهي تقول:

- ترى إصحا تنسى إنك تلم الفتافيت... ولمّا تكبر وتتّجوز، وربّنا يرزقك عيال لازم ما تنسى تعلّمهم يلمّوا الفتافيت... يحترموا النعمة... يحافظوا عليها.

بعد أن شفيت من الحمّى، ووجدت نفسي أستطيع أن استوعب ما حولي، وأن استجمع ذكريات الأيام التي انقضت منذ رحيل خالتي، ولمحات من ذكريات أيام وليالي المرض، وعلى الخصوص منها الذباب، الذي بلغ من هزالي وضعفي، أن تعجز ذراعي عن طرده عن وجهي لاحظت أن أشياء كثيرة في المنزل، ليست كما كنت أعهدها... وأهم ما تنبّهت إليه هو أن لتافت باجي التي كادت تصبح واحدة من أفراد الأسرة لكثرة ما خالطتنا، لم يعد لها وجود... لم تعد تظهر، بل لم أعد أسمع وقع خطواتها الحذرة الثقيلة مع وقع عكازها العتيد على الأرض وهي تهبط تلك السلالم القصيرة من الدور العلوي... بل استغربت، انها لم تجلس إلى جانبي أيام وليالي المرض، مع أنها كانت لا تفارق خالتي في سريرها منذ زوّدت غرفتها به، وإلى ذلك الصباح الذي شهد رحيل ذلك المخلوق الحبيب... ثم... نحن الآن - والدتي وأنا - في هذه الغرفة الواسعة في الدور الأرضي، وجدي وحده هو الذي يبدو أنه لا يزال في غرفته في الدور العلوي... وغرفة خالتي لم أنس أنها كانت مغلقة وقد ظلّت كذلك، بما فيها من أثاث، ومنه السرير الصغير الأنيق من النحاس الأصفر اللامع... أتراها لا تزال مغلقة حتى اليوم؟؟؟ إنها أجمل غرفة في هذا المنزل، فما الذي يمنع أن تكون فيها؟؟؟

ثم جدّي... ما أشد ما بدا عليه من الهزال والضعف في تلك الأيام... لم يكن بديناً قط، ولكنّه لم يكن بهذا الهزال... ونظرته اليقظة الحادة، ليست هي... أستطيع الآن أن أفسّر ما طرأ عليها من الانكسار أو الانطفاء... لقد خرج بنا من المدينة المنوّرة، في ذلك البابور وهو لا يخالجه شك في أن غربتنا عنها لن تطول، ربما كان تقديره كتقدير الألوف الذين هجّرهم (الباشا) أن يعودوا من غربتهم خلال شهور... إذ لم يكن يخطر على بال أحد منهم أن عساكر السلطان يمكن أن ينهزموا في هذه الحرب، بل وفي أي حرب... لأنهم المجاهدون في سبيل الله، ولأن النصر كان حليفهم دائماً في جميع الحروب التي خاضوا معاركها مع الكفّار ليس في أراضي الإسلام والمسلمين، وإنما في أراضي الكفار أنفسهم... فكيف يمكن أن ينهزموا وهم يدافعون عن أراضي الإسلام... عن المدينة المنوّرة ، وهي بلد رسول الله محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه. ولكن ما أشدّ وقع الكارثة على نفسه، بل على وجدانه وضميره... لعلّه لم يكن ليهتز ويفجع وينهار جلده وهو يفقد من

فقد من الذين خرج بهم وخرجوا قبله من أهله... بل حتى هذا الجوع الذي أصبح يمزّق الأحشاء ويلوي الأمعاء، لم يكن ليطفيء نظرة الصقر في عينيه وبنية الفارس في كيانه، ولكن أن ينهزم المسلمون أمام الكفّار... وأن تتساقط مدن وبلدان المسلمين في أيدي هؤلاء الكفار واحدة بعد الأخرى... أن يسقط (الهلال) الذي ظلّ يسطع في مشارق الأرض ومغاربها قروناً طويلة من الزمان، أمام (الصليب) الذي طالما تهشّم واندحر وتهاوى أمام صيحات (الله أكبر... ولا إله إلا الله) طوال قرون وقرون من سؤدد المسلمين وسلطانهم وفتوحاتهم ومسيرة فيالق جهادهم في سبيل الله وتحت ظلال كلمة (لا إله إلا الله)... أن يحدث هذا كله، وتتقهقر جيوش السلطان وعساكره وقواته ويتأكد أنها في طريقها إلى الانسحاب من حلب، إلى معقل السلطنة ودار الخلافة نفسها، إلى أراضي تركيا، ثم ماذا بعد ذلك؟؟؟ وإلى أين؟؟؟... وما هو مصيره هو مع من بقي له من كل الذين خرج بهم من المدينة؟؟؟... مع ابنته فاطمة... وحفيده (عبدالعزيز)؟؟؟ وبعد أن تسقط حلب في أيدي الكفّار، أين يذهب هو مع ابنته وحفيده؟؟؟ كيف يمكن أن يعود إلى المدينة؟؟؟ وهل يعود إليها، أم يواصل معها الرحيل إلى معقل السلطنة ودار الخلافة، وهي ما بقي للأتراك من أراضي وبلدان المسلمين؟؟؟ ولكن كيف؟؟؟ كيف يذهب... والأخبار تتواتر عن أن القطارات لم تعد تتسع لغير القوات المنسحبة، بذخائرها وعتادها ومهماتها؟؟؟ وحتى إذا اتّسع القطار له ولأمثاله ممن يفضّلون الرحيل ولا يرفض الوالي ترحيلهم ما داموا من رعايا الدولة... فما هي حقيقة الأخبار التي تقول إن الكفّار أصبحوا يحاصرون دار الخلافة من البحر؟؟؟ والمدينة... إذا صحّت الأخبار التي قالت إنها سقطت في أيديهم أو أنها على وشك السقوط؟؟؟ كيف يصل إليها أولاً ثم إذا وصل فكيف يعيش فيها مع الذين استولوا عليها؟؟؟

رأيت أمّي ترتدي ملاءتها، ثم تجيئني، بثوب نظيف، وتقول:

- ما دمت تستطيع المشي الآن... فهيا نذهب إلى الجيران...
- عند لتافت باجي؟؟؟
- لتافت باجي خلاص... راحت يا عزيز...
- ماتت يا فقّم؟؟؟
- لا... لا تفاول على الآدمية... ما ماتت؟؟

***

شفائي من الحمى...
لأدخل بعدها بقسوة مريرة في مرحلتي الجوع والحرب

كان بيت الجيران الذي اصطحبتْني أمّي إليه، هو بيت (أبو داود) الذي مات في اليوم الأول لسكننا في هذا المنزل... كل من في البيت، كان سيدة عجوزاً، وبنتيها، إحداهما صبية والأخرى ربّما تكون قد تجاوزت الأربعين من العمر... كلّهن رحّبن بأمي، واتّضح لي من التفاتهنّ إليّ، ولطف حفاوتهن مع نظرات الإشفاق والعطف في عيونهن، أنهنّ كنّ يتابعن حالة إصابتي بحمى التيفوس، التي اخترمت حياة أبيهن.

كان الحديث، بينهن، بمن فيهن أمّي يدور حول الجوع، وأن العسكر هم الذين يأخذون جميع المواد الغذائية من الأسواق، ويشحنوها في (البابور) إلى أضنة. وعلّقت السيدة الأم تقول:

- لا... لا... أنا سمعت أن عساكر السلطان، كلّهم حولنا... خارج حلب... وكل شيء يذهب إليهم... لأنهم ناويين يرجعوا يهجموا على النصارى، ويخلّصوا الشام منهم.

وقالت البنت الكبرى:

- لا.. يا أمي.. أنا سمعت إنّو عساكر السلطان كلّهم تعبوا من الحرب... وناويين خلاص... يرجعوا استامبول...

وقالت الصبية بنبرة محتدمة:

- وعشان كده بياخدوا الحنطة والشعير وكل شي معاهم؟؟؟ يعني همّا ياكلوا وكلنا نموت من الجوع.

لست أدري، لِمَ ظلّت أمّي تسمع ولا تشترك في الحديث.... أما أنا فقد فتح الحديث عن الأكل شهيتي أو جعلني أشعر بالجوع... وكنت أجلس بجانب أمي... فاقتربت من أذنها أقول:

- يا ففَّم... أنا جيعان...

سمعت بالطبع ما قلته... ولكنها لم تقل شيئاً... اكتفت بأن أزاحتني عن أذنها، ثم التفتت إلى السيدة العجوز، وقالت:

- يا خالة... إنتي عارفة إنّو البيت اللّي نحن فيه، كبير علينا... بعدما ماتت خديجة... وراحت لتافت باجي... أنا بدي أقول لأبويا... ننقل منّه... وما أدري يمكن (الطبقة الفوقانية) عندكم...

وقبل أن تنهي كلامها، تهلّل وجه العجوز وهي تقول:

- إيوه يا بنتي... بيتكم أصبح كبير عليكم... كبير كتير، وأنا باشوف (شيخ أفندي) بيخرج في الصبح وما يرجع إلا بعد العصر... والطبقة الفوقانية عندنا... والبيت كله تحت أمركم...

هنا قاطعت البنت الكبرى أمّها وهي تقول:

- بس تسيبوا بيت لتافت باجي لمين؟؟؟ نحن سمعنا أنها لما سيدها طلب منها تترك كل شيء، وتروح له استامبول... سيّبت البيت اللّي إنتو ساكنين فيه، وكمان بيت سيدها اللّي هيّه كانت فيه... للشيخ أفندي...

وتدخّلت السيدة الأم تقول:

-لا.. لا.. أنا اللّي سمعته أنها قفّلت كل الأبواب والشبابيك في بيت سيدها، وأخدت معاها المفاتيح... والبيت اللّي إنتو ساكنين فيه طلبت من الشيخ أفندي إنو لما يسافر من حلب، يقفل الأبواب ويخلّي المفاتيح عند بيت الكيخيا...

وقالت البنت الكبرى:

- يمكن... يمكن صحيح... عشان سيدها والكيخيا، كانوا أصحاب من الروح للروح.

واستأنفت السيدة الأم الحديث عن الطبقة الفوقانية وهي تقول:

- أصله يا بنتي يا فاطمة... أنا باتمنى أنكم تسكنوا عندنا... وما نبغا منّكم أجرة كمان... عشان كفاية وجود الشيخ أفندي معانا في هادي الأيام؟؟؟

واختنق صوتها بالعبرات وهي تقول:

- إنتي عارفة، إنو ما بقي لنا رجّال يدخل علينا... أبو داود رحمة الله عليه.. وجوز

شفيقه ما أحد يدري فين أراضيه... سافر الشام قبل ما يموت أبو داود... وإنتي عارفة اللّي حاصل.

وبينما أخذت أمّي تحكم ربط الجزء العلوي من الملاءة حول (البيشة) استعداداً للخروج قالت:

- أنا يا خالة... إبغا أقول لأبويا... إننا نسكن معاكم... لمّا يخرج هوّه... أنا وعزيز بنكون لحالنا... وكلّنا سمعنا كيف الحرامية بيدخلوا على الناس في النهار - ما هو في الليل -...

- إيوه يا بنتي صحيح... نحن كمان بنخاف.... هوّه صحيح ما بقي في البيت شيء ينخاف عليه... لكن...

***

ما كدنا ندخل البيت معاً، في اللحظات التي أخذت أمّي تحكم فيها إغلاق الباب... حتى تلاحقت انفجارات القصف، التي أصبحت نعرف - هي وأنا - أنها انفجارات المدافع الثقيلة، ومعها زخّات انفجارات الرشاش... ولكنّها في هذه المرة، أو هكذا توهّمنا، قريبة جداً من العطفة التي يقع فيها منزلنا... ثم كان ما جعل أمّي تنكفيء عليّ وتحتضنني، وكل جسمها يرتعد، وهو تلك الجلبة من صيحات خوف ورعب أخذت تملأ ما حولنا في هذه العطفة... فضّلت أمّي ألا تترك مكانها وأن تظلّ منكفئة عليّ وهي تتلو أدعية وآيات من القرآن... وطالت فترة انفجارات القصف، مع توهّم اقترابها، مع صيحات وولولة الخوف والرعب. ولكن ما لبث كل ذلك أن هدأ تماماً...

أدركت، وأنا أملأ صدري بالهواء، حين أخرجتني أمّي من حضنها، أنها تتهيّب أن تظلّ في هذا المنزل، بل بدا أنها تتردد في المشي خطوات، لندخل الغرفة ، التي ننام ونقضي كل يوم فيها، كما قضيت أنا كل أيام مرضي في ركن بعيد عن الباب والنافذة منها. لعلّها فكّرت أن تعود إلى بيت (أبو داود)... ظلّت فترة من الوقت - بعد أن انقطع القصف والانفجارات- جالسة على الأرض إلى جانبي ويدها على كتفي. ولكنها نهضتْ ومشت معي أخيراً إلى تلك الغرفة ، التي بدت موحشة قاتمة ، وربما زاد من إحساسنا بالوحشة فيها أنها واسعة بالنسبة لنا نحن الاثنين وخالية من الأثاث، إلا المرتبة أو اللحاف الذي كان مرقدي طوال أيام مرضي، ثم المرتبة التي تنام هي

عليها... وهناك في ركن بالقرب من الباب تلك اللوازم التافهة القليلة التي تستعمل لغلي الماء، وتجهيز الشاي - إن وجد هو والسكر -، وقد أصبحا الآن سلعتين نادرتين لا يحلم بالحصول عليهما أحد، فإذا جاء بهما جدّي أحياناً، فما أعظم الفرحة بهما، والحرص عليهما... وتذكر اليوم أن فرحة جدّي، وحثّه كل من في البيت - أيام كانت معنا خالتي ولتافت باجي على الاقتصاد الشديد جداً في تناولهما، كانت فرحته أكبر من فرحة الآخرين، لأن الشاي عنده مطلب أساسي، ر بما أهم حتى من الأكل -.

لم تخلع أمّي الملاية، بل ارتمت على مرتبتها وهي ترتفقها. والتفتت إليّ، وأشارت بيدها أن اقترب منها وأجلس أو أضطجع إلى جانبها... لم أضطجع، وحين التفتّ أنظر إليها رأيت الدموع تنهمر من عينيها في صمت... كان متعذّراً عليّ أن أفهم شيئاً مما كان يدور ويلوب في نفسها... كنت أشعر بالوحشة والخوف، ولكن ليس إلى الحد الذي يجعلني أبكي مثلها. التزمت الصمت، ثم قلت بصوت منكسر متوسّل:

- فَقَّم ... أنا جيعان.

التفتت إليّ وهي تمسح الدموع التي ملأت وجهها، وهي تقول:

- اصبر شويّة... دحّين سيدك لا بد يجيب الأكل..

وفهمت طبعاً أنها لا تجد ما يمكن أن آكله... ليس في البيت شيء يؤكل على الإطلاق... وجدّي... ووجدت نفسي أتساءل: أين هو يا ترى الآن؟؟؟ ومتى يجيء؟؟؟ وتهيّبت أن أسألها وأنا لا أزال أرى دموعها تنهمر، ولكن حرقة الجوع في أحشائي، جعلتني أجازف فقلت:

- طيب يا فَقَّم... سيدي متى يجي؟؟؟

- قلت لك دحّين لا بد يجي ويجيب معاه الأكل...

- لكن، هوّه راح فين؟؟؟؟

- راح فين؟؟؟ أي والله يا ولدي، راح فين؟؟؟ ولمّا ضربت المدافع والرصاص اللّي زي المطر... يا ترى كان فين؟؟؟

ثم انفجرت تجهش باكية وهي تقول:

- يا ترى نشوفكم يا بويا ولا...

وضعت كفّيها على وجهها، وهي تجلس وظلّت تبكي كالأطفال وتردّد بين شهقاتها المتوالية:

- يا ترى نشوفكم يا بويا...؟؟؟

وفجأة ولولت أصوات الانفجارات، ولم يعد هناك شك في أنها قريبة منّا، إذ أحسسنا بأن البيت كلّه يهتز من حولنا... بل سمعنا أزيزاً يتلاحق بسرعة - عرفت في ما بعد أنه أزيز الرصاص المنهمر من الرشّاشات... لم يكن أمام أمّي إلا أن تحتضنني وأن تظلّ قابعة في مكانها، وسمعتها تتلو - ولأول مرة - (الله لا إله إلا هو الحي القيوم...) وكلّما اشتد وتوالى القصف وانهمار زخّات الرشاشات يشتد التفاف ذراعيها عليّ وهي تضمّني إلى صدرها...

لكن... وضجة الانفجارات على أشدها، والرعب يملأ قلبينا، سمعت أمّي طرقاً متتالياً شديداً على باب الزقاق... تركتني في أقل من طرفة عين... ونهضت تركض إلى الباب، وذهبت أركض خلفها.

كان هو... جدّي... لم يستطع فتح الباب بالمفتاح الذي يحمله، لأن أمّي كانت قد أحكمت رتاجه من الداخل عندما فاجأتنا عاصفة القصف في عودتنا من بيت الجيران...

ما كادت تراه يدخل، حتى عانقته في لهفة ثم تناولت يديه تقبلهما قبلات متلاحقة... ورأيته يعانقها هو أيضاً، ويمدُّ يده لي... ويسرع بنا إلى الغرفة... ارتمى بطوله، وعمامته لا تزال على رأسه، على الفراش... كانت أنفاسه تتلاحق وهو يمد ذراعه إليّ، ويضجعني إلى جانبه... كان لا بد أن ننتظر نهاية أصوات الانفجارات التي طالت في هذه المرة بحيث بدا كأنها لن تتوقف... ولكنها هدأت أو توقّفت أخيراً...

ما كادت تتوقف.. حتى أخرج جدّي ذلك الكيس الذي عوّدنا أن يجيئنا فيه بما يتسوّقه من الغداء... أسرعت أمّي تفتحه، وهي ترمقني بنظراتها القلقة... وأخرجت يدها برغيفين من الخبز الأسود... ورأس صغير من (القرنبيط)، وكمية من الخس... وكأنها قدّرت أني جائع ولا أستطيع الانتظار إلى أن تسلق القرنبيط ، فاقتطعت نصف رغيف، وبضع ورقات من الخس، ومدّت بها يدها وهي تقول:

- هيّا قوم، شوف هناك الملاّحة... وقارورة الخل والزبدية الصغيرة... هاتها... عشان تغمّس العيش.

ولا أزال أذكر حتى اليوم... نصف الرغيف ذلك من الخبز الأسود، أغمس اللقمة منه في الخل المملّح، مع ورقة الخس، مغموسة أيضاً في ذلك الخل... لا أزال أذكر

أنها كانت، هي ومثيلاتها بعد ذلك ألذَّ وأشهى ما أكلت، بل قد لا أستحي أن أقول إني لو وجدتها اليوم لا أتردد في أن أفضّلها على أي أكلة أو طبق من الأطباق المترفة التي نجدها على موائدنا في هذه الأيام.

لاحظ جدّي أني أتيت على نصف الرغيف ربما في لحظات، فانتهر أمّي وهو يقول:

- أعطيه النص التاني... لازم يشبع

- طيب يا بويا، وإنتو؟؟؟

- رغيف واحد يكفينا..

وأضاف باللغة التركية كلاماً فهمت منه أن (القرنبيط) غذاء أفضل من الخبز.

ثم أخذ يتحدّث، عن (الهجوم)... كانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها هذه الكلمة وأفهم أن (النصارى... الإنكليز) هم الذين يقومون به... وأن عساكر السلطان، مع (الألمان) يدافعون عن حلب، وهو يعتقد بأنهم سينتصرون، ولا بد أن يستردّوا حتى الشام... ولكنه يعود فيضع يده على خده، ويعبث بشعيرات من لحيته، ويردّد: (الله كريم... الله كريم) ويلتزم الصمت بعد ذلك، ثم ينهض عن الفراش الذي تمدّد عليه بعمامته حين عاد، ويغادر الغرفة إلى غرفته تلك في الدور العلوي.

***

أرجّح اليوم أن جدّي، لم يوافق على فكرة ترك منزلنا هذا، والانتقال إلى الدور العلوي في منزل (أبو داود)... وكان السبب كما سمعت من حكايات أمّي عن هذه الفترة، هو أنه لم يكن يستطيع دفع الايجار، ثم الأهم من ذلك، أن لتافت باجي، حين استدعاها سيدها في تركيا، قد أحكمت إغلاق منزلها، أو هو منزل سيدها، كما أغلقت الباب الذي يصل بين البيتين، ثم استأمنت جدّي على المنزل الذي نسكنه، بعد أن استعادت السرير الصغير من النحاس الأصفر، الذي أكرمتنا به، مع المرتبة والوسائد والغطاء لتنام عليه خالتي، لأنها - كما ظلّت تقول وهي تدللها - "عروستنا الحلوة"، وحبيبتها. كما استعادت جميع قطع الأثاث التي زوّدتنا بها... فإذا قدّر الله له أن يسافر من حلب، فما عليه إلا أن يحكم إغلاق الباب، ويسلّم المفتاح إلى بيت الكيخيا، الذي قالت إنه لا بد أن يجد فيه من يستلم منه المفتاح، حتى وإن كان الكيخيا نفسه قد سافر إلى أي بلد آخر، كما يسافر الناس هاربين من حلب في تلك الأيام.

بعد الغروب في ذلك اليوم، ونحن في غرفة جدّي، وقد فرغ من صلاة المغرب، ومن تلاوة أو قراءة أدعيته... عادت أصوات الانفجارات تهدر وتولول، ومعها - كالمعتاد الآن - الزخّات المنهمرة من طلقات الرشّاشات... كانت أمّي قد أشعلت ذلك المصباح الصغير الذي يبدو أن لتافت باجي قد تركته لها... كان ضوؤه لا يسمح بأكثر من أن نرى ما يحيط بنا في هذه الغرفة ذات النافذة الواحدة العالية... كانت أمّي تنتفض وتغمض عينيها مع كل انفجار، وقد بدا عليها الرعب بحيث رأيت أسنانها تصطك، وهي تنظر إلى جدّي ثم تلتفت إليّ، كأنها تلتمس أن نفعل شيئاً... أي شيء... وإن كانت تعلم طبعاً، أننا لا نستطيع، أو لا يستطيع مخلوق، أن يفعل شيئاً على الإطلاق. أما هو - جدّي - فقد التزم الصمت فترة، ثم جعل يربّت على كتف أمّي ويحاول طمأنتها، والتخفيف من حدة الرعب التي تعانيها... وكالمعتاد في كل مرة، توقّف القصف وابتعد أو تلاشى تدريجياً وما كاد، حتى شرع جدّي، وهو متهلّل الأسارير، يشرح لأمي، أن هذا القصف الذي يبدو قريباً يصدر من قوات الجيش التركي الذي يدافع عن حلب... فإذا خفَّ أو هدأ وانقطع، فإن ذلك يعني أن المهاجمين قد انهزموا وتراجعوا...

نهضت أمي، بعد أن استعادت هدوءها، لتطهو، أو لتسلق القرنبيط، الذي تعده لوجبة العشاء... وأخذت المصباح الصغير، تستضيء به... لنغرق - جدّي وأنا - في ظلّام دامس، أحسست معه بالنعاس، فتحسّست موقع جدّي في جلسته، وأحسّ هو أيضاً بي، وأدرك أني نعسان... فأخذني في حضنه لأستسلم للنوم، وفي وهمي أني سأستيقظ لآخذ نصيبي من القرنبيط، حين تعود به أمّي بعد قليل.

***

خروج أمّي تحت القصف لتأتي بالطعام بعد أن سقط جدّي من الإعياء

بعد تلك الليلة التي كان القصف والانفجارات فيها تكاد لا تنقطع أو تتوقف ساعة إلاّ لتعود، مرَّت أيام أو لعلها أسابيع، لم نسمع فيها أصوات انفجارات من أي نوع... وكان تعليل جدي أن عساكر السلطان قد انتصروا على الإنكليز، ولعلّه كان متفائلاً، وهو يبشّر أمّي أنهم سوف يستردون الشام، ويزيد على ذلك أنه سمع، أن (فخري باشا) قائد الجيش التركي في المدينة، وهو الذي هجّر أهلها إلى الشام... لا يزال يدافع عنها وهو أيضاً سوف ينتصر على الإنكليز، ويخرجهم من أراضي الحجاز كلّها... ثم يبتسم ابتسامة عريضة وهو يقول:

- نرجع إلى المدينة قريباً... إن شاء الله.

تغيم ذكرى الأحداث الصغيرة بعد ذلك في ذهني، وإن كان فيها ما يمكن أن أستعيده اليوم فهو الجوع، لأن الأسواق قد خلت تماماً من المواد الغذائية، ولأن عمل جدّي في حفر الأختام، قد توقّف، نتيجة لانقطاع الجراية التي كانت توزّعها السلطة على المهجّرين، ليس من المدينة المنوّرة وحدها - كما فهمت في ما بعد - وإنما أيضاً من البلدان التي كان ينسحب منها الجيش التركي، ويبدو أنهم كانوا ينظرون إلى من يلحق بهم أو يعلن رغبته في اللحاق بهم من أهالي تلك البلدان، نظرة مسؤول عن رعايتهم باعتبارهم متمسّكين بانتمائهم إلى الدولة... ولست أدري كيف كان ذلك الشيخ المسكين، يجيئنا بالرغيفين، أو الثلاثة أرغفة من الخبز، ومعها الخس والخيار، وأحياناً الطماطم، وفي النادر جداً، قطعة الجبن... حتى أمي، في حكاياتها عنه بعد أن كبرت، لم تستطع أن تجزم، بتعليل أو تفسير معقول، ولكنها كانت تستبعد تماماً أنه اضطر للعمل أجيراً كحمّال، أو عامل، في الأعمال الشاقة الكثيرة التي كانت السلطة أو الجيش التركي، يقوم بها في المدينة... كانت تقول:

- لو عرض نفسه للعمل، في مثل هذه الأعمال، فإنهم يرفضونه، وقد يتبرعون له بما يغنيه عن العمل في ذلك اليوم، لأنه كبير في السن، وعمامته تدلّ على أنه من المشايخ والعلماء.

ثم تستغرق في التفكير، وتلتزم الصمت فترة ثم تقول:

- لا أدري في الحقيقة، كيف؟ ومن أين له المال الذي كان يشتري به حاجتنا من الأكل ولكن رحمة الله عليه، كان يحسب حساب المستقبل المجهول، فلا أستبعد أنه كان يدّخر من دخل حفر الأختام ما ساعده على تأمين حاجتنا... ثم... لتافت باجي... أذكر أنه لم يتركها إلى أن ركبت القطار... يمكن اقترض منها؟؟؟ لكن... لا.. لا.. كانت نفسه عزيزة... ما هو معقول... يقترض منها وهوّه عارف إنّو يمكن ما عاد يشوفها...

كان انقطاع أو توقُّف الانفجارات والقصف وزخّات رصاص الرشاشات، وذلك الهدوء الذي ساد المدينة، أو المنطقة التي يقع فيها منزلنا، حالة وقتيّة، يظهر أن مسيرة الحرب بين الجانبين استلزمتْها، إذ لن أنسى تلك الليلة التي استيقظت فيها مرتعباً وأصوات الانفجارات تصم الآذان، وتزلزل المنزل، وإلى جانبي، الاثنان اللذان بقيا لي... جدّي وأمي... لم أرهما وأنا أفتح عينيّ وأجلس ، فقد كان الظلّام حالكاً... ولكني أحسست بهما، وجدّي يتلو أدعيته، وأمي تقرأ (لا إله إلا هو الحي القيوم)... ولكن بصوت عرفت أنّه يتقطّع لأن أسنانها تصطك من الرعب. ظلّت الانفجارات، بأصوات تتنوّع مع أنواع المدافع التي تنطلق منها القذائف، ومنها زخّات رصاص الرشاشات، لا تنقطع، وظللنا نحن في مكاننا لا نتحرك، إلى أن أخذت أضواء الفجر تتلامح، وتتسلّل من تلك النافذة العالية في غرفة جدي... ومع الفجر، أخذت أصوات الانفجارات تبتعد أو تتلاشى... ومع النعاس في عيني، رأيت أمّي تنهض وتخرج من الغرفة لتعود بعد قليل بكسر من الخبز الأسود وقد نشف، فلا يؤكل إلا بأن ينقع في الماء... ولا شيء معه... وكان ذلك هو كل ما أكلناه في ذلك الصباح.

تهيّأ جدّي للخروج، وظلّ يرفض توسّلات أمّي إليه بأن يظلّ معنا... كان حريصاً من دون شك على أن يجيئنا بما نأكله في ذلك اليوم... وقد خرج من الغرفة، وهو يؤكد أنه لن يتأخر حين رأيت أمّي تخرج بعده، وجدت نفسي أنهض أنا أيضاً وأتبعهما... واستلم هو السلّم في طريقه إلى الفناء الصغير ثم إلى الباب... ولكن...

رأيته يضطرب في خطواته... كاد يسقط أو يتدحرج... لحقت به أمّي وأعانته على الوقوف... كان واضحاً أنه مرهق، وأصبحت قواه تخذله فيتعثر في مشيته... ومع ذلك بدا كأنه يصرّ على الخروج... ولكن أمي، والدموع تنهمر من عينيها وقفت في وجهه، وهي تقول:

- يا بويا، ما نبغا منكم شيء اليوم... خلّيكم في البيت...

لم يقاوم رغبتها.. كان يشعر بأنه لن يقوى على المشي... فتخلّص من ذراعيها وجلس على الدرجة الأخيرة من السلم... يستريح أو يستجمع قواه... واستطاعت أمّي أخيراً أن تقنعه بأن يعود إلى غرفته، وستقوم هي، بشراء ما نحتاج إليه من السوق... وقالت وهي تسنده في صعوده على السلالم ومنها إلى غرفته:

- أروح مع بنت الجيران... هيّه تعرف من فين نشتري العيش، أخرج من جيبه الداخلي في صدره كيس النقود، وأسرع يواريه عن عينيها وهو يفتحه ويخرج منه قطعة واحدة كبيرة، - تعلمت في ما بعد أنها المجيدي - وعدداً من القطع حمراء اللون، هي أجزاء هذا المجيدي... ومدّ بها يده وهو يقول:

- خدي معك عزيز..

ثم رفع رأسه، ونظر إليها، وعاد يقول:

- ولكنه ضعيف... المشي يتعبه... اتركيه واذهبي مع بنت الجيران.

من جانبي أنا... ضايقني ألا أخرج معها... إذ منذ مرضي بأيامه ولياليه الطويلة لم أخرج من المنزل إلا تلك المرة التي ذهبت فيها إلى بيت (أبو داود). كنت حين تترامى إلى سمعي أصوات الأطفال وهم يتصايحون في الزقاق، أتحرّق لهفة على الخروج واللعب معهم... وكان الهزال والإعياء، وهو ما ظلّ يعوقني عن الحركة في الواقع... ولكن الآن، خطر لي أن أقول شيئاً، التمس السماح لي بمرافقة أمي... ولكن وجدتها تقول:

- ضعيف يا بويا... وكمان كيف أسيبكم لوحدك؟؟؟

وبهذا انقطع كل أمل لي في الخروج... فالتزمت الصمت... وبعد خروج أمّي التفت إليّ جدّي وفي وجهه ظلّ ابتسامة، ربما كان يمنعها أن تسطع، ما يعانيه من إعياء... قال:

- تعال... اسمع أنا أحكيلك حكاية... تحب الحكاية؟؟؟

اقتربت منه... حيث كان يضطجع على فراشه... وطافت بذهني ذكرى خالتي، التي كانت - رحمها الله - لا أكاد أجلس بجانبها، حتى تأخذني في حضنها، وتسمعني حكاياها ومنها، حكاية: (الخنفساء... التي اسمها صفية.. وفي عينيها الكحل بالوقية...). وهي نفسها التي ظللت اسمعها من أمّي بعد ذلك عشرات المرات، من دون أن أمّل سماعها، بل هي التي ربما سمعها ابني ضياء وبناتي من أمهن، ومن المحتمل أن تظلّ أجيال قادمة تسمعها - من الأمّهات في بيتنا إلى ما شاء الله - ولم يسبق أن سمعت منه أي حكاية، ولذلك فقد تهيّأت لسماع حكايته، بإحساس من يكتشف أو يعثر على شيء، ورأيت في نظراته كأنه يبحث أو يفكر ثم قال:

- فاطمة... تعرف حكايات كثير... أنا أعرف قراءة... هيّا نقرأ... قل: بسم الله الرحمن الرحيم..

- بسم الله الرحمن الرحيم

- ما شاء الله... قل... الحمدلله...

- الحمدلله.

- الحمدلله.

- رب العالمين.

- رب العالمين.

- الرحمن الرحيم.

- الرحمن الرحيم.

ورأيت وجهه يتهلّل ارتياحاً... ثم قال:

- كمان... قل: بسم الله الرحمن الرحيم.

وظلّ يكرّر الآيات نفسها من الفاتحة... وأكرّرها معه إلى أن حفظتها بحيث سردتها عليه من دون توقف عدة مرات أيضاً... ومع أنّه كان بادي السعادة والارتياح، فقد كان يتوخى أن يروّح عنّي، ولعلّه فكّر في الوقت الطويل الذي لا يدري كيف ينقضي، إلى أن تعود أمّي بما نأكله في ذلك اليوم... وفي هذه اللحظات، كنت أسمع أصوات الأطفال، وهم يلعبون في الزقاق... ولا شك أنه قد سمعهم هو أيضاً... فإذا به يقول فجأة:

- عبدالعزيز... انت ممكن، تجلس... تلعب... عند الباب... مع... مع البزورة.

كدت أقفز فرحاً... فأسرعت أقول:

- يعني أنزل...أروح عند الباب؟

- إيوه عند الباب... بعيد... لأ... فهمت؟؟؟

- فهمت... فهمت...

- باب، لازم ما تقفل... فهمت؟؟؟

- إيوه... فهمت... ما أقفل الباب...

- هيّت... روح..

نهضت مسرعاً... ولأوّل مرة منذ إصابتي بالتيفوس، بل ومنذ وفاة خالتي ربما، وجدت نفسي أمام باب الزقاق... في الشارع... مع الأطفال الذين لم أكن أعرف أحداً منهم... ليس بينهم أولئك الذين ذهبت معهم إلى ما سمّيناه (البستان) وجئت منه بالخبّيزة... لم يلتفت إليّ أحد... حتى الذي كان يقف بالقرب مني عند الباب... من جانبي، لم أحاول أن الحق بأولئك الذين كانوا قد تجمّعوا يصغون إلى واحد منهم، يقول لهم شيئاً يشد انتباههم. ثم فجأة رفع صوته وهو يشير إلى الشارع الذي فيه قلعة حلب وقال:

- سترونهم الآن... العساكر... والعربات... والمدافع... كلهم. أبي قال يسافرون إلى استامبول... عند السلطان...

من دون أن يقول شيئاً... مشى في اتجاه شارع القلعة، ومشوا معه... كأنهم فضّلوا أن يروا كل شيء عن كثب... خطر لي أن أمشي معهم وهم يمرّون بي في موقفي عند الباب... ولكن جدّي هناك في البيت، وقد حذّرني أن أبتعد عن الباب... أو أن أغلقه لأدخل من دون أن أحتاج إلى من يفتحه لي... أحسست بالحاجة إلى الجلوس... لا شك أني ضعيف لا أقوى على المشي أو الوقوف كما قال جدي... بدا الزقاق خالياً بعد خروج الأطفال منه... جلست على عتبة الباب... ولكن ما هي إلا دقائق أو لحظات، حتى لعلع صوت انفجارات القصف بكثافة هائلة، إذ بدت كأنّها تملأ الفضاء، وتتساقط كحبات المطر في كل مكان... أسرعت أدخل البيت، وأحكمت رتاج الباب، وفيما كنت أتّجه مسرعاً إلى السلم إلى الدور العلوي، رأيت جدّي يتّجه للهبوط... ولكنه توقف حين رآني... كان القصف يزلزل المنزل كله طوال الفترة التي انقضت، ونحن - جدّي وأنا - وقد جلسنا لا نتكلّم، ولا نستطيع حتى أن نتحرك... كان الفزع الأكبر الذي كان يمزّق قلبينا، هو السؤال الكبير... أين أمّي الآن؟؟؟ من يعرف؟؟؟ ومن الذي يمكن أن يجيب أو أن يقول شيئاً. ولا أدري ماذا كان يدور

في ذهن جدّي، وأنا قابع إلى جانبه في غرفته... كان يتمتم بأدعيته كالعادة... فإذا ازدادت حدة القصف، وزلزلت جدران المنزل، كان يضع يده على كتفي يطمئنني حيث لا اطمئنان بأية حال... ثم أخذت أصوات الانفجارات تبتعد، وتتلاشى شيئاً فشيئاً... فإذا به ينهض، ويأخذ يدي في يده، ويسرع في الخروج من الغرفة... إلى باب الزقاق... فتحه متعجّلاً وأسرعنا معاً إلى بيت جيراننا (أبو داود). وجدنا السيدة الأم، تفتح الباب، وتخرج فلا تكاد ترى جدي حتى تسألنا عن ابنتها... وعن أمي.

كان مفروغاً منه أننا جميعاً لا نستطيع أن نفعل شيئاً... ولا أن نعرف أو نخمّن أين هما وما الذي وقع لهما؟؟؟ وفيما نحن - السيدة الأم وجدي وأنا - كلنا واقفين عند الباب، كان الأطفال الذين سبق أن خرجوا إلى شارع القلعة، يعودون راكضين، وكان يسوقهم وهو يجري خلفهم ويصيح مزمجراً، شاب عرفته السيد الأم فاستوقفته وهي تناديه: صالح... يا صالح... يا ابني...

وقف صالح بينما واصل الأطفال طريقهم في الزقاق إلى منازلهم... وقبل أن يسمع منها شيئاً قال:

- يحرقون مخازن الجَبَخانة... في القلعة... وفي القشلة... ادخلوا... ولكن لا تدخلوا الغرف... في أرض الدار... يمكن السقف..

ومن دون أن يضيف شيئاً... ذهب يعدو... لتقول السيدة الأم:

- لكن... فين لطفية... وفاطمة؟؟؟ يعني كيف نعمل؟؟؟

وقفنا لحظات حائرين بينما ظلّت السيدة الأم تردد الجملة نفسها:

- كيف نعمل... كيف نعمل؟؟؟

لا شك أن جدّي كان يردّد السؤال نفسه بينه وبين نفسه، عندما تناول يدي في يده كما هي عادته... ومشينا معاً... دخلنا البيت، ولم نغلق الباب من الداخل... والتفت إليّ وقال:

- انتظر هنا..

وأخذ يصعد درجات السلم إلى الطابق العلوي بكثير من الجهد والإعياء، وعاد بعد قليل، وقد ارتفق عمامته وجبّته... فهمت أنه قرّر أن نذهب للبحث عن أمّي ولطفية... ولكن أين...؟؟؟

***

موت جدّي في جوّ من الرعب والأسى
وتركني وأمي وسط صحراء تلفحها سياط الحرب المحمومة

رغم ما كان يبدو عليه من الإعياء، فقد تحامل على نفسه وأخذ يفتح باب الزقاق بيد مرتعشة... خرجنا وما كدنا نخطو خطوات في اتجاه مدخل العطفة، حتى سمعنا صوت السيدة الأم مرتفعاً صاخباً في حدة وهي تقول - ربّما لابنتها الكبرى - إنها لا بد أن تبحث عنها... وتعني ابنتها لطفية... وفتحت الباب، ورأيناها معاً... في ملاءتها... وما كادت ترانا حتى قالت: (الحمدلله... الشيخ أفندي وابنه معي...).

وخرجنا إلى الشارع الطويل على امتدادٍ موازٍ للقلعة... لاحظت السيدة أن جدّي مرهق، ولعلها قدَّرت أنه لا يستطيع أن يمشي طويلاً، فوقفت وهي تقول:

- شيخ أفندي... انت تعبان... ترجع البيت، وأنا إن شاء الله لا أرجع إلا معهما.

وقف جدّي، لحظات، ثم أخذ يتلفّت كأنه يبحث عن شيء... ومن دون أن يقول شيئاً تراجع نحو جدار سور المنزل... وتخاذل وجلس على الأرض... وبكثير من الجهد جمع أطراف جبته إلى حضنه... وقال:

- عبدالعزيز... اجلس...

وأشار لي بيده أن أجلس إلى جانبه... وقال للسيدة: (إجلسي انت أيضاً).

ولكن مروءة السيدة، وعطفها عليه، جعلتها تقسم ألا تذهب، حتى ترانا ندخل منزلنا... ومدت يدها إليه فمد من جانبه يده ونهض بكثير من الجهد... وعدنا إلى المنزل فعلاً... وبلغ من مروءتها وعطفها أن أصرّت على أن تساعده على الصعود إلى غرفته، وأن تراه يستلقي على فراشه... وأسرعت إلى الحمام، وعادت إليه بالماء في (كوز) من النحاس بقي معنا منذ خرجنا من المدينة، وحتى ذلك اليوم.

أخذت السيدة الطيبة طريقها للخروج والبحث عن أمّي وابنتها.. وكلمات جدّي تلاحقها بالدعوات تعبيراً عن الامتنان والشكر. ومرة أخرى وجدنا أنفسنا - جدّي وأنا - وحدنا، لا ندري كيف نتصرّف لنجد أمّي التي طال غيابها... كنت جالساً إلى جانبه مما يلي قدميه بحيث أرى وجهه... رأيته يغمض عينيه ببطء... رجّحت أنه نام... ولم أكن أقل حاجة منه إلى النوم، فاستلقيت بحركة حذرة، واستسلمت لنوم عميق.

حين سمعت صوته يناديني، سمعت في الوقت نفسه طرقاً على باب الزقاق... نهضت مسرعاً لأفتح، وفي يقيني أن أمّي هي التي جاءت وتطرق الباب... ولكن جدّي قال:

- فاطمة عندها مفتاح... انت شوف مين؟؟؟

كان الطرق يتوالى، وقبل أن أصل من الدور العلوي إلى الباب، سمعت صوت رجل يرتفع قائلاً:

- شيخ أفندي... شيخ أفندي.

وفتحت الباب، لأرى رجلاً، لم يسبق أن رأيته قط... نظر إليّ وهو يقول:

- وين شيخ أفندي يا حبّوب؟؟؟ قل لو... لكن ما بتعرف تقول لو؟؟؟ اسمع... أنا بِدِّي أشوفو...

وتركت الرجل واقفاً عن الباب، وأسرعت إلى جدّي أقول له:

- واحد رجّال... يقول... يقول بِدّو يشوفك...

- قول... يجي هنا... تفضّل...

كان واضحاً أن جدّي أيضاً لا يعرف الرجل الذي جلس، وبعد أن سلّم في أدب قال:

- شيخ أفندي، أنا موفق.. زوج شفيقة... جيرانكم... لطفية وفاطمة بعد شويّه بيكونوا هون... أم شفيقة بتقول، انت والولد، لا تخافوا... هلّق... هلق بتشوفْهُن...

- انت كنت مسافر.. غايب؟؟

- إيوه... أنا كنت غايب في حلب... ما كنت أقدر إجي... لكن، الحمدلله، خلاص... سفَرْ بَرْلِكْ... خلاص... كلها شيء جمعتين تلاتة وكل الغايبين بيكونوا هون...

- لكن فين... فاطمة ولطفية؟؟؟

- أم شفيقة بتقول، جاها خبر إنْهُنْ، عند اختها... الخالة أم حسنية.

نهض الرجل بعد ذلك مستأذناً، وفي اللحظات التي كان يهبط فيها إلى الفناء، سمعنا حركة فتح باب الزقاق... وتهلّل وجه جدّي ارتياحاً، وهو يقول:

- الحمدلله... هادي فاطمة.

وبالفعل، كانت أمّي هي التي جاءت، وهي تحمل سلّة صغيرة، أسرعت تضعها في زاوية الغرفة، ثم انحنت على جدّي تقبل أنامله، ويمد هو ذراعيه يحتضنها إلى صدره، ويقول:

- خير ان شاء الله... لماذا التأخير؟؟

سمعنا قصة طويلة عن الاضطراب والخوف، والدكاكين المغلقة في جميع الأسواق... والناس خائفون، لأنهم سمعوا، أن الإنكليز ومعهم العرب، يمكن أن يدخلوا حلب... وأن عساكر السلطان يخرجون من حلب، وقبل خروجهم يحرقون مخازن الجبخانة... وأنها رأت بعض البيوت تنهار، وبعضها يحترق، وأنها مع لطفية كانتا معرّضتين لخطر الحريق في السوق المسقوف الذي احترقت فيه جميع الدكاكين، وأن لطفية بعد أن استطاعت أن تخرج معها من السوق الذي يحترق، ذهبت بها إلى خالتها (أم حسنية)... قالت إنهم ناس طيبون... جزاهم الله خيراً... العم أبو غالب، و(حسنية)... خاف أن يتركهما تخرجان، قبل أن تهدأ الحالة... وأرسل خادماً يطمئن أم شفيقة... وقالت:

- أبو غالب - جزاه الله خيراً - عرف أننا خرجنا لشراء أكل... فأرسل خادمه وقال إنه لا يأخذ (المجيدي) مني، إلا بعد أن يعود الخادم بالأكل...

وهنا نهضت وجاءت بالسلّة، التي كانت تحملها... وهي تقول:

- ما شفت ايش اللّي جابه الخادم... لكن أبو غالب، حلف يمين إنّو ما يأخذ المجيدي. وقال: بعدين... بعدين، أم شفيقة تقول لكم كم الحساب.

أخذت تخرج ما في السلّة... عدد من أرغفة خبز، من نوع أفضل من النوع المألوف ولفافة ورق، فيها قطعة جبن كبيرة... وكمية من الطماطم والخس... ولكن المفاجأة الكبرى، كانت في علبة كبيرة من علب اللحم المفروم التي كانت تصرف مع الجراية قبل أن تتوقف... وقرطاس من الورق، فتحناه، لنجد فيه كمّية من السكر (الأحمر)،

الذي انقطع ولم نعد نراه منذ عهد طويل. وقبل أن تفرغ من إخراج محتويات السلّة... رأيت وجهها يتهلّل، وهي تقول:

- وهادي قارورة فيها زيت زيتون... الحمدلله... هيّا خليني أقوم أجهّز لكم الغدا... وأنا شبعانة... أكلت في بيت أم حسنية...

***

مع أن جدّي، كان ممتناً من دون شك لهذه الهدية التي قدّمها رجل طيّب، قالت أمّي إنه (أبو غالب وحسنية)، إلا أنه بدا متأثراً حزيناً لأنه - كما قالت أمّي في ما بعد - استثقل أن يتصدّق عليه وعلى أهله هذا الرجل... وكان ما شغل بال أمي، أنه لم يأكل إلا القليل جداً من كل ما وضعته أمامنا لوجبة الغداء... وحين نهض يريد الوضوء للصلاة استعان بها في مشيته المتعثّرة... كان يتأرجح في مشيته يمنة ويسرة... ولولا أنها ظلّت تسنده لسقط على الأرض...

بعد الغروب، في ذلك اليوم ولأول مرة في ما أذكر، زارتنا أم شفيقة وابنتها الشابة ومعهما (موفّق) زوج شفيقة... وعلى ضوء مصباح بدا لي كأن أمّي تشعله لأول مرة منذ زمن طويل، جلس الجميع يتحدثون عن أمور كثيرة، وكان ما علق بذهني هو أن أم شفيقة قد أخبرت زوج ابنتها (موفق)، ان جدّي هو الذي قام بتجهيز ودفن (أبو داود)... وأنها لن تنسى هذا الجميل... خصوصاً وأن أقاربها، وأقارب أبو داود، قد ابتعدوا عنها في ذلك اليوم، خوفاً من حمى التيفوس... ولذلك فإن موفق، وقد عاد من الغربة جاء الليلة ليشكر جدّي، ويقول إنه مستعد لقضاء حوائجه ومشترياته. ولا حاجة به، أو بأمي للذهاب إلى السوق.. ثم أخذ موفق يتحدث عن الأهوال التي كابدها، منذ سافر مسخّراً لخدمة الدولة في طريق السكة الحديد، بين حلب ودمشق، وأيضاً بين حلب وبلدان أخرى... وفهمت أمّي من الأخبار الكثيرة، التي كان يفضي بها، أن الجيش التركي قد انسحب من أراضي (الشام) كلها، وأنه ينسحب من حلب أيضاً... وأن الإنكليز ومعهم (جيش شريف مكة) أصبحوا حول حلب... ومقاومة الجيش التركي شديدة جداً، ولكنه سمع منذ يومين، أن قائد الجيش التركي يمكن أن يسلّم حلب إذا وافق الإنكليز على شروطه... ومن هذه الشروط الكثيرة عودة (المهاجرين) في أراضي الشام والموجودين في حلب إلى بلدانهم.

لم يكن جدّي يجهل اللغة العربية، فهو - كما كانت أمّي تقول - حافظ القرآن

الكريم ويحفظ أحاديث الأمام البخاري ومسلم، وقرأ تفسير القرآن، للإمام (البيضاوي) وتفسير الكشاف للزمخشري، وهو أستاذ في اللغة الفارسية أيضاً، ومنه تعلّمتها هي، وذلك إلى جانب اللغة التركية بلهجة (التركمان) وكذلك بلهجة (استامبول)... ولكن... رغم كل ذلك كان يصعب عليه فهم اللهجات العامّية، والسورية على الخصوص... ولذلك، فقد ظلّ يسمع من موفّق كل ما أفضى به من الأخبار، ثم ما كاد يستأذن مع أم شفيقة وابنتها لطفية، ويخرجوا، حتى طلب من أمّي أن تعيد عليه ما سمعه ولم يفهمه.

كان يصغي إلى أمي، وفي وجهه ونظراته ذهول وتفجّع مع توتر وغضب.. وقاطعها أخيراً وهو يشير بيده أن (كفى)... واستدار وهو مستلق بحيث جعل وجهه إلى الجدار... وعندما جهّزت أمّي وجبة العشاء، وكان منها ذلك اللحم المفروم، وانتظر أن نفرغ من الأكل، لينهض تساعده وتسنده أمي، إلى الحمام للوضوء... صلى جالساً، واستلقى وهو يتلو هامساً آيات من القرآن الكريم.

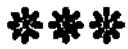
لعلّها كانت المرة الأولى التي أشعر فيها بالشبع منذ زمن طويل. فقد كان الخبز الذي جاءتنا به أمّي في تلك السلّة لذيذاً، وان كان مصنوعاً من الشعير، وكان اللحم المفروم، والجبن غذاء حرمنا منهما، إذ لم يكن لهما وجود في الأسواق، وربّما كان جدّي لا يملك من المال ما يكفي لشرائهما. ومع الشبع غلبني النعاس، فتدحرجت إلى اللحاف الذي أنام عليه، في ركن الغرفة، واستغرقت في نوم استسلمت له، وأنا أرى أمّي جالسة وقد أسندت رأسها على يدها وجدي مستلقياً ووجهه إلى الجدار.

لا أدري ما الذي جعلني أستيقظ، مع خيوط الفجر وهي تتسلّل شاحبة من تلك النافذة الوحيدة في غرفة جدّي التي أصبحنا ننام فيها معاً منذ شفيت من حمى التيفوس... وكان أول ما رأيته على ضوء المصباح الصغير، أمي وهي تنهض مسرعة ووجهها محتقن وقد تناثرت عليه حبات الدمع الذي كانت تذرفه في صمت... كان جدّي هناك في فراشه... مستلقياً على ظهره، وفي يمناه مسبحة طويلة، هي التي تعودنا أن نراها في يده بعد كل صلاة... نهضت من فراشي، أريد الحمّام... لكن قبل أن أخرج من الغرفة، رأيته يشير بيده أن أتقدم إليه... أسرعت نحوه... وجلست أنتظر أن يأمر بشيء... مدّ يده بكثير من الجهد... وربّت بكفه خدّي... التزمت من جانبي الصمت وإن كنت قد لاحظت أن كفّه في مروره على خدّي كان ساخناً... أدركت

أنه مريض واعتقدت أنها ربما كانت حمّى التيفوس... وكالعادة مرّت بذهني صورة أولئك الذين كانوا يسقطون في الشوارع من المصابين بها... أحسست كأن قلبي يكاد يقفز من صدري خوفاً ورعباً من أن يكون هذا مصير جدّي أيضاً... ولكن... مع أن عينيه كانتا مغمضتين، سمعته يقرأ بصوت مسموع (قل هو الله أحد...). ثم سكت... ولم أرَ شفتيه تتحركان كما هي العادة حين يتلو أدعيته هامساً... طال سكوته، ورأيت وجهه يبدو أصفر بشيء من الزرقة... ولست أدري حتى اليوم كيف فهمت أنه مات.

عادت أمّي إلى الغرفة ، وفي يدها فوطة مبلّلة... كانت تهم بنشرها على جبهته... ولكنّها ما كادت تتأمّل وجهه لحظة... حتى شهقت وتهالكت إلى جانبه وارتمت عليه وكل ما ظللت أسمعه وهي في ذلك الوضع هو:

- أبويا... أبويا... أبويا...



تولّي أمّي المسؤولية
وبدء الكفاح من أجل تأمين الحياة

أستطيع اليوم، بعد هذا التسيار الطويل في مسالك الحياة، على تنوّعها، سهولاً وحزوناً وتوالي تناقضاتها، أفراحاً وأحزاناً، أن أفسّر خمود، أو تبلّد مشاعري في اللحظات التي رأيت فيها وفاة جدّي، ذلك الشيخ الذي فتحت عينيّ عليه، دفقاً من الحدب والحنان والرعاية، تموج في قلبه الكبير، فلا تكتفي بمجرد النظرة الحانية، أو الكلمة الاسية، أو العطاء السخي، وإنما تمتد إلى حد الحرص على أن أكون إلى جانبه أو في حضنه، سواء في ذلك (البابور) الذي انتقلنا به من المدينة إلى دمشق، حيث أجلسني إلى جانبه على تلك الصناديق، نرتفع فوقها إلى مستوى النافذة، فنرى عبرها ما تقع عليه العين من معالم الطريق... تعودت أن أراها وهي الأمكنة التي تواجدنا فيها منذ خرجنا من المدينة المنوّرة في ذلك الصباح... لم أبكِ... رغم ما عصر قلبي في صدري من الخوف أو الرعب، وعلى الخصوص حين تهالكت أمّي عليه وهي تبكي، ووجهها على صدره، وكفاها تحيطان بوجهه... لم أدرك في تلك اللحظة أنه لم يبق لي غيرها، كما لم يبق لها هي إلا شخصي، بكل ركام الضعف والعجز والافتقار إلى الرعاية والعون تفتقدهما الطفولة، في مرحلة تفتحها للحياة.

أكاد لا أذكر، كيف وجدت نفسي في بيت جيراننا: (بيت أبو داود)... استيقظت من نوم عميق ثقيل لأرى نفسي، في مكان لم آلفه أو أعرفه من قبل، ولكن ما لبث أن أدركت أني في بيت (أبو داود) حين لمحت الفتاة الصبية (لطفية) جالسة هناك، تعالج عملاً بالخيط والابرة في يدها... نهضت، وليس في ذهني إلا اللحاق بأمي التي لا أدري أين هي، وقبل أن أمشي خطوات، تذكرت أن جدّي قد مات... ولكن ماذا بعد ذلك؟؟؟ لم تكن المسألة لغزاً بالنسبة لي إذ أصبحت لا أجهل ان الذين يموتون يؤخذون إلى المقبرة، التي سبق أن أخذ جدّي إليها، أولئك الذين ماتوا من أهلي: عبدالغفور... عبدالمعين...

خالتي خديجة... والذين يذهبون إلى المقبرة يدفنون ولكن من يا ترى الذي أخذ جدّي أيضاً إلى المقبرة...؟؟؟ ليس هناك من يقوم بذلك سوى أمي... كيف؟؟؟

وتطول التفاصيل التي كانت تخبرني بها أمي، في حكاياتها الكثيرة، عن الفترة التي عشناها بعد وفاة جدي... قد أتذكر بعضها، ولكن ما أكثر ما غاب عن ذاكرتي، في زحمة الأحداث المتلاحقة والمزدحمة بأهوال، أعتقد اليوم أن الذاكرة قد عالجتها بعمليات (إسقاط)، إذ هناك مقولة في علم النفس تزعم أن النفس الانسانية، أو هو الذهن، يلجأ إلى إسقاط أو محو الكثير من الذكريات الأليمة، كنوع من الهروب من آلامها... ومن حكاياتها عن فاجعتها بموت جدّي، أنها حين أفاقت من حالة الإغماء التي داهمتها وهي تبكي علِيه وجدتني نائماً، أو ربما مغمى عليّ مثلها، فأسرعت تحملني إلى بيت الجيران... وإذ كانت لا تدري كيف تتصرف في جثمان الفقيد الغالي، فقد اكتفت بأن تلتمس عون الجيران، وهم (بيت أبو داود) وتمتلئ عيونها بالدموع، حتى بعد سنوات من هذه الذكرى، وهي تقول:

- جزاهم الله خيراً... لقد تكفّل زوج شفيقة بكل شيء تقريباً... استعان هو بمن يعرف من الجيران في تلك (الحارة) فهرعوا إلى أداء الواجب كما قالوا... ما عدا الكفن....

هنا يختنق صوتها بعبراتها لتقول:

- كأني كنت أعلم أني سأحتاج إلى ذلك الشرشف الأبيض الكبير، والنظيف، الذي لم نستعمله أبداً... أخرجته من الصندوق، ومعه زجاجة ماء (ورد المدينة)... رششتها عليه... وكم كانت فرحتي كبيرة، في ساعة الحزن تلك، حين وجدت مع مجموعة من الأشياء التافهة المنسية في هذا الصندوق، زجاجة صغيرة، تذكرت أن فيها (عطر وود) كان شيخ الحرم في المدينة قد أهداها إلى أبيك، ليلة قرأ "الختمة" كلها في صلاة التراويح، وهي ليلة 27 رمضان... وهي من العطر نفسه الذي يهديه السلطان للحجرة النبوية. لم أترك في الزجاجة قطرة واحدة... كلها عطّرت بها ذلك الشرشف... ظلّت رائحة الورد تملأ فناء البيت الذي كنا نسكنه عدة أيام... وأهل الحارة ظلّوا يذكرون تلك الرائحة وهم يترحَّمون على جدّك...

وتتوقف عن الكلام لحظات طويلة، وفي نظراتها رحلة طويلة إلى الماضي البعيد لتقول بعد ذلك:

- الحمدلله يا عزيز... انت تذكر أن الكثيرين الذين كانوا يموتون في تلك الأيام

كانوا يحملون في عربات نقل الموتى الذي يلتقطونهم من الشوارع، ويدفنونهم في حفرة كبيرة، كل عشرة أو عشرين مع بعض... أما جدك، الحمدلله، لقد سخّر الله له، أهل الخير، من الجيران وغير الجيران... كانت جنازته مشهداً عزاني في فقده... وقد دفن في قبر، ظللت أزوره، كل يوم خميس، إلى أن سافرنا من حلب...

وهنا تلتفت إليّ وهي تقول:

- أرجو من الله أن يكتب لنا السفر إلى حلب، لنذهب معاً لزيارة قبره وقراءة الفاتحة على روحه... حاولْ أن نقوم برحلة إلى الشام وحلب... حلب، يا عزيز ترقد في ترابها خديجة... وجدّك... وعبدالمعين... والمئات من أهل المدينة... اقرأ الفاتحة على أرواحهم، بعد كل صلاة رحمة الله عليهم... ماتوا غرباء... ومن يموت من المسلمين غريباً، يموت شهيداً....

لا أدري، أو لا أذكر، كم من الأسابيع أو الشهور، انقضت ونحن - أمّي وأنا - في حلب ولكن لا أنسى أننا انتقلنا إلى بيت (أبو داود)، حيث ارتفقنا غرفة صغيرة في الدور العلوي أو لعلها في السطح، لا ينقصها حمّام صغير نظيف، وأمامها سطح واسع عريض يحيط به سور فيه نوافذ صغيرة، كانت أمّي ترفعني لأرى عبرها الشارع، والقلعة العتيدة هناك تزدحم ساحتها أحياناً بالجنود الأتراك، وعربات النقل، والسيارات، يشحنونها بصناديق رمادية اللون، قالت أمّي إنها صناديق (الجبخانة)... وفهمت في ما بعد، أن (الجبخانة) هذه هي الذخيرة - رصاص، وقنابل، وألغام - وربما مسدسات ومدافع رشاشة وبنادق...

في تلك الغرفة، عشنا - أمّي وأنا وأحياناً أم شفيقة وابنتها الصبية لطفية - ليالي البركان الذي يقذف حممه، كلما اشتد هجوم القوات البريطانية ومعها - كما أصبحنا نسمع - قوات شريف مكة، يقودها أحد الأشراف الذي عرفنا بعد انسحاب الأتراك نهائياً أن اسمه (ناصر ابن علي)... واسميها اليوم (ليالي البركان)، لأننا كنا نرى من مكمننا في تلك الغرفة، عبر نافذتها الخشب المهترئة، القذائف، تنطلق مشتعلة في اتجاهين متضادين، كانت تملأ السماء كأنها نهر من النار. ومع أن السيدة أم شفيقة كانت تلحّ علينا أن نهبط إلى الدور الأرضي لئلاّ نتعرض لخطر هذه النيران، فقد كانت أمّي تعتذر وتصرّ على البقاء في غرفتنا تلك، لأن زوج شفيقة، لم يكن قد غادر بيت (أبو داود) إلى منزله مع زوجته كما فعل في ما بعد.

والعجيب، في هذا الواقع الرهيب، أننا قد (أخذنا عليه)... وربما لأنه يتكرّر كل ليلة وأحياناً في النهار، منذ الفجر، أو بعد الظهر قبيل الغروب... ولعلّ ما خفّف من مخاوفنا وجعلنا لا نبالي كثيراً حتى بالزلزال الذي نشعر به أثناء انطلاق القذائف، أنها موجهة إلى الجنود أو القوات في ساحة المعركة، التي لا يدري أحد أين هي، ولكنها خارج حلب من دون شك، فلم يكن هناك احتمال لسقوط أي قذيفة أو رصاصة على السكان في الشوارع أو في البيوت.

من أشدّ تصرفاتي طرافة ونحن في هذه الأجواء المتوترة، أني لم أعد أخشى الخروج إلى الشارع، وأن ألعب مع الأطفال بمثل سني، بل ومع من يكبرونني سناً... أحرص على ألا أبتعد عن العطفة أو الزقاق الذي يقع فيه منزلنا، ولكن أمنح نفسي حرية أن أجري في هذه العطفة إلى آخرها، وإلى ما بعد مخرجها من الاتجاه المقابل لمدخلها... فإذا لعلع الرصاص وأصوات الانفجارات، كما كان يحدث أحياناً، فما أسرع ما نهرع جميعاً إلى البيت، ولا أكاد أخطو خطوتين أو ثلاثاً في مدخل بيت (أبو داود)، حتى أجد أمي، وقد ارتدت ملاءتها، واحتقن وجهها، في طريقها للبحث عني... وأصبحت أعرف أن خفقاتها على كتفي وظهري، لا بد أن تتواصل إلى أن نصعد إلى غرفتنا في ذلك البيت.

وحتى الجوع، لا بد أن أقول إننا قد ألفناه وتعايشنا معه... ومن حكايات أمّي عن تلك الأيام أنها وجدت في جيب جدّي رحمه الله وفي محفظته أكثر من عشرين مجيدياً... من أنصاف وأرباع هذا المجيدي، إلى جانب كمية من قطع النقد النحاسية، منها ما يسمى (المتليك) وأظنه يقابل الهللة، و(البيشليك) وربما كان يساوي عدداً من (المتليك)... تعتقد أنه ادخرها من عمله في (حفر الأختام) لأنه بعد أن سطا اللصوص علينا في حماة، لم يعد يملك شيئاً، فكل ما ظلّ ينفقه علينا قبل وفاته، ما وجدته بعد وفاته في جيبه ومحفظته، هو مما ادخره من دخله المحدود... وتعلّق على ذلك قائلة:

- يا ترى كيف كنا رايحين نعيش، لو أني ما التقيت هادي الفلوس؟ واللي باستغرب له يا عزيز، أنو الله يرحمه، كان حريص على أني ما أدري عن شيء... والسبب هو إنّو يبغانا ما نخاف، وما نام بالجوع...

وتضيف، بعد أن تسرح بذاكرتها قليلاً:

- الفلوس التي التقيتها، يمكن تظنها قليلة... لكن الحقيقة أنها كانت شيء كثير في هاديك الأيام... قعدنا نصرف منها أكتر من تلاتة أو أربعة أشهر. وكمان دفعت أجرة الغرفة، في بيت (أبو داود)... كل شهر تلات أرباع مجيدي. ولما رجلك كبرت، على (الكندرة)، وبدأت تتعلم المشي حفيان... قدرت من الفلوس أشتري لك كندرة جديدة وشراب صوف... واشتريت لنفسي انا كمان فنيلة صوف نص عمر لكنها نظيفة. وهنا يزحمها الضحك، والعبرات حين تقول:

- وتدري... يمكن ما تدري... أني فصّلت جبة سيدك رحمة لله عليه... فصلتها بالطو لنفسي، وصديرية لك أنت... هادي اللّي كنت بتلبسها أيام وليالي وتدفيك من البرد في هاديك الأيام، هادي من قماش جبة سيدك... ومن الفلوس دفعت أجرة الخياطة... أكثر من تلاتة مجيدي...

مع أنها - رحمها الله - قد وجدت هذه النقود، التي تقول إنها كانت كثيرة بحساب تلك الأيام، وإنها ظلّت تنفق منها أكثر من ثلاثة أو أربعة أشهر، فإن ما كان يتيسر شراؤه من الأغذية، لم يكن أفضل من تلك التي كان يجيئنا بها جدي... ظلّ الخبز هو الخبز الأسود من الشعير والكرسنة، ومنذ وفاة جدّي، لم نعد نرى علب اللحم المفروم، أما اللحم الطازج فقد نسيناه تماماً... ومن أغرب الأكلات التي كانت أم شفيقة تتفنن في ابتكارها، أكلة لا أزال أذكرها - ولعلّي لا أكره أن أجدها وآكلها... اسمها (زنّانة)... وهي عبارة عن عصير الرمان الحامض يضاف إليه الملح والفلفل الأسود، نغمس فيه الخبز ونأكله، في وجبتَيْ الغداء والعشاء، وتعلّل أمّي الحرص على هذا النوع من الأغذية التافهة، بأن الأسواق نفسها لم يكن فيها شيء يمكن أن يشتريه الفقراء... وكان الناس، جميعهم، وعلى الخصوص المهاجرين، ونحن منهم... جميعهم فقراء... والذين، كانوا يموتون جياعاً أو من الجوع في الشوارع وفي المساجد وفي الطرقات، جميعهم من هؤلاء الفقراء.

ثم... جاء اليوم الذي أوشك أن ينفد ما بيدها من تلك النقود... وسمعتها تتحدث مع أم شفيقة، عن شيء قالت أمّي إنهم يسمّونه في المدينة (مِنْسَجْ) وأنها تعرف التطريز عليه، وسمعت أم شفيقة تتهلّل مسرورة، وهي تقول لها:

- إذا كنتي بتعرفي تطرزي، مثل ما عمتقولي... عندنا الذوات كلهم بيشتروا.. وفي اليوم التالي، خرجت أمّي مع أم شفيقه، وعادت، وهي تحمل (المنسج)،

و(شلل) الحرير الملون، وقالت أم شفيقة إن عندها قطع الأقمشة التي تحتفظ بها من أيام زمان - قبل (السفر برلك)... اقترحت أن تطرزها أمي... وهي تقوم ببيعها لبيوت (الذوات). ومنذ ذلك اليوم بدأت أرى أمّي عاكفة على هذا المنسج، تشدّ عليه قطع القماش وتطرزها بعد أن ترسم الأشكال التي تريد تطريزها بالقلم الرصاص... أزهار... وورود... وفروع أغصان صغيرة..

لا أنسى ذلك اليوم الذي عادت فيه أم شفيقة، وهي تكاد تزغرد فرحاً... وتضع بينها وبين أمي، - وهما جالستان على الأرض - حفنة من أنصاف وأرباع المجيدي وقطع النقد النحاسية وتقول لها:

- خدي اليك، اللّي بدك إيّاه... وأنا راضية باللي يهون عليكي... وكان ذلك اليوم هو آخر يوم انفقت فيه أمّي آخر ما كانت تدخر... إلا مجيدياً واحداً تصّره، في طرف غطاء الرأس... كانت فرحتها كبيرة... وأعطت (لطفية) حفنة من النقود النحاسية ذهبت بها، وعادت بأرغفة الخبز... وقطعة جبن وكمية من الخس والخيار....

أعتقد بأن من حقها اليوم رحمها الله أن أقول، إنها بذلك المنسج، وشلل الحرير الملون استطاعت أن تؤمن لقمة العيش لنفسها ولي...

تقول رحمها الله وهي تقصّ عليّ ذكرياتها:

- لكن، إذا كنت قد أمّنت ما أنفقه على الغذاء، وحتى أجرة البيت، فقد كنت لا أدري شيئاً عن المصير.... بعد أن بدأ الناس يقولون، إن الجيش التركي انسحب، وإن جيش الإنكليز، والشريف، سيستلم حلب... لم يعد هناك أمل في الرحيل إلى تركيا كما كنت أفكر بعض الأحيان، أو والعودة إلى المدينة... من الذي يعيدنا إليها وكيف؟؟؟

في ذات صباح... طرق باب البيت، زوج شفيقة... وما كاد يدخل حتى أخذ يرقص فرحاً ويغني أهازيج الفرحة، وفهمنا أن حلب قد سلّمت... وأن جيش الشريف أصبح الآن في السرايا، ويضيف:

- خلاص... ما عاد فيه ضرب رصاص... ولا مدافع... ولا شي... والسوق... مليان أكل... لحم وحنطة وكل شيء... الحمدلله... الحمدلله...

حلب تسلِّم
وجيش «الشريف» يدخل السرايا

مع أن زوج شفيقة قد رقص فرحاً بانتهاء الحرب التي لا أدري لماذا سموها (سفر بَرْلك)، وقال إن الأسواق طافحة بالحنطة واللحم وكل شيء، فإنه قبل أن يغادرنا حرص على أن يحذّر أم شفيقة، وابنتها الصبية (لطفية)، ومعهما أمي، أن (الدنيا ليست آمنة)، فلا بد من التأكد من إغلاق الباب بالمزلاج الكبير... والأفضل عدم الخروج إلى الشوارع والسبب هو كما قال: "لا أحد يدري، ما الذي سوف يحدث، وكيف سوف يكون تصرف الإنكليز والعرب، الذين بدأوا يدخلون حلب، والكبار منهم، قد دخلوا (السرايا) فعلاً... وهنا تطوعت أم شفيقة بسؤال قالت أمّي إنه أضحكها وهو: هل الإنكليز يتكلّمون اللغة العربية؟؟؟ ضحك زوج شفيقة (موفق) وهو يقول: اسمهم إنكليز... يعني إيشلون يمكن يتكلّموا عربي؟؟؟ فإذا بأم شفيقة تضيف سؤالاً هو: إذا كانوا ما بيتكلّموا عربي... إيشلون بيتفاهموا مع الناس ومع العسكر العرب اللّي بيدخلوا حلب معهم؟؟؟ وقاطعها زوج شفيقة، قائلاً:

– قبل ما أمشي... ما بدكم اشتريلكم شي؟؟؟

أسرعت أمي تخرج من الكيس الصغير الذي أصبحت تخبئه في صدرها، نقوداً، قدّمتها له من دون عد راجية أن يشتري لها: لحماً وكوسة وبرغل وسمناً وخبزاً.

كما نهضت أم شفيقة إلى رف في الجدار، وجاءته هي أيضاً بكمية من النقود، راجية أن يشتري لها الخبز، واللحم، وقرنبيط إلخ...

ومرة أخرى... قبل أن يخرج، حذّر من ترك الباب مفتوحاً، وقال إنه سيعود بأسرع ما يمكن.

كان يوماً تتحدث عنه أمّي بكثير من الحسرة، لأن الأطباق التي جهّزتها وجلسنا نتناول ما امتلأت به من اللحم والبرغل ومحشو الكوسة مع ذلك الخبز النظيف

الشهي، لأول مرة بعد ذلك الحرمان الطويل، لم يتناولها معنا جدّي وخالتي... لقد ماتا، ولا أكل إلا خبز الشعير الأسود والخيار، أو الخس والجبن والكرنب...

مع أن أصوات الانفجارات، قد انقطعت، و(السفربَرْلك) قد انتهى كما قال زوج شفيقة فقد ظللنا نسمع "زخاتٍ من طلقات رصاص، وعلى الخصوص بعد الظهر من ذلك اليوم... كما ترامت إلى أسماعنا أصوات رجال يهزجون معاً... قالت أم شفيقة إنهم الأهالي يرقصون (الدبكة) ويطلقون الرصاص (فرحانين) بانتهاء الحرب، ويبدو أن هذه الفرحة، أو الأفراح، تواصلت إلى الساعة التي استسلمت فيها للنوم، في حضن أمي، كما أصبحت عادتنا، منذ ارتفقنا تلك الغرفة في السطح من بيت (أبو داود).

انقضت بضعة أيام، ونحن نُحكمُ رتاج باب الزقاق، بالمزلاج الكبير ولا يُفتح إلا لموفق الذي أخذ يتردد ليقضي حوائج حماته، وحوائجنا... ولكنّه، في صباح أحد الأيام، جاء ومعه زوجته، وقد حمل سلة كبيرة، شحنها بالكثير من الأغذية، وعلى الخصوص أنواعاً من الخبز، منها ذلك الذي يسمّونه (تَنُّوري) ثم اللحم والبُرغُل، والجبن وأنواعاً من الخضار... وقد رفض أن يتقاضى من حماته أو من أمّي أي مبلغ... لأنه كما قال، قد وجد عملاً عند معلمه القديم الذي فتح ورشته لصناعة لُجُم وحوافر الخيل والبغال والحمير... واستلم أجرته اليومية (مجيديين)...

كان أهم ما جاءنا به من الأخبار... أن (الدنيا أمان)... يمكن أن نخرج إلى الشوارع والأسواق عندما نشاء.. ربما كنا - لطفية وأنا - ننتظر هذا الخبر بلهفة أكثر من أمها وأمي... فرحنا به، وأبرقت عيون لطفية، وهي تنظر إليّ، وإلى أمها، كأنها تتوخى أن يأذنوا لنا بالخروج... ولكن لا... إذ كان من رأي أم شفيقة أن نخرج كلنا معاً بعد صلاة العصر... والأصح، بعد وجبة الغداء، التي نهضت أمي وأم شفيقة، ومعهما لطفية لتجهيزها في المطبخ... وبقيت في ركن من الغرفة وحدي، لأسمع أصوات الأطفال في الشارع يتنادون، ويصخبون... لم أستطع أن أظلّ هكذا في تلك الغرفة، أو في ذلك الفناء الصغير... ترددت في الموافقة هي أيضاً... ولكن أم شفيقة أسعفتني بقولها:

- شو عليه؟؟؟ ما دام الدنيا أمان... اتركيه يلعب... الصبي راح يطق في هالبيت..
وما كادت أمّي تأذن، بكلمة (طيّب)... حتى انطلقت أجري نحو الباب... ولكنها

صرخت تناديني... ونهضت من جلستها في المطبخ... وسحبتني من يدي، بشدة، وهي تقول:

- رايح تجري حفيان؟؟؟

- لكن يا فقَّم... البزورة كلهم حفيانين...

- وكمان طِلع لك لسان؟؟؟ اقعد انطقْ..

وانطقيت... وأخذت تلبسني (الكندرة) الجديدة... وقد كانت العقدة فيها كسابقاتها هي الأربطة التي تحزم فوهتها على قمة القدم، لا أعرف كيف أعالجها... وأعترف اليوم - بعد السبعين من العمر - أني لا أكره حذاء، كما أكره حذاء من هذا النوع.

خرجت إلى الشارع، وإلى الأطفال، وكانوا هناك متجمعين في دائرة تحيط بأحدهم في الوسط... كانوا يعابثونه، متضاحكين، وكلما حاول الإفلات من الطوق، يدفعونه، بعنف ليستقرّ في الوسط... التفتّ، إلى الجانب الآخر... حيث المخرج إلى الشارع الرئيسي الكبير... مشيت في هذا الاتجاه، وفي نفسي أن أرى هذا الشارع الذي لم أمش فيه منذ زمن طويل... وحين بلغت آخر الزقاق، وكان الشارع أمامي، على امتداده الموازي للقلعة العتيدة، توقفت لحظات ولا أدري كيف شد انتباهي شيء شديد اللمعان هناك في الجانب المقابل... وعلى التحديد على حافة الأخدود الكبير الواسع الذي يفصل بين القلعة والشارع... كنت قد رأيت هذا الاخدود يوم قمنا بالرحلة التي عدت منها بالخبيزة... توقفت فترة... أحاول أن أتبين ذلك الشيء... وسرعان ما انفعلت، وشعرت كأن الدم يغلي في عروقي... إذ لم يكن ذلك البريق إلا للذَّهب... أجل بريق الذهب، كما عرفته في الحلية (الإسورة) التي خلعتها أمّي من يدها، وأعطتها جدّي في حماه، بعد حادث اللصوص... ووجدت نفسي، أقطع الشارع بين الرصيفين راكضاً أتلفّت يمنة ويسرة، ليس تحاشياً، أو خوفاً من العربات التي تراها في العادة تمر في الشارع، وإنما تخوفاً من أن يسبقني أحد إلى هذا الذهب، الذي أخذتِ أتبينه وازداد يقيناً أنه هو، كلما اقتربت منه... قطعتان لا واحدة... كل منها تلاصق الأخرى وتشبه الكوز النحاس عندنا، ولكن حين يكون مقلوباً وينتهي برأس كالقبة. وحين وقفت عند القطعتين لاهثاً رأيت أن في نهاية القبة حلقة تساعد على حملها... لم أتردّد، ولم أطل الوقوف أو التفكير، أدخلت إصبع السبابة من

كل يد في الحلقة ورفعت القطعتين... كانتا ثقيلتين جداً... ولكنهما الذهب الذي أذهب به إلى أمي، وأم شفيقه... ستغطرف كل منهما... وكما باع جدّي الإسورة، بكثير من النقود، فإن أمّي ستبيع الذهب!!! وأخذت أمشي، وفي يدي القطعتان، أكاد أسقط منكباً على وجهي معهما... ولكن لا... يجب ألا أسقط... يجب أن أصل بهما إلى البيت... لم أعد أرى شيئاً سوى خطواتي المتعثرة على الأرض... لا أدري كم خطوة مشيت، ولكني اقتربت من الرصيف المقابل الذي أدخل منه إلى الزقاق... ولكن... صيحات، بل صرخات، ورجال يقفون أمامي وحولي... أحدهم يصيح بهم، أن: (لا تخوفوه... لا يرميها... ابتعدوا)، وآخر يقول له: (ولكنه تعبان... يمكن بيرميها...)، وآخر من بعيد يقول بتحسّر: (يا حرام... يا حرام...). وأخيراً صرخ أحدهم: (ابتعدوا... ابتعدوا عنو...)، ثم اقترب مني وهو يقول: (حبوب... لوين بدك تروح؟؟؟ أنا بدي أساعدك...).

أدركت من تفجعهم، ومن (كلمة يا حرام... يا حرام...) ومن ابتعادهم عني وخوفهم من أن أرمي القطعتين على الأرض، أني أحمل شيئاً خطيراً... وحين مدّ الرجل الذي جلس القرفصاء أمامي، يده، استسلمت له. أدخل اصبعه في حلقة إحدى القطعتين وأخرجت أنا اصبعي... ثم مدّ يده الثانية، وهو يحذرني أن أرمي الأخرى على الأرض، وأدخل اصبعه في حلقة القطعة الأخرى... ووقف والقطعتان من الذهب، في يديه... وما كاد، حتى تنفس بما يشبه الشهيق الطويل، وهو يقول: (الحمدلله...)، والتفتُ حولي لأرى عدداً كبيراً من الرجال، بينهم أولئك الذين يشبهون الهياكل العظمية من الجياع... أحدهم كان يردِّد: (يخربْ بيته... إيشلون ما بيخاف؟؟)، ويجيبه آخر: (إيه ما بيْعرف شو هِنّي...)... ويقول آخر: (لَكْ، احمد ربك إنو ما وقعوا منَو عالأرض...)... أما الرجل الذي حملهما، فقد كان يسرع بهما إلى حافة الأخدود وهو يقول: (لك بدنا جندرما يحرس هالمصيبة، لا يوقع فيها واحد غشيم)... وكان مع الذين تجمعوا حولي بعض الصبية من سكان الزقاق... تقدم مني أحدهم وهو يقول: (لَكْ.. انكتب لك عمر جديد...)/ وأجابه آخر: (هادا ساكن مع إمو في بيت أبو داود...)، ثم يلتفت إليّ وهو يقول: (بتعرف تروح لبيتكم؟؟؟)... ظللت واقفاً ذاهلاً شارد اللب لا أجيب بشيء، ولا أتحرك في أي اتجاه... ولا أدري كم طال وقوفي، إذ لم انتبه إلا وأنا أرى الناس يتفرّقون، ومنهم من يمشي وراء الذي حمل القطعتين... فجأة رأيت أمّي في ملاءتها قادمة مسرعة، وكأنها تركض، ومعها

(لطفية)... جمد الدم في عروقي... ها هي تضبطني، في الشارع، بعيداً عن (باب الزقاق)، كما اعتادت أن تحذرني من الابتعاد عنه... لا بد في هذه المرة من (علقة) بالخيزرانة التي لا أدري أين وجدتها وأصبحت تهددني بها كلما ارتكبت مخالفة... لم تجرّب تنفيذ وعيدها حتى تلك اللحظة... ولكن الآن؟؟؟

كانت المفاجأة، أنها انحنت عليّ، واحتضنتني بين ذراعيها، ورأيت وجهها خلف (البيشة) تغمره الدموع... وأخذت تقول: (الحمدلله... الحمدلله)... وبعد أن دخلنا المنزل، فهمت منها أنهم أخبروها بكل ما وقع... حتى أم شفيقة، ما كادت تراني، حتى رفعت يديها إلى السماء وهي تردد (الحمدلله... الحمدلله...)... وبعد أن هدأ الموقف، سألتني أمي:

- ليه يا عزيز، رحت شِلْت هادي المصيبة؟؟؟

- يعني إيه فقَّم؟؟؟ يعني إيه المصيبة؟؟؟

- البمبة... البمبتين...

- يعني إيه بُمْبَة...

- يوه... لا تجنني!! اللّي شلتهم في يدينك... ومشيت بهم... دول لو طاحوا على الأرض، كنت تتفرتك انت واللي يكونوا ماشيين في الشارع... كنت تموت ويموتوا...

- لكن يا فقَّم... دول كانوا دهب... دهب... دهب زي اللّي اعطيتيه لسيدي... شلتهم أبغا اجيبهم هنا... لكي إنتي، ولخالتي أم شفيقة... دول كانوا يجيبوا فلوس كتير... كتير...

لم تقل شيئاً، وهي تسمعني أردد: (ذهب... ذهب...). ورأيت في عينيها نظرة سارحة لم يكن في وسعي في تلك السن، أن أفهم لها معنى، ولكن، ما أكثر ما كانت تذكر هذا الحادث بعد ذلك، وما أكثر ما تروي تفاصيله لصديقاتها في المدينة، وتنهي الرواية قائلة:

- يعني لو انفجرت "الدانة" - وهي القنبلة كما قيل - كان اتْفَرتَكْ الف وصلة... وكله عشان يجيب لي الدهب اللّي أبيعه بفلوس كثير... من يومه كان حريص أنو يرضي، ويخدم. وتناولنا في ذلك اليوم، وجبة غداء دسمة، تعاونت أمّي وأم شفيقة على إعدادها، وأذكر أن (موفق) وزوجته عادا إلينا بعد تناول الغداء، وما كادا يرياني

إلى جانب أمي، حتى دار بينهما حوار هامس عن (الأعجوبة) أو المعجزة التي أرادها الله، فلم أذهب ضحية لنقل القنبلتين، التي قال موفق، إنهما من قذائف المدافع... وضعها (الألمان)، في كثير من المواقع... حتى في الشوارع، لتفتك وتنسف وتدمر حين يرفعها أي إنسان يجهل أنها قذيفة... وقال: إنه سمع بالحادث: (هالصبي اللّي ساكن مع أمو في بيت أبو داود...) كثيرون تسامعوا به ولذلك، جاء يتأكد أني بخير...

بعد صلاة العصر، خرجنا جميعاً، بقيادة موفق، نرى البلد، بعد خروج الجيش التركي ودخول جيش شريف مكة، والقوات البريطانية... والواقع أن الشوارع كانت شبه مقفرة... ربما لأن الناس ما زالوا لا يشعرون بالأمان... كنت أعرف أكثر الشوارع التي مشينا فيها، إذ سبق لي أن مشيت فيها مع جدّي رحمه الله، حين شارفنا موقع السرايا، رأينا جمهوراً كبيراً من الناس، يقفون وهم يرفعون رؤوسهم مشرئبين بأعناقهم إلى أعلى... إلى الدور العلوي من السرايا... أوقفنا موفق بعيداً أو جانباً، وذهب وحده، ووقف هناك مع الجمهور... وحين عاد إلينا كان منفعلاً وربما مرتعباً إذ قالوا له: إن ثلاثة جنود من الجيش التركي كانوا مختبئين في السطح - كل واحد منهم لف نفسه، ومعه سلاحه في حصيرة ملقاة على الأرض... وقد حدث، أن ثلاثة أو أكثر من أمراء الجيش العربي، صعدوا إلى السطح، ووقفوا يتفرجون على الشارع... فإذا بطلقات الرصاص تنطلق من لفّات الحصير الثلاث... وتقتل أكثر من ثلاثة من هؤلاء الأمراء... والآن... تدور المعركة في مبنى السرايا بينهم وبين الحرس من الإنكليز والعرب... ظللنا نسمع تبادل إطلاق النار من داخل المبنى... وقبيل الغروب... تباعد الناس عن بوابة السرايا، وقال موفق إنهم يخرجون جثث القتلى من الفريقين. وترامت إلى أسماعنا صيحات الجمهور، وكلمات وشتائم بعضهم، وكلمات (لا حول ولا قوة إلا بالله) بتحسر وإشفاق يردِّدها آخرون... ظلّ الطريق شبه مغلق بالجمهور الذي تكاثر وتزاحم... وكانت يدي في يد أمي، حين اقترح موفق أن نعود إلى البيت بسرعة لأنه: (ما حدا بيعرف شو رح يصير...)، وسرعان ما أخذنا طريق العودة إلى البيت.

لا أذكر اليوم مدى الفترة التي ظللنا مقيمين في حلب خلالها، بعد انسحاب الجيش التركي وسقوط حلب، أو استسلامها لقوات الجيش البريطاني، وقوات شريف مكة، الذي اصطلحوا على تسميته الجيش العربي... كانت طويلة من دون شك... وإذا كانت الأسواق قد امتلأت فعلاً بالمواد الغذائية فإن المشكلة بالنسبة

لأمي بالذات، كانت تدبير الكفاية من المال لتأمين لقمة العيش... ولم يكن أمامها سوى ذلك (المنسج) تعكف عليه أكثر ساعات النهار والليل على ضوء خافت لمصباح أو (لمبة) تضعها على صندوق خشب مهترئ... ولكن بعد تواجد الكثير من السلع في الأسواق، ومنها (المطرزات والمخرمات)، لم يعد ما تنجزه أمّي من مطرزاتها على المنسج، يجد السوق التي كان يجدها من قبل... وأم شفيقة التي كانت تقوم بعملية التوزيع والبيع، على (الذوات) كما تسميهم، تراخى اهتمامها، لأن شفيقة وزوجها، استكثرا ان تقوم الأم بعمل (دلالة)، وهي زوجة (أبو داود)... ولأن قطعة أرض تملكها خارج المدينة، قد وجدت من استأجرها بمبلغ خفف من حاجتها إلى المال... ولذلك، فإن واقع الجوع، أو الفاقة بالنسبة لنا - هي وأنا - لم يتغير كثيراً... فما أكثر ما وجدنا أنفسنا نكتفي بوجبة واحدة، عمادها الجبن، والخيار والخبز "النظيف"، والزعتر (بالزيت)... ولعل الجديد التي تيسّر وجوده هو الشاي، والسكر... فكان براد الشاي، ورغيف الخبز، و(الدُّقّة) التي تجيد تجهيزها أمّي هو وجبة الصباح، ووجبة الليل.

أذكر يوماً خرجنا فيه في الصباح الباكر - هي وأنا - ومشينا في الشوارع التي أصبحت الآن عامرة بالناس، والدكاكين، والمعارض، والسلع على اختلافها... لم تقل لي شيئاً ونحن ننتقل من شارع إلى آخر... ولكن لاحظت أنها كانت تسأل عن موقع مسجد معين... والذي تسأله يقول لها ـ أن تتّجه، إلى شارع آخر.... وهكذا حتى وصلنا المسجد الذي تسأل عنه... وقفت عند بوابته الكبيرة، وأخذت تسأل البواب عن (المهاجرين).. من أهل المدينة... وفيما هي تسمع منه خرج من المسجد رجل عجوز، في أسمال بالية، أدركت هي أنه من أهل المدينة... وكان من أخباره أن (الحكومة) بدأت ترحّل المهاجرين بالبابور إلى الشام... وأن عليها أن تذهب إلى موظف يقيّد أسماء الذين يرحَّلون أو يريدون الرحيل، وهو موجود في (السرايا).. ثم فهمت منه أنه فقد في الشام وفي حلب زوجته وبناته الثلاث، ولم يبق من أسرته سواه... ويريد أن يرحل إلى المدينة هو أيضاً ولكنه لا يستطيع المشي إلى السرايا، وقد أعطى أوراقه لصديق يتولّى عملية قيده في السرايا.

كان المشوار إلى ذلك المسجد طويلاً، أحسسنا بالتعب الشديد، ونحن نأخذ طريقنا بعد ذلك إلى السرايا... ما كدنا نبلغ مدخل المبنى، ونرى أمامنا شجرة يجلس تحت ظلّالها مجموعة من رجال ونساء وأطفال... حتى أسرعنا وتهاوينا معاً حيثما

اتفق... كان بعضهم يتحدث باللغة التركية مما شجع أمّي على الاستعانة بهم، في معرفة المكتب الذي ينبغي أن تراجعه، لإجراءات القيد والترحيل.

***

عدنا إلى المنزل في ذلك اليوم، ونحن نجرّ أقدامنا جرّاً لكثرة ما عانيناه من المتاعب في التنقّل بين المكاتب لإنجاز حكاية القيد، ثم في المشوار من السرايا إلى البيت... ما كادت ترانا أم شفيقة ندخل، حتى خفقت صدرها بيدها وهي تقول:

- يا حرام... إنتي يا بنتي تعبانة كتير... تعالي استريحي عندنا...

بالفعل لم تكن أمّي قادرة على الحركة... استلقت على مرتبة هناك، وأخذت تطلب غطاءً ثقيلاً... بل عدداً من الأغطية، جاءتها بها أم شفيقة وأمي ترتعد... كل جسمها يرتعد وأسنانها تصطك... مع أننا كلنا لم نكن نشعر بالبرد الشديد، الذي كانت تشعر به... كانت أم شفيقة سيدة كريمة، إذ جلست إلى جانب أمّي ترعاها بكثير من الحنو والإشفاق... وكانت تلك هي حمّى الملاريا كما قالت أم شفيقة، وعلاجها مطبوخ (خشب الكينا) تتجرّعه أمّي ثلاث مرات في اليوم... والعجيب في هذه الحمى أنها تجيء في موعد معين كل يوم... وهو الموعد نفسه الذي ظهرت فيه أعراضها وهي الإحساس بالبرد الشديد، فترة طويلة قاسية، ثم ارتفاع درجة الحرارة... يليها إفراز العرق، الذي يأذن بانتهاء الحالة إلى موعدها في اليوم التالي.

طويلة جداً، تفاصيل الأحداث، في الأيام التالية... إعياؤها الشديد، واضطرارها مع ذلك لمراجعة إجراءات الترحيل في (السرايا)، والعكوف على المنسج، تطرز عليه قطعاً من القماش، تتكرّم أم شفيقة بتوزيعها لقاء مبالغ تافهة، ولكنها تكفي لسد الرمق... بل أصبحت هذه السيدة الطيبة، تدفع من جيبها قيمة أي قطعة، وتقول إنها ستبيعها على مهل.

وأخيراً... حان يوم الرحيل بالقطار إلى الشام... لم يبق لدينا، إلا مرتبة خفيفة ولحاف مهترئ، ووسادتان، لفت أمّي في المرتبة مع ما بقي لها من الملابس البالية، وحزمتها بحبل... وكان (موفق) زوج شفيقة كريماً، إذْ حمل هذه المرتبة، ورافقنا إلى المحطة...

لا أستطيع أن أستعيد اليوم تفاصيل الرحلة إلى دمشق، ومنها لا أدري كيف انتهينا إلى خيمة في مخيم على الرمال... مخيم، تذكرته بعد سنين يوم رأيت خيام الحجاج

لأول مرة في عرفات. ولم يكن في الخيمة، أحد سوانا - أمّي وأنا -. ولكن هناك صف طويل من الخيام يمتد على الجانبين عن خيمتنا في كل منها عائلة من أهل المدينة... وأشدّ الذكريات إيلاماً في هذه الخيمة أو المخيم كله، هو معاناة أمّي من حمى الملاريا... أذكر أن هذه الحمى اللعينة كانت لا تخلف موعدها بعد العصر... تبدأ زحفها بما يسمى (النفاضة) وهي موجة البرد الشديد الذي لا يشعر به سواها... ترتعد وتصطك أسنانها وتطلب أغطية ثقيلة... لم يبخل بتزويدنا بها (خواجة) - أو هذا ما وصفته به أمي، لأنه يرتفق قبعة وهو أحمر اللون والشعر - كان في ما يبدو مفتشاً أو شيئاً من هذا القبيل، يقوم بجولتين في اليوم... إحداهما في الصباح بعد توزيع جراية من حساء (العدس) - لا أدري كيف يقدمونه ساخناً - ومعه رغيفان من الخبز... والأخرى في المساء وقبيل الغروب، بعد أو أثناء توزيع وجبة العشاء، مكوّنة من (الفول)... والخبز، وللأطفال - وأنا منهم بالطبع - كوز من الحليب. وتتغيّر وجبة العشاء أحياناً، إذْ تكون طبقاً من الأرز مع قطعةٍ كبيرة من اللحم وكان لا بد مع وجبة العدس، ووجبة الفول، حزمة من الفجل والبصل الأخضر.

كان هذا المخيم، في (القنطرة) وقد نقلنا إليها بالقطار، الذي كنا نسمع صفيره عن بعد... ولا أدري كيف ومن أين جاء بنا القطار إلى هذا المخيم... كما كانت أمّي لا تدري هي أيضاً كيف، وبأي واسطة غير القطار، سيرحّلوننا إلى المدينة... إذ كانت سيدة عجوز قد قالت لها إنها سمعت أنه لا يوجد قطار بين (القنطرة) والمدينة، وكانت المشكلة بالنسبة لي شخصياً هي البقاء إلى جانب أمّي في هذه الخيمة ومنعي من الخروج منها إلا معها حين نخرج معاً لقضاء الحاجة في ساعة الغسق بعد الغروب، وتكون هي في أشد حالات الأعياء، بعد انتهاء نوبة الحمى بذلك العرق الذي يفرزه الجسم، بحيث تضطر إلى تغيير ملابسها. كان الحد الأقصى الذي يسمح لي بأن لا أتجاوزه هو بضعة أمتار أمام الخيمة أو على امتدادها، بحيث أسمع صوتها تناديني، كلما عنّ لها أن تتأكد من أني لم أبتعد.

ومن الذكريات الطريفة التي تترافق عندي مع فاكهة التين الشوكي، والتي نسميها في الحجاز (برشومي)، ذكرى رؤيتي لهذا التين في القنطرة، يحمله في سلة من الخوص كبيرة بائع يتجول وينادي على سلعته بين الخيام... لم أكن أعرف من هذه الفاكهة أي شيء... وقد شدّ انتباهي لونها المحمر وحجمها... كانت أمّي تحت الأغطية الثقيلة مع نوبة (النفاضة) التي تجيء في موعدها بعد العصر... استوقفت البائع، ودخلت

إليها... أطلب نقوداً اشتري هذا (الشيء)... فأخرجت رأسها، وأخذت تنظر إلى الرجل والسلة وقد وضعها وجلس خلفها... لم تنبس بكلمة... وإنما مدّت يدها إلى اليشمك - نسميه الآن طرحة - وفتحت صُرةً في طرفه، أخرجت منها (مجيدياً)... قالت في ما بعد، إنه كل ما كانت تملكه من المال... وإنه آخر مجيدي من العشرين التي تركها ووجدتها في محفظة جدّي بعد وفاته... كانت تنوي أن تحتفظ به كذكرى، ولكن عزّ عليها ألا تشتري لي (الشيء) الذي اشتهيته... ومن مكانها على المرتبة وتحت تلك الأغطية الثقيلة، قالت للبائع أن (يقشر لي) عشر حبات... وأعطتني طبق (العدس)، ومعه ذلك المجيدي... ويظهر أنه كان مبلغاً كبيراً جداً... إذ أخذ الرجل يعد كثيراً من قطع النقد، وبعد أن ملأ الطبق بالفاكهة، المقشّرة حمله، ومعه النقود، وتقدم به إلى أمي، وهو يدعو لها بالشفاء.

بتلك القطع من النقود (بقية المجيدي) ولا نملك سواها، وجدنا أنفسنا في باخرة نقلتنا إلى ينبع... أذكر إلى اليوم، لحظات تزاحُم ركابها من أهل المدينة، على سلم هذه الباخرة في نزولنا إلى الرصيف... وسقطتَ امرأة اسمها (ميمونة)... من فتحة في عتبة السلم... ولم يُعْن أحد بإنقاذها... غرقت وماتت... وظلّت أمّي تبكي عليها، كلما ذكرتها لأنها من معارفها وصديقة أمها... لم ندخل في ينبع بيتاً، ولم نجد خيمة، وإنما ظلّ الجميع على الرصيف فترة لا أذكر كم طالت... لنجد أنفسنا بعد ذلك على الجمال... في قافلة قالت أمّي إنها تنقلنا إلى المدينة.

مشت بنا القافلة من ينبع قبيل الغروب... كان الجميع قد ارتفقوا الجمال من دون (شقادف) وإنما بالطريقة التي يسمّونها (نطاطي)... فكل اثنين من الرجال على جمل، وكل اثنتين من النساء على جمل... وكان نصيبي - أمّي وأنا - جمل أيضاً... واستغرقت الرحلة أياماً، وكان من المحطات في الطريق بين ينبع والمدينة، محطات الصفرا... والحمرا، والواسطة والفريش.

***

الآن، وأصابعي على مفاتيح حروف الآلة الكاتبة، لأكتب المشهد الأخير، من الترحال والتشرّد، مع الجوع، والموت... والضياع، منذ ذلك الفجر الذي ركبنا فيه (البابور) من المدينة إلى دمشق... الآن تسطع وتتوهّج في ذهني، وفي كل قطرة من دمي حقيقةً أدركت المدى السحيق من الأعماق التي تتجذّر فيها من أغوار النفس،

وآفاق الضمير، ومكامن من الوجدان... حقيقة معنى الانتماء، وهو الكلمة التي قد نردّدها كثيراً، ولكن ربما في إطار من الهلامية التي تعجز عن استيعاب حجمها الضخم العظيم.

تسطع هذه الحقيقة، حين أذكر اللحظات من ذلك الفجر الآخر الذي شهدناه - أمّي وأنا - وقد بلغت بنا القافلة، ما كان يسمّى (الإستاسيون) في أعلى العنبرية من المدينة المنوّرة... كنت أسمع وأشعر بصوت أمّي وهي تجهش بالبكاء، ثم ترجو الجمّال أن يقف، وأن ينيخ الجمل، وأن يملأ لها الإبريق الصغير من القربة ماء... لأنها تريد أن تصلي الفجر... كان الجمَّال كريماً... استجاب لطلبها فأخرج الجمل الذي نركبه عن مكانه من القافلة، وتنحّى به جانباً قريباً من جدار المسجد - وهو المسجد نفسه القائم في الموقع حتى اليوم - ثم أناخه، وأعانها بأن حملني، وأوقفني على الأرض.

توضّأتْ. ثم غسلت لي وجهي... كان الماء بارداً جداً... وقالت لي:

- هيّا سوي... زي ما تشوفني أسوي... فاهم؟؟؟

ثم اتّجهت إلى القبلة... وقبل أن تدخل في الصلاة... سجدت وقد رفعت (البيشة) عن وجهها... ورأيتها تلعق التراب مرة... ثم ترفع رأسها... ثم تعود، وتلعق التراب مرة أخرى... ثم... للمرة الثالثة... وتابعتها وفعلت كما رأيتها تفعل.

عاودتها نوبةُ البكاء بعد الصلاة... وركبنا الجمل... ولحقنا بالقافلة، والجمَّال يسألها، أين تريد أن يذهب بها...

قالت وصوتها يختنق بالبكاء:

- الساحة يا عم... عند زقاق القفل.

***

كانت الشمس قد ارتفعت، عندما أناخ الجمل بنا في الساحة، وأمام مدخل زقاق القفل، وضعت يدها في صدرها، وفكّت الصرة، عن الحفنة المتبقية من (المجيدي) التي بقيتْ لها بعد شراء (البرشومي)؟... وقدمتها للجمّال، وهي تقول:

- والله يا عمّي... ما عندي غيرها..

كان شهماً كريماً... رفض أن يتناولها... وزاد على ذلك بأن حمل لها لفة المرتبة

واللحاف... إلى ذلك البيت الذي خرجنا منه ذات صباح، منذ سنين... وترك ما يحمل ومشى... بينما وقفنا معاً... أمام الباب المغلق... وقد عصفت بها نوبة البكاء لحظات طويلة... ثم مدّت يدها وطرقت الباب وهي تقول:

- يمكن أمّي (مَنكْشة) فيه... يمكن موجودة.

وفعلاً... كانت المفاجأة أننا سمعنا خطوات متئدة (بالقبقاب)... اقتربت... وفتحت الباب... وكانت هي (أمي)، أو كما يسمّونها (دادة منكشة)...

الحديث أو الكلام يطول، عن الواقع الذي واجهناه، ونحن ندخل البيت وراء (مَنكْشة) هذه... وباختصار شديد جداً... لم تجد أمّي في البيت، من الأثاث أو غيره، إلا (مسنداً) واحداً هو الذي بقي من جهاز عرسها... مسنداً لا أزال أذكر أنه من قماش يسمى (الدومسك) الحريري... ومعه، (تلبيسة) مطرزة بالقصب... كانت (مَنكْشة) تبكي هي أيضاً وتشهق. سمعت أخبار الذين ماتوا... ولم يعودوا... ومن حكاياتها هي، عن موجودات البيت التي لم يبق منها شيء، (أنهم) - ولا أدري مَن هم؟ - بعد خروج فخري باشا - دخلوا جميع البيوت، ونهبوا كل ما فيها... وكانت صادقة في كل ما ظلّت تحكيه عن هذا النهب... ثم عن الجوع... الذي اضطر الناس معه في المدينة أن يأكلوا حتى الكلاب والقطط... والجِيفَ من الخيل والحمير... أما كيف لم تمت هي بالجوع كما مات المئات والألوف، فلأنها عملت في خدمة ضابط.. غادر المدينة مع فخري باشا بعد التسليم.

***

وبعد،

فها أنذا، بعدَ أن فرغت من كتابة القسم الأول من قصة (حياتي... مع الجوع... والحب والحرب). أتساءل ربما للمرة الألف، ماذا في هذه الحياة مما يستحق أن يكتب؟؟؟ وأجد نفسي أميل إلى الاعتذار عن كتابة القسم الثاني فضلاً عن الثالث... ليس لأني تعبت، أو سئمت، وإنما لأني أشفق على وقت القراء أن يضيع ويتبدّد في ما لا حاجة لهم ولا فائدة، ولا حتى متعة في متابعته. ولأني، أيضاً، أرى كيف أصبحت ساحة الفكر عندنا، تزدحم بالعطاء يملأ هذا العدد الكبير من الصحف والمجلات، وكيف أصبح الكثير من هذا العطاء يغني المثقفين من القرّاء، عن متابعة قصص ينقصها وهج الجدة، وتفتقد دفق التطور ونبض الانعتاق من أسر الرسوب أو الغرق،

في ركام المندثر من تراث وحكايا الأجيال...

على أية حال... لا بد أن أطيل التفكير، والموازنة والتقدير، قبل أن أقدم على كتابة الأقسام أو الفصول الباقية، لتنطوي عليها صفحات كتاب... أو - وهو الأرجح - لتظلّ حيث هي من قحف هذه الجمجمة، كما ظلّت طوال سنين.

***

خلال الدقائق القليلة

كان هذا هو واقعي في تلك اللحظات عندما كانت طائرة الخطوط النمساوية تهبط بي - ومعي معظم أفراد أسرتي - في مطار فيينا، عاصمة النمسا، التي نصحني الأصدقاء أن أستشفي أو أستجم فيها بعد عملية القلب التي منّ الله علي بالنجاح في إجرائها والشفاء منها، في جدة عام 1405هـ - 1985م.

الصورة التي كانت قائمة أو مستقرّة في الذهن عن فيينا، كونتها في الواقع لمسات متعددة ومتنوعة، بأكثر من ريشة وأكثر من ألوان وظلال، ربما في مقدمتها تلك الأغنية التي صدحت بها أسمهان في أوائل أفلام محمد عبدالوهاب (إذا لم تخني الذاكرة)... ولعل الكثيرين من أبناء جيلي - ومنهم أخي وصديقي الأستاذ محمد حسين زيدان - لا ينسون صوت تلك الفنانة التي أشرقت في ساحة الفن، ليس فقط بصوتها الذي تعشقته الأسماع بل والقلوب، وإنما أيضاً بصباها وجمالها، وهالة الرفعة والسمو، التي أحاطها بها مركز الأسرة التي تنتمي إليها من جهة، وزوجها (الباشا) الذي انفصلت عنه لتلحق بأخيها فريد وقد سبقها بالهجرة إلى القاهرة، ليدخل تاريخ الفن فيها من أوسع الأبواب من جهة أخرى.

من كلمات تلك الأغنية التي صدحت بها حنجرة أسمهان الذهبية: (ليالي الأنس في فيينا... دي فيينا روضة من الجنة)... ومن أجمل ما في الأغنية، إلى جانب الكلمات، لحنها (وهو لحن رقص الفالس)... وكانت هذه الرقصة بالذات إحدى سمات وملامح الحياة الارستقراطية الأوروبية في أرفع مستوياتها، إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى... إنها الرقصة التي طوّر ألحانها - في ما يقال - الموسيقار النمساوي (شتراوس - الابن).. الذي طوّرها وأضفى عليها بالتوزيع الأوركسترالي الرائع، مما جعلها تعدّ من أعظم أعماله حتى اليوم، ومن أشهرها رقصة (فالس)

اختار لها عنوان (الدانوب الأزرق)... ونهر الدانوب هو من معالم فيينا، التي تحرص دوائر السياحة وشركاتها على لفت نظر السائح إليه، وإن كان النهر ليس أكبر أنهار أوروبا في الواقع؛ وتكاد لا تتميز به فيينا عن غيرها من البلدان التي يمر بها، لكن لحن شتراوس والاسم الذي أطلقه على هذا اللحن من ألحان رقصة (الفالس)، يجعل فيينا تتميز به عن غيرها..

لكن الصورة التي كانت تتلامح في الذهن عن فيينا، في هذه اللحظات، إلى جانب (ليالي الأنس) التي صدحت بها لهاة أسمهان، صورة دهشت في الواقع، حين رأيتها - أو خيّل إليّ أني أراها - تزاحم ليالي الانس، والدانوب الأزرق، ومجموعة رقصات الفالس لشتراوس الابن والاب، التي كانت ترقصها الارستقراطية الأوروبية، في قصور الأباطرة والقياصرة والملوك على امتداد القرن التاسع عشر، بل وإلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، وهي كما ينبغي أن يتذكّر قراء قصة حياتي (مع الجوع والحب والحرب)... هي التي قدمت في الجزء الأول من هذه القصة تفاصيل المعاناة والشقاء والآلام التي عشتها طفلاً، وعاشها أهل المدينة المنوّرة - عوائل بكامل أفرادها رجالاً ونساءً وأطفالاً - نتيجة لتلك الحرب.

وأرى الآن، أن القارئ يبذل بعض الجهد في محاولة اكتشاف العلاقة بين فيينا التي أهبط في مطارها طلباً للاستشفاء أو الاستجمام فيها، وبين الحرب العالمية الأولى، أو بينها وبين ذكريات تلك المعاناة والآلام التي عايشتها طفلاً في أيام تلك الحرب.

وما أكثر ما عاشه العالم من الأحداث بعد هذه الحرب... بل ما أكثر ما يتزاحم من الأحداث، في كل لحظة من ليل أو نهار في أيامنا هذه، بحيث يصبح من منطق الأشياء وطبيعتها أن ينسى الناس - وحتى الكهول منهم - علاقة فيينا بالحرب العالمية الأولى... فالناس اليوم، يكفيهم تماماً أن يعيشوا فجائع وكوارث ومصائب تمخّضت عنها - ولا تزال تتمخّض - الحرب العالمية الثانية، ومنها - وأعني الكوارث والمصائب - ظهور أخطر عملاقين من عمالقة القوة والقهر والجبروت في تاريخ الارض، يعبثان بمقدرات البشر ومصائر الأمم والشعوب ومسير الحضارات، بكل ما حققه الإنسان لها من التقدّم والازدهار، عبثاً يقترب بالإنسانية كلّها من حافّة الهاوية، التي لا يدري أحد إن كان - أو سوف يكون - لها قاع أو قرار.

أرجّح أن الصديق الأستاذ محمد حسين زيدان، وربما معه فريق الأكاديميين

الشيوخ من أساتذة التاريخ يرون الآن، كما رأيت أنا في الطائرة، العلاقة بين (فيينا) وبين أحداث الحرب العالمية الأولى.

العلاقة باختصار شديد - وضروري في الوقت نفسه - هي (الأرشيدوق فرانسوا فرديناند)، ولي عهد امبراطورية النمسا والمجر وزوجته (الكونتيسة صوفي)، اللذان تمّ اغتيالهما معاً في مدينة (ساراجيفو)، وهي مدينة صغيرة على ضفة نهر ملياشكا، وهو نهر صغير يتكوّن من روافد تصب فيه من الجبال الشاهقة حول المنطقة، وقد اعتبرها الحكم العثماني طوال أربعة قرون العاصمة الإدارية لولاية (البوسنة)... ولكن حين سافر إليها الأرشيدوق وزوجته واغتيلا فيها بيد (جافريلو نسيب) وهو طالب صربي، كانت مدينة (ساراجيفو) هذه حاضرة من كبرى حواضر مملكة الصرب، التي كانت قد تخلصت من الحكم التركي العثماني، وأصبح لها كيانها الدولي الذي تتطلّع امبراطورية النمسا والمجر إلى القفز عليها وضمّها إلى التاج الامبراطوري، تعويضاً عن خسائره في مناطق أخرى.

يطول الحديث، عن أسباب اغتيال الأرشيدوق وزوجته في مدينة (ساراجيفو)، ولكن يمكن القول باختصار إن الحادث كان الشرارة التي فجّرت، ليس برميل بارود فقط، وإنما ملايين الملايين من براميل البارود والدمار والفناء في العالم، من أقصاه إلى أقصاه، ومنه تركيا العثمانية، ومعها العالم العربي على امتداد الرقعة التي كان يرفرف عليها علم الخلافة العثمانية من حدود تركيا الطبيعية، إلى مشارف المحيط الاطلنطي... كان اغتيال الارشيدوق، وزوجته في ساراجيفو (وهي اليوم إحدى مدن يوغوسلافيا) الحادث الذي فتح شهية امبراطور ألمانيا (غليوم الثاني) لتصفية حساباته، في البلقان، ومع روسيا، التي كانت ولعلها لا تزال العدو التقليدي لألمانيا... لأن امبراطور النمسا والمجر (والد الأرشيدوق الذي اغتيل في ساراجيفو) قد استنجد به، وكانت طبيعة العلاقة بين النمسا وألمانيا والمجر، تحتم أن يرحب القيصر الألماني، بالوقوف إلى جانب النمسا من دون تردد أو إبطاء.

ليس في هذه اللمحة عن حادث اغتيال الأرشيدوق وزوجته، الذي أشعل نيران الحرب العالمية، مجال لذكر التفاصيل الكثيرة التي ظلّت تتلاحق، ليس فقط في منطقة الحادثة وإنما في أوروبا كلها، ومعها إنكلترا وروسيا، ولكن يمكن القول، إن دعم ألمانيا للنمسا، في إعلانها الحرب على صربيا، وإحساس بقية الدول الأوروبية بخطر انتصار المانيا على مصالحها الاستعمارية في العالم، وعلى مصالح وهيبة

روسيا في البلقان من جهة وتطلعها إلى المياه الدافئة، عبر مضائق الدردنيل والبوسفور من جهة أخرى... خصوصاً وأن فرنسا بالذات لم تنس، حرب السبعين (1870) التي انتصرت فيها ألمانيا انتصارها الساحق المهين بقيادة عبقري القيادة والتخطيط الحربي (بسمارك).. يمكن القول، إن ذلك كان من أهم - أو أهم - الأسباب التي أشعلت نيران تلك الحرب الضروس.

وخلال الأسابيع القليلة التي قضيتها في فيينا، كنت أتطلع إلى أن أتزوَّد بمعلومات عن حادث اغتيال الأرشيدوق وزوجته، لأني كنت قد التزمت أن أكتب قصة حياتي، وأن تنشر على حلقات في هذه المجلة، ورئيس تحريرها الدكتور عبدالله منّاع، صديق يصعب إرضاؤه أحياناً إلا إذا كان الوفاء بالالتزام يصل إلى حد إفراغ كل ما في الجعبة، وكان ما في الجعبة لمحة من التاريخ، تعطي قرّاء المجلة ما لعله قد أصبح نسياً منسياً من أسباب وبواعث الحرب العالمية التي أكتب قصة حياتي معها، وهذه اللمحة متاحة، أو ينبغي أن تكون متاحة في بلد الأرشيدوق القتيل... في عاصمة امبراطوريته التي نسفتها تلك الحرب ثم الحرب العالمية الثانية، التي نعلم أنها قد غيّرت خريطة العالم السياسية، كما غيّرت ملامح الحضارة التي كانت تتمركز أو تترسّخ في قصور الأباطرة والقياصرة والملوك بكل ما توفر لها من الأبهة والجمال والجلال، ومنه (ليالي الأنس) التي يبدو أنها توارت اليوم خلف الأسدال والنجف، التي لم تعد تقع عليها إلا عيون الخواء والعفاء، في هذا القصر أو ذاك من القصور التي أصبحت متاحف يغشاها الجمهور، بعد أن كانت مسارح للعرائس والحور.

لم أجد في فيينا من يزودني بالكفاية من هذه المعلومات، بل ولا بالنذر اليسير منها لأن لغة القوم في اللغة الالمانية، والألمان والنمساويون منهم، درجوا على أن يلتزموا التعصب للغتهم، إلى حد يصرّ معه الواحد منهم على التخاطب باللغة الألمانية، حتى ولو كان يجيد اللغة الإنكليزية أو الفرنسية مثلاً. أما الكتب، فلم أستطع أن أبحث عنها في المكتبات، لأني كنت مع الأسرة والأولاد في فندق بعيد عن أسواق المدينة، من جهة، ولأني لا أستطيع الوقوف طويلاً، أمام أرفف المكاتب - كما كانت عادتي في أيام الشباب - من جهة أخرى.

لكن لا شك عندي اليوم، وأنا أستأنف كتابة الجزء الثاني من قصة حياتي مع الجوع والحب والحرب (ان حظ الدكتور عبدالله مناع، أو حظ قرّاء مجلة (اقرأ) ينطبق عليه وصف (بومب)... إذ لا أدري أي صدفة سعيدة جعلت الصديق الأستاذ (سيف الدين

عاشور) يمن عليّ بزيارة في ذات مساء منذ أسابيع، وأن يهديني كتاباً باللغة الإنكليزية عنوانه (ضحايا ساراجيفو) (Victims at Sarajevo)، يصفه الكاتب (جوردون بروك شيبرد) بأنه (قصة حب، ومأساة فرانسوا فرديناند وصوفي)... وأنا أزعم أنها صدفة فقط، لأن الأستاذ سيف الدين عاشور، خالي الذهن تماماً، من حكايتي في فيينا، وبحثي فيها عن تفاصيل قصة اغتيال (الأرشيدوق) القتيل بل هو خالي الذهن أيضاً، من رغبتي في إعطاء قرّاء القصة هذه اللمحة من التاريخ).

يقول (جوردون بروك)، إنه يقدم في كتابه معلومات وتفاصيل عن حياة الأرشيدوق وزوجته (صوفي) وعن حادث اغتيالهما، لم يسبق أن عرفت أو نشرت من قبل، فإذا لم ننس، أن الكتاب يصدر وينشر لأول مرة في العام 1984 عن أحداث وقعت في العام 1914 فإن لنا أن نتساءل عن ألوف أو ملايين الأسرار التي يغمرها، أو يهيل عليها التراب هذا الذي نسميه تاريخاً، ونزعم أن ما تقدّمه لنا كتبه، حقائق، أو كل الحقائق وراء الأحداث.

ليس مما يهمّ القرّاء أن أحدّثهم عن الأرشيدوق، القتيل، وقصة حبه لصوفي التي لم يرض والده الامبراطور عن زواجه منها، لأنها لم تكن من اللائي يجري في عروقهن الدم الملكي (الأزرق)، بل لم تكن أكثر من (وصيفة) منحت لقب (كونتيسة) لأنها خصصت لخدمة (الامبراطورة) والدة الأرشيدوق... ولكن الأرشيدوق، كان شاباً عنيداً قوي الشكيمة، وكان حبّه لصوفي أقوى منه، ومن الامبراطور نفسه الذي رفض، وظلّ على رفضه حتى بعد أن تزوج الأرشيدوق من حبيبته... بلغ من غضب الامبراطور، على الزواج وعلى ابنه وهو ولي عهد أن أصدر مرسوماً يحرم أبناء الأرشيدوق من صوفي من ولاية العهد... وهذا كان يعني أن ينتقل التاج بعد الأرشيدوق، إلى أخيه، وليس إلى أحد أبنائه.

بل ليس مما يهمّ القراء أن يعلموا وهم يتابعون قصة (حياتي) شخصياً، مع الجوع والحب والحرب أن ابنة الأرشيدوق القتيل لا تزال حية ترزق، وأن الكاتب قد وجد عندها تلك التفاصيل عن قصة الحب، وقصة الاغتيال، التي ينشرها لأول مرة في العام 1984 وهو يقول: إنه لو قدر لفرانسوا فرديناند، وصوفي أن يعيشا، وأن تتجاوزهما يد القدر، لاستطاعا أن يحتفظا بتماسك امبراطورية النمسا، وأن يعملا على صيانة السلام في أوروبا، جيلاً آخر. وليس أن يجنّبا العالم تلك الحرب العظمى الضروس فحسب، وإنما كنتيجة يتجنّب الثورة الماركسية أيضاً.

ولكن ما أعتقد أن القارئ لا يجد ما يمنع أن يُلِمَّ به، عن ساراجيفو، هذه المدينة التي اغتيل فيها الأرشيدوق وزوجته صوفي، هي العاصمة الإدارية لولاية (البوسنة والهرسك) من ولايات الخلافة العثمانية في البلقان، وإذا لاحظنا أنها كانت تتاخم أو تجاور النمسا بل على الحدود مباشرة، وأنها من وجهة نظر قانونية بحتة، كانت تعتبر تابعة للدولة العثمانية، بل إن أكثر من ثلث سكان المدينة، مسلمون، أتراك ويتكلّمون التركية، ولذلك فإن من العوامل التي حفّزت النمسا بالذات، على التخطيط، للوثبة على (صربيا) من جهة، والتي حرّكت حوافز انتفاض صربيا على النمسا والتصميم على مقاومة أطماعها من جهة أخرى، ثورة (تركيا الفتاة) عام 1908، التي أعلنت الدستور، والبرلمان أو (مجلس المبعوثان) وفيه حق شعب البوسنة والهرسك (وهو من رعايا الدولة العثمانية) في أن يمثّل في هذا البرلمان.. كان هذا في تقدير امبراطورية النمسا، أن هؤلاء الأتراك، الذين سبق لهم أن دقّوا أسوار النمسا مرة، والذين ظلّوا يحكمون أراضي (صربيا) وشعبها طوال أربعة قرون متتالية، بل ويتاخمون بحكمهم (صربيا) النمسا من دون فاصل وحاجز طبيعي، ونظام الحكم عندهم متخلف كتخلفهم في الصناعة والثقافة وعلوم العصر، بحيث أصبحوا يوصفون بأنهم (الرجل المريض).. ما الذي يمكن أن تتمخّض عنه الأحداث على المدى الطويل، حين يظهر عندهم حزب سمّى نفسه (تركيا الفتاة).. بدأ انتفاضته على التخلّف، بإعلان الدستور والحكم النيابي؟؟ أقل ما يجب أن تتحسّب له النمسا والمجر، هو هذا التطوّر فليس أقل من الاستيلاء على (صربيا) كلها، لتظلّ الحاجز. الطبيعي بين الامبراطورية، وبين الأتراك.

لكن ما أعجب سخرية القدر، وما أشد ما خيبت ثورة 1908 الظنون والتوقعات، وما أكثر وأبشع، بل وأفظع ما تمخّضت عنه هذه الثورة... وماذا أفظع لعمري... وأشد هولاً من أن تأتي نهاية الحكم والخلافة العثمانية بكل أمجادها، وشموخ تاريخها، على أيدي أبناء (تركيا الفتاة)... أبناء ثورة 1908، التي حسبت لها كل الدول الأوروبية ألف حساب.

أيهما أكثر إمتاعاً للقارئ

لو طلب إليَّ أن أجيب على هذا السؤال، فعليّ ألا أتردد في أن أقرر أنّ الأكثر إمتاعاً وتشويقاً، والأوسع آفاقاً وأحداثاً، هو هذه اللمحات، بل حتى التفاصيل الكثيرة، التي ترقد تحت نسيج العنكبوت، في أروقة النسيان، أو في بطون ما لا يعد ولا يحصى من الكتب والتقارير، ومعها ألوف الصحف اليومية، التي كانت لا تكاد تخرج من أبواب المطابع إلى أجهزة التوزيع حتى تتطاحن عليها أيدي القراء ينتظرونها، وفي نفوسهم، أو في قلوبهم، ما يشبه الحرائق من المخاوف، والتوقعات.. من اليأس الساحق الماحق، وقد بصت إلى جانبه نبتة أمل فيها العزاء والرجاء.. العزاء في من طحنته الحرب، فلن يعود، والرجاء، فيمن يمكن أن يكون لا يزال في الخندق، أخطأته القنبلة، أو الرصاصة...

***

قصة الحرب العالمية الأولى؟؟ من الذي تطاوعه مشاعره، لقراءتها ومعايشة أهوالها؟؟ ثمّ.. ما أكثر الذين يعرفونها.. فهي من نوع القراءات التي يكتفي القارئ بأن يلقي على بعض سطورها نظرة ثمّ يسرع إلى تقليب الصفحات، التماساً للأفضل، والأكثر جدة وطرافة وإمتاعاً.

هنا، أفضل أن أقف، وأستوقف، وليس لأبكي من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ، وإنما لأعترف بأنّي مبتلى أو مصاب، بما يمكن أن يوصف بأنّه (عقّدة) أو (مرض نفساني).. إذ أكاد لا أفضل من القصص، إلاّ قصص ومغامرات الحروب الكبرى، وفي أيام الشباب والقدرة على الحركة والتجوال، في القاهرة، أو بيروت، كنت أتصيد دور السينما التي تعرض فيلماً عن الحروب. وبعد أن اقتحم جهاز (الفيديو)

منازلنا، فإنّي (أخطط) للاستقلال بجهاز خاص بي، يتيح لي أن أشاهد به أو عليه، أفلام الحروب الكبرى، وما أكثرها، وما أروع براعة الإخراج فيها، ويندر أن يتصدى لمسؤولية إخراجها، إلاّ أولئك العباقرة الكبار، الذين لا يقدمون على العمل، إلاّ بعد دراسات موسّعة متعمّقة، تصل إلى حد المعايشة.. ولذلك أرجو ألا يضحك القارئ عليّ، حين يجدني أعنى بقصة حياة الملايين من الذين أطبقت عليهم القبور، كما كانت تطبق عليهم الخنادق والنيران.. ولكل منهم قصة بدأت يوم سيق إلى الميدان، وتوالت فصولها، وهو يهجم أو يندحر، وانتهت في اللحظة التي صرعته رصاصة أو شظية قنبلة وفي عينيه وجه الحبيبة التي تنتظر أن تراه.. أو الأم التي لم ينس دموعها على وجهه وكتفيه ساعة الرحيل.

ثمّ إنّ جيل ما بعد الحرب العالمية (الثانية).. قد لا يعرف أي شيء عن هذه الثانية فضلاً عن الأولى. والذين يحملون المؤهلات الجامعية في التاريخ منهم، يستطيعون - من دون شك - أن يتذكّروا معلوماتهم الأكاديمية القيّمة عن مسيرة التاريخ في حياة البشر، وعن قيام الدول وسقوطها وعن الحضارات التي ازدهرت، ثمّ تراجعت أو حتى توارت وطواها النسيان.. ولكن التفاصيل في كل ما قدمتْه لهم دراساتهم لم تكن - وقد لا ينبغي أن تكون - مما عنيت به هذه الدراسات.. لأنّها تترك - على الأرجح - لمراحل التخصص أو لاختيار الدارس، حيث يجدها في مؤلفات موسَّعة بأقلام متخصصين من العلماء، أو بأقلام كبار القادة من أمثال تشرشل ومونتغومري وديغول.

أمّا عن الذي يستفيده القراء من قصة حياتي مع الجوع والحب والحرب، أو من هذه اللمحات عن أسباب وبواعث الحرب، التي كنت في طفولتي الأولى من الذين عاشوا لفحة من حريقها، فهو اكتشاف مجموعة من الحقائق، أو الأحداث التي تمخّضت بطبيعة مسارها عن نتائج، كوّنت متغيّرات خطيرة، بل بالغة الخطورة، ليس في بلادنا فقط، وإنّما في جميع بلدان ودول العالم العربي. ولعمري.. ماذا أخطر وأبعد أثراً من أن تمّحي من الوجود إمبراطورية كانت تسمي (الخلافة العثمانية)، تحكم من الآستانة على ضفاف البوسفور والدردنيل شعوباً تنتشر على مساحات من الأرض، من حدود النمسا، إلى مشارف المحيط الأطلنطي، ومن هذه الأرض بامتدادها وتراميها شرقاً وغرباً.. وشمالاً وجنوباً أراضي (الحجاز)، أو هي أراضي الحرمين الشريفين.. مكة المكرمة والمدينة المنوّرة.. تمّحي من الوجود، في تلك

الحرب العالمية، لتظهر على نفس المساحة دول ما أكثرها عدداً ومنها الدولة التي ظهرت في الحجاز.

في الفقرة الأخيرة من الفصل السابق، ذكرت حزب (تركيا الفتاة)، الذي فجّر ثورة العام 1908، وهي الثورة التي أسقطت السلطان عبد الحميد عن عرش الخلافة لتجلس عليه في عام 1909، السلطان محمد رشاد.. وتعيد إلى الحياة الدستور الذي عطله عبد الحميد وكان وضعه وقاد حركة إقراره في الإدارة التركية، ذلك الرجل الذي يسمونه (أبو الدستور) والمصلح السياسي الفريد في حياة الخلافة العثمانية، (مدحت باشا).. ومن المفارقات التي تتفجر رهبة وإرهاباً، أنّ مدحت هذا، بلغ مرتبة (الصدر الأعظم) وهو المنصب الأعظم بعد السلطان أو الخليفة فعلاً.. ومع ذلك فقد استطاع عبد الحميد أن ينفيه إلى (الطائف) في الحجاز حيث سجن في القلعة، ثمّ قتل (خنقاً) في سجنه.

كان ممّا قلته في نهاية هذا الفصل عن الذين قادوا ثورة 1908 هذه، أنّهم قد خيبوا كل الظنون، في الثورة وأهدافها، رغم ما حققته من إنجازات، أعظمها إسقاط عبد الحميد، وذلك لأنّ ما تمخضت عنه هذه الثورة، في نهاية المطاف، هو نهاية الحكم والخلافة العثمانية بكل أمجادها وشموخ تاريخها.

والقصة تطول، وقد يمكن أن تختصر، في تصرفات ثلاثة رجال، هم قادة الثورة على السلطان عبد الحميد وهم الذين أسقطوه، وأجلسوا على عرشه السلطان محمد رشاد.. ثلاثة هم الذين عرفوا، بقادة أو زعماء (حزب الاتحاد والترقي).. الذي رفع شعارات أو شعاراً يسمعه العالم الإسلامي في تلك الأيام لأول مرة وهو (الحرية والعدالة والمساواة)... ولعلّي أذكر أنّ الأطفال في حلب قبيل سقوطها في يد العرب كانوا يردّدون نشيداً من كلماته (بالتركية) - : (حريت.. عدالت.. مساواة).

هؤلاء الثلاثة هم (أنور وطلعت وجمال).. وكل منهم يحمل أو منحه السلطان لقب (باشا) ولعلّها تعني رتبة اللواء أو الفريق في الجيش لأنّهم كانوا عسكريين قبل كل شيء.

يقول المؤرخون، ومنهم أتراك، وإنكليز في مقدمتهم، مؤلف آخر كتاب عن (أتاتورك) هو (لورد كينروس) الذي صدر في العام 1964.. يقولون الكثير عن انحراف هؤلاء الثلاثة عن الأهداف التي أعلنتها ثورتهم، وعن المظالم والأخطاء

التي انغمسوا في اقترافها، وربمّا أقلها مظالمهم في سوريا ولبنان والمذابح التي مارسوها وإصدار الأحكام بها وتنفيذها شنقاً، يعلن على رؤوس الأشهاد بتهم خيانة الدولة (العلية العثمانية)، وهي تهم كانوا يشهرون وثائق ومستندات إثباتها إلى جانب اعترافات تثبت عليهم ما اتهموا به فعلاً، ولكن القضية كانت بعد ذلك أو قبله، مفهوم الخيانة من وجهة نظر الاتهام ومفهومها من وجهة نظر المتهمين بها.. إذ كان المتهمون والمحكوم عليهم بالإعدام يقومون بالاتصال وربما التآمر أو التخطيط للتآمر، مع أعداء الدولة، وهم - في تلك الأيام - الفرنسيون والإنكليز.. هدف المتآمرين هو التخلص من الحكم العثماني، بمساعدة الدولتين الاستعماريتين، اللتين تخوضان غمار الحرب في مواجهة ألمانيا، بكل عنفوان قوتها العسكرية ومعها الدولة (العلية) التي ظلّت توصف منذ أيام عبد الحميد بـ(الرجل المريض) الذي اتفق الحلفاء سراً وعلناً على ضرورة الإجهاز عليه لاقتسام تركته الكبيرة ومنها العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والحجاز واليمن وليبيا إلى جانب ولاياته في البلقان.

كان التناقض البشع الذي تورط فيه قادة الاتحاد والترقي، هو شعارات (الطورانية) البالغة التطرف إلى حد فرض اللغة التركية على جميع القوميات التي تتكون منها الإمبراطورية العثمانية، وهذا في الوقت الذي ارتفعت فيه نداءات (اللامركزية) التي تعني شيئاً يشبه (الحكم الذاتي).. كان التناقض بهذه الصورة، هو الدليل، ليس على أنّ مرض الرجل المريض قد تزايد فقط، وإنّما على أنّه قد دخل مرحلة النزع.

هؤلاء الثلاثة هم الذين تورطوا أيضاً في التحالف مع ألمانيا، ودخلوا الحرب إلى جانبها، في مواجهة الحلفاء، رغم أنّ الكثيرين من قادة وزعماء الإمبراطورية من الأتراك، والعرب، وغيرهم، بل ومنهم الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) نفسه ظلّوا يرفضون أو يقاومون هذا الاتجاه، ولكن من دون جدوى، إذ تغلّب هؤلاء الثلاثة في النهاية، ودخلت تركيا الحرب الضروس، التي انتهت بهزيمة ألمانيا وانهيار الإمبراطورية العثمانية إلى الأبد.

هنا، لا بد أن نقف عند المفهومين المتضادين لما يسمّى (الخيانة) حين نجد الشريف حسين بن علي في الحجاز وكانوا يسمونه (شريف مكة) يهاجم الثكنة العسكرية في مكة (في يوم السبت التاسع من شهر شعبان عام 1334هـ) ويبدأ هو هذا الهجوم بأن يطلق من بندقيته رصاصة من قصره في (الغزة) كانت هي الإشارة المتفق عليها بينه وبين رجاله لبدء الهجوم أو إعلان الثورة على الدولة العثمانية.

من وجهة نظر الأتراك - وحتى اليوم - كان شريف مكة خائناً، ولو انتصروا في تلك الحرب لكان من الطبيعي أن يكون مصيره هو نفسه مصير الذين اتهموا بالخيانة وحكم عليهم بالإعدام الذي ينفذ شنقاً وعلى رؤوس الأشهاد.

لكن من وجهة نظر العالم العربي، في تلك الفترة، كانت ثورة على الظلّم الذي قال الشريف حسين في نداء وجهه إلى (العرب): (إنّ الاتحاديين قد مارسوه عليه وهذا إلى جانب خروجهم على أحكام الدين، وإصرارهم على (قتل) اللغة العربية، وإفقار البلاد، ودخولهم هذه الحرب، وليس لهم فيها مصلحة أو فائدة... وإعلانهم الأحكام العرفية و(شنقهم) أحرار البلاد، لا لسبب إلاّ لمطالبتهم بالحكم اللامركزي (الاستقلال الذاتي) في بلادهم وترويعهم للناس، ونفيهم للأبرياء وسلبهم للأموال، وغير ذلك ممّا حمله على الثورة عليهم وقتالهم انتصاراً للحق ودفاعاً عن حقوق العرب).

لا نحتاج، اليوم، أن نعيد إلى الأذهان، قصة اتصال الإنكليز بالشريف حسين بعد أن اكتشفوا الخلاف القائم بينه وبين الاتحاديين، ولا قصة الوعود الضخمة التي التزموا بها لضمان انحيازه إليهم، وانتفاضه على الأتراك.... لكن قد ينبغي أن نلقي نظرة خاطفة على ما يمكن أن يوصف بأنّه حلم، إذا كان لم يتحقق، فلأنّه لم يزد على كونه حلماً طموحاً لم ير الإنكليز ما يمنع أن يصغوا إليه، وأن يقول مكماهون، إنّه قد فهمه وبعث به إلى الحكومة الإنكليزية في لندن.

كان الشريف حسين في هذا الحلم الذي بعث به إلى مكماهون يقول: (يطلب من الحكومة البريطانية أن توافق على مقترحاته، وهي أن تعترف باستقلال البلاد العربية من (مرسين) (أدنه) حتى الخليج العربي شمالاً، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً، ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوباً باستثناء منطقة (عدن) التي تبقى كما هي، ومن البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط حتى سيناء غرباً.. وأن (توافق) إنجلترا - أيضاً على إعلان خليفة عربي للمسلمين).

أمّا الدوامة التي دخلت فيها الأمة العربية، منذ وضعت الحرب أوزارها، وحتى اليوم، فإنّنا نعيش دوارها وغثيانها، وما زلنا، نعجز عن الحكم العادل الذي يحسم القضية بين المفهومين المتضادين.. وأعني مفهوم الخيانة والولاء، كما لا نستطيع

أن ننسى أو نغفل عن أنّ الأتراك أمة من الأمم الإسلامية، فليس من السهل أن يحكم مسلم بجواز الاعتداء عليها من جانب غير المسلمين.. ويقف إلى جانب إنكلترا وفرنسا وهما قد كانتا ولا تزالان من أشد أعداء الإسلام حقداً على المسلمين.

تسقط الخلافة ...
ولا تستسلم المدينة المنوّرة

في العنوان الذي اخترته لهذا الفصل، ما لا بد أن يحفِّز المؤرخ الأمين أو الدقيق، إلى مراجعة مصادره، بالنسبة لتسلسل الأحداث في تلك الحرب، التي قوضت من بين ما قوّضته من عروش، الخلافة العثمانية.. وهي الخلافة الإسلامية، التي لم تقم لها قائمة بعد تلك الحرب، وحتى اليوم لابد أن يتردّد المؤرخ الدقيق في الموافقة على أنّ المدينة المنوّرة لم تستسلم للقوات العربية، رغم سقوط الخلافة في استامبول، لأنّ الحقيقة هي أنّ الخلافة لم تسقط وإلى الأبد - إلاّ في يوم تاريخي لا يزال محفوراً في ذاكرة الأتراك وقد لا ينسى قط.. هو ذلك اليوم، الأول من شهر مارس/ آذار العام 1924، الذي افتتح فيه مصطفى كمال الدورة الرابعة - (الجمعية الوطنية) في أنقرة وألقى خطاباً، إن كان قد خلا من عبارات تندد، أو تحمّل الخليفة (في استامبول) مسؤوليات تستوجب خلعه مع إلغاء الخلافة من حياة الأتراك، فإنّه قد فتح الباب أمام الخطوة الأخيرة في تنفيذ ما قد سبق الاتفاق عليه، بين قادة حزب الشعب الذين آلت إليهم السلطة وهم الأبطال الذين خاضوا وانتصروا، في معارك تحرير تركيا من احتلال جيوش الحلفاء وعلى رأسهم مصطفى كمال، وعصمت اينونو، وكاظم قرة بكير. كان خطاب مصطفى كمال قصيراً، ويمكن أن يقال إنّه كان الفقرة الأولى من برنامج تمّ التخطيط له بدقة.. إذ ما كاد ينتهي الخطاب حتى طرح أعضاء حزب الشعب وهم الآن نواب في الجمعية الوطنية ثلاثة اقتراحات، كان أهمها إلغاء الخلافة.. وحرمان أعضاء الأسرة العثمانية من الإقامة في تركيا وتمت الموافقة على الاقتراحات، وهي بهذه الخطورة، بهدوء ومن دون انفعال أو صيحات حماس مُتَشَنِّجة مألوفة في المواقف والظروف المماثلة.. وعلّق بعض المؤرخين على حرمان أعضاء الأسرة من الإقامة في تركيا، بأنّ الذين طرحوا هذا الرأي ذكروا أو

استشهدوا بأنّ الفرنسيين بعد مرور أكثر من قرن من الزمان على قيام الثورة الفرنسية لا يزالون يرفضون السماح لأعضاء الأسرة التي انتفضوا على حكمها وأنهوا سلطانها أن يقيموا في الأرض الفرنسية.

فإذا تذكرنا أنّ المدينة المنوّرة قد استسلمت بعد أن انسحب مصطفى كمال من موقعه مع بقايا الفيلق السابع بالقرب من مدينة حلب بعد اشتباك رهيب مع القوات البريطانية إلى موقع في اتجاه الجنوب في 25 أكتوبر العام 1918 من حيث استطاع أن يوقف تقدم القوات البريطانية وأن يحتفظ (بقطنا) كموقع قيادة ظلّ يسيطر على منطقة (انطاكيا).. وكانت تلك آخر معركة خاضتها القوات التركية في الأراضي العربية.. إذا تذكّرنا ذلك، فإنّنا نجد أنّ الخلافة العثمانية قد لفظت آخر أنفاسها في اليوم الأول من شهر مارس/ آذار العام 1924، وهو ذلك اليوم التاريخي الذي تمت فيه موافقة أعضاء الجمعية العمومية الوطنية في أنقرة، على إلغائها.. أي بعد ست سنوات تقريباً من آخر معركة خاضتها القوات التركية على آخر قطعة من الأراضي العربية وهي مدينة حلب.

مع أنّ المؤرخين لا يقفون طويلاً عند إصرار القوات التركية في المدينة المنوّرة على الصمود، بقيادة (فخري باشا)، والاستمرار في المقاومة، ورفض الاستسلام للقوات العربية التي ظلّت تحاصر المدينة منذ بداية الإنتفاض على الأتراك في مكة وحتى يوم العاشر من يناير/ كانون الثاني العام 1919 (أي بعد الهدنة في العام 1918)... أو بعد أن بلغت الخلافة والسلطنة في استامبول مرحلة النزع الأخيرة، والكثيرون من أهل المدينة نفسها الذين هجَّرهم فخري باشا إلى سوريا بالقطار والذين واجهوا في دمشق وحماه وحلب أشد أهوال الجوع والأوبئة التي حصدت أرواح المئات، في الأزقة والطرقات وأرصفة الشوارع.. الكثيرون يفسرون إصرار فخري على عدم التسليم حتى بعد أن بلغته أخبار الهدنة وقرب سقوط الخلافة بأنّه مجرد عناد وكبرياء واعتزاز بالنفس وقد يكون جانباً من الواقع هو هذا التفسير، ولكن التفسير الذي ظلّ يفتح عيون قادة الثورة ومنهم مبعوث الحلف البريطاني (الكولونيل لورانس) وجعل المعارك لا تتوقف وعمليات تخريب سكة حديد الحجاز بغرض قطع خطوط الإمداد لا تنقطع إلى آخر لحظة، هو أنّ المدينة المنوّرة مدينة فيها مثوى رسول الله صلوات الله عليه، وفيها المسجد النبوي الشريف ثاني الحرمين الشريفين.. فالاحتفاظ بها يرسخ في أذهان العالم الإسلامي أنّ الخلافة قائمة تؤدي

واجبها في الدفاع عن الحرمين، وقد كان جميع الخلفاء العثمانيين (بعد سليم الأول) يتشرّفون بحمل لقب (خادم الحرمين الشريفين).. يأتي في مقدمة سلسلة الألقاب التي يحملها السلطان أو الخليفة فهو (خادم الحرمين الشريفين، وخاقان البرين والبحرين السلطان بن السلطان إلخ..). كان حساب قادة الثورة العربية، أنّ (فخري باشا)، بما تحت يده من قوات فائقة التدريب يستطيع أن يحتفظ ليس بالمدينة فقط وإنّما قد يستطيع أن يزحف إلى مكة نفسها أيضاً وأن يحتفظ بها وفي ذلك قضاء على الثورة من جهة ودعوة جهيرة لشعوب العالم الإسلامي أن تنهض لنصرة الخلافة وللدفاع عن الحرمين أمام العرب الذين تحالفوا مع الكفار والمشركين وهم الإنكليز والفرنسيون. وكانت الدعوة بهذه الشعارات قائمة في الواقع، إذ كان مسلمو الهند بالذات إلى جانب أفغانستان والشعوب الإسلامية في جنوب شرقي آسيا، ومعهم المسلمون في روسيا يدينون بالولاء للخلافة العثمانية وقد يكون صحيحاً ما كان يقال، عن أنّ من شروط صحة الصلاة وجود خليفة المسلمين.

ما أكثر القصص التي تصل إلى مستوى الأساطير عن بطولة فخري باشا وقواته في الدفاع عن المدينة المنوّرة وفي الصمود ليسٍ في مواجهة القوات التي أصبحت في النهاية تطوق المدينة من جميع الجهات تقريباً وإنّما في مواجهة الجوع مع انعدام الأغذية بأنواعها واستحالة الحصول عليها بعد أن شلّت حركة القطارات بعمليات التخريبِ المتتالية والتي كم افتخر لورانس في كتابة (أعمدة الحكمة السبعة) بأنّه الذي علّم العرب كيف يستعملون الديناميت لتفجيره. لقد جاع أهل المدينة الذين هجّرهم فخري باشا إلى سوريا.. جاعوا بل ومات الكثيرون منهم جوعاً... ولكن قوات فخري باشا نفسها جاعت في النهاية أيضاً.. ذلك الجوع الذي جعلهم يأكلون لحوم الخيل والبغال والحمير التي تنفق من الجوع.. بل ويأكلون لحوم القطط والكلاب.. ولا أستبعد صحة أخبار قالت إنّ بعض الجياع، قد أكلوا لحوم أطفالهم.

رغم كل ذلك تظلّ قصة إصرار فخري باشا على عدم التسليم واحدة من القصص التي لا يسع المنطق السليم أو العقل السليم، أن يصدق أنّ الرجل كان يتمتع بقواه العقلية إذ أصبحِ هو وأركان حربه وكبار ضباطه، يعانون من ذلك الجوع الذي انقطع معه الأمل تماماً في أن ينتهي بأي شكل من الأشكال.. مع أنّ الأخبار كانت تتلاحق بأكثر من وسيلة عن سقوط المدن الكبرى ومنها القدس ودمشق وتراجع اندحار القوات التركية والألمانية يوماً بعد يوم، ممّا ينذر بطبيعته بأنّ المقاومة لم تعد معقولة

أو مطلوبة، وأنّ الاحتفاظ بالمدينة المنوّرة وحدها، لم يعد يجدي شيئاً بالنسبة لمركز أو هيبة الخلافة بعد أن سقطت مكة ثمّ جدة والطائف وأخيراً رابغ وينبع.. مع كل ذلك إضافة إلى عروض القوات العربية التي تحاصر المدينة بالموافقة على خروج الجنود والضباط من المدينة مخيَّرين في أن يرحلوا إلى تركيا، أو إلى بلد آخر بمعنى ألا يكونوا أسرى حرب.. مع كل ذلك يرفض (الباشا) أن يسلِّم أو يستسلم.. وقد كان رجلاً قوي الشكيمة، طاغي الهيبة إلى حد يرهب أركان حربه، إذا ما خطر لهم أن يناقشوه في الموافقة على العروض التي يتلاحق فيها الكثير من أسلوب الترضية والاعزاز والبعد عن التشفّي أو الانتقام أو التعالي.. بل حتى إذا ما خطر لهم أن يعرضوا عليه ما وصلت إليه حالة الجنود ومعهم ضباط الصف.. من الجوع والهزال والمرض وعدد الذين أصبحوا يموتون جوعاً في مراكز أو نقاط الرقابة على أبواب المدينة وعلى أسوارها وفي قلاعها...

اشتدّ الحصار، في الأيام الأخيرة، ولعلّه أحس بأنّ قواته، قد فقدت آخر ما تبقّى من معنويات أفرادها، بحيث لم يعد مستبعداً، أن تلقي أسلحتها، ثمّ تخرج لتستسلم للقوات العربية التي تحاصرها.. فإذا به يتخذ أعجب قرار يمكن أن يخطر ببال قائد يواجه مثل الظرف الذي أصبح يواجهه.

كان قد نقل مقر قيادته، إلى الحرم النبوي الشريف... ومعه أركان حربه وكبار ضباطه، ونقل إلى الحرم، شحنات من الأسلحة الخفيفة، والقنابل اليدوية والديناميت وكميات كبيرة من الذخيرة، التي تكفي للمقاومة، ليس أياماً، وإنّما شهور بطولها. وكان في الحرم النبوي - على الحصوة، بئر ماء عذب، فلا خوف من الظمأ... أمّا الأكل أو الغذاء، فقد نقل إلى الحرم أيضاً كميات كان يدخرها من الأغذية المعلبة والخبز المجفف، تكفي لتموينه مع ضباطه وحاشيته الخاصة من ضباط الصف شهوراً طويلة أيضاً. وقد تسلح هو نفسه بمجموعة علقها في خصره، وعلى صدره من القنابل اليدوية... وأمر ضباطه أن يتسلحوا مثله بهذه الأسلحة... ثمّ أعلن... بعد أن أغلق جميع أبواب الحرم، وقد زرع الطريق إلى كل منها بالألغام.. أنّه لن يستسلم أبداً. وأنّه سيقاوم كل من تحدّثه نفسه بالاقتراب من أبواب الحرم.. أو منه شخصياً، بهذه القنابل اليدوية ومعها أصابع الديناميت... وأنذر أيضاً أنّه قد طوَّق الحجرة النبوية نفسها بالمتفجرات ولن يتردد في تفجيرها، إذا ما وجد أنّ لا سبيل إلاّ ذلك السبيل.

والذين يقصّون تلك القصة، لا يذكرون كم يوماً، استمر اعتصام"الباشا" وضباطه على هذه الحالة، في الحرم النبوي الشريف... وأكثر ما يدهشهم، هو شخصيته القوية الرهيبة التي فرضت إرادتها - بكل ما فيها من أخطار - على أولئك الضباط الذين ظلّوا تحت أمرته ورهن إشارته في الحرم لا يجرؤون على التقدم بأي اقتراح تشتمُّ منه رائحة الرغبة في الخروج من الأزمة الصاعقة الماحقة التي فرضها القائد بكل هذه الاحتياطات.

لكن أخيراً... في لحظات قبيل الفجر، وقد سرقه النوم، ربما دقائق قصيرة فقط، انقض عليه الكبار من أركان حربه... سمّروا يديه في قبضات أيديهم. بحيث يستحيل أن تصل إلى القنابل أو الديناميت في خاصرته وصدره... ودار ببصره في وجوههم.. فأدرك أنّ لا فائدة في أي مقاومة من أي نوع... فهؤلاء أركان حربه... ولعلّه قال كلمة أو كلمتين تفيد أنْ لا حاجة بهم إلى العنف... ترك لهم تجريده من القنابل والمتفجرات... وأمرهم أن يتصرفوا في إجراءات التسليم، بشروطه التي ألزمهم بأن يتعهدوا بتنفيذها... ومن أهمها، ألا يتقدم أي جندي عربي نحو أسوار المدينة أو قلاعها، وأن تظلّ القوات المنتشرة على طول الطريق من المدينة إلى بئر درويش حيث تعسكر قوات الشريف عبدالله بن الشريف حسين... أن تظلّ في مواقعها، إلى أن يتم هو انطلاقه إلى موقع التسليم وهو بئر درويش مع أركان حربه وكبار ضباطه... وأن لا يؤخذ أحد منهم أسيراً، وإنّما يخيّرون في أن ينقلوا إلى تركيا، أو إلى أي جهة أخرى... ويسري نفس الشرط بالنسبة لبقية القوات في المدينة... أمّا المرضى في المستشفيات، فتلتزم القوات العربية بتأمين علاجهم ورعايتهم، بمعرفة الأطباء العاملين أصلاً في هذه المستشفيات فإذا شفوا، فإنّ لهم أن يختاروا النقل إلى تركيا أو إلى أي بلد آخر من دون إرغام.

لكن شرطاً آخر، كان صريحاً في فرضه وطلبه الالتزام بتنفيذه وعدم اللجوء إلى محاولة نقضه، وهو أنّه قد جَرَّد الحجرة النبوية في الحرم الشريف، من جميع الهدايا التي وجدها فيها، وأنّه قد عبأها في صناديق، اشترط ألا يفتحها أحد من القوات العربية، وأن تظلّ تحت حيازته شخصياً، أينما يذهب، والتزم من جانبه أن يسلّمها من دون أن ينقص منها شيء قل أو كثر، إلى المختصين في دار الخلافة في استامبول.. قالوا.. وقد دوّن، جميع هذه الهدايا في بيان دقيق ذيّله بتوقيعه بالاستلام والمسؤولية، ومن صورتين احتفظ بإحداهما ودفع الأخرى إلى الشريف عبدالله عند التسليم.

كان من هذه الهدايا جواهر نادرة، ولا تزال نادرة حتى اليوم، منها ما كان يسمّى "الكوكب الدرّى"... وهو قطعة كبيرة من الماس، قيل إنّها أكبر من جوهرة "الكوهينور" الشهيرة في التاج البريطاني.. وقد رأيتها شخصياً في متحف "توب كابّي" في استامبول مما يؤكد أنّ الباشا العتيد العنيد، قد سلّم كل قطعة من هذه الجواهر، إلى الجهة المختصة في دار الخلافة كما التزم وتعهّد.

وللذكرى، لا بد أن نقول، أنّ فخري باشا، قد استسلم بالطريقة التي ذكرناها، في اليوم العاشر من شهر يناير/ كانون الثاني العام 1919.... وقد استقبله الشريف عبدالله بن الشريف حسين في بئر درويش، استقبالاً رسمياً، حرص على أن يرضي به كرامة الرجل وكبرياءه بالحفاوة البالغة والموافقة على كل شرط من شروطه من دون أي نقاش.

وليست لديّ معلومات، عن الجهة التي نقل إليها فخري باشا ومعه أركان حربه وكبار ضباطه.. ولا كيف تمّ انتقاله بحيث وصل دار الخلافة، وسلّم ما التزم بتسليمه من المجوهرات... ولعلّه حين وجد قوات الحلفاء تحتل استامبول وإزمير، وأنّ الحرب قد وضعت أوزارها، بالنسبة للقوات المنتصرة، ولكنّها لا تزال تنتظر فصل الختام بالنسبة لتركيا، وقد خرجت منها مثخنة بأبشع وأعمق الجراح، وأصبحت تواجه مسؤوليتها نحو الخلاص من عار الهزيمة، بطرد جيوش الاحتلال، واستعادة السيادة والاستقلال... لعلّه لم يتردد في التطوع، والانضمام إلى حركة الاستقلال، بقيادة مصطفى كمال، ومعه عصمت، وكاظم قره بكير بتلك البقية الباقية من القوات الهزيلة ومن السلاح الخردة تزحف من الأناضول.. من أنقرة إلى استامبول.

أمّا الخلافة، التي كافح وناضل، ليرسّخ وجودها وهيبتها، بوجوده مع قواته في المدينة المنوّرة، وهي ثاني "الحرمين الشريفين" اللذين يتشرف الخليفة بأنّه خادمهما، فلا شك، أنّه قد أدرك أنّها قد انتهت.. فإذا تأخرت خطوة إلغائها إلى اليوم الأول من شهر مارس/ مارس العام 1924، أي ما يقرب من خمس سنوات - فإنّ ذلك لم يكن ليخدعه وأمثاله، عن حقيقة أنّ "الرجل المريض" يلفظ أنفاسه.. ولا بد أن يمّحي من الوجود.

روسّو يغشى قحف جمجمتي
وأنا أتأهّب لكتابة هذه الحلقات من قصة حياتي

بعد تلك اللمحات القصيرة عن الحرب العالمية الأولى، التي شهدت فجر حياتي، مع بريق مدافعها وقصف قنابلها، آن لي أن أعطي القارئ حقه من القصة، في محاولة للابتعاد عن التاريخ الذي أرجّح أنّه يستطيع الرجوع إليه، عن هذه الحرب، وعن الكثير من الحروب في حياة البشر ابتداءً من أيام اقتتاله على قنيصة سارحة يسد بها جوعه وحاجته إلى الغذاء، وانتهاءً عند هذه المجازر البشرية، التي لا تزال تمارس في كثير من أقطار الأرض، ومنها هذه الدائرة، منذ ما يقترب من نهاية السنة السادسة، بين إيران والعراق، وما يقترب من نهاية السنة الحادية عشرة في لبنان، ولا حاجة إلى ذكر المجازر التي لا تزال اسرائيل ترتكبها في الساحة العربية منذ أربعين عاماً وحتى اليوم.

ولا أخفي على القارئ، أنّي حين أخذت أتهيّأ لمتابعة قصة حياتي مع الجوع والحب والحرب وجدت نفسي أعود إلى نفس الأسئلة التي طرحتها في المقدمة، أو في الرسالة الموجّهة إلى ابني ضياء، وكأنّي أغوص في دوامة تيار من الاقتناع، ليس فقط بعدم جدوى متابعة هذه القصة بالذات، وإنّما بعدم جدوى، أو بتفاهة الكتابة من حيث هي عمل زعمنا أنّه "فنّي" أو أنّه "فن"... وأقول زعمنا... لأنّي أعرف لسعة ذلك الحريق الذي يحسّه الكاتب، أو الشاعر، أو حتى الرسام والموسيقار، حين تمتد وتنتشر ألسنة اللهب في وجدانه من جذوة العمل أو الموضوع... وأمام القارئ، إنّي أحسست كأنّي قد بلغت مرحلة التجلّد أو الجمود، بحيث لم أستطع أن أكتب كلمة واحدة طوال أسابيع... وطافت بذهني خلال هذه الفترة، طوائف من مواقف مماثلة، وقفتها قبلي، ويمكن أن تقفها بعدي، قوافل من الكتاب والشعراء والفنانين، من قضية جدوى الفن أو العمل الفني، أو عدم جدواه... ثمّ بخصوصية أدق، جدوى العكوف

على عمل فني بعينه بالنسبة للكاتب، والقارئ. ولست أدري، ما الذي أخرج "جان جاك روسّو" من مرقده في باريس ليغشى قحف جمجمتي لحظات طويلة من فترة هذا الحوار، ومعه تلك الشحنة الضخمة من أعماله التي انعقد إجماع النقاد على انّه بذر بها بذور المذاهب الاشتراكية الحديثة، كما استطاع بآرائه في "إميل" أن يقنّن أصولاً للتربية قالوا إنّها أفضل وأعظم ما جادت به عبقرية كاتب حتى اليوم... ولكن أغرب ما ظلّ يلح به عليّ روسّو هو اعترافاته، أو هي قصة حياته التي كتبها في اثني عشر فصلاً، وكانت السبب في طرده من سويسرا وأن تحرق مع مجموعة رسائله وما طبع من أعماله علناً.. هذة الاعترافات، هي على الأرجح أعظم الأعمال التي يمكن أن توصف بأنّها "فن" من أعماله... فيها الكثير من المآسي والأحزان التي عاشها، ولكن فيها أيضاً الأكثر من الجرأة والتمرّد على الأعراف والتقاليد، إلى الحد الذي لا يزال يعتبر خادشاً للحياء، ومهيناً لكرامة الرجل ومدمّراً لشخصيته، وما يدخلها رواق الفن ويؤهلها للمكانة المرموقة بين روائع التراث الأوروبي، في القرن السابع عشر وما بعده إلى نهايات القرن التاسع عشر، هو الصدق الذي يتجاوز الحدود والقيود، فيفضي بما يراه، أو بما عاناه من تجارب سعادة أو شقاء، وتكريم أو هوان، في علاقاته بذوي قرباه، أباً عايشه فترة من العمر، وأماً توفيت وهو لا يزال يدرج إلى سني الطفولة الأولى، وفي علاقاته بمن طوّحت به الأحداث إلى رحابهم أو إلى أحضانهن، ومنهنّ تلك التي أحبّها وعاشرها أكثر من ربع قرن، واستولدها خمسة أولاد رفض أن يعترف بأبوّته لهم، ولم يجد ما يمنع أن يقذف بهم إلى ملجأ اللقطاء. ويصدر هذا كله بكل ما ينطوي عليه من بشاعة ونكران، من الإنسان الذي ألّف "إميل"، وهو الكاتب الذي يضعه علماء التربية في القمة من الفكر التربوي منذ ظهر، وحتى اليوم.

لست أدري، ما الذي جعل روسّو، يغشى قحف جمجمتي، وأنا أتأهّب لكتابة هذه الفصول من قصة حياتي... أتراني أحسست، أنّ بين اعترافات روسّو وبين قصتي وجوه شبه من نوع ما؟؟؟ ولكن كيف؟؟؟ إنّ روسّو "يعترف"... وأنا "أقصّ".... ولا بد أن نلتمس الفرق بين سرد ما يسمّى اليوم سيرة ذاتية، وبين سرد "اعترافات" في تضاعيف قصة حياة.. ونحن نعلم أنّ كلمة "اعتراف" لهل علاقة وشيجة بأحداث، ربّما يعاقب عليها القانون، أو يستنكرها المجتمع، أو يندر أن يزاح عنها الستار الكثيف الذي لا بد أن يسدل، ليس فقط على فصول دراما الحب مثلاً، وإنّما قبل ذلك وبعده على الأسماء، حتى وإن كان أصحابها قد آووا إلى مراقدهم تحت أطباق

الثرى منذ سنين. ثمّ هناك فرق آخر يعطي الكلمة معنًى خاصاً في الديانة المسيحية، إذ على "المعترف" أن يقرّ بخطاياه وذنوبه لدى الكاهن مع الندم وطلب المغفرة، التي لا يملكها الكاهن، ولكنّه يتوسّط في التماسها من الله. ومن هنا نكتشف أنّ جان جاك روسّو سمّى قصة حياته "اعترافات"، لأنّه يعترف في الواقع بذنوب، فيها تلك الجرأة، وذلك التمرد على الأعراف والتقاليد، وربّما على القوانين أيضاً، مع خدشها للحياء، وإهانتها لكرامة الرجل.. وليس من شك إطلاقاً، في أنّه لم يعترف طلباً لمغفرة أو طمعاً في توبة وإنّما ليقول للقارئ ما وجد أنّه لا بد أن يقال، وبصدق مطلق، ومن هنا – مرة أخرى – يبدو لي أنّها أعظم أعماله التي يمكن أن توصف بأنّها "فن".

والسؤال الذي أبيح للقارئ أن يطرحه عليّ، هو: هل أستطيع حين أكتب، قصة حياتي مع الجوع والحب والحرب، أن ألتزم هذا النوع من الصدق، أو هذا الحد منه؟ صحيح أنّ حياتي خالية والحمد لله من أمثال هذه الأحداث الفاجعة، التي لم ير روسّو ما يمنع أن يعترف بها، رغم ما فيها من بشاعة ونكران، مثل إنكار أبوته لخمسة أولاد، وقذفهم إلى ملجأ اللقطاء بل، وبتلك التصرفات القذرة الخادشة للحياء من جهة، والماسّة بكرامة الإنسان وكبرياء الرجل، من جهة أخرى، ولكن، صحيح أيضاً، أنّ في حياتي أحداثاً، إن لم تكن قد وقعت لي شخصياً، فإنّها مما كان يقع في الحياة من حولي... مما كان يقع في مجتمع أنا جزء منه وفي بيئة أنا في النهاية ابنها... أحداث من نوع لا أزال أرى أنّه نادراً ما يشار إليه حتى مجرد إشارة، في ما تجري به أقلام المعنيين بالماضي من الكتّاب. فهل ألتزم الصدق في روايتها؟؟ وأي حد من الصدق؟؟ لست مؤرخاً على كل حال، فلست مطالباً بتحرّي الدقة وتوخي الحقيقة، ولكن لا يصح مع ذلك أن أعفي نفسي من تتبع أثرها، إن لم يكن في حياتي، ففي حياة من حولي بيئةً ومجتمعاً.

كلا... ليس هناك أي وجه شبه بين قصة حياة جان جاك روسّو في اعترافاته، وبين حياتي مع الجوع والحب والحرب، إلاّ في أنّ العملين، يتفقان في أنّهما قصة حياة مخلوق يجمع الناس والمؤرخون على أنّه واحد من عباقرة الدنيا، إن لم يكن لشيء فلأنّ الكثير من آرائه وأفكاره أثمر ثماره في الثورة الفرنسية، التي انفجرت بعد رحيله بثلاثين عاماً، ومخلوق هو كاتب هذه السطور، أو هذه القصة، وهو ليس أكثر من واحد من عشرات أو مئات كان موقعهم من الحياة والمجتمع الذي يعيشون فيه، هو موقع كرة القدم بين أقدام اللاعبين.. وكرة القدم تظلّ الشيء القادر على استقبال

الفعل والاستجابة له إن لم يكن بإصابة الهدف، فبرد الفعل بين الأقدام، ثمّ هي لا شيء بعد ذلك سوى أنّها كرة لا يتحقق لها وجود، إلاّ في الملعب مع المتبارين.

وناشر هذه الفصول الصديق الدكتور عبدالله منّاع يحاول أن يريحني من مسؤولية اتخاذ القرار، بما يزعمه لي من استقبال القراء الحميم، فيحسم قضية جدوى متابعة كتابة الفصول الباقية من القصة، ثمّ له أسلوبه في معالجة قضية الصدق، في عرض الأحداث، إذ يوحي بلباقة لا تخلو من مكر، بأنّ جان جاك روسّو، حين اقتحم قحف جمجمتي، إنّما فعل ذلك ليكايدني وليقول: "أتحدّاك، أن تحاول اللحاق بغباري، في الحد الذي بلغته من الصدق في قصة حياتي..". ويعترف الدكتور منّاع على ذلك، بأنّ روسّو عاش ظروف وأجواء حياة في أوروبا، قبل ثلاثة قرون فقط، صورة من تلك الظروف والأجواء في ذلك العصر وقد كتبها بروح الحاقد المحتقن، فكان إسرافه في ما تسميه صدقاً، تنفيساً عن ذلك الحقد... أمّا أنت، فقبل كل شيء، لست اليوم، ولم تكن قط في حياتك حاقداً.. وما سوف ترويه، حين تتجرد من الحقد، سوف يتميز بصدق النفس الراضية التي لم تصارع صراعاً في مشوار الحياة بانفعال الحاقد الغضوب، وإنّما بانفعال المتطلع إلى الأفضل لنفسه ولمجتمعه وبيئته.. ومن هذا المنطلق لك أن توقن أنّ جدوى كتابة القصة ستظلّ قائمة واستقبال القراء، الذي كان ولا يزال حميماً، خير مقياس وأفضل دليل.

كانت للشاي الذي جهّزته "منكشة"
نفحة أريج زكيّة ومنعشة

كان إحساسي بالوحشة، بل بالرهبة والخوف، ونحن نمشي وراء الدادة "منكشة"، في دهليز البيت المعتم، في تلك الساعة المبكرة من الصباح، يؤكد أنّنا، حتى مع دخولنا بيتنا، وفي زقاق القفل من حي الساحة في المدينة، التي ما أكثر ما حلمت أمّي بالعودة إليها، بل التي لعقت تراب أرضها ساعة وصولها "الإستاسيون".. مع كل ذلك، نعيش نفس مرحلة الشقاء التي عشناها منذ خرجنا في ذلك الصباح إلى "البابور" الذي انتقلنا به إلى المنفى.

مشينا خلف الدادة إلى "الديوان"، الذي ما كادت تقع عليه نظرات أمّي حتى ارتفع صوتها تبكي وتولول وتبكي معها منكشة، ثمّ ترتمي أمّي منكبّة على وجهها، على أرض "الدّكة" وكل ما يسترها حصيرة بالية، ولحاف مهترئ تضطجع عليه منكشة، وفي الركن هناك "سماور" صغير من النحاس، ولوازم صينية الشاي المعتادة.

كانت أمّي قد بلغت مرحلة من الهزال نتيجة لما ظلّت تعانيه من حمى الملاريا، جعلتها تبدو داكنة اللون، وقد نتأت عظام وجنتيها... وكأنّ الدادة لم تتبيّن ملامحها إلاّ الآن تحت الضوء الساقط ممّا يسمّى "الجِلا - بكسر الجيم" وهو الفتحة المستديرة تمتد كالأنبوب الضخم من السطح، إلى الديوان وفتحة مثلها إلى القاعة، يتدفق منها الضوء، أو هو الهواء الذي لا بد أن يصل الأرض بارداً بينما هو، في السطح، أو في الشارع حار كأنّه خارج من فوّهة فرن مشتعل... كأنّ الدادة لم تتبيّن ما طرأ على أمّي من الهزال إلاّ في هذه اللحظة، وهي مرتمية على أرض الدّكة... فإذا بها تخفق صدرها بيدها والدموع تنذرف لتملأ وجهها وهي تتكلم بالتركية عبارات إشفاق وتدليل ضاعفت من تفجّع أمّي وحسرتها، فاستمرت نوبة البكاء والعويل فترة طالت

كنت أشعر خلالها بالجوع الشديد، فلم أملك إلاّ أن أتقدم من رأس أمّي وأهمس في أذنها "أنا جيعان يا فقّم". فالتفتت إلى منكشة، وطلبت منها، أن تفتح لفة صغيرة في رزمة الفراش وتعطيني منها الخبز وقطعة الجبن، وحبّات من التمر، وذلك كان ولا يزال إلى هذا اليوم غذاؤنا منذ أركبونا الجمال من ينبع إلى المدينة.

جففت منكشة دموعها، ونهضت، وهي تقول كلاماً بالتركية، أدركت أنّ فيه أسفاً أو شيئاً من هذا القبيل ولكنّها دخلت، ما يسمّى "حنيّة" في عطفة الديوان، وعادت بصينية صغيرة فيها أطباق مغطاة، وفي جانب من الصينية نصف رغيف كبير من الخبز البيتي، والتفتت إليّ، تستمهلني إلى أن تجهّز الشاي.

كانت للشاي الذي جهّزته الدادة "منكشة" نفحة أريج زكية ومنعشة، إذ ما كادت تنتشر، حتى رأيت أمّي تستروح، وتتماسك من موجة البكاء التي كانت تهزّها منذ وقع نظرها على الديوان، الذي أعتقد بأنّها فجعت برؤيته مجرداً من الأثاث والرياش، ولم تَرَ فيه إلاّ تلك الحصيرة واللحاف المهترئ، وما يتراكم في العادة من تفاهات حول من يتخذ من موقع واحد أو غرفة واحدة، مكاناً للنوم والأكل وما إليهما من تصرفات، وذلك هو حال منكشة، بطبيعة واقع حياتها المحدودة.

وحين كانت منكشة ترفع الأغطية عن الأطباق الصغيرة في الصينية، لنرى قطع الجبن الأبيض، وفي الثاني ما عرفنا أنّه "مربّى" من صنعها، وفي الثالث بيضتان مسلوقتان... نهضت أمّي وهي تقول:

- أبغا أغسل وجهي.. الحنفية في مكانها؟

لم تجب منكشة، وإنّما نهضت مسرعة، ومشت تتقدم أمّي إلى تلك الحنفية في الديوان... ولست أدري لما ساورني شيء من الخوف، وأنا أراهما تغيبان في الظلّام...نهضت مسرعاً ولحقت بهما... كان الظلّام لا يسمح برؤية شيء، ولكن بعد لحظات استطعت أن أرى منكشة، تصب من إبريق في يدها الماء، على كفي أمّي، استطعت أن أحزر أنّ منكشة تقول شيئاً عن "الحنفية" التي ذكرتها أمّي... وخلاصة ما قالته أنّها رأت "في الحراج" هذه الحنفية، كما رأت أيضاً "النجفة الكبيرة" التي كانت في "القاعة".... واسترسلت في الحديث، تروي ما استدعته المناسبة من حكايات، عن الكثير من أمتعة ومقتنيات الناس التي تُعْرَض في الحراج، وتُباع بتراب الفلوس.

أخذنا - أمّي وأنا - نتناول ما قدّمته منكشة في الأطباق الثلاثة، ونشرب الشاي

بأريجه الزكي في أكواب قالت أمّي - في ما بعد - إنّها من مجموعة أكواب جاء بها جدّي في آخر رحلة له إلى استامبول... وأضافت أنّها أكثر من ثلاثة "أطقم"، جاء بها لضيوفه من حجاج "القازاق" و"التركمان"، حين يجيئون لزيارة المسجد النبوي بعد الحج في كل عام.

غلبني النعاس وأنا ألتهم آخر لقمة من نصيبي من الخبز مغموسة في المربّى... فنهضت أمّي مسرعة، وبسطت لي اللحاف الذي بقي لنا، وظللنا نرتفقه، خلال ترحالنا الطويل. وقالت وهي تقودني إلى هذا الفراش:

- أيوه يا حبيبي... أنت لازم تنام... وأنا كمان بعدين... رحلة المدينة من "الفريش" كانت طويلة... مشيناها من بعد العصر إلى الفجر....

لم تكن وجبة الغداء، أفضل كثيراً من وجبة الفطور في الصباح... كان الجديد فيها هو عدد حبّات البيض المسلوق، فقد ازداد بحيث كان نصيب كل منّا - أمّي وأنا - بيضتين.. أمّا الدادة منكشة، فقد لاحظت أنّها تكتفي بخدمتنا، ولا تجلس معنا فضلاً عن أن تأكل... وطوال الفترة التي تنقضي في تناول الوجبة، تواصل أحاديثها باللغة التركية، عن أشياء أو أحداث كثيرة عاشتها في المدينة، ومنها أخبار جيراننا في زقاق القفل... وعلى الخصوص جيراننا في البيت المقابل لبيتنا... ما زلت أذكر منهم الخالة فاطمة "جادة".... وهي زوجة العم "محمد سعيد بخاري"... قالت منكشة إنّهم عادوا من المنفى، منذ شهر... أمّا الخالة "خاتون" الهندية، التي تسكن في آخر الزقاق فقد عادت، من "الهند" منذ أسبوع...

بعد أن صلّت أمّي صلاة العصر، رأيتها ترتفق "الملاية"، ممّا يعني أنّها ستخرج إلى مكان ما... ولم يطل بي الأمر لأسمعها تقول إنّنا سنذهب إلى "الحرم".... وحين أخذنا نخطو خطواتنا الأولى في الزقاق، وقد أسدلت على وجهها "البيشة"، سمعتها تغالب موجة البكاء ثمّ تقول في صوت هامس:

- كلّهم.. كلّهم راحوا...

لم أكن أحتاج إلى ذكاء، لأفهم أنّها تتحسّر على أولئك الذين ماتوا ودفنوا في حماه وحلب.... ولا شك أنّي الآن أدرك أنّ الذين دفنوا، أو يدفنون، لن يعودوا... فهم "راحوا" وبخروجنا من الزقاق إلى الشارع الرئيسي من حي الساحة، حيث يتقابل فيه زقاق "القفل" مع زقاق "الحبس" اتجهت أمّي إلى هذا الزقاق، ولكن قبل أن ننطلق

فيه إلتفتت، إلى الدكاكين الثلاثة التي تقع على مدخل زقاق القفل - زقاقنا - فإذا بها تعود، وتتجه إلى أول هذه الدكاكين وهي تقول عندما تقف: "عم صادق"....

- عم صادق.... كيف حالك يا عم صادق؟؟

كان العم صادق، رجلاً كهلاً، ضئيل الجسم.... قصير القامة... كان مشغولاً في ما يبدو بشيء يعالجه بين يديه، فلم يلتفت، ولكنّه قال:

- قلت لك، ما في... ما في رز مزَّة...

- يا عم صادق، انا أقول لك كيف حالك... وكيف حال خالة عمرة..

ورفع العم صادق رأسه.. يحاول أن يعرف مَنْ التي تكلّمه... ثمّ قال:

- خالتك عمرة... قولي رحمة الله عليها... بس إنتي مين؟؟

- رحمة الله عليها يا عم صادق... أنا.. أنا فاطمة.

- فاطمة؟؟؟؟ فاطمة مين؟؟؟؟

- فاطمة بنت أحمد صفا.

ما كاد يسمع العم صادق اسم "أحمد صفا"، حتى هتف:

- بنت الشيخ أفندي؟؟؟ متى؟؟؟ متى وصلتوا.. وهوَّه في البيت؟؟؟ أنا من الصبح في الدكان، وما شفتوا أبداً وكمان ما أحد قال لي إنّو وصل...

واختنق صوتها وهي تقول:

- قول رحمة الله عليه يا عم صادق.

اهتز صوت العم صادق، ووضع كفّه على وجهه وهو يقول:

- رحمة الله عليك يا شيخ أفندي... رحمة الله عليك...

ثمّ رفع يديه باسطاً كفّيه، وهو يقول:

- الفاتحة.. الفاتحة على روحه يا بنتي.. وإنتي رايحة الحرم؟؟؟؟ مو كده؟؟؟ أقري على روحه الفاتحة وإنتي بتسلّمي على الرسول.. رحمة الله عليك... رحمة الله عليك يا شيخ أفندي... لكن أنتو وصلتوا متى؟؟؟

- أنا... أنا وعزيز، وصلنا اليوم في الصبح.

- انتي وعزيز؟؟؟ مين؟؟ هادا الولد؟؟ هادا ولدك مو كده؟؟؟ طيب عسى...

وقاطعته وهي تقول:

- أنا وعزيز بس، اللّي وصلنا...

- طيب.. والتانيين.. أختك وزوجها... و..

- كلّهم... كلّهم يا عم صادق.

واختنق صوتها مرة أخرى بالبكاء... وهي تقول:

- كلّهم راحوا يا عم صادق.. قول.. الله يرحمهم.

وازداد انفعال العم صادق وهو يقول:

- إنّا لله.. وإنّا إليه راجعون.. يعني ماتوا يا فاطمة؟؟؟ كلّهم ماتوا؟؟

- كلّهم ماتوا...

- طيب. ودحّين انتي مين معاكي في بيتكم؟؟؟

- منكشة يا عم صادق... دادة منكشة..

- منكشة؟؟؟ أيوه عرفتها... هادي باشوفها من يوم ما وصلنا قبل شهرين.. باشوفها تخرج من الزقاق.. وتروح ما أدري فين؟؟؟ هيّه من معاتيق القازاق مو كده؟؟

- يمكن أنا أعرف أنّها معانا من زمان.. وأبويا - رحمة الله عليه - ترك عندها مفاتيح البيت لـمّا جينا نسافر.

- وإن شاء الله ما نهبوا بيتكم إنتو كمان..

- ما التقيت في البيت غيرها هيّه وواحد مسند.

- كلّنا يا بنتي.. كلّنا، ما التقينا في بيوتنا شي.. لكن الله كريم.

- بس مين؟؟؟ مين يا عم صادق اللّي نهبوا البيوت؟؟؟

- ما أحد عارف مين... وما أحد راضي يقول إيش اللّي حصل بعد ما "الباشا" سلّم المدينة، وخرج.. وراح استامبول.

- يعني همّ اللّي نهبوا البيوت... نهبوها بعدما خرج الباشا؟؟؟

- أيوه يا بنتي.. هادا اللّي بنسمعه...

- طيب. بس فين؟؟؟.. فين يا ترى حطوا كل اللّي نهبوه... وكمان مين الوالي اللّي نروح نخبره؟؟؟؟ يا عم صادق أنا ما التقيت في البيت إلاّ واحد مسند بس.

- والي؟؟؟ أي والله صحيح... مين الوالي؟؟؟ أنا لازم إسأل عنّه، وأروح أطلب

منّه يمسك الحرامية... أنا ما لقيت في البيت، إلاّ واحد زير قديم، والقباقيب اللّي بندخل بها الحمّام، وبيت الماء.

- بس منكشة يا عم صادق بتقول، إنّها شافت حنفيتنا والنجفة الكبيرة في الحراج، وأنّو الناس بيشتروا من الحراج، كل شي بتراب الفلوس.

وهنا بدا على العم صادق أنّه اكتشف شيئاً لم يكن يخطر له على بال... إذ هتف يقول:

- ولمّا التقي في الحراج، أي شي من بيتي... أعرف الحرامي.. أعرف اللّي نهب البيت... مو كده؟؟؟ خلاص بكرة... بكرة أروح وأشوف. وكمان إسأل عن اسم الباشا الجديد.

- أيوه يا عم صادق.. الوالي.. الباشا الجديد.. هو اللّي يقدر يجيب لنا كل اللّي نهبوه من البيوت...

- طيب.. ودحّين إنتي رايحة فين؟؟؟

- الحرم يا عم صادق... أزور وأصلّي...

- وما عندك في بيتكم إلاّ منكشة؟؟؟

- ما عندنا غيرها يا عم صادق.

- طيب، ليه ما تيجي عندنا، أمّونة... وأمّ السعد، بعد أمّهم ما ماتت...

- متى الله يرحمها ماتت يا عم صادق؟؟؟

- ونحن راجعين من ينبع... أصلها كانت وجعانة.. "بالجمبة"... ودفناها في محطة اسمها الصفرا.. والبنات، مساكين... ما عندهم أحد.

في الحرم استسلمت أمّي للبكاء، وقراءة ما تحفظه من القرآن الكريم... وبعد صلاة المغرب، قامت بزيارة مثوى الرسول صلى الله عليه وسَلّم. أطالت الوقوف، أمام شباك الحجرة، وهي تقرأ وتدعو.. ثمّ أخذنا طريقنا إلى البيت.

بيني وبين نفسي، كنت أتمنى أن نذهب إلى بيت العم صادق، عند أمّونة، وأمّ السعد... وعندما فتحت لنا منكشة الباب، وأخذنا نخطو خطواتنا في دهليز البيت، وروّعتني تلك الظلّمة المخيفة... لم نكن نستطيع أن نرى طريقنا إلى الديوان إلاّ بصعوبة، على ضوء ما يسمّى "المسرجة"... وهي عبارة عن طبق من الصفيح، فيه كمية من زيت.. وفتيلة تشعل لتضيء مساحة لا تزيد على متر أو مترين. وعندما

انتهينا إلى الديوان أحسست بشيء من الاطمئنان... كانت تضيئه "لمبة" معلقة على الجدار..

كانت منكشة، قد جهزت عشاء، لا بأس به أبداً.. طبق ممّا يسمّى "حريرة"... وآخر من الأرز، وأكثر من رغيف من الخبز... وقالت: ما فهمت منه، أنّها قد حصلت على كمية من الحليب من الجيران.. نهضت وغابت في الحنيَّة، ثمّ عادت بهذا الحليب يتصاعد منه البخار، في "زبدية" وهي تؤكد لأمّي أنّ "عزيز" يحتاج إلى هذا الحليب.. لأنّه "ضعيف"... وكما فعلت في الصباح أصرّت على أن لا تجلس معنا لتناول العشاء... ظلّت مكتفية بخدمتنا... تملأ لنا أكواب الشاي.. ثمّ الحليب... وتسرع بتقديم الماء حين تطلبه أمّي.

سمعنا صوت المؤذن لصلاة العشاء... فأسرعت أمّي، ومعها منكشة للوضوء.. واضطجعت أنا على الفراش.. ذلك اللحاف المهترئ الذي بقي لنا خلال ترحالنا الطويل.. وما لبثت أن استغرقت في النوم، وفي ذهني بقايا مشاهد رحلتنا من ينبع إلى المدينة.. كان إحساسي في هذه اللحظات، بأنّ ترحالنا كان أكثر إمتاعاً، واطمئناناً، من هذا البيت المظلّم، الذي لا نرى فيه إلاّ "منكشة" ولا نسمع إلاّ صوتها...

استيقظت على صوت أمّي، تسأل منكشة:

- ولكن... ما عرفتي اسمه؟؟

- لا... أنا نسيته... يمكن زمان... شهرين.. تلاته.

- وقال لك يبغا أبويا؟؟

- أيوه... شيخ أفندي... لازم... عشان دكان... زقاق الزرندي...

يبدو أنّ أمّي كانت قد اتفقت مع منكشة على الذهاب إلى الحراج... إذ ما كدت أجلس في فراشي، حتى أهابت بي أن أسرع لغسل وجهي... وأشارت بطرف إصبعها إلى الصينية وفيها كسرة الخبز، وكوب الحليب.. وقطعة الجبن.. وهي تقول:

- هيا.. افطر قوام.. عشان نمشي.

- نمشي على فين؟؟

- على الحراج.. نشوف إيش اللّي نلتقيه من حوايجنا.

أسرعت ألتهم الخبز وأشرب الحليب والشاي.. وكانت أمّي قد ارتفقت الملاية

ومنكشة واقفة عند باب الديوان في انتظارنا.. كانت الشمس قد توجت سطوح المنازل ونحن نمشي وراء منكشة، وهي تدخل بنا الحراج..

تلال.. أكوام من الأمتعة.. منثورة، أو مكدّسة على جانبي الطريق الضيّق الذي يسلكه الناس... وأمام هذا الكوم. أو ذاك، رجل يصيح:

- مين يفتح الباب... هادا السماور... هادا السماور الصفر... مين يفتح الباب...

فيتقدّم رجل من المجتمعّين حوله ليقول:

- مجيديين.

فيرفع الرجل صوته معلناً:

- السماور بمجيديين.. مجيديين.

ويتدخل آخر ليقول:

- وقرشين..

فيرفع الرجل صوته مرة أخرى معقباً ويقول:

- السماور الصفر.. الكبير الجديد.. مجيديين وقرشين...

دادة "منكشة" تقول شافت حنفيتنا النحاس الكبيرة.. ونجفة القاعة في الحراج

لم يكن هذا هو الوحيد الذي أخذ يعلن عن فتح الباب، على السلعة التي يعرضها للبيع... إذ ما هي إلاّ لحظات أو دقائق، حتى امتلأت ساحة الحراج، ليس بالجمهور الكبير من الناس، وإنّما أيضاً بصيحات هؤلاء الذين يعرضون الأمتعة للبيع بتلك الأسعار.

ويبدو أنّ أمّي كانت تبحث عن أي قطعة من أمتعتها التي قالت منكشة "إنّهم نهبوها... ولكن أين بين هذه الأكوام والتلال من الأمتعة على اختلاف أنواعها؟؟؟ كان هناك الكثير جداً من الأمتعة التي قالت أمّي في ما بعد، إنّها ثمينة جداً، وإنّها "يا خسارة" تباع بتراب الفلوس فعلاً... ولكن "فين الفلوس؟؟؟؟"... كأنّها كانت تتمنّى لو أنّها تملك المال لتشتري الكثير.

وفيما هي تنتقل من موقع إلى آخر، رأيت أنا العم صادق فهتفت أقول لأمّي:

- شوفي العم صادق يا فقّم.. شوفيه هناك.

يبدو أنّه هو أيضاً قد رآني فتقدم منا وهو يقول:

- عسى التقيتي شي يا فاطمة يا بنتي..

- ولا شي يا عم صادق.. وانت.. عسى التقيت...

- عمّال "أدوّر"... يمكن تحت هادي الأكوام... بس كيف "نِنَغْبِر" فيها؟؟؟

أظن ما في فايدة...

- طيب.. والحرامية يا عم صادق؟؟؟

- الحرامية؟؟؟

أيوه يا عم صادق... الحرامية اللّي نهبوا هادي الأشياء كلها من البيوت.. همّا اللّي جابوها، وهمّا اللّي بيبيعوها... ما تيجي نسأل.

- نسأل هادول اللّي بيصيحوا.

- الدّلالين؟؟؟

- همّ هادول اسمهم دلالين؟؟؟ خلاص يا عم صادق نسأل واحد منهم.

- أيوه صحيح.... تعالوا معايا.

- اتجه العم صادق، نحو أحد هؤلاء الذين لا يزالون يصيحون.. ومشينا - أمّي ومنكشة وأنا - خلفه... وقف عند أحدهم وكان يعتلي منضدة كبيرة من الخشب، وفي يده "مبخرة" ينادي من يفتح الباب.. وتقدم أحدهم من الواقفين يقول:

- نص مجيدي.

- هيّه فضة ولا صّفر؟؟

ويجيبه الدّلال:

- أنا أبيع الحاضر حلال.... أنا ما لي شغل.. فضة.. نحاس.. أنا ما لي شغل، ثمّ يرفع صوته معلناً:

" المبخرة.. المبخرة.. بنص مجيدي ".

اقترب العم صادق من الدّلال يسأله:

- إسمع يا ولدي... فين صاحب هادي المبخرة؟؟؟

لكن الدّلال، لم يجب بشيء وإنّما ظلّ يكرر: "المبخرة.. المبخرة.. بنص مجيدي..."، وإذْ لم يجد من يرفع السعر هتف:

- حلال عليك... هات النص مجيدي.. وخذ..

وعاد العم صادق يقترب منه وهو يقول:

- يا ولدي... أنا بأسألك... مين صاحب المبخرة... وصاحب هادي الحوايج اللّي بتبيعها كلّها؟؟؟

- تسألني أنا؟؟؟

- أيوه يا ولدي...

- لا يا عمنا.. إنت لا تسألني.. ولا أسألك..

- طيب... يعني أسأل مين؟؟؟

- تسأل الشيخ...

- الشيخ؟؟؟ طيب.. مين هوّه الشيخ؟؟؟ وفين ألتقيه؟؟؟

- شوفه هناك.. شايف الدكان الكبير اللّي هناك؟؟ تحت شجرة النبق... هوّه هناك.

كان الزحام شديداً، ونحن مع العم صادق نشق طريقنا إلى ذلك الدكان الكبير، تحت شجرة النبق... وحتى عندما وقفنا عند مدخل الدكان، لم نستطع أن نرى الشيخ... كان عدد كبير من الناس واقفين أمامه وحوله.. وكانت أصواتهم تختلط، وكلماتهم تضيع في الضوضاء، وطال انتظارنا وفشلت محاولتنا، في الوصول إلى الشيخ، ولكن كان واضحاً أنّ الناس الذين تزاحموا حوله كانوا هم أيضاً يسألون أو يتساءلون حول هذه الأمتعة والسلع التي تعرض وتباع في الحراج... ويبدو أنّ الدادة "مَنَكْشَة" قد تعبت، فأخذت تتكلم بنبرةٍ تنم عن الضيق... وكان العم صادق يفهم التركية، فالتفت إليها يستمهلها قليلاً، عسى أن يستطيع الوصول إلى الشيخ.. وارتفع صوت المؤذن لصلاة الظهر، وكان ذلك ما جعل الكثيرين يتفرقون، فتقدم العم صادق، ونحن خلفه إلى حيث يجلس الشيخ على كرويتة عريضة، تغطيها فروة خروف بيضاء كبيرة... كان رجلاً كهلاً، ولكنّه نشيط يتفصد العرق من جبينه العريض، تحت "لفة" شال غباني كبيرة... وإلى جانبه الأيسر ما يتكئ عليه، ويسند ظهره إلى عدد من المساند من الدومسكو الأزرق الحرير.

تقدم منه العم صادق، ونحن "أمّي ومَنَكْشَة وأنا" خلفه، وسلّم عليه ثمّ قال:

- يا شيخ فين نلتقي أصحاب هادي الحوائج اللّي بتنباع في الحراج؟؟

وضحك الشيخ ضحكة خفيفة ساخرة وقال:

- أصحاب هادي الحوايج يا خويا؟؟؟

- أيوه يا الشيخ.. أصحابها اللّي منزلينها يبيعوها في الحراج.

- قول رحمة الله عليهم.

- يعني أموات يا شيخ؟؟؟

- ليه انت فين كنت عن الدنيا؟؟؟ إنت ما تدري إنو فخري سفّرنا كلّنا بالبابور إلى أرض الشام...

- إلاّ... أدري يا الشيخ.. وأنا ما جيت من الشام إلاّ قبل شهرين.. يعني أنا حي واللي ماتت أم العيال - رحمة الله عليها - لكن ما لقيت من الحوايج اللّي خلّيناها في البيت، إلاّ زير قديم والقباقيب...

- يعني تبغا تقول مين اللّي نهب حوايج بيتك؟؟؟ موكده؟؟؟

- وحوايج بيت الشيخ أحمد صفا، - رحمة الله عليه - هادي بنته معايا... جيراننا.. رجعتْ من الشام قبل يومين.. وهيّه كمان ما لقيت من الحوايج إلاّ واحد مسند بس.

وهنا ارتفع صوت أمّي لتقول:

- دادة مَنْكَشَة تقول شافت حنفيتْنا النحاس الكبيرة... ونجَفة القاعة... شافتها هنا في الحراج...

ومن دون أن يرفع الشيخ رأسه عن سبحة يعالج نظم حباتها التي انفرطت في خيط بيده قال:

- الحاصل يا خويا انت، وهادي الحرمة، تبغا تقول مين اللّي نهب حوايج بيوتكم... موكده؟؟

- أيوه يا الشيخ

- طيب، ولمّا تعرف اللّي نهبوا، إيش تسوّي؟؟؟

- يا شيخ لو أعرفهم، أروح أشتكيهم للوالي.. والوالي...

وهنا فرقع الشيخ ضحكة عالية وهو يقول:

- بس ما تقول لي تشتكي مين وتخلّي مين؟؟؟ دول يا خويا مئات... أيوه مئات من اللّي دخلوا المدينة، بعدما خرج منّها فخري.

- يعني العسكر يا الشيخ؟؟؟

وهنا بدأ الشيخ يفقد أعصابه، أو صبره على العم صادق فقال في نبرة خشنة:

- إسمع... أنا ما أدري عن شي.. ولا تسألني عن شي.. روح اسأل اللّي دخلوا المدينة بعدما خرج منها فخري... تلقاهم في القشلة... وفي بيوت جعفر في العنبرية..

- طيب يا الشيخ.. ولو طوّلت عليك الكلام شوية.. لو التقينا شي من حوايجنا في الحراج، نطلبها من مين؟؟؟

- اللّي تلتقوه من حوايجكم.. تشتروه... أيوه تزوّدوا فيه، وتشتروه... وبتراب الفلوس...

لا أدري، كيف كان وقع هذا الكلام في نفس العم صادق، وأمّي، فقد أخذنا طريقنا إلى حي الساحة، وهو قريب من موقع الحراج، وباستثناء ما كانت تهرف به الدادة "مَنَكْشَة"، ممّا لم أفهم منه شيئاً، فقد التزم الجميع الصمت... وعند دكانه قبل الانعطاف إلى زقاق القفل، تركنا العم صادق، ومشينا نحن في الزقاق الذي أخذت أتفحّصه بانتباه وفي نفسي دهشة من ضيقه، إذ لم يكن يسمح بمشي أكثر من اثنين معاً، والأعجب بعد ذلك، أنّه زقاق لا مخرج له... مسدود بالبيت الذي فهمت في ما بعد، أنّ الخالة (خاتون) الهندية، تسكنه مع أمّها وأختها... وأنّ أباها، قد سافر من الشام إلى الهند، وما زالوا ينتظرون عودته. ولا شك أنّ الضيق في الزقاق قد لفت نظري، لأنّنا في ترحالنا الطويل في بلاد الشام، كنا نمشي في شوارع عريضة واسعة، لا ندري أين تبدأ ولا أين تنتهي.. وقبل أن تقف منكشة عند باب بيتنا، لتفتحه لنا، رأيت هنا، بالقرب من نهاية الزقاق، معزة، وصغارها، وخروفاً أبيض... وما زلت أذكر حتى اليوم، كم تمنيت لحظتها أن أجري فألعب مع ذلك الخروف، وصغار المعزة ومنها تيس بني اللون، قد نبت له قرنان جميلان كان يحاول أن ينتهك ضرع أمّه المحجوب عنه في الكيس، وهو ما جرت العادة بالحرص عليه، لاختزان اللبن حتى ساعة الحلب... ولكن كانت منكشة قد فتحت باب البيت، ودخلنا الدهليز ثمّ إلى الديوان إياه.

دار حوار قصير بين أمّي والدادة، أدركت منه أو حزرت، أنّه حول وجبة الغداء.. وفهمت أنّ الدادة تطمئن أمّي على أنّها تجهز لنا ما نأكله... ورأيت في وجه أمّي الاحتقان والضيق، إذ عزّ عليها أن تعتمد على ما تجود به أريحية الدادة العجوز... أخرجت أمّي من صدرها حفنة قطع النقود، التي قدمتها للجمّال، وكان كريماً شهماً فلم يأخذها... مدت يدها بكل هذه القطع مصرورة في منديل... وكأنّ الدادة كانت تجهل أنّ أمّي لا تملك غيرها، إذ تناولت من أمّي النقود، وأضافت تقول بنبرة اهتمام، أنّها ستذهب (حالاً) لتشتري لحماً، يباع عند جزار ليس بعيداً عن البيت.. وازداد احتقان أمّي، ولكنّها التزمت الصمت... وبخروج الدادة من البيت، انخرطت أمّي في البكاء... كانت دموعها تنذرف وكأنّها تتدفق والتفتت إليّ تقول:

- وبعدين يا عزيز... وبعدين مع هادا الحال؟؟؟

كانت ساحة الديوان، والدّكة نفسها بادية الإهمال وعدم العناية بحيث يشعر من يراهما أنّ الذي يعيش فيهما زاهد في أي مظهر ترتاح إليه النفس... صحيح أنّه لم يكن هناك أثاث، سوى هذا اللحاف المهترئ، وقد أضيف إليه لحافنا، وتلك الحصيرة مبسوطة بحيث تغطي جزءاً كبيراً من الدكة، ولكن ما أعجب ما استطاعت أن تفعله أمّي، حتى مع هذا الفقر والهزال والاهتراء... أعادت وضع اللحافين، ولا أدري كيف قلبت لحافنا، ليبدو مكسواً بقطيفة خضراء نضيرة... وهذا السماور وصينية الشاي، وما إلى ذلك مما كان متناثراً حول منكشة، نقلته أمّي إلى الحنيَّة... تغيّر منظر الديوان.. بحيث عندما عادت منكشة، بما تسوَّقته، لم تملك إلاّ أن تبدي دهشتها... وأن تعبر عن ثنائها وإعجابها، بكلمات تدليل وترضية... ثمّ تسرع إلى الحنيَّة لتجهيز الغداء، وعماده اليوم هذا اللحم، الذي اشترت معه رطباً إلى جانب الجزر والفجل والطماطم والخبز، ومدت يدها بما بقي من قطع النقد عندها إلى أمّي التي أصرّت على أن تترك لها ما بقي، وإن كان هو آخر ما تملك من مال... إذا كانت تلك الحفنة من بقية المجيدي، الذي اشترت لي منه (البرشومي) في القنطرة، تسمّى مالاً.

كانت وجبة الغداء هي (الرز البخاري)... ولقد كانت شهية ممتعة إلى حد جعلنا نلتهمها بشراهة... من جانبي أنا، لم يكن في ذهني إلاّ أنّي قد وجدت وجبة مشبعة... ولكن الموقف بالنسبة إلى أمّي كان مختلفاً... إذ ما كادت تفرغ من غسل يدها في الحنيَّة بمساعدة الدادة، وتعود إلى مجلسها في الديوان، حتى اعتمدت رأسها على يدها ونظرتها إلى الأرض وتركت لدموعها أن تتدفق في صمت... وما زلت لا أفهم كيف منحتني شخصية من يصغي إلى كلامها إذ دخلت تقول والعبرات تخنق صوتها:

- في هذا الديوان يا عزيز... هناك في هادا الركن كانت تجلس أمّي - ستّك حميدة - ثمّ تغالب ضحكة خفيفة لتقول:

- تجلس في هذا الركن، بس لمّا يكون (سيدك) مسافر، ولّي الشيشة في يدها، وريحة (الحمّي) اللّي كانت ترسل تشتريه من دكان العم صادق... ريحتُه نشمّها حتى لمّا نكون فوق... وبعد العصر، يجونا الستات، وتدخل أمّي معاهم القاعة.. ونحنا... خديجة، الله يرحمها، وأنا وبنات الجيران، اللّي قدنا في العمر، نباشر الستات بالشاهي... وقبل الشاهي مبخرة العودة... وكمان أعواد (الند)، لازم تفضل مجَمَّرة في الدهليز قبل ما يجو وكانت منكشة، قد فرغت من صلاة العصر، حين أخذت تتكلم، وتقول كلاماً لم أفهمه طبعاً ولكن عبارات التدليل والتحبب، بالتركية، كانت

لا تفوتني لكثرة ما كانت تتكرر، ليس فقط بين الدادة منكشة وأمّي، وإنّما أيضاً بين خالتي ولتافت باجي، تلك العجوز السوداء الطيبة التي رسخت في وعيي، ليس هذه الكلمات فقط وإنّما أيضاً، صورة لن تنسى من عطاء النبل ودفق المشاعر الإنسانية، التي يفجر الله ينابيعها الثرة في ما يختار من قلوب البشر. وكان قلب تلك العجوز، واحداً من هذه الينابيع.

التفتت أمّي إليّ، وهي لا تزال تمنحني شخصية من يصغي إليها ويفهم، لتقول: مع آهة أو نفثة أعيتْها الذكرى التي أثارها كلام منكشة، أن تحبسها:

- دادتك منكشة بتقول إنّها ما تنسى أبداً ليلة ما نصّوني على أبوك في هادي القاعة وبتقول كمان إنّو سيدك - رحمة الله عليه - ما دار ووافق على أنّ (السناريّة) تغني في هاديك الليلة، إلاّ علشان خاطر (فاطمة عثمانية) وزوجها السيد عبد المحسن أسعد...

أيوه يا عزيز... وأنا ما نسيت كمان... (السناريّة) فضلت تغني وخالتك ناجية أسعدية، هي التي كانت تدق العود... وواحدة جارية، بالطار (أبو شناشن) والبنات، كلهم فضلوا يرقصوا (الرجيعي). الين قريب الصبح... وما وقفهم إلاّ سيدك لمّا صاح عليهم.. هاديك الصيحة، اللّي رجّت عضامنا كلنا... وليلتها بعدما خرجوا الستات، دخل سيدك القاعة، ومسك شِيَش الحمّي كلها...، كان يبغا يكسرها، لكن لحقته خالة فاطمة جادة... أخدتها منو، وقالت له إنّها هيّه بنفسها رايحة تكسرها. دي كانت شيش غالية... مكسيّة بالفضة من الهند.

***

لأول مرة، منذ أن وصلنا المدينة، ودخلنا بيتنا هذا، سمعت من يطرق باباً علينا... توقفت أمّي عن حديث ذكرياتها الذي أحسست بأنّه طال، والتفتت إلى الدادة منكشة التي نهضت وأخذت تمشي مشيتها البطيئة الثقيلة،... رأيت في وجه أمّي لهفة التوقع والرجاء... ربما كان في نفسها أن يزورها أحد من معارفها وصديقات وأصدقاء أسرتها، الذين ما زالت لا تدري عنهم شيئاً... لا تدري من منهم الذي عاد إلى المدينة كما عدنا، ومن الذين ماتوا هناك كما مات المئات في شوارع وطرقات وأزقة وأرصفة مساجد الشام، وحماه وحلب....

لم تلبث أن عادت الدادة، وقفت عند باب الديوان وقالت شيئاً لم أفهم منه إلاّ

كلمة (زقاق الزرندي)، وأنّ رجلاً يقف بالباب ينتظر.

لمحت في وجه أمّي الاهتمام... وما كادت تسمع كلمات منكشة، حتى هبّت، واقفة وأسدلت على وجهها ورأسها، قطعة القماش التي تلتف بها في الصلاة... ثمّ مشت وراء منكشة، فلم أتردد من جانبي في اللحاق بهما.

كان الواقف خلف الباب الموارب، وقد تلصصت أراه من الفتحة الصغيرة، رجلاً عجوزاً يرتفق جبّة سوداء، كتلك التي كان يرتفقها جدّي رحمه الله... وعلى رأسه عمامة، أو ما يشبه عمامة من قماش داكن اللون أو لا لون له... وسمعته يقول:

- هادي بتقول، إنّو الشيخ أفندي مات في الشام... الله يتغشاه بالرحمة... وإنتي بنته... جيتو من الشام قبل يومين.

- أيوه يا عمّي... أبويا أعطاك عمره... في حلب... وأنا وولدي جينا من ينبع قبل يومين... خير إن شاء الله.

- ولدك؟؟؟ كبير بالغ... ولاّ هوه هادا اللّي واقف قدامي؟؟؟

- أيوه يا عمّي... هوه هادا اللّي واقف قدامك... بس ما قلت لي أيش تبغا؟؟؟

- يعني ما في أحد أقدرأتفق معاه غيرك إنتي؟؟؟ يعني ما عندكم رجّال؟؟؟

- لأ... كلهم... كلهم ماتوا في الشام... بس إيش تبغا؟؟؟ تبغا تتفق على إيه؟؟؟

- قبل شهرين أنا جيت أدوّر على أبوكي رحمة الله عليه... وهادي الآدمية قالت إنّو لسه ما جا... قبل (السفر بَرْلِك)... وقبل ما يسفرنا الباشا، كنت أنا مستأجر الدكاكين اللّي في زقاق "الزرندي"، أكتر من خمس سنين قبل (السفر بَرْلِك) وأنا أستأجرها كل سنة... والحمدلله يا بنتي، رجعنا من الشام.. ماتوا اللّي ماتوا رحمة الله عليهم... لكن الحمدلله، أنا والبنتين وأمهم رجعنا، وسكنّا في البيت اللي كنا ساكنين فيه، في آخر زقاق الزرندي... واللي أبغاه دحّين هوّه إنّي أستأجر الدكاكين... عشان همّا في رأس الزقاق... وبيننا وبين باب السلام خطوتين... بس أبغا... أبغا الرجّال اللّي أتفق معاه، ويستلم مني الأجرة ويعطيني السند زي العادة..

- يعني يا عمّي ما يسير أنّي إتفق أنا معاك؟؟؟ أنا بنته... وهادي دادة منكشة تعرفني... وكمان الجيران.. العم صادق على رأس الزقاق، يعرفني.

- سلامتك يا بنتي.. أنا ما أكذبك... وعارف إنّك بنته... إنتي اسمك فاطمة مو كده؟؟

- أيوه يا عمّي...

- أيوه يا بنتي... أنا حضرت ملكتك، على الشيخ زاهد في الحرم... هوّه زاهد كمان راح في الشوطة في الشام؟؟؟

- لا يا عمّي... زاهد سافر قبل (السفر بَرْلِك)... راح روسيا... بلاد القازاق... وما رجع... وما في عنه لا حسّ ولا خبر... بس قول لي يعني ما يسير تتفق معايا؟؟؟

- ما أقدر أقول ما يسير... بس لازم شهود يشهدوا على الاتفاق. شهود يعرفوكي.

- طيب... فيه العم صادق... راعي الدكان اللّي في رأس الزقاق.

- يا بنتي، إنتي فيه ناس كتير اللّي يعرفوكي، ويشهدوا... بيت المدني... السيد عبد الجليل والسيد عبدالله... كلهم يعرفوا أبوكي... إنتي ما تدري إنّهم مزوّرين القازاق والتركمان أبوكي الله يرحمه... هو شيخهم... وما أحد يجهله أبداً... إنتي ما رحتي تسألي عنهم... ترى كلهم موجودين... كلهم بخير...

- الحاصل يعني، يسير أنّك تتفق معايا..

- أيوه يسير يا بنتي.. بس لازم شاهدين يشهدوا، على السند. ولمّا ادفع لك الفلوس نروح أنا وإنتي، ونشوف الشهود اللّي يعرفوا أبوكي رحمة الله عليه.

- خلاص يا عمّي.. إيش الاتفاق؟؟؟

- أدفع لك في كل دكان تلاتة جنيه عُسْمَلي... زيْ ما كنت أدفع لأبوكي... وإن كنتي تعرفي تقري... هادي السندات حقت خمسة سنين.. اقريها وإنتي تعرفي خط أبوكي...

أدخل يده في جيب بصدره، وأخرج أوراقاً مدَّ بها يده وهو يقول:

- وإذا وافقتي... ترى أنا مستعجل... اشتريت بضاعة، وأبغا أبسط حتى لو من بكرة..

- طيب يا عمّي.. أنا موافقة... وانت صادق ما يحتاج أنّي أشوف السندات.. بس...

- بس إيه؟؟؟

- بس، يعني تقدر تدفع لي كم مجيدي كده؟؟؟ عشان انت عارف رجعنا من الشام...

وأسرع الرجل يقاطعها قائلاً:

- ولا يكون خاطرك إلاّ زي العسل...

ثمّ... مدَّ يده مرة أخرى في جيب الصدر، ثمّ مدها، وهو يقول:

- هادا جنيه عُشْمَلي... على الحساب... يعني لمّا نكتب السند أدفع لك الباقي خمسة جنيهات.. موافقة؟؟؟

تناولت أمّي الجنيه... وحين نظرت إليها، وقد أخذت العتمة تنتشر في الدهليز، رأيت في وجهها، والدمع في عينيها، فرحةً وإشراقاً، لعلّهما أول ما رأيته بهذا المعنى على هذا الوجه منذ زمن طويل...

حين حاولت أن تتكلم، احتبس صوتها ولكنّها استطاعت أن تقول:

- عشت يا عمّي... ما قصّرت...

- وإنتي ما قصرتي يا بنتي... أنا بكرة في الضحى، أجي بالخمسة جنيه، والسند.. تعرفي تكتبي اسمك؟؟؟ ولاّ عندك مهر؟؟؟

- أيوه يا عمّي... أنا أكتب وأقرأ...

- خلاص... تمضي لي السند... ونروح سوا نشوف الشهود.... وترى أنا من بكرة رايح أبسط في الدكاكين. موافقة؟؟؟

- موافقة يا عمّي... ربنا يبارك لك..

***

أسرعت منكشة، تشعل (المِسْرجة)... وكأنّ ما تمّ قد نفحها بشحنة من نشاط جعلها تمشي بخفة وسرعة... إلى (اللَّمبة) المعلقة على الجدار، حيث عالجت زجاجتها، ثمّ أشعلتها، ومن دون أن تجلس، أسرعت إلى الحنيَّة، وهي تقول إنّها ستجهز فنجاناً من الشاي.. والتفتت أمّي إليّ، في مجلسي على طرف اللحاف، وقالت:

- خلاص يا عزيز... بكرة من الصبح نروح (جوّه المدينة) وأشتري لك كُندرة جديدة لمَّاعة. واستغربت، بيني وبين نفسي، اهتمامها، وهي تعدني بأن تشتري لي (كُندرة) جديدة لمَّاعة. وألقيت نظرة على الحذاء الذي لا أدري منذ متى ظللت أرتفقه، لأرى أنّه فعلاً في أسوأ حال... لم يعد له لون، ولا شكل... وقد تمزقت

إحدى الفردتين في المقدمة، بحيث لا أشك أنّ إصبعين وجزءاً من طرف قدمي، كان يصبص حين أمشي... والواقع أنّي لم أكن ألاحظ شيئاً من هذا كله... الأرجح أنّي قد تعودت أن أرتفق الحذاء كيفما كان... بينما هي - أمّي - كانت مشغولة البال بهذا المظهر الزَّريِّ، بحيث كان أهم ما تحلم به، أن تخلّصني، أو هي تخلص نفسها منه.

عادت الدادة منكشة،من الحنيَّة، بصينية الشاي، وعليها، إلى جانب البّراد والأكواب، تلك (المِسْرجة) التي تضيء لها الطريق. ولاحظت أمّي أنّها كانت تردد ما يبدو كأنّه (تلاوة) مهمة... وكان في عينيها الواسعتين بريق قلق أو رعب. وقبل أن تسألها أمّي عن جلية الأمر، وضعت الصينية بيد مرتشعة، على الأرض، ثمّ قالت بالتركية ما أفهمتني أمّي أنّها رأت في تلك الحنيَّة ما يسمونه (الساكن)...

كانت مع هذه المفاجأة عند "الساكن" ليلة رعب لا أزال أذكر كيف قضتها أمّي ساهرة، وأنا في حضنها حتى الفجر.

الساكن؟؟؟ الجيران

استيقظت، على صوت أمّي، وهي تتحدّث إلى (منكشة) في ما يشبه الهمس، وكان مما يضحكني حين علمت في ما بعد، أنّ حرصها على أن تتحدث بصوت هامس، هو الخوف من (الساكن)، الذي أكدت هذه الدادة العجوز، أنّه ساكن في الحنيَّة، ليس ذلك منذ اليوم، وإنّما منذ سنين طويلة.. وزعمت أنّ جدّي، وهي تسميه (شيخ أفندي)، كان يعلم أنّه (ساكن) في هذه الحنيَّة. وكثيراً ما أنذرها بأن لا تحاول مطاردته أو ضربه، أو حتى الاقتراب منه. ثمّ أضافت أنّ (الساكن) من جانبه، لم يحدث أن حاول الاعتداء عليها، وأنّها نادراً ما تراه خارجاً من مكمنه الذي لا تدري أين يقع من جدار الحنيَّة... تراه ممدّداً بطوله ملتصقاً بالجدار فإذا بحركتها يرفع رأسه، لترى عينيه الحمراوين كالدم.... فما عليها عندئذٍ إلاّ أن تتراجع، وأن لا تدخل، إلاّ بعد مضي وقت، فلا ترى له أثراً.

لكنّ أمّي لم تزدها هذه التفاصيل إلاّ خوفاً، إلى حد جعلها تستغني عن الوضوء في الحنيَّة، إذ جاءتها الدادة بالإبريق، إلى موقع فيه بلاّعة عند مدخل الديوان... أمّا قضاء الحاجة، فقد صعدت بي إلى الطابق الأول، وفي كل خطوة خطتها على السلالم، كانت تتلو سورة (الفلق) مع البسملة بصوت هامس مرتعش.

ما كادت أشعة شمس الصباح تفترش أعالي (الجلا)، حتى كانت أمّي ترتفق ملاءتها وتستعجل الدادة أن ترافقها، ومن جانبي لم أكن أدري شيئاً عمّا يدور، غير أنّها كانت تستعجلني أنا أيضاً، لأرتفق حذائي الممزق،... حتى وجبة الفطور، لم نتناولها، بل لم تفكر هي فيها... وخرجنا من البيت لننتهي عند دكان العم صادق... كان قد فرغ لتوه من فتحه... وقفت أمامه، وأخذت تروي له كل ما سمعته من الدادة عن (الساكن) وقد سمعته أنا وهي ترويه لأول مرة... والعجيب، أنّ العم صادق لم يبد اهتماماً بما

سمع رغم أنّ أمّي كانت تتحدث بشحنة عالية من الرغبة في عونه ونجدته... كل ما عني بأن يقوله هو:

- لا تخافي... هادا ما يئذي... ما دام بتقول إنّه ساكن من سنين... لازم ما تخافي منّو..

- بس يا عم صادق، أنا عندي ولد صغير... يمكن يدخل الحنيَّة...

- طيب، ليه ما تطلعوا المجالس... أيام السموم راحت خلاص... وما تحتاجوا الديوان في هادي الأيام.

- بس يعني يا عم صادق، مو يمكن يطلع لنا في المجالس.

- والله يا بنتي ما أدري إيش أقول لك... كل شي جائز.. أصله البيت كان مهجور طول السنين اللّي غبتوها عنه..

- طيب يا عم صادق، ليه ما نشوف أحد يدوّر في الحنيَّة ويقتله؟؟؟

وهنا رفع العم صادق رأسه، محملقاً بعينيه، كأنّه قد سمع ما يخيف ويرعب، ثمّ قال:

- إصحي... إصحي يا بنتي... يقول لك عقلك تفكري في شي زي كده... إنتي بتقولي عندك ولد صغير بتخافي عليه...

- يعني إيه يا عم صادق؟؟؟

- يعني... يعني لازم تخافي على ولدك من... من..

- من إيه يا عم صادق؟؟

- ما أدري إيش أقول لك... إسمعي أنا عندي فكرة.

- إيش هيّه يا عم صادق؟؟

- تتركو البيت... تنقلو لبيت تاني... وانا سمعت عندكم بيت في باب المجيدي ليه ما تنتقلو هناك؟؟؟

- بيت باب المجيدي فضّيناه قبل ما نسافر.. وما أدري أبويا خلّى مفتاحه عند مين..

- طيب... إنتي تعرفي فين بيت (الزاكور)؟؟؟

- الزاكور؟؟؟ مين الزاكور؟؟

- الزاكور، رجّال من الصالحين... رفاعي... يقدر إذا رضي، يقدر ينذّر الساكن وياخده معاه.

- طيب يا عم صادق، الله يخلّيك.. قل لي فين بيته وأنا دحّين أروح له... وأنا عندي فلوس.. أعطيله اللّي يبغاه.

- لا... لا... لا يا بنتي، هادا ما ياخد فلوس... هادا شغله لله... لوجه الله.

- طيب... بس... بس فين بيته يا عم صادق؟؟؟

- اسمعي، خلّي هادي الدادة تقعد عند الدكان... ونروح أنا وإنتي سوا..

لم تتردد منكشة في الموافقة على أن تحرس الدكان، بينما تذهب أمّي مع العم صادق إلى (الزاكور).. ولكنّها اقترحت أن أبقى أنا معها... ولا أدري ماذا قالت بالتركية فإذا بأمّي تلتفت إليّ، وهي تقول:

- أقعد مع دادتك... وإصحا تروح هنا ولاّ هنا.. فاهم؟؟؟

لم يسعني إلاّ أن أذعن، وفي نفسي أنّ هذه الدادة قد حرمتني من المشي مع أمّي والعم صادق لرؤية الكثير من الشوارع والأزقة والأسواق التي لم أر إلاّ القليل منها أمس عندما ذهبنا إلى الحراج... وتذكرت في نفس الوقت وعد أمّي بأن تشتري لي من (جوّه المدينة) الكندرة اللماعة... وهنا لم أملك إلاّ أن ألقي نظرة على الحذاء الممزق، وأنا أشعر بالكسوف بحيث وجدتني أحاول إخفاء الفردة التي تبصبص منها أصابعي خلف قدمي اليسرى.

***

لم يطل انتظارنا عند دكان العم صادق، إذ سمعت صوته يتحدث، في الاتجاه المضاد للاتجاه الذي سلكه في ذهابه... التفت، لأراه، وإلى جانبه رجل عجوز ربّما في مثل سنّه وخلفهما أمّي في ملاءتها... وقال العم صادق يخاطب أمّي:

- خلّي الدادة والولد، عند الدكان...

قال هذه الجملة، ثمّ انعطف مع الرجل العجوز، وخلفهما أمّي إلى مدخل الزقاق.... وجدت نفسي، أترك الدادة حيث هي جالسة على طرف دكّة الدكان، وألحق بهم... كان الموضوع كلّه بالنسبة لي غير مفهوم... خوف أمّي إلى ذلك الحد

الذي جعلها تخرج في ذلك الوقت المبكر، ومعها خوف الدادة، من هذا (الساكن) الذي قالت منكشة أنّه ساكن في الحنيَّة منذ سنين طويلة... وأنّ جدّي كان يعلم أنّه ساكن في هذه الحنيَّة. وقد حذّرها من مطاردته أو حتى الاقتراب منه...

من هو... أو ما هو هذا الساكن؟؟؟ فهمت أنّه ثعبان، ولكن ما هو الثعبان.. لم يسبق لي أن رأيت ثعباناً، أو سمعت عنه، وعلى الخصوص عن أنّه يسكن الحنايا، سنين بطولها.

ثمّ... هذا الرجل الذي اسمه (الزاكور)، وقد جاؤوا به، أتراه سيقوم بقتل الثعبان؟؟؟ وإذا لم يقتله، فكيف يمكن يا ترى، منعه من الخروج من مكمنه المجهول تماماً في هذه الحنيَّة اللعينة؟؟؟؟

عند باب البيت الذي أخذت تفتحه منكشة بالمفتاح الذي أخرجته من خاصرتها.. لاحظت أنّ العم (الزاكور)، قد أخذ يتلو... يقرأ همساً، كلمات، تنم عنها حركة شفتيه تحت شاربه الكث الأشيب... رأيت في عينيه الواسعتين ربّما معنى الترقّب واللهفة.

... قبل أن ندخل، سمعت صوتاً نسائياً ينادي أمّي باسمها، من البيت المقابل لبيتنا، والذي قالت أمّي إنّ سكانه غائبون في الشام... لم يعودوا بعد، وربّما، ماتوا كما مات الكثيرون... وقبل أن تلتفت أمّي هتفت: (خالة فاطمة؟؟؟)... وأجابتها هذه تقول:

– (أيوه... أيوه يا فاطمة.. خالتك فاطمة جادة...)

– متى وصلتوا يا خالة فاطمة؟؟؟ الحمدلله على السلامة.. وكيف حال العم سعيد؟؟؟ وفين بدريّة؟؟؟

– وصلنا اليوم في الفجر... لكن قولي لي... إيش هادول اللّي واقفين معاكي؟؟؟ فين أبوكي عنّهم؟؟؟

– هادول يا خالة... هادول العم صادق، والعم (الزاكور)...

وسرعان ما رفعت الخالة فاطمة جادة صوتها، بنبرة دهشة واستغراب وهي تقول:

– الزاكور؟؟؟

والتفت العم صادق وقال:

– أيوه يا أختي... الشيخ الزاكور... إنتي تعرفيه؟؟؟

– وهوّه فيه أحد ما يعرف الزاكور؟؟؟ بس عسى خير؟؟؟

كانت الدادة منكشة قد دخلت البيت، وأصبحت في الدهليز المعتم، ودخل

خلفها الزاكور بينما بقيت أنا إلى جانب أمّي، التي أخذت تقص على الخالة فاطمة جادة أخبار الساكن ومخاوفها منه، عليّ أنا، وعلى نفسها. ورغم أنّ الخالة فاطمة ظلّت تؤكد أنّ (الساكن) لا يؤذي أحداً إذا لم يؤذه هو أحد، وأنّ جميع البيوت في هذا الزقاق (زقاق القفل)، فيها أمثال الساكن في بيتنا، فقد أضافت تقول:

- الشيخ الزاكور، يقدر بعون الله، أمّا يرصده، وما يخلّيه يخرج من بيته.. وأمّا إنّو ياخده معاه.

- ياخده معاه؟؟؟

- أيوه ياما أخدهم معاه....

- لكن... لكن فين يودّيهم؟؟؟

- اللّي ما أدري عنّو... فيه ناس يقولوا إنّو يحبسهم عنده في البيت.. ولكن فيه ناس كمان يقولون إنّو يدبحهم وياكلهم..

- ياكلهم؟؟؟

- يعني، كده يقولوا... والله أعلم.

وقبل أن تستدير أمّي لندخل البيت، قالت الخالة فاطمة:

- إسمعي يا فاطمة.. أنا والله في نفسي من زمان أقول لعمّك محمد سعيد يطلب لنا الزاكور... عشان اللّي عندنا ساكن في (المؤخّر)... ويقولوا إنّو عنده جماعته، يمكن سكنوا في المحلات التانية في البيت..

- طيب يعني أقول للعم زاكور، بعد ما يغلّق عندنا، يجيكم؟؟؟

- أيوه الله يا ريت... يا ريت يا فاطمة يا بنتي... بس يا ريت يجينا قبل ما يجي عمّك محمد سعيد من السوق.

- ليه... هوّه العم محمد سعيد...؟؟؟؟

- اسكتي يا بنتي.. عمّك محمد سعيد طول عمره يخوفنا من (الساكن)، ويقول لازم نخلّيه في حاله... وما دام، ما أحد يتعرّضه... هوه ما يآذي أحد.. لكن يا بنتي، أنا من كتر خوفي منه... أصبحت ما أدخل (المؤخر) إلاّ مع دادتك حسينة وفي النهار... أمّا في الليل.. أبداً...

***

وقف العم (الزاكور) في فسحة الديوان، وأمام فتحة أو مدخل الحنيَّة، وهو لا يزال يتلو أدعيته، ومن حقيبة من القماش الأبيض معلّقة على كتفه، أخرج المصحف، وحفنة من (خلطة) أو مجموعة من أعشاب أو نحوها... وطلب من الدادة أن توقد ناراً في (الكانون)... وجلس على طرف دكّة الديوان، والتفت إلى العم صادق، وإلينا (أمّي وأنا).... وأشار بيده - من دون أن يتكلّم - إشارة فهمنا منها أن نبتعد أو نخرج عنه... ابتعدنا عنه إلى باب القاعة المغلق. وحين خرجت منكشة من الحنيَّة وفي يدها الكانون، تشتعل فيه النار... أمرها هي أيضاً أن تبتعد عنه بعد أن وضعت الكانون بين يديه... ألقى حفنة الأعشاب، في النار، وما كاد يرتفع خط الدخان، حتى حمل الكانون والدخان يتصاعد منه، واتجه إلى الحنيَّة ودخلها وحده... بينما ظللنا نحن جميعاً واقفين عند باب القاعة.

استولى على الجميع قلق، وأحسست أنا كأنّ ساقيّ قد فقدتا القدرة على الوقوف، فتهاويت إلى الأرض.. جلست على الحجر... ولاحظتني أمّي، فمدت يدها ووضعتها على رأسي كأنّها تطمئنني... ولكن المشكلة كانت مع الدادة منكشة، التي ارتمت بطولها على الأرض وأخذت تتشنّج، وتحرّك ذراعيها، كأنّها تتمطّى ولكن بكثير من الجهد... ثمّ كان أغرب مشهد ملأني رعباً، سحنتها التي تغيرت... عيناها محملقتان، وقد احمرّ البياض فيهما، ثمّ رغوة من شدقيها تتدفق وتكاد تملأ وجهها كلّه... وذلك الزحير في صوتها كأنّها تختنق.... طرأ كل هذا على العجوز، في لحظات، فأربكنا جميعاً... حتى العم صادق، بدا مرعوباً يتململ في موقفه، كأنّه يريد أن يجري هارباً... أمّي من جانبها وأنا إلى يمينها وجدتها تتناول يدي، وتتجه خارجة إلى باب الديوان... وقالت وهي تلقي نظرة على وجه الدادة:

- يا ريت نجيب لها موية نرشّها بها... بس الموية في الحنيَّة..

لم يقل العم صادق شيئاً، ولكن عينيه ظلّتا مسمّرتين على مدخل الحنيَّة، ينتظر خروج الزاكور منه.

لم تتردد أمّي في الخروج إلى الزقاق... وما كدنا نقف عند الباب، حتى سمعنا صوت الخالة فاطمة جادة، تتساءل:

- دادة منكشة يا خالة...

- إيش بها؟؟؟

- من ساعة ما شمّت ريحة البخور... طاحت على الأرض، متخشّبة.

- لا تخافي... هادول حقّون راسها ماسكينها... الزاكور دحّين يقرا عليها وتقوم. بس هوّه لسه ما مسكو...

- والله ما أدري يا خالة... هادا دخل الحنيّة بالبخور وما شفته خرج.

- أعوذ بالله يا بنتي.. عسى ما يكون لدغه، والرجال راح فيها.

- ما أدري يا خالة... ليه هوّه يلدغ حتى الزاكور؟؟؟

- من زمان يا فاطمة يا بنتي... كان في واحد مغربي، يجيبوه يمسك الحنشان... ومسك كتير من البيوت القديمة اللّي زي بيوتنا هادي... لكن في مرة، جابوه يمسك حنش كبير، ساكن عند البير... قتل تورين، من تيران السواني... قام الحنش لدغه... وفي محله... ما قام... مات المغربي المسكين.

ثمّ أضافت الخالة فاطمة، تقول:

- طيب إنتي ليه ما تدخلي عندي بدل ما إنتي واقفة في الزقاق..؟؟؟ تعالي. وحين أخذنا نتجه إلى الباب المفتوح أمامنا... سمعنا سعلة رجل سرعان ما قالت الخالة فاطمة إنّه العم محمد سعيد - زوجها - ... وهمست تحذّر أمّي من أن تخبر العم محمد سعيد شيئاً عن الزاكور.. أو عن أي شيء...

لكن العم محمد سعيد اكتشف الواقع من دون أن يخبره أحد بشيء... كانت رائحة البخور تملأ الزقاق... ما كاد يدخل دهليز بيته، ويراني واقفاً إلى جانب أمّي حتى قال:

- بنت الشيخ أحمد؟؟؟

وأجابته أمّي بصوت خفيض:

- أيوه يا عمّي... بنتك... فاطمة.

- عظم الله أجرك يا بنتي... أنا سمعت إنّو رحمة الله عليه اتوفى في حلب... هوّه الزاكور، في بيتكم؟؟

- أيوه يا عمّي..

- أيوه قالوا لي وأنا جي، إنّو صادق طلب منّو يجي يشوف له صرفه مع الساكن اللّي في بيتكم... وهادي ريحة البخور اللّي يبخّر به... ربّنا يكون في عونه.. هادا الساكن اللّي عندكم، قديم... من زمان... يقولوا... أيوه.. أبوكي بنفسه - رحمة الله عليه - قال لي إنّو ساكن من أيام ما بنوا البيت.. يعني قبل مية سنة..

قال العم محمد سعيد هذه الكلمات، واتجه خارجاً إلى بيتنا... بينما قالت الخالة فاطمة...

- تعالي إنتي يا فاطمة يا بنتي نقعد في الديوان...

- لكن دادة منكشة... يبغالنا نرش على وجهها موية يمكن تفوق..

- عمّك محمد سعيد.. والزاكور... وعمّك صادق... همّ يعرفوا يفوّقوها.. تعالي... وتقدمتنا، إلى الديوان... وسرعان ما لفت نظر أمّي أنّ أثاث البيت.. فرش الديوان موجود.

... كان لا يزال مجمّعاً... المراتب والمساند، وحتى بعض الأواني كلّها هناك.. ولم تملك أمّي إلاّ أن تساءلت:

- ما شاء الله يا خالة... أنتو باين عليكم ما نهبوكم..

- نهبونا؟؟؟ مين همّ؟؟

- اللّي نهبوا بيوت الناس كلّهم...

- يعني يا بنتي إنتي التقيتي بيتكم منهوب؟؟؟

- يا خالة ما التقيت من فراشي كله.. من البيت كله إلاّ واحد مسند.

- لاحول ولا قوة إلاّ بالله... الله يكافيهم.. مين..مين اللّي نهبوكم يا بنتي؟

- دادة منكشة تقول إنّهم اللّي دخلوا المدينة بعد ما خرج منّها الباشا.

- ومين دخل المدينة، غير اللّي حاربوا الدولة... حاربوا السلطان... وما دام حاربوا السلطان يجي منهم ينهبوا بيوت الناس.. هادول الناس ما يخافوا الله.

- لكن أنتو يا خالة ما شاء الله.. ما أحد نهبكم..

- أيوه.. الحمدلله... أصلو عمّك محمد سعيد (صمّر) الباب من جوّه بعوارض حديد... ما يقدر يكسرها أحد.. وتدري منين خرج؟؟؟ خرج من السطوح على بيت عمّك درويش، ومن بيت عمّك درويش، لحقنا ونحن رايحين نركب البابور..

- أمّا نحنا... أبويا - رحمة الله عليهم - تركوا المفتاح عند منكشة... كان يحسب أنّنا رايحين نرجع من الشام بعد شهر أو شهرين... أصلهم كده قالوله.

... لكن ما قلتيلي يا خالة فين استيتة بدريّة؟؟

- بدريّة يا بنتي في بيت زوجها... أصلنا زوّجناها في الشام... وسبقتنا معاه...

وعمّك محمد سعيد لا بد راح يتطّمن عليها... من ساعة ما وصلنا فتح لنا البيت وراح يتطمّن عليها.

***

سمعنا، في مجلسنا في ديوان الخالة فاطمة جادة، وقع أقدام في الدهليز، قالت الخالة إنّه العم محمد سعيد... فنهضت، ونهضنا معها نهرع لسماع أخبار الزاكور وأخبار الدادة التي تركناها ملقاة متشنّجة على الأرض.

***

أخبار الزاكور وأخبار الدادة "منكشة" ملقاة على الأرض

قبل أن نخرج من باب الديوان، ترامت إلى أسماعنا ضجة، أو لغط أصوات رجال وأطفال... وحين كان العم محمد سعيد يدخل، كانت أمّي، ويدها في يدي، قد أخذت طريقها إلى باب الزقاق... اللغط الذي كنا نسمعه، جعلنا نسرع الخطى، كأنّنا قد خشينا أن يفوتنا مشهد هذا المجهول، الذي جمّع من نسمع أصواتهم من الناس... وهؤلاء كانوا متزاحمين على باب بيتنا، فتوقّفت أمّي، لنرى العم صادق يسبق الشيخ (الزاكور)، ويفسح له الطريق وهو يقول:

- ما يسير ياخواننا...ما يسير توقفوا كده... أنتو تآذوا الشيخ.

كان الشيخ (الزاكور) واقفاً خلف العم صادق وفي يده اليسرى كيس داكن اللون جمع فوهته بين أصابعه، وما كاد المتزاحمون عند الباب يفسحون له الطريق، ويخطو خطوته الأولى للخروج حتى زلزلنا جميعاً رعب صاعق... لأنّ أحدهم صرخ صرخة عالية مزعجة وهو يقول:

- شوفوه... شوفوه بيتحرك.. بيتحرك..

انزاح جميع الواقفين، وأخذوا يتّجهون في طريق الخروج من الزقاق، ومشى العم صادق، إلى جانب الشيخ (الزاكور) خلفهم... ومع أنّ الصرخة قد ملأتني رعباً، فإنّي لم أدرك... لم أفهم ما يعنيه بكلمة (شوفوه.. شوفوه..) ثمّ من هو الذي يتحرّك، ولكن سرعان ما فهمت كل شيء، فقد كان شيء ما في الكيس الذي يحمله الشيخ الزاكور وقد أحكم قبضة يده على فوّهته... شيء ما يتحرك، حركة من يحاول الإفلات من محبسه... وسمعت أمّي، تهمس بتلاوة آيات من القرآن، وأحسست بيدها ترتعش، وهي ممسكة بيدي.... واستطاعت أن تتغلّب على خوفها، لترفع صوتها منادية العم صادق:

- يا عم صادق... من فضلك..

والتفت العم صادق، وبدلاً من أن يقف، رأيت يده ترتفع إلى فمه يشير إلينا أن نلتزم الصمت... كأنّه يحذّرنا من أن نتسبب في شيء... وكان ذلك الشيء في الكيس في يد الشيخ (الزاكور)، لا يزال يتحرّك... ولكن، رغم ذلك قالت أمّي:

- يا عم صادق، دادة منكشة...

والتفت العم صادق، ومرة أخرى، من دون أن يرفع صوته بكلمة، أشار بيده ما فهمنا منه أن نلحق به... كان باب البيت مفتوحاً... ألقت أمّي نظرة عليه... وكأنّها لم تر ضرورة لإغلاقه... فاتجهت، ولا تزال تمسك بيدي في يدها، تلحق بالعم صادق...

عند مدخل الزقاق، كان هناك جمع آخر من الناس، واقفين وفي نظراتهم الترقب والفضول والرغبة في اكتشاف، ما فعله الشيخ "الزاكور"... وكان اللغط الدائر بينهم هو عن "الساكن"... هل أخرجه الزاكور فعلاً؟ أو أنّه لم يستطع أن يصل إليه. وكأنّ العم صادق، كان يدرك ما في نفوسهم، إذ ما كاد الشيخ "الزاكور" ينطلق في طريقه وذلك الكيس في يده، حتى قال العم صادق:

- خلاص ياخواننا... الزاكور أخرج الساكن... وأخذه معاه... هيا فارقونا عاد... وأخذ بعضهم ينصرف إلى حال سبيله، بينما فضل آخرون أن يمشوا خلف الزاكور ونظراتهم لا تفارق ذلك الكيس داكن اللون، الذي يرون فيه شيئاً يتحرك، ويحاول الإفلات.

كان ما يشغل بال أمّي أكثر من أي شيء آخر، هو الدادة منكشة... فوقفت عند دكّة دكان العم صادق، منتظرة أن يفرغ لها، ثمّ قالت:

- يا عم صادق... الدادة...

- أيوه يا بنتي... الحقيقة، عمّك الشيخ الزاكور، شافها، ولكن قال هوّه ما له شغل...

- ما له شغل؟ طيب يعني، هيّه زي ما سيبناها... مرمية على الأرض؟

- الحقيقة... أنا لمّا الشيخ الزاكور، قال كده... أنا كمان خفت... وما أدري إيش لازم نسوي. الشيخ الزاكور قال لازم واحد من أهل طريقة تاينة... ما قال لي على اسمها...

وهنا سمعت أمّي تردد: "حسبي الله"... ثمّ قالت وفي صوتها حيرة وخوف:

- بس يا عم صادق... الدادة معانا في البيت... أنا ما عندي أحد غيرها. يعني... يعني ما يسير أشوفها مرميّة على الأرض، وما أداويها... يعني أشوف لها أحد يقوّمها.

- أنت باين عليكي خايفة منها... زي ما قلت لك... تعالي إنت والولد عندنا. البنات... أمونة، وأم السعد، يفرحوا بِكم، وتتسلوا مع بعض.

- عشت يا عم... بس أنت عارف... نحن من زمان... من يوم ما ركبنا البابور من المدينة إلى الشام، ونحن... أقصد أنا وهادا الولد... مِهَجْولين... زي الضايعين... حمدنا الله، اللّي قدّر ولطف ورجعنا المدينة... رجعنا بيتنا...

- لك حق يا بنتي... بس كيف تسوّي... وأنت لوحدك مع هادا الجاهل... وهادي اللّي مسكوها حقون رأسها... وما ندري هيّه رايحة تقوم... ولا...

قاطعته أمّي، تقول:

- يعني... يعني يا عم صادق، يمكن تموت؟

- الموت والحياة بيد الله... لكن أنا سمعت عن ناس... رجال وحريم، تجيهم هادي اللّي يسمّوها "القرينة"... وما تفكهم الين تاخد عمرهم...

- هيّه دي اللّي يسمّوها "القرينة"؟

- أظن كده... والعياذ بالله... بس... بس أقول لك... ليه، ما نشوف لك إنتي والولد، مجلس عند ناس من اللّي يأجروا بيوتهم للحجاج... لكن... لكن هادا يبغالو فلوس.

- أنا يا عم صادق... عندي فلوس... لكن... ما هو هاين عليه، أسيّب البيت اللّي ولدت فيه أنا، وخديجة، وعمر، الله يرحمهم... وأروح أسكن في بيت مع ناس ما أعرفهم ولا يعرفوني...

- لكي حق يا بنتي... وما أدري أيش أقول لك غير ربّنا يكون في عونك.

- طيب يا عم صادق... أنا أروح أشوف خالة فاطمة أيش تقول...

- خالتك فاطمة؟ جماعة، محمد سعيد؟؟ همّا وصلوا من الشام؟؟

- هوّه أنت ما شفتو؟... إلاّ... وصلوا اليوم... والعم محمد سعيد جاكم لمّا كنتو معاه.

- لا... ما شفتو... كنت في الحنيَّة.... خلاص اتوكلي على الله... واسكني معاهم... البيت مقابل البيت... أنا لمّا كنت أجي أسلم على شيخ أفندي - رحمة الله عليه - ، في المقعد الصغير، كنت أسمع صوت خالتك فاطمة هادي كأنّه معانا... وكان شيخ أفندي يتضايق كتير... وما إنسى مرة، كنت عنده، وسمع صوتها بتهرج، يمكن مع أمّك رحمه الله، عليها... ما قدر يصبر... قام... وفتح باب البيت، وصاح عليهم... سكّتهم...

- طيب يا عم صادق... يا ريت تتكرّم تيجي معايا، نشوف الدادة... نقوّمها ولاّ نداويها... ولكن العم صادق، بدا أنّه يخاف من "القرينة" أو من الحالة التي أصيبت بها الدادة فلم يتردد في أن يقول لأمّي:

- اسمعي يا بنتي يا فاطمة... أنا عندي إخواتك، أمونة... وأم السعد... أخاف عليهم من هادي المصايب... سامحيني... ما أقدر أروح معاكي... شوفي خالتك فاطمة جادة.

- ليه... هيّه القرينة، تعدي... يعني زي الحصبة والجدري...

- اللّي ما أدري عنه... بس أنا باسمع عن هادي القرينة بتصيب كتير من البنات.

- طيب يا عم صادق... ربنا يخليك ولا يحرمنا منك... أنا تعّبتك معايا كتير.

- لا يا بنتي... ما تعبتيني... انت بنت الشيخ أفندي اللّي كان بركتنا في الساحة كلها... بس خليني بعيد عن هادي الدادة...

- طيب... في أمان الله.

- في أمان الكريم...

تناولت أمّي يدي في يدها... ودخلنا الزقاق في طريقنا إلى البيت... وكانت المفاجأة التي، جعلت أمّي تخفق صدرها بيدها اليمنى، أنّنا رأينا "الدادة منكشة" بلحمها وشحمها تمشي في اتجاهنا. وما كادت ترانا... حتى أخذت تخرج من صدرها منديلاً، تمسح به عينيها ووقفت تنتظرنا... أسرعنا إليها... ولم تر أمّي ما يمنع أن ترفع صوتها وهي في الزقاق تتكلم بالتركية، عبارات، أفهم أنّها تعني الفرحة والدهشة... وما كدنا نقف أمام الدادة حتى انحنت المسكينة، تلتمس يد أمّي تحاول تقبيلها... بينما تناولت أمّي رأسها وهي تكرر عبارات الحمدلله... إلخ...

كان أهم ما تساءلت عنه الدادة، هو "الساكن"... وعندما دخلنا الديوان في بيتنا

كانت أمّي تقص عليها تفاصيل ما حدث، وتؤكد لها أنّ الشيخ "الزاكور" قد أخرج الساكن وأخذه معه، والحمدلله... وأخذت الدادة بدورها تردد بالتركية كلمات "الحمدلله"... أمّا عن الذي أصابها وأسقطها الأرض مغمى عليها، والتشنّج، أو التخشب الذي شوهد عليها، فكانت المفاجأة الثانية، أنّها لا تدري عن شيء مما نقول... كل الذي تذكره أنّها استيقظت من غفوتها، لتجد نفسها ملقاة على الأرض... وبلعومها أو حنجرتها جافة كالحطب... لم تجد من تطلب منه ماء... وخافت أن تدخل الحنيَّة... فهي الآن تكاد تموت من العطش... أسرعت أمّي إلى الحنيَّة، وقد أخذتني في يدها، ربّما لأنّها خافت أن تدخلها وحدها... ومن الزير الفخار الصغير في الركن، ملأت كوز الماء النحاس... وجئنا به... تناولته الدادة ملهوفة وشربت منه، ثمّ دلقت ما بقي فيه على وجهها ورأسها... وتنفست الصعداء... ثمّ كررت عبارات الحمد الله.

كانت الدادة منكشة، هي التي ذكرتنا أنّنا لم نأكل شيئاً منذ وجبة "الرز البخاري" وأنا من جانبي، استغربت، أنّي طوال ما يقرب من يوم، لم أشعر بالجوع... ولكن الآن، والدادة تسأل أمّي عمّا إذا كانت قد تناولت فطورها، قد أحسست كأنّ شيئاً في أحشائي يتمزق... وأسرعت أقول لأمّي:

– أيوه يا ففَّم... نحن ما نبغا ناكل اليوم؟

– الاّ يا حبيبي... دحّين...

ثمّ أخذت تتحدث إلى الدادة، عن الجنيه "العسمنلي" الذي استلمته من الرجل الذي جاء يستأجر الدكاكين... أخرجته ملفوفاً أو مصروراً في منديل من صدرها... وكانت تحاول أن تخرجه من المنديل، عندما رفعت الدادة يدها تستمهلها... بينما أدخلت هي يدها في صدرها وأخرجت منديلاً، وقد صرّت فيه نقوداً... فكت الصرة، وأخرجت ريالاً مجيدياً، وأخذت تتحدث حديثاً أدركت أنّها تنصح به أمّي أن لا تتصرف في الجنيه الآن... وأنّ ما عندها يكفي لشراء ما نحتاج إليه من الأكل... ثمّ نهضت متثاقلة، مرهقة، وتلفعت بما تستر به رأسها وكتفيها... وقالت إنّها ستذهب لتتسوق من دكان على مدخل "حوش الجمال"... كان ما اقترحت أمّي أن تشتريه لنا، إلى جانب أشياء أخرى كالشاي والسكر، البيض والسمن واللحم والجبنة "الزقزق" والدقيق والتمر... والتفتت إليّ أمّي وهي تبتسم لتقول:

- أنت، كنت بتقول ليّ ونحن على الجمل من ينبع... إنك تبغا تاكل "حيسة"، مو كده؟ ولم أملك، دهشتني، وأنا أسمع كلمة "الحيسة" هذه، إذ سألتها بفرحة غامرة:

- يعني، أمّي منكشة رايحة تشتري لنا حيسة؟

- لا.... الحيسة ما يبيعوها... الحيسة أنا أسويها هنا في البيت... بس لمّا تجيب السمن والدقيق والتمر.

وبخروج الدادة، يبدو أنّ أمّي أحست - ربّما لأول مرة - بوحشة وفراغ البيت الذي قالت للعم صادق، إنّها ولدت فيه، هي وخديجة وعمر... ولا أدري ما الذي جعلني أنا أيضاً أشعر بما حملني على أن أترك مكاني على طرف الدّكة، لأجلس إلى جانبها ثمّ ألتمس أن تضمني إلى صدرها... كانت الشمس، تفترش أرض الديوان، فلم يكن الظلّام مثلاً هو مبعث التخوف أو الرهبة أو الوحشة.... لا... كان هناك الإحساس، بأنّنا - هي وأنا - وحدنا... وحيدين، ليس في هذا البيت فحسب... وإنّما في الدنيا كلها... ولعلّي، لا أنسى حتى اليوم تلك اللحظات في ذلك اليوم، التي امتدت فيها يد أمّي إلى وجهي... احتضنته بين كفيها، ورفعته لأرى عينيها، تجول فيهما عبرات، ما لبثت أن أخذت تنذرف... ظلّت ممسكة بوجهي هكذا، ثمّ تركتني، والتمست منديلها من صدرها، تجفف به دموعها... ثمّ تأوهت آهة قصيرة عميقة لتقول العبارة التي ما أكثر ما سمعتها تردها منذ ذلك اليوم:

- وبعدين... وبعدين يا عزيز؟

ثمّ تعود فتحضنني، وتضمّني إلى صدرها بحرارة، ثمّ تقول في حرقة:

- يا رب... يا رب... يا عزيز قول يا رب...

ومع أنّي أحسست، وأنا أرى دموعها، واحتقان وجهها، بأنّها تتألم، إلاّ أنّي لم أدرك شيئاً من تلك المشاعر التي كانت تملأ قلبها خوفاً من ذلك المجهول الملفع بالضباب... الذي لا شك أنّها لم تكن تدري كيف يمكن أن تشق معي طريقها فيه... واستسلمت لضغط ذراعها حولي وهي تضمني إلى صدرها، كأنّها تخاف أن تفقدني أنا أيضاً كما فقدت كل الذين ظلّت تردد دائماً أنّهم: "راحوا... كلهم راحوا...". كررت كلماتها:

- يا رب... يا رب... يا عزيز قول يا رب.

فأسرعت كمن تنبّه من غفوه أقول بصوت منكسر خفيض...

- يا رب... يا رب...

ولعلها المرة الأولى التي وجدت نفسي أختنق بالبكاء... فأبكي بحرقة، وأتطلع إلى وجهها وعينيها، ثمّ أردد:

- يا رب... يا رب.

كانت المشكلة التي تحسبت لها من جانبي هي فتح الباب... باب الزقاق إذا ما طرقه أحد... كانت العتمة في الدهليز شبه مستقرة لا تتغير، حتى إذا كانت الشمس تفترش أرض الديوان... الدادة عندها المفتاح... لا تطرق الباب... ولكن الباب يطرق فعلاً... سمعناه - أمّي وأنا - فتشبثت في مكاني إلى جانبها وذراعها لا يزال حول جسمي. ولكن عاد الباب يطرق بوضوح، وبأكثر شدة... أدركت أمّي أنّي أتخوف من الذهاب لفتحه... فنهضت، وأسرعت تضع على رأسها شرشف الصلاة... وقالت:

- هيّا قوم نروح نشوف الباب سوا... لا تخاف...

مشيت معها، وكان الباب مغلقاً... وقبل أن نصل إليه عاد الطارق، يطرقه مرة أخرى... يظهر أنّ أمّي كانت أكثر تحسباً وخوفاً مني... ولا أدري ما الذي جعلها تشعر بهذا الخوف... وإذا كان لا بد ليّ أن أعلل لذلك اليوم، وأنا أكتب هذه السطور، فليس من تعليل سوى أحداث "الساكن" والزاكور... وما أصاب الدادة منكشة، والإحساس الغامر بأنّي وإياها وحيدان... وحيدان تماماً في هذا العالم... وأمام المجهول الرهيب.

رفعت صوتاً خفيضاً تقول:

- مين؟

فأجابها صوت الرجل الذي دفع الجنيه "العسمنلي" ووعد أن يجيئها بالخمسة الباقية غداً... قال:

- بنت الشيخ أفندي موجودة؟

- أيوه يا عمّي... أنا فاطمة...

- يا بنتي... أنا قلت لك أجي في الضحى... أجيب لك الخمسة جنيهات... لكن حصل خير... اتأخرت... هيا خدي الخمسة جنيهات... وامضي لي السند...

- لكن يا عمّي... مسألة الشهود. دحّين ما نلتقي أحد.

- الشهود بكرة... ولاّ بعد بكرة... انت ما دام تمضي السند بخط يدك... ما في خوف هيّا من فضلك خدي الفلوس... وأنا ترى بسطت الدكانين خلاص... زي ما اتفقنا... مو كده؟

- إلاّ يا عمّي... ربنا يبارك لك...

- طيب هيّا إفتحي الباب... وخدي الفلوس.

وتقدمت أمّي خطوات قليلة، ودفعتني أمامها، وفتحت الباب مواربًا... وقالت للرجل:

- خلي الفلوس عندك يا عمّي... عشان أنا دحّين ما عندي قلم ولا دواية... وحتى المهر اللّي عندي... يبغاله حبر...

وهنا لم يسع الرجل إلاّ أن يقول:

- يابنتي، ما دام أنا بسطت الدكانين... ما يجوز إنّي ما أدفع الفلوس... خلاص من فضلك... استلمي الفلوس... وأنا أجي بكرة أجيب لك السند وتكوني انت حضّرتي القلم والحبر...

ومدّ الرجل يده من فجوة الباب... ودفعتني أمّي، وهي تقول:

- استلم من عمّك يا عزيز.

مددت يدي، وأخذ الرجل يضع فيها الجنيهات "العسمنلي" الخمسة واحداً بعد الآخر وهو يرفع صوته كلّما وضع واحداً قائلاً:

- واحد... اتنين... تلاتة...

وكان هذا أول تعامل مالي في حياتي... حادث أن أستلم... أو أن يضع رجل هذا المبلغ من الجنيهات "العسمنلي" الذهب في يدي... كان لون الذهب مغرياً بأن أتأمله... وسرعان ما تذكرت القنبلتين النحاسيتين اللتين حملتهما من حافة القلعة في حلب... تذكرت أنّي حملتهما لتبيعهما أمّي، كما باع جدّي لها إسوارة ذهبية بمبلغ من الريالات المجيدي بعد حادث السطو على منزلنا في حماه.

انتظر الرجل، إلى أن تناولت أمّي المبلغ من يدي، وسمعها تقول له:

- عشت يا عمّي... وبكره إن شاء الله... أحضر الدواية والقلم...

- وانت يا بنتي ما قصّرتي... ورحمة الله على الشيخ أفندي... في أمان الله.

- في أمان الله.

وقبل أن أغلق الباب... كانت خطوات الدادة منكشة، تقترب، ورآها الرجل، فضحك يقول لها بلغة تركية مكسّرة... ما يعني شيئاً من الترحيب...

سلالة الساكن والأشباح والكنز

دخلت الدادة، وهي تحمل هذه المرة في يدها زنبيلاً لاحظت أنّه جديد لم يسبق أن رأيته بين الأشياء القليلة التافهة التي كنت أراها في البيت... ومع أنّه كان من الواضح أنّها متعبة ومرهقة فقد كان وجهها يعبر عن رضا وارتياح، وربما عن رغبة في أن تعبر عن هذا الرضا...

إذ ما كدنا نعود إلى الديوان، وتضع هي الزنبيل على الأرض، حتى أسرعت تخرج من الزنبيل ما تسوقته من السوق الذي قالت إنّه عند "حوش الجمال"... أغذية ومأكولات كثيرة كان ما لفت نظري منها ذلك الرطب الأحمر، وليس مقاساً واحداً، بل مقاسان... كبير طول الواحدة منه طول الأصبع، وصغير لا يزيد طول الواحدة على عقلة الأصبع... وقد عرفت في ما بعد مع الأيام أنّ الكبير يسمى "الحلوة أو الشلبية" وأنّ الصغير يسمى "الحِلْية"... بل عرفت أنّ تمر "الحِليّة" هذه، يستهلك لشرب الشاي "الطَّلْخ"... أي غير المحلى بالسكر، كنوع من المزاج.

استعجلتُ أمّي، وأنا أتناول رطبة بعد أخرى، أن تصنع "الحيسة" التي قالت إنّها هي التي تصنعها... ولكنّها أسكتتني ضاحكة وهي تقول:

- ما أحد ياكل الحيسة، إلاّ في الليل أو في الصبح... دحّين نبغا نتغدى.

أخذت الدادة تعيد جمع الأشياء في الزنبيل، ثمّ مدّت يدها ببضع قطع النقد من النيكل.والنحاس، فهمت أنّها ما بقي من المَجيدي، كأنّها تطمئن أمّي على أنّ كل ما بقي من المجيدي هو هذه القطع... وقالت لها أمّي بالعربية هذه المرة:

- طيب... طيب... انت دحّين لكي عندي واحد مجيدي... وخلي الباقي دحّين بعدين نتحاسب.

ثمّ سألتها وهي تفتح صرّة أخرجتها - كالعادة - من صدرها وتبسط محتواها من الجنيهات العسمنلي التي جاء بها العم الذي استأجر الدكاكين.

- الجنيه يجيب كم مجيدي؟

وحملقت الدادة عينيها، بل رأيت هذين الحملاقين كأنّهما يدوران في كل اتجاه، وهي ترى هذه الجنيهات، ثمّ حكت بيدها السمراء طرف جبهتها الملفعة بغطاء رأسها وقالت كلمة واحدة فقط، أعرف أنا معناها وهي: "لا أعرف". ثمّ أخذت ترطن كلاماً كثيراً، قالت ليّ أمّي في ما بعد، أنّها حذرتهامن أن يرى أحد هذه الجنيهات الذهب، لأنّ الذين نهبوا البيوت بعد خروج فخري باشا من المدينة، كانوا يكسرون الدواليب والصناديق "السيسم" الكبيرة وحتى الحديد، بحثاً عن الذهب... بل إنّهم قتلوا أحد عبيد بيت الصافي، لأنّه قاومهم وهم يكسرون أحد الصناديق.

لا شك أنّ أمّي، كانت سعيدة جداً بأنّها أصبحت تملك هذه الجنيهات الستة بعد أن كانت لا تملك إلاّ ريالاً مجيدياً واحداً، لفترة طويلة امتدت طوال الرحلة من حلب، وحتى باب بيتنا في زقاق القفل... وبعد أن قضت بضع لحظات تقلب الجنيهات وتهزها في كفها، شرعت تعيد صرّها لتضعها - كالعادة في صدرها - ... وهنا استوقفتها الدادة، وأخذت تقول كلاماً طويلاً لم أفهم منه شيئاً، ولكنّي لاحظت أنّ أمّي كانت شديدة الاهتمام بما تسمع، فلم أملك إلاّ أن أسألها عمّا تقول، فاستمهلتني إلى أن تفرغ الدادة من كلامها ثمّ قالت:

- هادي دادتك بتقول يا عزيز، كلام يخوّف... بتقول، إنّو هادول الناس اللّي نهبوا البيوت برضهم بينهبوا... بيدخلوا البيوت اللّي أهلها ما رجعوا من الشام... بتقول إنّها سمعت من السوق... أنّهم قتلوا واحد رجال في المناخة... عشان صاح لمّا شافهم وقال: حرامية... حرامية...

أحسست أنّ أمّي قد داخلها الخوف هي أيضاً ولا شك أنّها خافت على الجنيهات الستة ثمّ علينا جميعاً من القتل... وكان أهم ما روّعها كما فهمت في ما بعد، أن يقتلوا رجلاً في المناخة... أي على مرأى ومسمع من الناس... والمناخة في المدينة المنوّرة ساحة كبيرة جداً تكون غاصّة بالناس، فكيف يمكن أن يقتلوا أحداً فيها، لأنّه صاح يقول: "الحرامية..."، رأيتها تلتفت إلى الدادة، ويدور بينهما حوار، أحسست بأنّه طويل وكنت أشعر بالجوع فقلت:

- يا فقَّم... انا جيعان...

والتفتت إليّ منفعلة وأشارت إلى الرطب أمامي وقالت:

- عندك الرطب... كل، ولا تهرج أبداً...

كان ذلك يعني أنّها تواجه أزمة جعلتها تنسى كل شيء عن الأكل، رغم أنّ الزنبيل مشحون بالمأكولات، ومنها الدقيق والسمن وحتى السكر والتمر الذي تصنع منه الحيسة. كانت الشمس قد استقرت صفراء شاحبة، على أطراف "الجلا"... وكأنّ أمّي قد لاحظتني وأنا أرفع رأسي وأرى الشمس... فرفعت هي أيضاً رأَسها، وقالت:

- فاتنا العصر. الشمس صفرت...

ثمّ نهضت مسرعة، ولحقت بها الدادة... ولكن قبل أن تدخلا الحنيَّة حيث زير الماء توقفت وقد ذكرت كل منهما "الساكن"... والعجيب أنّ الدادة التي كانت تدخل الحنيَّة، ترددت بل تراجعت، ثمّ ذهبت إلى "اللمبة"، أشعلتها، وحملتها في يدها، ودخلت بها الحنيَّة وهي تقرأ أو تردد "بسم الله... وأعوذ بالله... إلخ..."... دخلت الحنيَّة واللمبة المشتعلة في يدها... لكن أمّي لم تدخل وراءها... ظلّت واقفة عند المدخل... وعادت الدادة، تحمل في يدها الثانية إبريقاً من الفخار... ظلّت تسكب منه الماء وأمّي تتوضأ... ولأول مرة رأيت أمّي تقوم بسكب الماء على يدي الدادة وهي أيضاً تتوضأ... فهمت أنا، ليس فقط أنّهما تخافان دخول هذه الحنيَّة التي كان يكمن فيها ذلك "الساكن"، وإنّما أيضاً لا سبيل، لا إلى الحيسة الموعودة، ولا إلى غيرها، ما دامت كل أواني الطهو، في الحنيَّة، ولم يعد أحد يجرؤ على دخولها... ما هي إلاّ بضع دقائق، حتى ارتفع صوت المؤذن عن بعد... لا أدري ما الذي جعل أمّي تصغي إليه ثمّ تقول في ما يشبه الهمس:

- النجدي...

لم أفهم لحظتها شيئاً، ولكن في ما بعد فهمت، أنّ في المدينة المنوّرة... مجموعة من المؤذنين الذين يرفعون الأذان من مأذن المسجد النبوي الشريف في كل وقت من أوقات الصلاة الخمس... وأنّ لهم رئيساً هو الذي يرفع الآذان من منارة اسمها "الريّسية"، وهي المتميزة بشكل يختلف عن المآذن الأخرى... ومن هؤلاء المؤذنين ثلاثة عرفوا بأصواتهم الجميلة القوية. وكان معيار القوة في هذه الأصوات، أنّها كانت تسمع في "أبيار علي" وعلى الخصوص في أوقات الفجر، والعشاء... وعرفت مع

الأيام، أنّ جميع أهل المدينة يعرفون ويميزون صوت مؤذن ما عن أصوات الآخرين، فلا يكادون يسمعون الصوت، حتى ينصتون، ويقول أحدهم للآخر:

- حسين...

فإذا ارتفع صوت الآخر يقول المستمع:

- وهادا عبد الستار.

ويرتفع صوت المؤذن الثالث فيقول المستمع الآخر:

- وهاد النجدي.

كانوا يصفون صوت "النجدي" بأنّه "داوودي" وكثيرون يعجبهم ويرتاحون إليه، لأنّه صوت عريض يختلف عن صوت حسين بخاري، وزميله عبد الستار بخاري، ليس بجماله فقط، إذ كلّهم متميزون في المدينة كلّها بجمال أصواتهم، بل قيل أو يقال، إنّ المؤذن في مآذن الحرم النبوي الشريف، كان وظيفة أو "مقاماً" من وظائف الشرف، التي لا يكفي في الحصول عليها مجرد جمال الصوت أو قوته، بل هناك شروط أخرى من أهمها أن يكون من عائلة حسنة السمعة والمكانة، إضافة إلى حسن السيرة والسلوك... أمّا الموافقة على تعيينه في هذا المقام الكبير، فلا بد أن تصدر من الآستانة نفسها بعد سلسلة من الإجراءات تتم بمعرفة "شيخ الحرم" وقاضي المحكمة والأئمة والقراء.

بعد أن صلتا المغرب - الدادة وأمّي - دار بينهما حوار قصير لم أفهم منه شيئاً، ولكن رأيت الدادة، تعالج بُقْشة تضعها في أحد الأركان، ثمّ تخرج منها مصحفاً من القطع الكبير، ما كادت أمّي تتناوله منها، حتى أخذت تسألها أسئلة متتالية وبنبرة لم تخل من الحدّة... وفهمت في ما بعد، أنّه من الكتب الكثيرة التي تركها جدّي في "المآخر"، ولعل الأسئلة كانت تتركز عن الذين نهبوا كل ما كان في البيت من آثاث... هل نهبوا الكتب أيضاً؟؟؟ وماذا يصنعون بها؟؟؟ ثمّ إذا بالأسئلة تتطور، عن الدادة نفسها... هل كانت في البيت عندما دخله الذين نهبوه؟؟ هل دخلوه عنوة وبالقوة بعد أن كسروا الباب... أم أنّها هي التي فتحته لهم... ومتى كان ذلك...في الليل أم في النهار... وفي أي وقت من النهار... ثمّ كان السؤال الذي ما زلت ألمح فيه فطنة أمّي وذكاءها، وفي نفس الوقت عجز الدادة عن الإجابة المعقولة عليه... وهو: بعد كم من الأيام من خروج فخري باشا، جاء اللصوص الذين نهبوا البيت؟؟؟ وكم كان عدد هؤلاء اللصوص... وكيف؟؟ بأي وسيلة استطاعوا أن ينقلوا كل ذلك

الأثاث، وعلى الخصوص منه "الفرش"، وهو مكون من عدد كبير من الطواويل والمساند، والمتكآت، بل هناك الصناديق الكبيرة، المشحونة بالكثير والثقيل من الصيني والنحاس... ثمّ الخيام، والقدور الكبيرة والتباسي الضخمة إلخ.... إلخ.... بأي وسيلة نقلوا كل هذا.... وفي كم يوم؟؟ وأضافت وهي تحدثني في ما بعد عن تشكيكها في ما كانت تقوله الدادة.

- ما في أي عربية "فَرْش" يجرها الحصان أو الحمار، يمكن أن تدخل زقاق القفل.... وحتى إذا دخلت، فلا يمكن أن تستدير لتخرج... فكيف استطاع اللصوص أن ينقلوا كل شيء من دون أن يتركوا إلاّ ذلك المسند اليتيم؟؟؟

إنّي لأتساءل اليوم.... ترى ما الذي دار في ذهن أمّي وهي تلاحق منكشة بهذه الأسئلة؟؟؟ هل كانت تتهمها؟؟؟ ولكن بماذا؟؟؟ بأنّها هي التي سرقت كل هذا؟؟؟ ولكن كيف؟؟؟ وأين ذهبت به، وهي امرأة لا أهل لها. وما أكثر ما قالت أمّي أنّها "عندنا" منذ كانت أمّي طفلة... وبعد سنين طويلة جداً.... وكانت منكشة وقد ماتت، وأصبحت ذكرى بعيدة. كان التعليل الوحيد إمّا أنّها قد تواطأت مع اللصوص، ليس قبل خروج الباشا من المدينة، وإنّما في الأيام الأخيرة قبل خروجه... حيث ظلّوا ينقلون الأثاث على دفعات طوال أيام، ولكن من دون أن يلفتوا النظر أو أن يحس بهم أحد... وأنّهم قد دفعوا لها مبلغاً من المال اشتروا به سكوتها... وإمّا أنّها قد تواطأت مع اللصوص الذين انفلتوا ينهبون البيوت الخالية في المدينة، بعد خروج فخري باشا من المدينة... وكان دورها في التواطؤ - راضية أو مرغمة - أن تلتزم الصمت طوال أيام، كانوا ينقلون خلالها الأثاث والأمتعة على مهل. ولا بد أنّهم كافأوها على ذلك بشيء من المال.

ومع ذلك، وبعد مضي سنين طويلة، فإنّ أمّي، رغم شكوكها والظلّال القاتمة التي كانت تلقيها على ذكرى منكشة، فإنّها كانت تترحم عليها، وتنهي حكاياها عنها بأنّها قد ماتت في الرباط، فقيرة معدمة... فلو كان لها ضلع في النهب أو السرقة، لوجدوا عندها شيئاً من المال... وتختم الحديث عنها، وهي تقول:

- أستغفر الله العظيم من ذنبها... أستغفر الله...

***

كنت، بعد أن فرغنا من الصلاة، وذلك الحوار الحاد، بمناسبة المصحف من

القطع الكبير الذي قالت أمّي إنّه من الكتب التي تركها جدّي في "المآخر".... أنتظر أن نتناول عشاء ما. وبطبيعة الحال، استبعدت أي أمل في "الحيسة"، ما دامت الحنيَّة قد أصبحت منطقة مخيفة، رأيت الدادة نفسها أصبحت تتخوف من الدخول فيها... ولكن من مكاني بالقرب من مجلس أمّي التي انصرفت إلى القراءة التمست أن أرى تلك "المسرجة" التي تعلمت أنّ الدادة تستعين بضوئها وهي تدخل الحنيَّة اللعينة. كانت هناك، في مكانها من طرف الدّكة... ولم أفهم لما لا تقوم الدادة بإشعالها، وقدّرت أنّ الموقف، أو هو الجوع الذي أخذ إحساسي به يتزايد يستلزم أن أقول شيئاً، خصوصاً وأنّ الدادة كانت من جانبها تواجه القبلة، وفي يدها مسبحة تحرك حبّاتها ببطء وواحدة بعد الأخرى.... لم أملك إلاّ أن أرفع صوتي وأقول:

– يعني يا ففًم.... ما نبغا نتعشى....؟؟؟

كانت المفاجأة أنّها التفتت إليّ وفي ملامحها توتر وانفعال، لتقول:

– لا.... ما في عشا..... عندك الرطب.

– طيب، شوفي "المسرجة" هناك.... ليه ما تولعها الدادة، وتدخل تولع النار في الحنيَّة.

– يعني طلع لك لسان.... وصرت تعرف تهرج.... بأقول لك ما في عشا.... عندك الرطب.... وكان لها ما أرادت، التزمت الصمت.... واتجهت إلى الزنبيل، وأخذت أتناول حبّات من الرطب الكبير، واحدة بعدالأخرى، وفي ذهني، أنّ هناك شيئاً قد حدث، تصر أمّي على أن تخفيه عنّي.... وأنّ هذا الذي حدث له علاقة بهذه الحنيَّة اللعينة.... وقبل ذلك الكلام الطويل الذي ظلّت الدادة تقوله لأمّي خلال الحوار بعد ظهور المصحف الكبير.... لا بد أنّها قالت شيئاً جعل أمّي تعفيها من الدخول في الحنيَّة، حتى مع وجود تلك "المسرجة" أو حتى "اللمبة".

لكن لم يطل انتظاري، إذ رأيت أمّي تنهض، فتضع المصحف فوق الرف... ثمّ تشرع في ارتداء ملايتها... وتنهض الدادة معها... ترى إلى أين؟؟؟ والدنيا ليل... وعندما رفعت رأسي إلى "الجِلا"، لم يكن على حافته أثر للضوء... والتفتت أمّي إليّ وهي تقول:

– هيّا قوم... امشي..

– على فين يا ففًم... شوفي الدنيا ظلّام...

– بأقول لك امشي...

ومشيت معهما.... على ضوء اللمبة التي حملتها الدادة... وفتحنا الباب.. وخرجنا إلى الزقاق... وقفت أمّي لحظات قبل أن تخطو أي خطوة... كان الزقاق مظلّماً وزاد من ظلّامه أن هبّت ريح، أطفأت "اللمبة" التي تحملها الدادة... داخلني رعب ساحق... فالتمستُ يد أمّي التي سمعتها تقول للدادة:

- روحي دقي الباب.

ثمّ تردف هذه الجملة بكلام باللغة التركية لم أفهم منه شيئاً ولكنّه لم يخل من حدة وتوتر.. ومشت الدادة إلى الباب المقابل... باب بيت الخالة فاطمة جادة والعم محمد سعيد.. طرقته... مرة وثانية... لنسمع وقع خطوات "قبقاب" على الأرض الحجرية في الدهليز... وسمعنا صوت العم محمد سعيد يقول:

- مين هادا؟؟؟

وتقدمت أمّي من الباب وقالت:

- نحن يا عم محمد سعيد... فاطمة والولد والدادة منكشة...

لا شك أنّ الرجل كان يتوجس، وقد داخله خوف وشكوك... فتردد لحظات... ثمّ فتح الباب فتحة مواربة، وفي يده هو أيضاً "المسرجة" وهو يقول:

- خيرإن شاء الله؟؟؟ إيش بكم؟؟

- خلونا يا عم ندخل، وبعدين أقول لكم..

وباهتمام واضح، فتح الباب فتحة تتسع لدخولنا وهو يقول:

- أدخلوا يا بنتي.. بس عسى خير...؟؟؟

وما كدنا نجد أنفسنا في الدهليز، حتى أسرع العم محمد سعيد يغلق الباب، ويحكم إغلاقه بمزلاج من الحديد... وأخذ يتقدمنا، وقبل أن نخطو خطوات، سمعنا صوت الخالة فاطمة قادمة وهي تتساءل:

- مين اللّي جا؟؟؟

- هادي بنت الشيخ أفندي، وولدها ودادتها..

- عسى خير؟؟؟ عسى خير يا فاطمة يا بنتي؟؟؟

***

في ديوان هذا البيت الذي سبق أن رأيناه خلال الضجة التي صاحبت مجيء الشيخ

الزاكور لإخراج "الساكن من الحنيَّة"، جلسنا، في شبه حلقة، نصغي إلى أمّي وهي تروي ما سمعته من الدادة وما أرغمها على أن تترك البيت، وتلجأ إلى بيت الجيران.

وكانت الدادة منكشة جالسة، في ركن من الديوان، لا تقول شيئاً، ولكنّها تهزّ رأسها مؤكدة أنّ كل ما ترويه أمّي، عنها صحيح.

والقصة قصيرة، ولكنّها خطيرة، وخليقة بأن تخلع قلب امرأة شابة وطفلها الصغير في بيت، هو بيتها من دون شك، وقد ولدت فيه هي وأختها وأخوها عمر... ولكن ما تقول الدادة أنّه واقع، وتهز رأسها، مؤكدةً أنّه حقيقة، شيء آخر... لا بد أنّه قد طرأ أثناء غياب أهل البيت عنه...

خلاصة القصة... إضافة إلى حكاية "الساكن" الذي رأينا أنّ الشيخ "الزاكور" قد أخرجه وحمله معه... أنّ للساكن سلالة كبيرة من الأبناء، وأنّهم منتشرون في البيت... قالت الدادة، إنّها رأتهم، في المجالس العلوية... وفي المؤخرات.. وحتى في الدهليز وإنّها سمعت، - لم تقل ممن - أنّ هذه السلالة، لا بد أن تخرج، ما دام الساكن نفسه قد غادر البيت.

ليس هذا كل ما في الأمر فقد أضافت الدادة ـ فيما روته أمّي عنها ـ أنّها كثيراً ما رأت في البيت، أشباحاً... مشايخ، يلبسون ثياباً بيضاً وخضراً، ولهم لحى طويلة بيض تصل إلى "الصُّرَّة"... ولكنّهم لا يكادون يظهرون حتى يختفوا... ثمّ هناك تلك الرؤيا التي رأتها أكثر من مرة... وهي ذلك العجوز، الذي مشى أمامها، وأدخلها الحنيَّة ووقف بها على حجر في الأرض... وقال لها: " تحت هذا الحجر... كنز... كنز..."... ولكن لا يفتح إلّا على دم...

كان فك كل من العم محمد سعيد والخالة فاطمة، قد سقط دهشةً وذهولاً وخوفاً... أمّا أنا فقد عصر قلبي الخوف... والجوع... ومع ذلك غلبني النعاس...

***

تحت هذا الحجر كنز..
كنز.. ولكن لا يفتح إلاّ على الدم

لأول مرة منذ أيامنا في حلب، وعلى التحديد منذ تلك الأيام التي عشناها في قصر الكيخيا، ثمّ في رعاية لتافت باجي، في المنزل الذي استأجره جدّي منها، وشهد رحيل خالتي خديجة ثمّ رحيل ذلك الجد الحبيب... لأول مرة منذ تلك الأيام، أستيقظ في الفجر لأرى نفسي إلى جانب أمّي على فراش نظيف وثير... أجل، فإنّنا بعد سقوط حلب وخروج الأتراك منها، وبعد أن ظلّت أمّي تبيع كلِ ما يمكن أن يباع من النفايات أو التفاهات الصغيرة... لم يبق لنا ما ننامِ عليه صيفاً وشتاءً سوى ذلك اللحاف، والوسادتين الصغيرتين وبقشة تجمع عدداً محدوداً جداً من الملابس المهترئة التي أذكر اليوم، كم كانت أمّي بارعة، في العناية بها، تنظيفاً ورتقاً، و"تمسيداً" بحيث تبدو لائقة بالمظهر الكريم الذي كانت تحرص عليه ليس فقط بالنسبة لها، وهي في أوائل العشرينات من عمرها، وإنّما بالنسبة لي أنا، إذ كنت أشعر أنّها ترمقني في أسمالي البالية وحذائي الممزّق، بنظراتها المحتقنة الحائرة. وفي ذهنها أنّي مخلوق تعس الحظ، قالت إنّها لا تدري، كيف قدّر لي أن أجيء إلى الدنيا مع هذه الحرب، وكيف تركني أبي رضيعاً في حضنها ولم يعد، ثمّ انقطعت أخباره منذ قيل إنّها "الحرب" أو هي "السفر برلك" كما كان يسميها الناس في تلك الأيام... بل كيف مات المئات والألوف من الناس في الشام وحلب، جياعاً أو ضحايا حمى التيفوس، بل مات كل من خرج من الأسرة معنا في "البابور"، ونجوت أنا، حتى من مغامرة حمل القنبلتين من حافة القلعة بفكرة أنّهما الذهب الذي يباع، فتشتري أمّي بالثمن ما نحتاج إليه من الغذاء... وقد كان الغذاء... والغذاء وحده هو كل شيء... قالت كلاماً كهذا أكثر من مرة، ثمّ - رغم كل ذلك - ترفع كفيها وتردد: "الحمدلله"... ولا شك أنّها كانت تحمده سبحانه على أن بقي لها هذا المخلوق التعس.

كان الفراش النظيف الوثير الذي وجدت نفسي إلى جانبها عليه، في دكّة ديوان الخالة فاطمة جادة، والعم محمد سعيد... كانت أمّي مستغرقة في نوم عميق، عندما أخذت أتأمل ما حولي، رأيت هناك، على أرض الديوان، وعلى طوّالة، الدادة منكشة، مستغرقة هي أيضاً في نوم عميق جداً، بحيث كان شخيرها المرتفع المزعج يؤكد أنّها لا تشعر بشيء... وتذكرت وأنا أراها كل ما قالت ليّ أنّها سمعته منها... عن سلالة الساكن، والأشباح، وذلك العجوز، والكنز... كانوا جميعاً يصغون إلى أمّي وهي تروي ما سمعت... من جانبي، لم أكن في السن التي تدرك شيئاً، مما أسمع... ولكن حين رأيتهم خائفين، داخلني الفزع، ومع الفزع أخذت تتكون في ذهني صور للساكن... الذي رأيته يتحرك في ذلك الكيس في يد الزاكور.. إنّه قطعاً مخلوق يتحرك، ولكن أي نوع من المخلوقات... لم أدرك أنّه ثعبان إلاّ بعد سنين... أمّا سلالته فما معنى "سلالة" هذه؟؟؟ قالولي إنّهم أبناء وزوجات الثعبان قالت الدادة إنّها رأتهم بعيني رأسها في المجالس والمؤخرات... ولا تنتهي الصور التي ظلّت تتكون في ذهني للأشباح وللعجوز... ثمّ للكنز... الذي لا يفتح إلاّ على الدم.

كان ضوء النهار قد أخذ يملأ الديوان، ومع ذلك أدهشني أنّ أمّي والدادة ظلّتا على غير عادتهما. نائمتين... ومع ضوء النهار لم يبق في نفسي شيء من الرعب، وأحسست كأنّ أحشائي تتمزق... كنت جائعاً، كما لم أجع قط في حياتي... جلست في الفراش... وتأملت وجه أمّي ولا أدري لما تهيّبت أن أوقظها... كأنّي أشفقت عليها، فقد كان وجهها ضامراً ممصوصاً كما كان لونها أقرب إلى الصفرة والشحوب... واليوم - أعني وأنا أكتب هذه السطور - أدرك أنّ ذلك اليوم أو تلك اللحظات، وهي مستغرقة في النوم، وأنا أتأمل وجهها الحزين، كان البداية الحقيقة الأولى لمشاعر التعاطف والأسى تملأ القلب، فتشغله عن الأحشاء التي يكاد يمزّقها الجوع... لم أجرؤ أن أناديها كالعادة ففَّم، وهي الكلمة التي أعني بها، أو تعودت منذ بدأت النطق أن أعني بها اسمها: "فاطمة"... كان كل من في البيت، جدّي وخالتي وأخرون، ينادونها فاطمة... وإذ لم أستطع نطق الاسم كما ينطقونه، فقد درجت أن أناديها ففَّم... والمضحك بعد ذلك، أنّي ظلّلت ردحاً طويلاً من العمر، بل إلى أن بلغت مرحلة الشباب، أناديها "ففَّم" فقط.. وربّما كان السبب، هو أنّي لم أكن أشعر بفارق السن بيني وبينها... كانت تكبرني بست عشرة سنة فقط، فهي لا تختلف عن الصبايا، بنات الجيران اللائي كنت أراهن يجلسن معها يواسينها بعد موت جدّي في

حلب.. فلمّا بلغت مرحلة الشباب، في مكة، بعد سنين، كانت تبدو هي فتاة شابّة، لم أر ما يحملني على أن أغير شيئاً من سلوكي العفوي معها... ظلّت هي "ففَّم" وظللت أنا "الولد" لا أكثر ولا أقل...

سمعت وراء باب الديوان وقع خطوات حذرة - أو هكذا ظننت - ولكن بالقبقاب، وسرعان ما انقطع شخير الدادة، فقد أيقظها صوت طرقعة القبقاب على حجر الدهليز... فتحت عينين بدتا وراء جفنيها الأسمرين محمرتين إلى حد مخيف.. دارت بحملاقيها حولها.. ورأتني جالساً، فأسرعت تجلس هي أيضاً... ثمّ نهضت وشرعت تحكم لف الغطاء الذي اعتادت أن تسدله على رأسها... وفي خطوات ثقيلة اتجهت نحو الباب... ويبدو أنّ أمّي قد سمعت هي أيضاً صوت طرقعة القبقاب، وحركة الدادة، فاستيقظت، والتفتت إليّ في مكاني، وقبل أن تنهض وتجلس لفت حولي ذراعها وضمتني إلى صدرها... وهي تقول:

- أنت جيعان... مو كده؟؟؟

لم أجبها بشيء... ولكن ما أشد ما أحسست بالدعة والأمان، في استسلامي لاحتضانها وذراعها حول جسمي الصغير... رفعت وجهي أتأمل محياها، لأسمعها تقول:

- ما عليه... دحّين نفطر...

كنت جائعاً أشد الجوع فعلاً، ولكن مشاعر التعاطف معها كانت اليوم أقوى من الجوع. رفعت يدي، وأخذت أمرر كفي على وجهها... يبدو أنّها كانت المرة الأولى التي أمارس فيها هذه الحركة... فإذا بها تحتضنني بذراعيها معاً، وتشدّني إلى صدرها، وحين رفعت وجهي مرة أخرى أتأملها رأيت عينيها دامعتين... ولم تقل شيئاً... تركتني ونهضت مسرعة وأخذت يدي في يدها واتجهنا معاً إلى "بيت الماء" كما كانوا يسمون "الحمّام" في تلك الأيام...

***

كانت وجبة الفطور التي قدّمتها الخالة فاطمة، وجبة شهية، منها "الشريك أبو السمسم" الذي قالت الخالة إنّهم لم يأكلوه إلاّ في ذلك الصباح... وأضافت أنّ السوق عند "باب السلام"، عاد كما كان... فيه هذا الشريك، و"العيش الصامولي"، وفيه أيضاً الفول و"الجبنة الزقزق"، والزيتون، ولكن المطبّق والهريسة، لا يجدهما

العم محمد سعيد إلاّ في "باب المصري"... ومع الشريك أبو السمسم، كانت "الجبنة الزقزق" وأكواب الشاي الكبيرة التي تحمد الله على أنّها وجدتها سليمة، لأنّ اللصوص لم ينهبوا بيتها، كما نهبوا بيتنا وغيره من البيوت... وعلى المائدة التي تحلقنا حولها، عاد الحديث عن سلالة الساكن وبقية قصص الرعب، التي اضطرتنا إلى مغادرة بيتنا في الليل، واللجوء إلى بيت الخالة فاطمة...

كانت الخالة فاطمة تؤكد من جانبها، أنّ الكلام الذي قالته منكشة لا بد أن يكون هو الواقع، وزادت على ذلك قصصاً لا أول لها ولا آخر، عن الأشباح، وسلالات الساكن، في جميع البيوت القديمة، مثل بيتها وبيتنا... بل وفي البيوت التي في هذا الزقاق... وأضافت أنّها ورثت هذا البيت من أبيها "رحمة الله عليه" وهو بدوره ورثه من أبيه... فعمره لا يقل عن مائة وخمسين سنة... ومع أنّ العم محمد سعيد، بعد أن تزوجته - قد فكر في بيعه وشراء أحد البيوت الجديدة، في "باب المجيدي"، أو في "العنبرية"... ولكنّها رفضت... وهنا أدارت بصرها في ما حولها وهي تقول في صوت هامس ونبرة حذرة:

- تدري ليه يا فاطمة يا بنتي؟؟

- ليه يا خالة؟؟؟

- علشان فيه، كنز... زي الكنز اللّي بتقول منكشة إنّو شافت في النوم الرّجال اللّي قال لها عليه.

- طيب يا خالة... لكن.. ليه ما ندرتو الكنز... وليه نحن كمان ما نحفر، وننذر الكنز اللّي في بيتنا؟؟؟

- ما هو بيقولو، إنّو ما ينفتح إلاّ على دم.

- يعني إيه؟؟

- يوه... يعني إنتي ما سمعتي من الشيخ أفندي عن الدم اللّي بيفتحوا به الكنوز؟؟؟

- لا يا خالة.. عمري ما سمعت منّو، ولا من غيره.

- الدم يا فاطمة.. دبيحة..

- دبيحة؟؟؟ طيب يا خالة انا عندي فلوس.. أجّرت الدكانين اللّي في زقاق الزرندي.. نقدر نشتري بها الدبايح، وندبحها..

– لا يا فاطمة.. الدبيحة، ما هي طلي.. ولا بقرة.. ولا تور.. الدبيحة..

– إيه هيّه يا خالة؟؟

– الدبيحة اللّي ينفتح عليها الكنز جارية.. أو عبد.. أسود..

ورأيت كيف اربدَّ وجه أمّي وتغيرت نظراتها، وأخذت تتلفّت هنا وهناك، خائفة مرعوبة.. وأخذت الخالة فاطمة تقول:

– وما أكذب عليكي... من زمان... قبل ما أجيب استيتك بدرية... اشتريت جارية وانتفضت أمّي مرتعبة وهي تقول في صوت مبحوح:

– عشان؟؟؟

– أيوه.. بس لا تقولي لأحد... أيوه عشان أندّر الكنز..

– يعني كنتي رايحة تدبحيها يا خالة؟؟؟

– ما أقدر أدبحها بنفسي... وعشان كده اشتريت واحد عبد قلت هو اللّي أخليه يدبحها.

وعادت أمّي تتلفت حولها، في رعب واضح.. وكنت أجلس إلى جانبها فرأيتها تنظر إليّ ثمّ تشدني إليها وهي تقول:

– طيب.. وبعدين يا خالة؟؟

– عمّك محمد سعيد.

– إيش بو؟؟

– ما كان يدري عن الكنز.. وكمان ما كان يدري أنّي اشتريت الجارية، اللّي ما قدرت أدبحها عشان الكنز... لكن لمّا اشتريت العبد فهم أنّي ناوية على شي... ظنّ أنّي أبغا أعتق الجارية والعبد لوجه الله... وبدأ يقول لي:

– يجوز لك تواب كبير... وفضل ينق عليّ، وفضلت أنا محتارة كيف أسوّي.. وفي يوم من الأيام، كان عمّك محمد سعيد مسافر... ناديت العبد... كان غشيم ما يعرف عربي... لكن قدرت أفهّمه أنّي أبغاه يدبح الجارية في دكّة القاعة...

– وبعدين يا خالة؟؟

– العبد خاف... رمى الساطور من يده... وراح يجري... شرد من البيت... ولمّا جا عمّك محمد سعيد من السفر... هوه اللّي عرف يجيبه.. وسمع منه الحكاية..

وتدري إيش اللّي صار بعد كده؟؟

- إيش اللّي صار يا خالة؟؟؟

- عمّك محمد سعيد اشترى منّي الجارية وهيه هادي دادتك حسينة.. وخلاني بعت العبد على القازاق اللّي يجو عند أبوكي الشيخ أفندي في أيام الحج... وبعدين تدري إيش سوّا كمان؟؟

- إيش سوّا يا خالة.

- رمى عليّ يمين الطلاق بالتلاتة، إذا رجعت أفكر في الدم إللي أندّر به الكنز.

بعد أن سمعت أمّي هذه القصص المرعبة، قررت، ألا تعود إلى سكن بيتنا في زقاق القفل... وخرجنا هي وأنا... إلى سوق "جوّه المدينة" لتشتري ليّ "الكندرة اللمّاعة"... وبمرورنا على العم صادق، في رأس الزقاق... قالت له كل شيء... وعرض عليها مرة أخرى أن ننتقل إلى بيته مع بنتيه... ولأول مرة سمعت أمّي تعلن موافقتها على الفكرة إلى أن نجد البيت الذي ننتقل إليه.

***

الكندرة اللمّاعة..
و"مغازة" شاهبندر التجار

ولم نطل الوقوف أو الحديث مع العم صادق.. أعلنت أمّي موافقتها. ثمّ تناولت يدي في يدها كما هي عادتها، واتجهنا نمشي في الشارع الرئيسي، نحو الطريق الذي ينتهي بنا إلى "سوق الخضرة" ثمّ إلى برحة "باب السلام" الواسعة حيث يواجهنا ما كان يسمى "مستشفى الغرباء" ومنه إلى "جوّه المدينة".

وفي سوق الخضرة استوقفتها أنواع الخضار المعروضة، ومنها علب خشب صغيرة ممتلئة بأنواع من الرطب، وأكوام من "الورد"، وأكوام أخرى من حزم النعناع المديني، والمغربي وتلك النبتة العطرية التي تعلمت في ما بعد أنّ اسمها "الدوش"، يعطر بها الشاي كما يعطر بأوراق الورد والنعناع.

استوقفتها المعروضات، فكانت تقف، تسأل عن سعر هذه أو تلك منها، وتلتفت إليّ أحياناً تخبرني، اسم كل منها، وهي تقول:

- لمّا أرسلك، تشتري... لا تنسى... هادي "الدبة المديني"... وهادي "الكرمب".. وهادا ورق العنب.. وكمان هادا الورد... وهادا "الدوش".. وهادي الفاصولية... إلخ..

لم تشتر شيئاً، والذين كانت تسألهم، لم تضايقهم الأسئلة، وحين تلتفت إليّ وتعلمني أسماء ما سوف ترسلني لشرائه كان بعضهم يبتسم ويقول:

- لمّا ترسلك، إصحا تروح لغيري... تعال... وأنا أعطيك اللّي تبغاه...بس لا تنسى الزنبيل...

ثمّ يضحك... ويرفع صوته منادياً أو معلناً عن معروضاته... وقد يلتفت إلى جاره وهو يقول:

- ربك كريم... بيقولوا، خلاص كل الناس اللّي سفّرهم فخري جيين في الطريق... ربك كريم..

ومرة أخرى تناولت أمّي يدي في يدها، ومشينا... كانت ساحة "باب السلام" رحبة مترامية أو هكذا رأيتها بالنسبة لذلك الضيق في زقاق القفل أو حتى في سوق الخضرة... وإذا لم تخني الذاكرة اليوم، فكأنّي سمعت أنّ "فخري باشا" أو غيره من الولاة الأتراك، وهو الذي أزاح الكثير من المباني في المنطقة، وهو الذي فتح ما ظلّ يسمّى "شارع العينية" الموازي "لجوه المدينة" وهو شارع قصير، ولكنّه أجمل تنسيقاً من الشوارع أو الأزقة الأخرى في تلك الأيام... يتقابل فيه صفان من الدكاكين، يفصل بينها وبين أرض الشارع المفروش بالحجر الأسود، رصيف مفروش هو أيضاً بهذا الحجر الذي يسهل تنظيفه بحيث يبدو جميلاً، خصوصاً وأنّهم سقوف بسقف يرتكز على عقود وأعمدة تتلاحق على الصفين من أول الشارع إلى آخره. كانت هذه المشاهد، والناس يمشون هنا وهناك، تستوقفني، ولكن سرعان ما تسحبني أمّي... وهي تؤنبني قائلة:

- لا توقف... ولا تفك يدّك من يدي... بعدين تضيع..

لم أكن افهم كيف "أضيع"... ولكنّي أدرك أنّ الضياع مسألة مخيفة جداً بالنسبة لأمّي لأنّها الإنذار الذي تعودت أن أسمعه منها، منذ كنّا نمشي في حلب، أو في غيرها بعد وفاة جدّي... وكانت الكلمة تترافق دائماً بشدة لا تخلو من عنف وحدة... فأجد نفسي أمشي وفي ذهني هذا الخوف من "الضياع"... واليوم، وبعد التسيار المتواصل في دروب العمر، ومع الكثير من المتاهات، التي ما أكثر ما عانيت فيها من الضياع، والتخبّط، والتعثر والخوض في الرمال المتحركة والوحول... أذكر تحذيرها من "الضياع" وأتساءل: ترى أي قصة تشرد وضياع كان يمكن أن أعيشها أنا أو تعيشها هي أيضاً، إذا "ضعت" ولم تجدني بين المئات والألوف من الناس الذين ضاعوا في دروب تلك الحرب، أو في المقابر الجماعية التي كانت تشق لهم، في دمشق، وحماه وحلب، من أراضي الشام.

وانتهينا بعد قليل، إلى مدخل ذلك السوق، الذي ظلّ يسمى "جوه المدينة"... ووجدت أمّي تقف فجأة، وهي تقول:

- العم عثمان... تعال نشوفه...

- مين عم عثمان؟؟؟

لكن قبل أن أسمع منها شيئاً رأيت الرجل الذي استأجر الدكاكين في "زقاق

الزرندي"... كان واقفاً في داخل الدكان، إلى جانبه شاب، يناوله صفائح وعلباً وأكياساً.. يقوم العم عثمان بوضعها على الأرفف الخشب في الدكان. ووقفنا عند الدكان المفتوح، والآخر بجانبه موارب الباب، وحين التفت ورآني، أدرك أنّ التي تقف في ملاءتها هي أمّي فوجّه إليها الكلام يقول:

- الدواية والحبر عندي... هيّا ربنا جابك عشان تمضي لي السند... بس أبغا أقول لك إنّك ضحكتي عليّه.. أنا ما دريت إنّو الأجّرة نزلت عن أول... كل أصحابي قالوا إنّك غلبتيني.

- انت ياعم عثمان، انت اللّي قلت الأجرة للدكان الواحد تلاتة عسمنلي.

وهنا ضحك العم عثمان ضحكة خفيفة وهو يقول:

- يعني تبغي تقولي إنّي ضحكت على نفسي... ولكي حق... لكن انت تستاهلي كل خير، أصلو الشيخ أفندي كان - الله يرحمه - رجّال طيب وكريم... يا ما.. يا ما نفعنا من جماعته القازاق والتركمان... كان هوّه اللّي يستأجر لهم بيتي... شوفيه في آخر الزقاق... تدري بكم؟؟؟ كل نفر بستة جنيه مسكوفي... وهادا غير العبيد والجوار اللّي كانو يشتروهم.. أنا كنت أجيبهم من "الدّكة"... وبعدما يدفعوا القيمة... كان هوّه بنفسه - الله يتغشاه بالرحمة - يكتب ورقة عتاقتهم لوجه الله... وخدمتي أنا كانت عن كل راس عشرة مسكوفي للعبد... وسبعة للجارية...

لم أكن أفهم أي شيء ممّا يتحدث عنه العم عثمان... ولكن يبدو أنّه قد طاب لأمّي أن تصغي إلى هذا الكلام... ومد يده إلى أحد الأرفف الخشب، وقدّم دواة من الطراز التقليدي مصنوعة من النحاس أو "الصفر"... ذات رأس، فيه الدواة، وقد ألصقت به علبة مستطيلة فيها الأقلام "البوص". أخرج أحد الأقلام.. وفتح غطاء الدواة... وقدم القلم، وأخرج السند الذي كان المفروض أن توقعه أمّي، أو تختمه بختمها لتنعقد إجارة الدكاكين. لأول مرة رأيت أمّي تمسك القلم، وتكتب ما لا بد أنّه كان اسمها... ثمّ بعد أن وقّعت تناولت الورقة في يدها وأزاحت طرفاً من "البشاية" عن وجهها، وأخذت تتأملها ليقول العم عثمان:

- أيوه... لكي حق يا بنتي... وما شاء الله تبارك الله... لكي حق تقري الكلام المكتوب ولاّ تبغيني أقراه أنا؟؟؟

- لا يا عم عثمان... أنا قريته خلاص... ربّنا يبارك لك.

– طيب... يعني ما تبغي تشتري شي... شوفي أنا عندي صابون نابلسي... ما تلتقيه إلاّ عندي وفي الدكان التاني عندي أقمشة... عندي قرمسود يصلح للولد... و...

قطعت أمّي عليه اندفاعه في عرض ما عنده... وهي تقول:

– إرجع أجي يا عم عثمان... بس دحّين أنا رايحة أشتري للولد "كندرة"... بس ما أدري فين التقي... كندرة لمّاعة على قد رجله.

وضحك العم عثمان ضحكته الخفيفة وهو يقول:

– عليكي، وعلى المغازة اللّي فتحها – ما شاء الله تبارك الله – عمّك اسماعيل أفندي.

– اسماعيل أفندي؟؟؟

– أيوه يا بنتي... إنتي ما تعرفيه؟؟؟ هادا من جماعتكم... كازانلي... قبل سفر برلك فتح هادي المغازي... وما أدري فين سافر لمّا فخري سفّر الناس... وشوفيه رجع قبل تلاتة أشهر... وما أدري فين كان مخزّن البضايع؟؟؟ يقولوا.. والله أعلم إنّو خلاها في المغازة لكن الباشا بنفسه كان صاحبه... وعشان كده.. لمّا جا يسلم المدينة سلّم المغازة بالبضايع اللّي فيها للباشا العربي اللّي ولاه الشريف..

وعشان كده لمّا رجع من السفر... بعدما خرج فخري... وجد كل شي... كل بضايعه زي ما هيه... وكمان، زاد عليها البضايع اللّي جابها معاه، من الشام... ويقولوا كمان إنّو حملها على أكثر من عشرين جمل... وماجا من ينبع زيّنا نحنا... هادا جابها من جدة...

أحسست أنّ أمّي قد بدأت تتململ... تريد أن تنهي الحديث.. فقالت:

– طيب يا عم عثمان... ربنا يبارك لك... أنا أرجع أجي وأشتري منك اللّي أحتاج إليه.

وأخذت يدي في يدها وبدأنا نمشي في هذا السوق المسقوف أو "المصندق" الذي ظلّ يعرف إلى فترة قريبة باسم "جوّه المدينة"... وكان واضحاً أنّ أمّي تعرف السوق معرفة جيدة.. ولكنّها – ونحن نمشي معًا – لم تنقطع عن ترديد "لا حول ولا قوة إلاّ بالله..." و"ورحمة الله عليهم..."... وفهمت في ما بعد، أنّها كانت تتحسّر وتتفجّع لظاهرة الدكاكين الكثيرة المغلقة... أو المفتوحة، ولكن خالية من البضائع

أو التجار... كانت تترحم على أصحابها الذين تعتقد أنّهم من الذين ماتوا في أراضي الشام... ولم يكن موقع "المغازة" التي تحدث عنها العم عثمان بعيداً... إذ لم تكن إلاّ خطوات قصيرة، حتى رأيت أمّي تستدير وتدخل محلاً كبيراً... ذكرني أنا بتلك المحلات التجارية الكبيرة التي كنا نراها في حلب... أو قبلها في دمشق... أدركت أنّه هو ما سماه العم عثمان "مغازة"...

يدي في يدها أخذنا نتقدم خطواتٍ في المحل ليقف أمامنا شاب.. يعترض طريقنا وهو يقول في عربية مكسّرة:

- إيش تبغي؟؟

أدركت أمّي أنّه تركي... فأخذت تحدثه بالتركية، ولكنّه بدلاً من أن يهش أو يبتسم مثلاً... سمعته أنا يقول:

- الله كريم..الله كريم.

ما كادت أمّي تسمعه حتى انتفضت، واندفعت تتحدث إليه بصوت مرتفع، وفي كثير من الحدة والتوتر، وباللغة التركية، التي فهمت منها أنّه "قليل أدب"... و"حمار"... وفجأة ظهر مسرعاً رجل قصير، يضع على رأسه العمامة "المدنية"، وفي ثوب أنيق. محزوم من الخصر كما هي هيئة أعيان المدينة في تلك الأيام.... واقترب من موقفنا، والتفت إلى الشاب، وانتهره بحدة ثمّ، أخذ يتحدث إلى أمّي باللغة التركية... وما كاد يفهم منها أنّها "بنت أحمد صفا" حتى ضرب كفّاً بكف... وأخذ يردِّد الدعاء بالرحمة والغفران... بل رفع كفيه وأخذ يقرأ الفاتحة... وتقدم أمّي.. إلى حيث كان هناك عدد من المقاعد الصغيرة ورجاها أن نجلس.

جلسنا على المقعدين، ووقف الرجل الذي عرفت في ما بعد أنّه صاحب هذه "المغازة" وهي كلمة تركية تعني المعرض الكبير لنوع السلعة التي يبيعها، والأرجح أنّها مأخوذة من اللغة الفرنسية أو الإنكليزية "ماغزين".. ومع أنّه كان يبذل جهداً كبيراً للاعتذار عن خطأ العامل الذي سمعنا منه عبارة الطرد المألوفة التي تقال للمتسولين، فإنّ دموع أمّي وهي تنهمر من عينيها لم تكف بحيث بللت "البيشة"... ولا أزال أذكر حتى اليوم كيف ظلّت سنين طويلة تتذكر ذلك الموقف... وتبكي... وكان منطقها أنّ ذلك العامل السخيف عاملنا كمتسوّلين... وقالت إنّ السبب هو ذلك الحذاء الممزق... والثياب التي كنت أرتديها ولم تشتر لي غيرها حتى ذلك اليوم.

بلغ من عناية واهتمام "العم اسماعيل" - وهذا اسم صاحب هذه المغازة - أنّه جعل يطلب أنواعًا من أحذية الصغار، وينحني عليّ ملاطفاً لأجرب الواحد تلو الآخر... وكانت المشكلة، التي لم تحل هي "اللمّاع" لأنّ الأحذية الموجودة عنده لم تكن من النوع اللمّاع الذي وعدتني أمّي أن تشتريه لي.

أخيراً... وبعد أن اقتنعت بأنّ نوع الأحذية "اللمّاع" هذا غير موجود في المدينة هذه الأيام اختارت... أو اختار العم اسماعيل، زوجين من الأحذية لا واحداً... أحدهما أسود بالغ الأناقة... والآخر "بني" مزخرف... ومع الأحذية عدد من الجوارب، تعلمت يومها أنّها تقاس بقبضة اليد... كل جوز يحيط بقبضة اليد من دون زيادة أو نقصان، لا بد أن يوافق مقاس القدم... وقبل أن تخرج أمّي نقودها... قال العم اسماعيل أنّ عنده "بدلة" هي الوحيدة التي على مقاسي تماماً... وأخرجها من علبة... ونشرها أمام عينيّ أمّي... وهو يقول "بحّار"... أو "بحّاري"... أحسست بأنّ أمّي قد فرحت بها... وقبل أن تفكر في قياسها قال العم اسماعيل:

- خذيها... وجربيها في البيت.. وإذا لم تعجبك، تعيدينها في أي وقت...

- لكن.. يا عم اسماعيل... أنا أبغا له.. ثياب.. وسراويل، وفنايل...

وسرعان ما تجمعت أمامنا على المنضدة، أصناف كثيرة من السراويل والفنايل.. اختارت منها أمّي ستاً من كل صنف... أمّا الثياب.. فقد جاءها بـ"البَفْته".. و"اللاس" و"القَرمْسود"... والأخيران أغلى أنواع أقمشة الرجال في تلك الأيام.. وقبل أن تقرر أمّي شيئاً، أخذني العم اسماعيل في يده... ودخل بي وراء فترينة العرض.. ونادى رجلاً عجوزاً.. وراطنه أن يأخذ مقاساً لثوبي... وفهمنا أنّ "المغازة" مستعدة لبيع الأقمشة.. وأنّ الخياط يفصّلها، ويخيطها في أقل من يومين..

لم تسأل أمّي عن المبلغ المطلوب، بل أخرجت من صدرها صرّة الجنيهات "العسمنلي" وفكتها، وقدمتها كلها في يدها إلى العم اسماعيل. ظلّ يقول كلاماً أدركت أنّه مجاملة أو أنّه يقدم كل ما أخذته أمّي هدية... ولكن ظلّت يد أمّي ممدودة بالجنيهات.. وأخيراً تناول جنيهاً واحد فقط... ونادى ذلك العامل السخيف... ناوله الجنيه... ليقوم بصرفه. والعجيب بعد ذلك... أنّ أمّي قد أخذت بقية الجنيه، كمية كبيرة من قطع النقد الفضة والنيكل.. ممّا جعلها تلتمس منديلاً تصرّها فيه... فقدم لها العم اسماعيل حقيبة صغيرة من الجلد لونها أسود... قال إنّها "هدية" لتضع فيها النقود.

كانت رزمة المشتريات كبيرة، بحيث بدا أنّ أمّي استصعبت المشي في "جوّه المدينة" وهي تحملها... ولكنّها لم تكن تملك أي وسيلة أخرى فحملتها، وأخذنا نعود... ولكن إلى أين؟؟

كان قرارها ألا نعود للسكن في بيتنا في زقاق القفل... وكانت قد وعدت العم صادق أن ننتقل إلى بيته، مع ابنتيه أمونة وأم السعد... ولكن عندما وقفنا عند دكانه سمعتها تقول:

- يا عم صادق... أنا والولد، ودادة منكشة رايحين، نفضل في بيتنا... وفي الليل ننام في بيت العم محمد سعيد... الين نلتقي بيت في باب المجيدي.. بيقولوا البيوت هناك ما فيها لا ساكن... ولا هادي الأشياء اللّي تخوّف.

- طيب يا بنتي... على راحتك... برضه هادا أحسن... وعمّك محمد سعيد وخالتك فاطمة جيرانكم طول العمر... ما يسير شيء.

بعد أن مررنا ببيت الخالة فاطمة جادة... واصطحبنا الدادة منكشة... دخلنا بيتنا وعلى دكّة الديوان... وكانت الشمس تضيئها، بحيث بدت مطمئنة، أخذت أمّي تنشر ما اشترته من مغازة "عم اسماعيل"... وتقص على الدادة، تفاصيل رحلتها معي وموقف ذلك العامل الذي طردنا حين ظنّ أنّنا نتسول... وأخرجت الحقيبة الجلد... وزودت الدادة بقطع النقد، وهي تطلب منها أن تسرع فتتسوّق لنا ما نأكله من "الكبابجي"... الذي رأته في آخر سوق الخضرة... وكانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها كلمة "كبابجي"... أمّا الأكلة نفسها عندما تحلقّنا نأكلها فقد كانت أشهى أكلة تناولتها، وعلى الخصوص معها ذلك الخبز من القمح.

يظهر أنّ الشبع بهذه الأكلة الدسمة... بعد مرحلة جوع متواصل بعد أكلة "الرز البخاري" منذ يومين، قبل حوادث (الساكن)..و "القرينة".. والأشباح والكنز... يظهر أنّه أرخى الأعصاب المشدودة، وأنهى حالة التوتر والقلق... إذ قبل أن تقوم أمّي بغسل يدي، أحسست بها تنقلني.. وتضعني على الفراش... ذلك اللحاف المهترئ في صدر الديوان.

***

بعد أكلة الكباب
نمت على ذلك اللحاف المهترئ..

بدأت أستيقظ من نومي الذي استغرق طويلاً، على صوت أمّي وهي تتحدث إلى منكشة بصوت فيه حدّة، ومع أنّها كانت تتحدث باللغة التركية كعادتها مع منكشة، فقد استطعت أن أحزر أنّها تنتهرها وتقول لها ما معناه، أنّها لا تريد أن تسمع منها شيئاً عن الموضوع الذي يبدو أنّ منكشة كانت تتحدث فيه... التزمت مكاني وتخابثت، فلم أفتح عينيّ كما لم أتحرك، ولكن ازدادت حدّة كلام أمّي، وحين كانت منكشة تقاطعها، كان صوتها باكياً، وهي تردد كلمة معناها: "حاضر.. حاضر يا هانم.."..
قدّرت أنّ الموضوع، ربما كان خطأ تورطت فيه هذه العجوز... وأحسست - ربّما لأول مرة - بالإشفاق عليها، وفي ذهني حادث سقوطها على الأرض، وحكاية "القرينة" التي أصيبت بها... جلست في الفراش، وأخذت أتأمل ما حولي... كان الظلّام قد بدأ يزحزح البقية الشاحبة من ضوء النهار في الديوان... والتفتت إليّ أمّي وهي تقول:

- طيب اللّي قمت.. هيّا خليها تغسل لك وجهك... عشان نروح بيت الخالة فاطمة.

ألقيت نظرة متأنية على العجوز، في مجلسها على طرف الدّكة فرأيت الدموع تبلل وجهها وتنذرف من عينيها الواسعتين، وقد احمرّتا، ممّا يدل على أنّها قد بكت طويلاً وكثيراً... وفي الوقت نفسه، رأيتها تقف، وتلتفت إليّ، منتظرة أن تصحبني إلى حيث تغسل لي وجهي في ركن عند مدخل "الحنيَّة" اللعينة، التي يبدو أنّ أمّي لم تعد تدخلها، وبالتالي، تمنع أن أدخلها أنا لأي سبب.

مع أنّ أمّي قد عودتني أن ألتزم الصمت، فلا أسألها عن سبب أي تصرف من

تصرفاتها أو عن موضوع تدور حوله أحاديثها باللغة التركية، فإنّ تأثري لبكاء العجوز حتى في اللحظات التي كانت تغسل لي خلالها وجهي ويديّ، جعلني أجازف، فلا أكاد أعود إلى الدّكة حتى أقترب من أمّي وأقول متسائلا:

– دادة منكشة إيش بها يا ففَّم؟؟؟

– إيش بها؟؟؟

– بتبكي كتير.

– بعدين... تعال، البس هادا الثوب النظيف.. عشان نروح قبل الليل..

تعودت أن أفهم من كلمة "بعدين" هذه، أنّها لا ترغب أن تقول شيئاً، أو أن تستجيب لما يحدث، أن أطلبه منها... ولذلك فليس عليّ إلاّ أن ألتزم الصمت... ونادراً ما أجرؤ على أن أعاود السؤال أو الطلب... ولقد مرّت أسابيع، بل شهور، قبل أن أعرف أنّ موقف أمّي من منكشة في ذلك اليوم، في بيتنا بزقاق القفل، كان لأنّها اكتشفت أنَّ العجوز قد تركت البيت، بعد سفرنا بالبابور. حيث ظلّت تقوم بخدمة هذا الضابط أو ذاك، من الضباط الأتراك في أيام تهجير الناس من المدينة، وأنّها كانت تغيب عن البيت أياماً وأسابيع، ولذلك فهي لا تدري، أو على حد تعبير أمّي – تقول إنّها لا تدري – كيف قام اللصوص، بعد خروج الأتراك، بسرقة كل ما كان في البيت من أثاث ومقتنيات. فهي من وجهة نظر أمّي، قد فرّطت، أو "خانت" الأمانة... أمانة جدّي الذي تركها في البيت، وترك عندها جميع المفاتيح... والذي أثار أمّي، ظلّ يثيرها دائماً حتى بعد سنين طويلة، من رحيل العجوز وموتها في أحد الأربطة، هوأنّها كانت تعلّل تصرفها بالأشباح التي كانت تراها في البيت بعد سفرنا، وليس في الظلّام أو في الليل فقط، وإنّما في النهار... هذا إضافة إلى ذلك "الساكن" الذي أخرجه الشيخ "الزاكور"... ولم تكتف بمزاعم وجود هذه الأشباح في البيت، بل زادت على ذلك أنّها كانت تراها حتى في الزقاق... يخرجون من هذا البيت أو ذاك من البيوت المهجورة... وعلى الخصوص من بيت "خاتون الهندية" فكثيراً ما رأت، في وضح النهار، رجلاً عجوزاً، لحيته طويلة في ثياب بيض، وشعر رأسه ولحيته أبيض كالقطن.. رأته يخرج من بيت خاتون، رغم أنّ الباب مغلق لأنّ البيت مهجور... فيمشي في الزقاق ولكن قبل أن يصل إلى بيتنا يختفي تماماً... وفي ذلك المساء الذي استيقظت فيه ورأيتها تبكي بحرقة جعلتني أشعر بالإشفاق والتأثر لها،

كان ما أثار أمّي وفتح معها الحوار وفيه كل هذه الأخبار عن الأشباح في البيت وفي الزقاق، هوأنّ الدادة منكشة، أعربت عن رغبتها في أن تذهب لزيارة صديقة لها تخدم عند ضابط تركي جعله المرض يتخلف عن الرحيل مع فخري باشا ما دامت أمّي ستبيت ليلتها عند الخالة فاطمة فهي ستبيت عند هذه الصديقة، وتعود في الصباح... أمّا النوم في البيت، وليس فيه غيرها فقد اعتذرت عن رفضها، ومن هنا جاءت حكاية الأشباح وسلسلة من أخبارها، وأخبار اللصوص، الذين أفرغوا البيت من جميع محتوياته، وذلك ما ظلّت أمّي تشك فيه، وترسم حول الدادة وأمانتها إشارة استفهام كبيرة، لعلها لم تمحها قط.

كان أول ما لفت نظري وباب الخالة فاطمة يفتح لنا، أنّ التي فتحته فتاة شابة وليست الدادة، أو الخالة فاطمة... سرعان ما أخذتها أمّي في أحضانها، وهي تقول:

- بدرية...؟؟؟ كيف حالك؟؟؟

كانت بدريّة تضيء لنا الطريق من الدهليز إلى الديوان، بتلك "المسرجة" المألوفة في كل بيت وقد حملتها في يدها مرفوعة إلى مستوى الكتف تقريباً. ومع ذلك فقد استطعت أن أتأمل ملامحها، ولعل الأصح أنّ ملامحها هي التي شدّت انتباهي.. وجعلتني أتأملها... وما كدنا ندخل الديوان حيث نهضت الخالة فاطمة تستقبلنا، حتى وجدت نفسي أنتهز فرصة الضوء الذي يسطع من "اللمبة أم فتيلين"، فأتأمل محيّا بدرية، الذي ما زلت أذكر حتى اليوم، أنّه كان جميلاً، يصعب أن أكف عن النظر إليه. ولا أدري، بماذا يفسر العلماء إحساس الأطفال دون الخامسة من العمر، أو إدراكهم للجمال في تلك السن المبكرة... ولكنّي أدرك حقيقة راسخة، وهي أنّي قبل إحساسي بجمال "بدريّة" هذه، كنت أحسّ بجمال خالتي، ولعلي قد سبق أن قلت في الجزء الأول من هذه الحياة، أنّها كانت "حبي الأول"... ولم يكن ذلك الحب، لمجرد أنّها خالتي أو لأنّها كانت بالغة الرقة والحنو عليّ، وإنّما لأنّها كانت جميلة، إلى ذلك الحد الذي كنت أقف فيه وقد بلغت مرحلة الشباب أمام وجوه الفتيات، اللاتي أبدعتهن ريشة كبار وعباقرة الفن، وفي ذهني أنّ تلك الخالة التي ماتت، في حلب هي نفسها التي أراها في هذه اللوحات[1].

ولا أزال أضحك، حين أتذكر أنّي، حين جلستْ أمّي بالقرب من الخالة فاطمة،

---

(1) صورة من هذه الصورة (ملونة).

في صدر الديوان، وفي يدها لي الشيشة، قد توخيت أن أجلس بجانب بدريّة، حين رأيتها تجلس في آخر الطرف القريب من نهاية الدّكة... وبينما أخذ الحديث يدور بين أمّي وبين الخالة فاطمة كنت أنا مشغول الذهن، بملاحظة غريبة، وربما كثيرة على طفل في مثل سنّي، وهي هذا الثوب الذي قالت أمّي إنّه "نظيف"... وهو نظيف فعلاً، ولكنّه قديم جداً... وقصير عن قامتي، لأنّه من الثياب القديمة التي اشترتها أو جهزتها لي أمّي منذ كنا في حلب... كنت أحس أنّ بدريّة وقد رأتني الآن، في هذا الثوب البالي، والقصير، لا بد أن تنظر إليّ نفس النظرة التي نظرها ذلك العامل في "مغازة" العم اسماعيل... نظرة إلى متسول، لا يقال له أكثر من: "الله كريم".. وأحسست أنّي أختنق، وأنا أتأمل ثوبي، ثمّ قدميَّ الحافيتين، لأنّي لا أزال أرتفق ذلك الحذاء الممزق، وقد خلعته عند باب الديوان طبعاً لأنّ أمّي لم تخرج أحد الحذاءين الجديدين بعد. وبهذا الإحساس، ظللت مغضياً ببصري إلى الأرض أمامي، إلى أن سمعت أمّي تتحدث عن "منكشة" وتخبر الخالة فاطمة، أنّها الليلة ستذهب للمبيت عند صديقتها "وهم في المدينة يسمّون زميلة أو صديقة الجارية السوداء - سَندولَة"... وهنا قالت الخالة فاطمة من جانبها إنّها سمحت للدادة حسينة، أن تبيت عند الجيران، لأنّ أهل البيت ذهبوا إلى "البلاد"... وقد تعلمت في ما بعد أنّ "البلاد" تعني المزرعة، التي يخرج إليها أهل المدينة في أيام الصيف.

يبدو أنّ اشتغال ذهني، بثوبي البالي القصير عن قامتي، وأنا جالس بجانب بدريّة قد استغرق اهتمامي فلم يسترع انتباهي الحديث الذي كان يدور بين أمّي وبين الخالة فاطمة عن العم محمد سعيد، "زوج الخالة فاطمة"، الذي قالت إنّها لا تدري إن كان سيتأخر عن موعده - بعد صلاة العشاء - كما تأخر البارحة. وأضافت ما يفهم منه أنّها قلقة عليه، لأنّ "الوالي العربي الجديد" في المدينة، أمر بأن يكون كل كاتب في المحكمة، أو في غيرها من العرب الذي يتكلّمون ويكتبون اللغة العربية. والعم محمد سعيد، كان قبل "السفر برلك" في المحكمة... يكتب باللغة التركية... وهو يتكلّم العربية.. ولكن لا يكتبها.. يقرأ القرآن... بل يحفظه كله، ولكن لا يكتب كلام المحاكم، وشغل الحكومة. ثمّ قالت: إنّه البارحة قد تأخر عن موعده بعد صلاة العشاء، لأنّه ذهب لمقابلة "الباشكاتب" وقد فهم منه، أنّه يمكن أن يوظّفه في "السجلّ"... كانت بدريّة بجانبي، أو أنا بجانبها، مكتفية بالإصغاء إلى ما تقوله

أمّها... كما كنت من جانبي حين ألقيت بالي إلى الحديث، أحاول أن أفهم أو أن أحل هذه الألغاز التي أسمعها لأول مرة... عن "المحكمة"... واللغة "التركية" أو "الكتابة باللغة التركية"... ولم أفهم شيئاً بالطبع.. وسمعنا صوت المؤذن يرتفع لصلاة العشاء... وهنا قالت بدريّة:

- أقوم أرمي السماور... وأعبي السفرة..

- أيوه يا بدريّة... أبوكي اتغدّى اليوم بدري... ولازم يجي جيعان.

- أيوه... يا أمّي... بس يمكن أبويا، يتأخروا زي البارح.

وهنا التفتت الخالة فاطمة التفاتة حادة، نحو بدريّة وهي تقول:

- يتأخر زي البارح؟؟؟ لي... هوّه قال كده...؟؟؟ لكن إنتي اليوم جيتي بعدما خرج لصلاة العصر.

- عبد المنّان قال لي، إنّو البارح أبويا راحو بيت واحد اسمه نجم الدين أفندي.. وهنا مرة أخرى ازداد، اهتمام الخالة فاطمة، وأخذت اللّي بين شفتيها حيث سحبت نفساً مشبعاً وقالت وهي تنفث الدخان من منخريها:

- نجم الدين أفندي؟؟؟ إنتي.. يعني عبد المنّان جوزك قال لك كده؟؟؟

- أيوه يا أمّي عبد المنّان هو اللّي قال لي، لمّا جا البيت بعد صلاة العشا.

- طيب... وما قال لك عبد المنّان، ليه أبوكي راح عند نجم الدين أفندي هادا؟؟؟

- إلاّ.. قال لي يا أمّي... إنّو رايح يقرأ على بنت الرجّال... عشان فيها "اليارقان".

لاحظت من جانبي، أنّ الخالة فاطمة قد تغيّرت... وأنّ ما تسمعه من بدريّة كلام أزعجها وبطبيعة الحال، لم يكن في وسعي أن أفهم شيئاً سوى أنّها غاضبة... وقد أكد ذلك أنّها سألت بدريّة تقول:

- طيب لكن أيش اللّي خلّى عبد المنّان، يدري إنّو أبوكي راح عند نجم الدين أفندي، وأنّو كمان رايح يقرا على بنته اللّي فيها (اليارقان)؟؟؟

- ما أدري... ما قاللي... لكن يمكن راحو مع بعض...

- ما هو يمكن... لا... لازم يكونوا راحوا مع بعض...

- يمكن يا أمّي...بس أنتو ليه زعلانين؟؟؟

- يعني إنتي منتي عارفة نجم الدين أفندي هادا؟؟؟ إنتي ناسية أنّهم كانوا معانا في

الشام... وأنّو جوز هادي البنت مات، وأمّها اللّي الله يرحمها كمان ماتت.

- عارفة يا أمّي... بس إيش اللّي مزعلكم..

وانفجرت الخالة فاطمة وهي تقول:

- يعني، ما التقى أبوها أحد يقرا عليها من (اليرقان) إلاّ أبوكي؟؟

- يجوز له تواب يا أمّي...

- أصلك إنتي يا بدريّة من يومك ما تفهمي... بس قوليلي... يعني جوزك.. لمّا راح مع أبوكي...

- لكن أنا ما قلت إنّو راح مع أبويا.. أنا قلت يمكن.. بس ليه إنتو زعلانين؟؟

- عشان أبوكي يبغا ولد..

- أيوه.. من أيام ما كنا في الشام.. وهوّه كل ما شاف ولد صغير من الأولاد اللّي كانوا في الشوارع.. أقصد اللّي كانوا بيشحتوا... كان يقول لي (يا ريت يا فاطمة ناخد واحد من الأولاد نربّيه)... يجوز لنا تواب..

- لكن يا أمّي نجم الدين أفندي، ما عنده أولاد... ما عنده غير بنته هادي اللّي فيها اليرقان...

- ما هو بأقول لك إنّك غبية... هوّه ما عنده ولد... لكن عند اللّي تجيب له الولد..

وهنا - ولأوّل مرة - تتدخل أمّي في الحوار وهي تقول:

- يعني يا خالة، عمّي محمد سعيد يبغا يتجوّز بنت هادا اللّي اسمه نجم الدين أفندي؟؟

- أيوه يا بنتي فاطمة... عمّك محمد سعيد، من أيام ما كنا في الشام، وهو ما عنده غير سيرة الولد اللّي يبغانا نربّيه... يعني في نفسه إنّو يكون عنده ولد..

- لكن يا خالة فاطمة.. عمّ محمد سعيد أكبر في السن من أبويا رحمة الله عليه.

وتدخلت بدريّة وهي تقول:

- هادا يا أمّي كلام ما يدخل العقل... بنت نجم الدين أفندي يمكن أصغر مني أنا.. جوّزوها صغيرة.. وأراد الله جوزها مات بالشوطة اللّي جابت في الشام... يعني ما يمكن أبوها يجوّزها لواحد أكبر من أبوها.

وعادت الخالة فاطمة تسحب من الشيشة نفساً طويلاً، ثمّ تنفث الدخان من منخريها وفمها ثمّ تقول:

- الكلام اللّي ما يدخل العقل هوّه اللّي بيجري وراه أبوكي... وشوفيه ما جا الين دحّين. وأرسلت ضحكة ساخرة مصطنعة وهي تقول:

- مين يدري... يمكن اتأخر هو وعبدالمنان معاه... عشان بيملك عليها.. وارتفع صوت بدريّة قليلاً، وهي تقول:

- يا أمّي هادا كلام ما يدخل العقل... عبد المنّان يشوف أبويا يبغا يتجوز هادي البنت ويسكت..؟؟؟؟ ما يقول لي؟؟؟

- وليش يقول لك؟؟؟ ليه ما يكون هوّه كمان.

وانتفض صوت بدريّة وارتفع وهي تقول:

- هوّه كمان أيه يا أمّي؟؟؟

- هوّه كمان حاطط عينه منها.

- من مين يا أمّي؟؟؟

- من هادي البنت..

- إيش هادا الكلام يا أمّي؟؟؟ أبويا.. وزوجي.. يتجوزا الاثنين وحده بنت؟؟

- لا.. يا غبية.. واحد منهم اللّي يبغا يتجوزها... إذا أبوها ما رضي يجوزها لأبوكي يرضى يجوزها لعبد المنّان..

- بس إيش السبب... عرفنا إنّو أبويا يبغا ولد... وعبد المنّان إيش اللّي يخليه يتجوزها.

- عشان عينه فارغة... يبغا يتجوز وحدة شعرها أشقر... وبيضا..

- يا أمّي حرام عليكم... عبد المنّان...

- عبد المنّان هادا زي الحنش اللّي مسكو الزاكور... راسه مرخي... لكن أنا عارفته... أصله أبوكي...

وفي هذه اللحظة، سمعنا حركة الباب، وخطوات العم محمد سعيد، ومعه خطوات أخرى.

لا شك أنّها خطوات عبد المنّان زوج بدريّة... فأسرعت أمّي تضع الملاية على رأسها وتنسحب من مجلسها بجانب الخالة فاطمة، لتجلس بجانب بدريّة... التي أسرعت تنهض من مجلسها نحو باب الديوان تستقبل أباها وزوجها.

***

الشعر الأشقر والقلب العجوز

مع أنّي لم أفهم شيئاً من موضوع الحوار بين الخالة فاطمة وابنتها بدريّة، عن العم محمد سعيد، وزوجها عبد المنّان، إلاّ أنّ احساسي بأنّ الخالة فاطمة متوترة، جعلني لا أستبعد أن يحدث شيء - أي شيء - عندما يدخل العم محمد سعيد، الذي فهمت أنه قد تأخر عن موعد عودته بعد صلاة العشاء، لأنّه ذهب للقراءة على مريضة بمرض لم أسمع عنه إلاّ في هذه الليلة، وهو (اليرقان)... أمّا العلاج بالقراءة من أي مرض، فلم يكن غريباً على ذهني، لأنّي ما زلت أذكر أنّ جدّي رحمه الله، كان كثيراً ما يجلس إلى فراش خالتي، ثمّ يأخذ في قراءة هامسة، أفهم أنّها لعلاجها من المرض الذي ماتت أخيراً به... وقد علمت بعد سنين من أحاديث أمّي وهي تتحسر وعيناها دامعتان أنّ ذلك المرض كان (السل)... وأنّ السل هذا هو ما يسمّونه (داء الشباب).

حين دخل العم محمد سعيد، وخلفه عبد المنّان الذي كنت ليلتها أراه للمرة الأولى وقد أدركت من الحوار بين الخالة فاطمة وابنتها بدريّة، أنّه (زوجها).. لم تفتني ملاحظة نظرات الخالة فاطمة وهي تلاحق العم محمد سعيد، في اتجاهه نحو باب القاعة، بينما اتجه عبد المنّان إليها وانكفأ على يدها يقبلها، بينما أسرعت هي تبعد لَيَّ الشيشة وتعلقه في المشجب. كانت أمّي قد جلست إلى جانبي، وقد التفت في القسم العلوي من (الملاية)، وهو الذي درجوا على أن يسموه: (الفوقانية). لم أجرؤ على أن أسألها عمّا إذا كنا سنبيت ليلتنا هنا... أم أنّنا سنعود إلى البيت... ولا أخفي أنّي كنت في الوقت نفسه مشغول الذهن ببدريّة التي نهضت لتعد (السماور)، وتجهز العشاء... هذا إلى جانب أنّي قد أصبحت أشعر برعب يعصر قلبي كلما وجدت نفسي أدخل البيت ويدي في يد أمّي، وعلى الخصوص ذلك الدهليز الحجري المظلم حتى في النهار... ظللت ألتزم الصمت، كما التزمته أمّي والخالة فاطمة، وحتى عبد المنّان، الذي أخذ

مجلسه في الطرف المقابل من الدّكة، ظلّ ساكتاً... أمّا العم محمد سعيد، فقد خرج من باب القاعة أخيراً، بعد أن خلع الجبّة والعمامة وارتدى ثوباً أبيض، وعلى رأسه ما كان يسمى (الطاقية) التي تستورد مصنوعة ربّما من الحرير من تركيا أو بخارى.

وما كاد يتجه إلى الدّكة حتى نهضت الخالة فاطمة، كما نهضت أمّي، ومعهما عبد المنّان. ووجدت نفسي أنهض أنا أيضاً معهم... وقد تعلمت مع الأيام، أنّ النهوض هكذا عندما يدخل أحد (الكبار)، واجب و(أصول) و(أدب) جرت العادة أن يتقيد به (الصغار)... وأخذ العم محمد سعيد مجلسه في الركن من صدر الديوان. وبعد أن تمكن من مجلسه، ومرّ بمنديل في يده على جبهته وعينيه التفت إلى الخالة فاطمة، ليرى نظراتها شبه مسمرة عليه... كان في هذه النظرات ما جعله يفهم من دون شك أنّها تريد أن تقول شيئاً مهماً... ولم يطل انتظاره إذ قالت وهي تجلس، ونحن نجلس في أماكننا أيضاً:

- كيف حالها؟؟؟

وبعد تردد لحظة قصيرة قال:

- مين هيّه؟؟؟

- اللّي بتقرا عليها من (اليرقان)؟؟

لم يستطع العم محمد سعيد أن يخفي دهشته، فقال، وهو يلتفت التفاتة سريعة يستدركها إلى عبد المنّان الذي نقل أخبار (التي يقرأ عليها) من (اليرقان)...

- اليوم أحسن من أمس.

- ومن متى انت بتقرا على اليرقان؟؟؟

- أعرف القراية على اليرقان، وعندي كمان (الطاسة) من زمان..

- لكن يعني، عمري ما سمعت إنّك بتقرا على أحد، والطاسة اللّي بتقول عليها مرمية في دولاب الكتب من سنين.

- بس، لمّا واحد يحتاج أنّي اقرا على بنته أو ولده، لازم ما أتأخر...

- ونجم الدين أفندي، إيش اللّي عرفه إنّك...

هنا، بدا العم محمد سعيد متضايقاً، فأدار وجهه عنها وهو يقول في نبرة لم تخل من حدة:

- يحيى مرغلاني هو اللّي أظن قال له... ما أدري إيش اللّي تبغي تقوليه؟.

- اللّي أبغا أقوله... أنّها أصغر من بدريّة.

- يمكن... أبوها بيقول أنّها ما دخلت العشرين. لكن إيش قصدك؟؟؟

- أيوه ما دخلت العشرين... وكمان شعرها أشقر.. وبيضا..

لم يعد هناك شك، في أنّ العم محمد سعيد قد أدرك ما يدور بذهنها، فقال مراوغاً:

- عندك أحد يبغا يتجوزها؟؟؟

وبنبرة مشحونة بسخرية حاولت أن تخفف منها قالت:

- أيوه... هوّه هادا اللّي أبغا أقوله... عندي ما هو واحد بس.. عندي اتنين...

ولولا نبرة السخرية التي تنم عن رغبتها في النقار، لصدق العم محمد سعيد أنّ هناك فعلاً شخصين يتقدمان لخطبة الفتاة... ولكنّه تظاهر بأنّه يصدق ما تقول فأجاب:

- والله يا ريت يكون كلامك صحيح.

- يعني ما تعرف إنّو فيه اتنين يبغو يتجوزوها؟؟

- لا... ما أعرف. إنتي ما قلتيلي.

- طيب أقول لك دحّين... اتنين تعرفهم...

:مين هما يا فاطمة؟؟؟ وفين بدريّة... فين العشا.. يعني ما تبغي تعشي ضيوفك؟؟

وفجأة ارتفع صوت الخالة فاطمة، واتسعت عيناها، بحيث أحسست بأنّها توشك أن تهجم على الرجل وقالت:

- اسمع... أنا عارفة إيش اللّي بتجري وراه... بس انت ناسي إنّها أصغر من بنتك.

- يعني إيه؟؟؟

- يعني انت اللّي ناوي تتجوزها.

والعجيب أنّ العم محمد سعيد، بدا وكأنّه كان يتوقع أن تقول ما سمع. فقال بعفوية وبرود، وبضحكة مصطنعةٍ خفيفة:

- هادا واحد... لكن مين التاني؟؟

- التاني جوز بنتك... هادا اللّي رايح جَيْ معاك... يعني هوّه كمان بيقرا عليها من البرقان؟؟

ولأول مرة، رأيت عبد المنّان، يرفع رأسه من إغضائه الطويل، ويلتفت نحوها، وفي عينيه دهشة وتساؤل.. بينما واصل العم محمد سعيد ضحكته وهو يقول:

- هادا شرع جديد... اتنين يتجوزوا وحدة..

- أيوه هادا شرعك انت...... شرع نجم الدين معاك... لمّا يقول لك إنّك أكبر من أبوها ما يقدر يقول شي في عبد المنّان...

- تبغيني أقول لك الكلام الصحيح؟؟

- من دون ما تقوله أنا عارفاه... انت من أيام ما كنّا في الشام، بعدما الشوطة أخدت جوزها... وأنت بتجري وراها..

- لكن يا فاطمة إنتي عارفه إنّي من زمان أتمنى يكون عندي ولد... قلت لك في الشام ناخد واحد من الأولاد اللّي كنا بنشوفهم في الشوارع نربيه.

وهنا دخلت بدريّة، حاملة بساط الأكل (السفرة)... بسطته على الأرض... والتفتت إلى زوجها، عبد المنّان.. ومن دون أن تقول شيئاً رأيته ينهض، وحين اتجهت تخرج، كان يمشي خلفها، وتابعت الخالة فاطمة تقول وقد ارتفع صوتها وبدت متوترة تتعثر الكلمات في فمها:

- يعني تبغا تتجوزها عشان تجيب لك ولد.. موكده؟؟؟

- بس يا ريت أبوها يوافق.

وهنا، استدارت الخالة فاطمة في جلستها بحيث أصبحت تواجه زوجها في مجلسه وقالت:

- اسمع يا محمد سعيد.. انت ما لك في هادا البيت إلاّ حوايجك.. وهادي الكتب اللّي في المأخر... من بكره في الصبح ما أشوف لك جرة... انت فاهم؟؟؟

قالت هذه الكلمات، ثمّ نهضت... ومن دون أن تلتفت إلى أمّي التي كانت لا تزال في مكانها ملفعة بالملاية... اتجهت الخالة فاطمة إلى باب الخروج من الديوان... فأسرعت أمّي تنهض وتلحق بها وهي تقول:

- قوم يا عزيز.. إمشي..

ولكن قبل أن نصل إلى الباب، دخلت بدريّة وخلفها عبد المنّان، وهي تحمل صينية العشاء... وقالت:

- على فين يا ستيتة؟؟؟ أمّي طلعوا فوق...

- طيب يا بدريّة... أخاف نحنا ما يسير نقعد وخالة فاطمة ما هي معانا.

- بس الدنيا ليل يا ستيتة... وأمّي قالوا لي، أنتو بايتين عندنا... دحّين نتعشى وأنا وعبد المنّان كمان نبغا نبات هنا... أصله البيت عندنا مليان قرايب أم عبد المنّان من مكة... نازلين عندنا..

وكان العم محمد سعيد يلتزم الصّمت، ويده تمشط لحيته القصيرة في حركة عصبية متتالية.. وكأنّه انتبه لما يدور من حديث بين بدريّة وأمّي فأخذ يقول:

- إقعدي يا بنتي إنتي والولد... وهادي بدريّة تقعد معاكم... هيّا بسم الله..

ونهض من مكانه، وجلس إلى المائدة... وأسرع عبد المنّان يجلس هو أيضاً... فأخذت أمّي يدي في يدها، وجلسنا جميعاً حول المائدة... وخرجت بدريّة لتعود بعد لحظات، ثمّ تجلس إلى جانبي تماماً... ثمّ أحسست بيدها على كتفي وهي تقول:

- هيّا بسم الله.. قوليله ياكل يا ستيتة..

ما زلت أذكر إحساسي العميق بالفرحة وأنا أسمعها تُعنى بأن آكل، ولمسة يدها على كتفي كان لها في نفسي وقع غريب لا أستطيع التعبير عنه... ولكنّي ظللت أتمنى أن تتكرر اللّمسة لأيّ سبب. ولعلّ ما لا يزال يحتاج إلى تفسير هو هذا الشعور بالارتياح لهذه اللّمسة من بدريّة، مع أنّ لمسات أمّي المماثلة، والحانية من دون شك، والتي تتكرر مرات في اليوم، لا تترك في نفسي هذا الأثر... قد يكون شيء من هذا مفهوماً، بالنسبة لمخلوق في مرحلة اليفع أو الشباب، ولكنّه يظلّ غامضاً بالنسبة لطفل لم يتم الخامسة من العمر.

ظللنا نتناول عشاءنا في صمت إلى أن نهض عن المائدة أخيراً العم محمد سعيد وهو يقول موجّهاً الكلام إلى بدريّة:

- أمّك زي عادتها، يا بنتي، قالت: من بكرة في الصبح ما تشوف لي جرة في هادا البيت... وطيب اللّي إنتي وعبد المنّان بايتين عندنا... بكرة من بدري تقومي تلمي لي حوايجي والكتب...

لم تكن بدريّة قد سمعت أمّها وهي تنذر العم محمد سعيد ذلك الإنذار القاسي الرهيب، ولكن يبدو أنّها قد ألفت أمثاله طوال سنين مضت، ولذلك لم يبدُ عليها ما ينمّ عن الدهشة أو الاستنكار... كان كل ما قالته:

- مرحبا يا بويا... بس طولوا بالكم... إنتو طول عمركم فيكم الاستحمال.

ولم يعقّب العم محمد سعيد... وفيما كان يدخل باب القاعة، التفت إلى عبد المنّان وهو يقول:

- أنا وأنت ننام في القاعة يا عبدالمنان... وبدريّة تنام مع بنت الشيخ أفندي وولدها هنا في الديوان.

ونهض عبد المنّان يلحق به... فإذا بالعم يعود ليطل من الباب الموارب ويقول:

- لا تنسي يا بدريّة تطلعي تشوفيها قبل ما تناموا... وإن كان تبغا (تعميرة...) شوفي أنا جبت لها (كيزَرون)[1] جديد... يقولوا إنّو وصل من الهند قبل يومين.

- مرحبا يا بويا... ربنا لا يحرمها منكم...

- بس بكرة من الصبح بدري، تلمي لي الحوايج والكتب...سامعة؟؟؟؟

- مرحبا يا بويا... تصبحوا على خير..

- وأنتو من أهله.

اغلق العم محمد سعيد، الباب خلفه... ولم يبق في الديوان الآن إلاّ أمّي وبدريّة التي أخذت الصينية، نهضت أمّي وأخذتني في يدها إلى (بيت الماء).. حيث توضأت، وغسلت لي يدي وفمي...

كانت ليلة لا تنسى... ولم أنسها حتى اليوم... فهي الليلة التي لم يغلبني فيها النعاس، ربّما لأول مرة طوال سني طفولتي... ليس فقط لأنّي ظللت أسمع الحديث الهامس الذي ظلّ يدور بين بدريّة وبين أمّي، وفيه الكثير من حكايات العم محمد سعيد، والخالـة فاطمة، وآخرها حكاية الفتاة التي يقرأ عليها من (اليرقان)، وإنّما لأنّ بدريّة كانت بجانبي... أو أنا الذي كنت بجانبها... هذا الذي حصل... إذ كان موقعها بيني وبين أمّي... ومع أنّهم قد أطفأوا اللمبة (أم فتيلتين) التي كانت تضيء الديوان، وأشعلت بدريّة لمبة أخرى معلقة في الجدار ضعيفة الضوء، فقد كانت كافية، أرى على ضوئها بدريّة، وقد حررت رأسها من (المحرمة) التي كانت عادة المرأة في تلك الأيام تلف بها رأسها... كان شعر بدريّة طويلاً، ما كادت تخلصه من تلك المحرمة حتى تهدّل، وانسدل على صدرها وكتفيها، ولا شك أنّي في تلك السن، لم يكن في وسعي أن أدرك ما يضفيه شعر الفتاة على قسماتها من الحُسن وجلال الطلعة، ولكن في ما استقبلت من سني العمر ظلّ شعر بدريّة في تلك الليلة، معنى مستتراً

---

(1) الكيزرون: نوع من الطباق يدخن في الشيشة.

لا أكاد ألمح مثله في امرأة، حتى تبحر بي الذاكرة إليها، فأدرك حقيقة، أو مجموعة من الحقائق عن جمال المرأة، عبّرت عنه تماثيل الأغريق، وهي تسبغ عليهن صفات التأليه، وتترك للأسطورة أن تستوعب فنوناً من الصراع بينهن وبين قدر الإنسان، لعلّه الذي لا يزال دائر الرحى حتى اليوم.

وكانت الحكايات عن العم محمد سعيد والخالة فاطمة، كثيرة ومتنوعة ومتباعدة الأحداث. من أهم ما فيها، أنّ العم محمد سعيد، ليس له فعلاً في هذا البيت... غير ملابسه وكتبه فهو طالب علم من أبناء أسرة هاجرت إلى المدينة، ثمّ طرأ ما استلزم أن تعود إلى موطنها وأن تترك محمد سعيد لطلب العلم... أمّا الخالة فاطمة، فهي التي تملك هذا البيت، ورثته عن أبيها، وقد ورثه عن جدها... وتملك أيضاً مزرعة أو ما يسمونه (بلاد) في العوالي وقد توفى أبوها عنها وعن أخيها، الذي توفي هو أيضاً فأصبحت المالكة الوحيدة للبيت و(البلاد) إلى جانب مبلغ من الجنيهات (العُسْمَنْلي)، تعتقد بدريّة أنّها لا تزال تدخر بقية طيبة منها، ولم تخف بدريّة وهي تتحدث هامسة، عن أمّها، أنّها (جبارة)... ولا تخاف من أي شيء، حتى لقد فكرت أكثر من مرة أن (تذبح) بنفسها الجارية، لينفتح لها الكنز... ولم يمنعها الخوف من عملية الذبح الرهيبة، وإنّما الخوف من الحكومة، ولذلك فقد اشترت عبداً ليذبح الجارية... ولكن العم محمد سعيد هو الذي أنقذ الجارية (حسينة) بعد أن اكتشف غرض الخالة فاطمة المخيف... ولا تدري بدريّة كيف تزوج أبوها من الخالة فاطمة... ولكنّها تقول في نبرة اشفاق، أنّ أباها (مسكين)... طيب.. يخاف الله... وصحيح أنّه (طول عمره) يتمنى أن يرزق (ولداً) ولكن الخالة فاطمة لم تستطع أن تنجب له سواها (بدريّة)... ولا أمل، بعد أن بلغت هذه السن أن تنجب.. ولذلك... - وهذا أعجب منطق سمعته من بدريّة - فإنّ أباها (العم محمد سعيد) له حق، أن يتطلع إلى أن يكون له (ولد)..

ثمّ تضيف بدريّة، في عفوية عجيبة، أنّها هي نفسها تتمنى أن يكون لها (أخ) فلو أنّ أمّها توافق على أن يتزوج أبوها بنت نجم الدين أفندي، فإنّ الله (كريم)... يمكن أن يحقق الأمل، وأن ترى لها أخاً.

أمّا بنت نجم الدين أفندي هذه، التي يقرأ عليها أبوها من (اليرقان)، فإنّ بدريّة لم تخف أنّها (حلوة)... شعرها أشقر وبيضاء... وصغيرة.. ولا تخفي أيضاً أنّ العم محمد سعيد بدأ يتعلّق بها منذ كانوا في الشام... وعلى التحديد منذ مات زوج الفتاة بحمى (التيفوس) التي حصدت المئات من أهل المدينة هناك. ثمّ الأهم، هو أنّ الفتاة الشقراء مرضت بعد وفاة زوجها، وعنى العم محمد سعيد بعلاجها من الملاريا، لأنّ

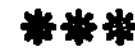
أبا الفتاة (نجم الدين أفندي) مرض هو أيضاً وأصبح عاجزاً عن العناية بابنته... وتقول بدريّة:

- صحيح أبويا أكبر من نجم الدين أفندي... لكن البنت يمكن تتمناه... دي تفرح به لمّا تشوفه داخل عليها... وتقوم بنفسها تجهز له الشاهي، وتقدمه بيدها وتقعد جنبه.

ثمّ تضيف بدريّة بعفوية وبساطة:

- كمان يا ستيتة... أمّي (جبارة)... كلامها ناشف... وطول عمرها شايفة نفسها على أبويا... يعني يمكن عشان هيّه غنيّة... لكن هوّه عمره ما قصر،... هوّه اللّي يصرف عالبيت... زنبيل المقاضي هوّه اللّي يكلفه... بس ما هو باين في عينها... يا ستيتة، فين وفين لمّا يسمع منها الكلمة الطيبة.

كنت أصغي إلي حديثها، ولا أدري إلى أي ساعة من الليل ظللت ساهراً، تغمر قلبي مشاعر غامضة، كلما أحسست بيدها، تلمسني في حركتها أثناء الحديث الطويل... وكلّما هبّ من ذلك الشعر الذي ملأ الوسادة، بجانبي أريج عبق، عرفت بعد سنين طويلة أنّه عطر (البنفسج) وإن كنت لا أدري حتى اليوم، كيف كانوا في تلك الأيام، يحصلون على هذه العطور.



لا مكان لنا إلاّ بيت الأحزان

استيقظت بعد ذلك السهر الطويل الذي نعمت به، مصغياً لأحاديث بدريّة الهامسة عن أبيها وأمّها، لأرى نفسي مطروحاً على طوّالة في أحد طرفي دكة الديوان... لم أرَ أحداً حولي، ولكنّي لم أشعر بقلق أو خوف، ولكنّي أخذت أسمع صوت الخالة فاطمة جادة آتياً من نوافذ المجلس المطلّة على الديوان... كانت محتدمة ومنفعلة من دون شك... وفي تلك الساعة المبكرة من الصباح، لا بد أنّها كانت تتكلم، إمّا مع بنتها (بدريّة)، وإمّا مع أمّي...وكان اسم (نجم الدين أفندي) هو الذي يتردد في حديثها... فأدركت بطبيعة الحالة أنّ المشكلة هي نفسها التي انتهت البارحة إلى طرد العم محمد سعيد من البيت... لأنّه كما قالت، ليس له فيه إلاّ ملابسه وكتبه.

لم أكن أعرف الطريق إلى المجالس حين خطر لي أن ألحق بأمّي التي رجّحت أنّها هناك، فظللت مضطجعاً، مفتوح العينين.. مرهف السمع، منتظراً أن أرى أي مخلوق يدخل الديوان... وسرعان ما أحسست بأنّي أتمنى لو أنّ بدريّة هي التي تجيء... ومع الأمنية العابرة تذكرت أنّي كنت إلى جانبها وعلى الوسادة، ذلك الشعر، الذي كانت تفوح منه رائحة العطر الجميلة... وما كادت الصورة تتكامل في ذهني، حتى استرعى انتباهي أنّ ذلك الأريج، مايزال يعبق في الديوان.. فإذا بي أسرح في عالم غريب وبعيد... في ذلك الطريق إلى الربوة التي عدت منها في حلب، وقد حملت حزمة من (الخبيزة)... وأسعدتني ذكرى فرحة خالتي بها، وعلى الخصوص حين تحلقنا لأكلها بعد أن قامت أمّي بطهوها...سرحت، في ذكرى تلك الربوة بأزهارها والعشب الأخضر يغمر أرضها، ولكن هذه المرة وعلى أجنحة الخيال، ليس مع الصبية من أبناء الزقاق الذي كنّا نسكنه، وإنّما مع (بدريّة) التي ظللت أتساءل أين هي يا ترى... لم أسمع لها صوتاً، يحاور أمّها (الخالة فاطمة)... عصر قلبي ضيقاً

احتمال أنِ تكون قد ذهبت إلى بيتها مع زوجها عبد المنّان... لا أدري كيف، أو لماذا خالجني إحساس، بالضيق من عبد المنان هذا الذي يغلب عليه الصمت، فلم أسمعه ينطق كلمة واحدة، خلال جلسة البارحة بكل ما تفجر فيها من غضب الخالة فاطمة على العم محمد سعيد.

فجأة، سمعت خطوات ثقيلة بطيئة، تقترب من مدخل الديوان... التفت لأرى الدادة منكشة تدخل، وفي يدها اليسرى زنبيل أدركت أنّها قد ملأته بما تسوقته، في عودتها من المكان الذي باتت فيه... رأتني مضطجعاً، فتقدمت نحوي وهي تردد كلمات التدليل التي اعتادت أن تخاطبني بها... كلمات بلغتها التركية، ولكنّي أعرف معناها، ولا أخفي أنّي أصبحت أرتاح إليها، خصوصاً وأنّي افتقدت أمثال هذه الكلمات، ولم أعد أسمعها، منذ توفيت خالتي... كانت أمّي صارمة يغلب على طريقتها في التعامل معي، الجد، أو هو توخي البعد عن الميوعة، ولا أدري حتى اليوم، من الذي رسخ ذلك في مزاجها أو طبيعتها، لأنّها تختلف، ليس عن خالتي فقط وإنّما حتى عن جدّي نفسه الذي كان يغمرني بالكثير الذي لن أنساه من العطف.

تقدمت الدادة نحوي، فنهضت، وأخذَتْ يدي في يدها، ومشينا معاً نحو (بيت الماء)... حيث انتظرتني عند الباب المغلق إلى أن قضيت حاجتي... ثمّ عكفت تغسل وجهي وتدلّكه أو تدهنه بالصابون... أحسست بالانتعاش والارتياح... ولعلّي أخذت أتأمل وجهها بنظرات فهمَتْ هي منها نوعاً من الرضا والامتنان.. فإذا بها تحضنني، وتقبلني... وتدمع عيناها... وسمعتها تهمس بكلام يتعثر في فمها أو يختنق، بالتركية التي لا أفهم منها الكثير، ولكن كان منها كلمات (الأب... أو "أبوك") أو شيء من هذا القبيل... لم أعنَ أن أسألها ماذا تقول، ولكن لم أستطع أن أصرف نظري عن الدموع في عينيها... لا شك أنّ هناك علاقة بين (الأب.. و"أبوك") وبين الدموع التي أخذت تذرفها، ولم أسألها إيضاحاً.. إذ فضلت أن أخبر أمّي عندما تجيء.

رأيت أمّي تدخل ولكنّها متهيّئة للخروج... إذ لا ينقص حجابها المألوف إلاّ (البيشة)... داخلني قلق غامض حين جال بذهني أنّ (بدريّة) ليست في البيت... فلا يتاح لي أن أراها... فإذا خرجنا الآن... فمتى يا ترى يمكن أن أراها مرة أخرى... ثمّ إلى أين ستذهب والوقت لا يزال مبكراً؟؟؟ كانت أشعة شمس الصباح، تترامى على فوهة الجلا ضعيفة باهتة... ولم ألق بالاً إلى الحديث الذي أخذ يدور بين أمّي والدادة (مَنكشة)، إذ كنت مشغول الذهن ببدريّة وذكرى تلك الربوة بأزهارها

والعشب الأخضر الذي يغمرها في حلب... ولكن... فجأة أحسست بأمّي تنتزعني من حلم لذيذ... إذ قالت:

- هيّا نروح البيت.

- بيتنا؟؟؟

- أيوّه بيتنا... عشان نفطر، وبعدين نروح الحراج.

وأخذت الدادة، من جانبها تجمع، من دكة الديوان، بعض متعلقاتنا بينما اتجهت أمّي وهي تثبت (البيشة) على وجهها نحو الباب.

كان باب بيتنا يواجه باب بيت الخالة فاطمة، والمسافة بين عتبتي البابين ربّما لا تزيد على متر وبضعة سنتيمترات.. وتقدمتنا الدادة تفتح الباب وما كادت حتّى وجدتُ يد أمّي كأنّها تدفعني أمامها بحركة لم تخل من شدة.. فهمت بهذه الحركة، أنّها منفعلة متوترة ووجدتني أربط، بين صوت الخالة فاطمة وهي تتحدث في المجلس، بتلك النبرة الحادة الغاضبة وبين توتر أمّي وخروجنا المبكر جداً إلى البيت.

انصرفت الدادة إلى تجهيز الشاي والفطور وأمّي ملتزمة الصمت، ولكن كان واضحاً جداً أنّها مشغولة الذهن، وغاضبة، وتقترب من لحظة انفجار عاصف عند أي بادرة... ولذلك فقد حرصت على التزام الصمت من جانبي من دون أن أجرؤ حتى على اكتشاف ما في الزنبيل الذي يحمل ما تسوقته الدادة... وكنت أشعر بالجوع في الواقع فتشاغلت بانتظار الشاي الذي يستغرق وقتاً طويلاً بين إشعال النار، وغَلْي الماء وما إلى ذلك من مراحل التجهيز.

لفت نظري أنّ أمّي لم تخلع ملاءتها، ممّا أكّد أنّها تستعجل الخروج إلى الحراج كما قالت منذ قليل... وفي الوقت نفسه لم تكن تلتفت إليّ، أو إلى الدادة، وإنّما تشاغلت بفتح صرّة الأحذية والبذلة (البحاري) التي اشتريناها من (مغازة) اسماعيل أفندي.

عالجت أحد الحذاءين الجديدين، واختارت الأسود، ونادتني أن أقترب منها، وحين مددت قدمي، رفعت وجهها، وحدقت في وجهي... وهي تقول:

- يبغا لك دورة وصباحية، الين رجلك ترجع تسير رجل بني آدم.

وكانت تعني، أنّها قذرة، وكاد الحذاء القديم الذي كنت أرتفقه من دون جورب، يستهلك الأصبع الكبير الذي يبصبِص من الموقع الممزق المهترئ... قالت هذه

الكلمات، ثمّ طلبت من الدادة أن تزودها بقطعة قماش مبللة بالماء والصابون... ما كادت تتناولها، حتى أخذت تدلك الإصبع الذي رأيت أنّه قد تشقق... واسودَّ... فأدركت مدى (الدورة والصباحية) التي تحتاجها رجلي فعلاً لتعود رجل آدمي معقولة. وبعد أن جعلتني أرتفق الجورب، والحذاء الأسود الجديد، اقترحت أن أمشي به، ففعلت سعيداً مزهواً... وابتسمتْ، وهي تسمع وقع المشية على الحجر في أرض الديوان، لأنّ ذلك الحذاء المهترئ، كان قد انعدم له مثل هذا الوقع منذ زمن طويل.

ما كدنا نفرغ من تناول الفطور، والشاي، حتى نهضت أمّي، وهي تقول للدادة:

- نحن رايحين الحراج... يمكن ما نجي إلاّ بعد صلاة الضهر...

ثمّ أكملت، باللغة التركية ما فهمت منه أنّها تنتظر أن تجد الغداء جاهزاً... خرجنا، إلى الزقاق، ومنه إلى الشارع، حيث لم تنسَ أمّي أن تقف عند دكان العم صادق، وأن تسأله عن ابنتيه.. ثمّ سألها عمّا إذا كانت لا تنوي أن تنتقل من البيت، سمعتها تفاجئني بأنّها لا تنوي أن تنتقل منه، وأنّها ذاهبة الآن إلى الحراج لتشتري ما تحتاجه من أثاث. ثمّ قالت:

- هوه البيت اللّي ما لنا غيره... بيتنا يا عم صادق... فتحنا عيوننا فيه.. وفين نروح أنا والولد... فين نِتْهَجْول؟؟

قالت هذه الكلمات... ثمّ انطلقنا معاً نحو الحراج، والعم صادق يقول:

- خير ما تسوّي... والحراج مليان... وكل شيء فيه رخيص.. ربنا يكون في عونك..

***

لم تكن عندي أي فكرة عن الأثاث الذي نحتاجه في البيت... كانت في ما يبدو وقد وصلت إلى قرارها في البقاء في البيت منذ ذلك الشجار الذي وقع بينها وبين الدادة مساء أمس، ولا أزال معجباً ببراعتها في المساومة. وحرصها على ألاّ تشتري القطعة من الأثاث الذي اشترته إلاّ بعد أن تجيد فحصها والتأكد من جودتها، وقد اشترت (حنبلاً) كبيراً من الذي كانوا يسمّونه (هندي)... بديع ألوان التخطيط، كما اشترت طوالات من (الطرف)... وعدداً من المساند، وما يسمى (الدفاعات) مكسوة كلّها بالدومسكو الأزرق المشجر... ومعها مجموعة من (الشراشف) التي

تبسط على الطوالات والمساند... ثمّ وقفت عند أكوام من المراتب القطن واللحف والمخدات... اشترت حاجتها، وكان هناك من قال إنّه (منجد) ومستعد أن يجيء إلى البيت لتنجيد القطن، وإعادة حشو المراتب والوسائد، وحتى اللحافين... في قماش قالت هي إنّه لا بد أن يكون جديداً، وأكد هو أنّ تاجراً عند باب (المصري) عنده أفضل أنواع القماش الذي يصلح لهذا الغرض.

باختصار، أصبح ما استطاعت أن تشتريه أمّي من الحراج مجموعة ضخمة من قطع الأثاث ومع أنّها كانت عندما تطمئن إلى أن ما معها يحتمل أو يكفي لشراء قطع أخرى، تقدم على شراء لوازم أخرى، منها (سماور) متوسط الحجم.. وإبريقان للشاي من الصيني المذهب الفاخر ومعهما ستة أكواب، وملاعق... ولكن القطعة التي ظلّت تتردد وتحجم في المجازفة بشرائها كانت (مفرشة) كما يسمّونها وهي (السجاد) العجمي... ولكنّها في النهاية غامرت، ودفعت قيمتها جنيهاً عسمنلياً كاملاً.

عندما مررنا في طريق عودتنا إلى البيت، ومعنا أو حولنا عدد من (الحمّالين) الذين حملوا المشتريات، رآنا العم صادق، فهتف:

– مبارك... مبارك يا فاطمة...

أمّا عندما دخلنا البيت، ورأتنا الدادة، ومعنا هذه المشتريات، فقد أدهشني أنّها بدت فرحة، ضاحكة السن، وكأنّها كانت تعرف أين ينبغي أن توضع هذه القطع من الأثاث، فقد تقدمت جميع الحمّالين إلى الدور العلوي من البيت... وفهمت، في ما بعد، أنّ فصل الصيف والسموم قد قارب النهاية، ولذلك فلا بد أن يكون الأثاث في المجالس العلوية. وما كاد (الحمّالون) ينصرفون، حتى شرعت أمّي تتجول في المجالس في هذا الدور،... لاحظتْ أنّه يحتاج قبل أن يفرش أو يؤثث، إلى عملية تنظيف... ولا أدري ما الذي قالته للدادة، التي فهمت أنّها بعد أن نتناول طعام الغداء، ستجيء بمن يساعد، أو يقوم بعملية التنظيف...

لا شك أنّ الخالة فاطمة جادة، قد أحسّت أو هي قد رأت، الحمّالين يدخلون بتلك المجموعة الضخمة نسبياً من الأثاث... فإذا بنا نسمع في الدهليز، (تصفيقاً) متتالياً... ما كادتْ أمّي تتساءل: (مين؟؟؟).. حتى سمعنا صوت الخالة فاطمة نفسها تقول:

– أنا يا فاطمة.. إنتي فين؟؟

وحين صعدت الخالة فاطمة، وألقت نظرة شاملة على قطع الأثاث، وعلى

الخصوص على تلك (المفرشة) العجمي... بدا عليها الارتياح والإعجاب، وقالت بنبرة تشجيع ورضا:

- أيوه يا بنتي.. هادا هوّه البيت اللّي اتولدتِ فيه... وولدك كمان اتولد فيه... إفرشيه... وبعدما تفرشيه... بكرة ولا بعده إن شاء الله... نيجي كُلّنا نقيل ونعيد هاديك الأيام الحلوة. اللّي ربنا كريم يعيدها عليكي... بس لمّا تفرحي بوصول (زاهد)... لا بد أنّه في الطريق... بيقولوا.. الطريق انفتح خلاص وكل الناس اللّي هَجْوَلْهم فخري، بيرجعوا...

كان التعبير الذي سطع على ملامح أمّي يؤكد بداية إحساسها بالاطمئنان، فقد ظلّت تردد عبارات الشكر والإمتنان. و(إن شاء الله...) و(ربنا كريم) إلخ.. وفيما كان الحديث يدور بينهما جاءت الدادة منكشة وهي تلهث وتقول ما معناه أنّ (الغداء جاهز)... وهنا أصرّت أمّي بحماسة شديدة، أن تتناول الخالة فاطمة غداءها معنا.. وهذا ما كان.. وتحلقنا حول المائدة المبسوطة على أرض الديوان، وقد بسطت عليها الدادة ما عندها من الحنبل القديم المهترئ...

وعادت الخالة فاطمة إلى الحديث عن العم محمد سعيد، وعلاقته ببنت (نجم الدين أفندي) واحتمال أنّه سيتزوجها لأنّه يريد (ولداً)... وعندما سألتها أمّي عمّا إذا كان قد خرج من البيت.. صفَقَتْ الخالة صدرها بيدها وهي تقول:

- وهوّه هادا عمره يسير؟؟؟ يعني بهون عليّه أنا إنّو يخرج من البيت.. ثمّ بعد لحظة صمت. قالت:

- بس بيني وبينك يا فاطمة... أنا زعلت من (بدريّة)... دي بدل ما تهدي بيننا، قامت من الصبح بدري.. وزي ما قال لها في الليل.. لمّت له ملابسه، وحطتها في شنطة السفر الكبيرة.. وجمعت له الكتب اللّي في الرفوف... وراحت مع جوزها.. وتركتني لوحدي... وحسينة شوفيها ما جات من اللّي راحت عندهم... وجا عمّك محمد سعيد، وجايب معاه حمّالين يشيلولو الشنطة والكتب..

وهنا قاطعتها أمّي بنبرة قلقة قائلة:

- وبعدين؟؟؟

- وهوّه ده يبغا له سؤال؟؟؟ أنا طردت الحمّالين اللّي جايبهم، وقعدت أبكي... ما هان عليه يشوفني قاعدة أبكي... واتصالحنا... لكن...

- لكن إيه يا خالة؟؟؟

- لكن أنا شايفتُه ما صفي... وأن جاكي ظني.. هادي البنت بشعرها الأشقر، وبياضها آخدة عقله... يمكن يا فاطمة.. يمكن يتجوزها..

***

لأول مرة، منذ عدنا إلى المدينة ودخلنا بيتنا، استطعت أن أتجول في غرفهِ من الدهليز إلى السطح... وحين كانت الدادة منكشة، وزميلة لها تقومان بتنظيف الغرفة الكبيرة... أرضها، ونوافذها، وأبوابها.. والحمام.. كنت أنا أتساءل بيني وبين نفسي: ترى أين كان ينام جدّي... وخالتي... ثمّ فجأة وعلى غير انتظار وجدت نفسي أتساءل... وأمّي مع أبي (زاهد) أين كانا ينامان؟؟؟ أصبحت لا أجهل أنّ الزوجين ينامان معاً... وخطر لي أن أسألها وهي منصرفة إلى تنسيق وضع الأثاث... فاقتربت منها وكدت أوجّه إليها سؤالي الحرج... ولكنّي أحجمت... كأنّي قد أحسست بشيء من الكسوف... التزمت الصمت ولكن ظلّ في نفسي تطلع إلى أن أنتهز فرصةً ما فأسألها.

كان من ما اشترته أمّي من الحراج... ما يسمّى (قمرية) وهي مصباح من النيكل، يملأ كيروسين، وفي جوفه تحت وعاء الكيروسين وعلى رأسه (الفتيلة) العريضة، جهاز يُدار له زنبرك كما تدار أو تملأ الساعات... فتدور مروحة صغيرة من النحاس أو الصفر..... وكانت فرحتها غامرة بالقمَرية ومعها لمبة ذات (فتيلتين)، ولمبة أخرى من النوع الذي يعلّق في الجدار.

أذكر تلك الليلة الأولى التي أضيء فيها المجلس، الذي بسط على أرضه الحنبل الهندي الكبير، وتلك السجادة العجمية... وصُفّت في الصدر والجانبين الطوالات، والمساند والدفاعات، أذكر كيف تغيّر احساسي بالضيق والرهبة من الظلّام الذي كان يكمن في الدهليز على الخصوص..

أخذت لنفسي مكاناً ممّا يلي النافذة المطلّة على الزقاق، بينما جلست أمّي على الأرض وأمامها بين يديها، الحقيبة الصغيرة السوداء التي أصبحت تضع فيها النقود منذ قدمها لها العم اسماعيل... كانت تصنّف قطع النقد الفضية، والنيكل... والجنيهات العسمنلي التي كان ما بقي منها أربعة جنيهات... وبعد أن فرغت، من الحساب والتصنيف، أصدرت زفرة طويلة وهي تقول:

- الحمدلله... اللّي اشتريناه كلّه بتراب الفلوس..

***

كان علينا في تلك الليلة أن ننام أنا وهي، على طوالتين، وأن نرتفق نفس اللّحاف المهترئ القديم.. لأنّ المنجِّد سيجيء غداً... ولن أنسى قطّ، أنّها، في غمرة ارتياحها لما تمّ لها من شراء الأثاث، والقمَرية والإضاءة، التفتت إليّ، وأخذتني في حضنها.. وضمتني إلى صدرها بحرارة.. وحين رفعت عني ذراعيها.. ورفعت وجهي إلى وجهها رأيت الدموع تنهمر من عينيها... لم أفهم سبباً للبكاء... ولكن كان في نفسي ذلك السؤال الحائر، عن (أبي)... ليس من هو، فإنّي سمعت منها ومن جدّي رحمه الله، وحتى من خالتي أيام مرضها في حلب أنّه (زاهد)، وأنّه (عالم)... وأنّه (ختم القرآن كلّه) في صلاة التراويح ليلة 27 رمضان... كان السؤال الذي يلحّ عليّ هو: أين كانت أمّي، ومعها ذلك الأب.. أين كانا ينامان في هذا البيت؟؟؟ ثمّ أين هو الآن لقد سمعت من الخالة فاطمة، أنّ الذين (هَجْولَهم) فخري يعودون إلى المدينة.. فلماذا لم يعد أبي؟؟؟

ولكن.. مع كل هذا الإلحاح والقلق لم أجرؤ أن أسألها... وعلى الخصوص حين رأيتها لا تزال تبكي... وما كادت تدخل الدادة منكشة، وتجلس، حتى أخذت أمّي تتحدث إليها، وكان الحديث، عن الذين كانوا يملأون هذا البيت... وها هي الليلة.. وحدها، لم يبق منهم أحد.

***

بزة البحار. والدموع

يبدو أنّ أمّي لم تنعم بنوم هادئ في تلك الليلة، وهي الأولى التي نبيتها في المجلس الذي استكمل أثاثه، وأضاءته تلك القَمَرية، واللمبة (أم فتيلتين)، ثمّ تلك التي تُعلق في الجدار... أدركت ذلك حين استيقظت مبكراً... وأضواء الفجر تتلصص، من خروم (الشيش) في النافذة المطلّة على بيت الخالة فاطمة... وتلك الأخرى المطلّة على مدخل الزقاق. كانت مستغرقة في نوم عميق... كانت كالعادة إلى جانبها، على ذلك اللحاف المهترئ والوسادتين الباليتين، لأنّ المرتبة واللحاف الجديدين، لن نستمتع بهما إلّا عندما يقوم بصنعهما المنجّد الذي اتفقتْ معه، على أن يجيء ضحى اليوم. لم يعد ممّا يضايقني أن أسمع شخير الدادة منكشة يرتفع، ويبدو كأنّه حشرجة، مخنوق... كانت هناك مما يلي باب المجلس... هي أيضاً يبدو أنّها لم تنم مبكرة... إذ كان من عادتها في الغالب، أن تستيقظ، وأن تشرع في عملها وواجباتها الصغيرة. لم أجرؤ على ترك الفراش، إذ لم يكن ضوء الفجر قد زحف على بقية العتمة، ليس في المجلس فقط، وإنّما حتى في الزقاق... ألقيت نظرة على وجه أمّي... كان بادي الهزال والشحوب، وقد ذكّرني بأيام معاناتها من حمى الملاريا التي، لا أدري كيف انقطعت منذ وصلنا المدينة وإن كانت هي لم تنقطع عن شرب (مطبوخ أو منقوع خشب الكينا)، الذي لا تنساه، قبل أن تتناول فطورها في الصباح، وبعد وجبة العشاء في المساء. كانت هناك على الطوّالة مما يلي النافذة المطلة على الزقاق لفّة أو بقشة الملابس التي اشترتها لي من (مغازة العم اسماعيل)... وقد نشرت إلى جانبها (البدلة البحاري) والحذاء البني والجورب... مما فهمتَ منه، أنّها كانت تعدّهما لي في اللّيل... واليوم بعد المراحل الذاهبة من العمر، وبعد الرصيد المتراكم من تجارب الحياة، أدرك تلك المشاعر التي تموج في صدر الأم الشّابة، التي لا يحزنها شيء كما يحزنها أن يظهر وحيدها

بذلك المظهر الرث، وقد ظلّ يلازمني منذ كنّا في الشام ثمّ في الطريق الطويل منها، على سطح الباخرة إلى ينبع من القنطرة، ومن ينبع على الجمل إلى المدينة... أدرك اليوم أنّها ما كادت تستلم الجنيهات العُسْمنْلي الستة من العم عثمان حتى كان أول ما تطلعت إليه، أن تتخلّص هي من معاناتها، بتخليصي من ذلك المظهر الرث... الثوب القصير بادي البلى، والحذاء الذي يبصبص منه إصبع الإبهام وقد تشقق واسودَّ وأصبح يحتاج - كما قالت - إلى (دورة وصباحية) ليعود إصبع آدمي. خطر لي، وأنا في الفراش أن أنهض وأحاول أن أرتفق الحذاء البني الجديد، و(بدلة البحاري)، لكن سرعان ما تراجعت لأنّي لم أجرِّب قطّ ارتداء بدلة كهذه... حتى يوم أخذني جدّي معه إلى سوق الحميدية في دمشق واشترى لي ولأخي تلك الملابس الثقيلة من الصوف، وظلّ - رحمه الله - يكابد حملها تحت زخّات المطر والبرد، إلى أن ركبنا (الفيتون).. لم يكن بينها بدلة من هذا النوع... وصرفني في هذه اللحظة عن التفكير في البدلة والحذاء والذكريات البعيدة، هديل حمامة... وليس حمامة واحدة، بل عدد من الحمام... أصغيت بكل جوارحي، وداخلني احساس غريب بالإشفاق أو الحزن أو شيء من هذا القبيل، لم أعرف له تفسيراً... كان هديل الحمام قريباً... نهضت من فراشي واتجهت إلى النافذة بخطوات حذرة... كان هناك زوج من الحمام الذي تعلّمت في ما بعد أنّه (حمام الحرم)... كان لهما عش في الجزء العلوي من النافذة بين فتحة من الخشب المهشّم... وهناك في شبّاك لبيت (خاتون الهندية) المهجور.. عدد من أزواج الحمام وأعشاشها... خيّل إليّ أنّ الهديل هنا وهناك، نداء يذكر بأنّ موعد الفطور قد حان... وتساءلت بمنطق طفل لا يدري شيئاً كثيراً عن الحياة... (من يا ترى الذي سوف يقدم لها هذا الفطور؟؟؟) ما دام بيت (خاتون) مهجوراً.. وبيتنا، وفيه الحمامتان، مهجور أيضاً... ولم نسكن هذا المجلس إلاّ البارحة... التفتُّ نحو الدادة التي كانت لا تزال نائمة ترسل شخيرها الرهيب... تمنيت لو أنّها تستيقظ فتقدم للحمامتين شيئاً للفطور... ارتفعت على رؤوس أصابع قدميَّ محاولاً أن أرى ما في العش... ورأيت ما لم يسبق أن رأيت مثله قط... زوج ممّا يسمّى (الزغاليل).. تركتهما الحمامة وقد طارت عندما داهمتُها برأسي ونظراتي.. كلا الزغلولين كانا قد فتحا منقاريهما... وهنا تساءلت عن الماء... لاماء في العش ولا أكل... ووجدتني أقول... (حرام !)... كانت حركتي... وربما ارتفاع صوتي قد أيقظا أمّي... ألقت عليّ نظرة لم تخل من توجّس... وما كدت أراها يقظة حتى أسرعت أقول:

- الحمام يا ففَم... ما عنده أكل ولا موية.

- حمام إيه؟؟؟

- هادا الحمام اللّي في الطاقة.. شوفيه.. جيعان يطلب الفطور من الصبح.

ابتسمَت... ولم تُخيّب رجائي... إذ نهضت وجاءت تقف إلى جانبي... وهي تقول :

- هادا حمام الحرم.

- يبغا يأكل... وما عنده موية.. وبزورتهم الصغار.. شوفيهم فاتحين فمّهم عطشانين.

وضعت يدها على كتفي... وظلّت بسمتها تتسع.. وهي تقول:

- حمام الحرم، يلقط رزقه من الزقاق... ومن الحرم.. ومن كل مكان.. والزغاليل أمّهم هيّه مع أبوهم، يجيبولهم الأكل.. ومن فمّهم... يلقِّموا الصغار.

- أمّهم... وأبوهم؟؟؟

- أيوه... الحمامتين اللّي شفتهم، ودحّين طاروا خايفين منّنا... واحدة منهم أمّهم والتاني اللّي بينادي هوّه أبوهم..

- اللّي بينادي هوّه أبوهم؟؟؟

- أيوه، الأم تفضل ساكته، والأب هوّه اللّي ينادي.. هوّ اللي...

ولا أدري، بأي دافع غامض، أحسست بكلمة (الأبّ) هذه، تتكرّر في كلام أمّي عن الحمام، بما يشبه همسة تملأ تفكيري، فإذا بي ألتفت إليها وأقول:

- طيّب.. فين أبويا أنا ما هو معانا؟؟ زي أبو الحمام؟؟؟

قلت هذه الكلمة، وأنا أنظر إليها، نظرة يبدو أنّها لم تتوقعها، كما لم تتوقع هذا السؤال... تركتني حيث كنت واقفاً أمام النافذة... واتجهت نحو باب المجلس في مشية مسرعة وقبل أن تخرج، سمعتها تنبّه الدادة منكشة ولكن بصوت خيّل إليّ أنّه مشحون أو مخنوق... وخرجت إلى دورة المياه.

استيقظت الدادة، وأسرعت تنهض من فراشها، وإذ لم ترَ أمي، التفتت إليّ وهي تتمتم بكلمات هامسة.. فهمت منها أنّها تطلب، أن أرافقها - كعادتها - لتغسل لي وجهي، بينما تتوضأ هي للصلاة.

***

لاحظت، ونحن نتناول الفطور الذي جهّزته الدادة، وهذه المرة كانت هناك أطباق

صغيرة فيها قطع الجبن، والزيتون... وطبق ثالث، فيه العسل ممزوجاً بالسمن، وخبز القمح الذي حرصت الدادة على تسخينه... لاحظت أنّ أمّي تلتزم الصمت، وكأنّها تتحاشى النظر إليّ... وأدركت أنّ ذلك السؤال الذي انفلت مني كان مفاجئاً، وهو الذي غيّر مزاجها وضيّع ابتسامتها التي كانت تملأ محيّاها عندما دار الحوار بيني وبينها عن الحمام.

من جانبي أنا أيضاً، حرصت على التزام الصمت، وشعرت كأنّي أتعهد بيني وبين نفسي ألا أعود إلى هذا السؤال قطّ... أحسست بالتزامها الصمت، وكأنّي قد حرمت نفسي من رضاها. وما أسرع ما دار في نفسي سؤال غامض ربّما يتبلور لفظاً، ولكن لا شك أنّه كان يعني:

- من لي إذا؟

- إذا؟؟؟ إذا؟؟؟

وتعثرت الكلمة في ذهني... ولكنّي أدرك اليوم أنّها كانت شحنة من التفجّع والخوف من المصير المجهول إذا لم تكن هذه الأم معي... إذا لم أكن أنا معها؟؟؟ كما قالت أو ظلّت تقول عشرات المرات، منذ مات الجميع في حماه وحلب:

- كلّهم... كلّهم راحوا...

كلّهم راحوا.. ولم يبق لي إلاّ هي... فأي مصير ذلك الذي يتربّص بي، إذا... ولا أستطيع حتى اليوم أن أقول: (إذا فقدتها)، وإن كان الواقع، أنّي فقدتها، يوم توفّيت وهي في الستين من عمرها رحمها الله.

***

أحسَّت الدادة بأنّ الجوّ متوّتر... وأنّ شيئاً ما قد حدث فأغضبها.. لعلّها كانت تخشى أن تتساءل.. ولكن أمّي ظلّت تتناول فطورها وتشرب الشاي.. ونظرتها سارحة. لا تستقر على أحد منا نحن الاثنين.

وأخيراً نهضت... وهي تقول:

- تعال..

أسرعت أقف... وحين اتجهت إلى حيث كانت الأمتعة.. أو الملابس التي اشترتها لي من (مغازة) العم اسماعيل، ذهبت إليها... أخذت تخلع عني الثوب القصير الرث، وما تحته من الملابس الداخلية... ألبستني ملابس داخلية جديدة.. ثمّ

أخذت تلبسني (بدلة البحار)... ولم تنس أن تجعلني أرتفق الحذاء البني الجديد... ولكن سرعان ما عادت تخلعه وتجعلني أرتفق الأسود، لأنّ أشرطة البدلة البحار كحلية اللون... وقالت:

- هيا روح امشي قدّامي.. خلّيني أشوفك من بعيد.

ومشيت كما طلبت... وقبل أن أقف قالت:

- روح وتعال... امشي كمان..

وظللت أمشي في الغرفة جيئةً وذهاباً أمامها.. إلى أن رأيت وجهها تترقرق فيه ابتسامة حذرة... ثمّ قالت:

- تعال...

وعندما وقفت أمامها احتضنتني بلهفة، وضمتني إلى صدرها وأجهشت بالبكاء.

ولا أدري، لِمَ، وبأي مشاعر غامضة، وجدت نفسي أنا أبكي معها؟؟؟ ولم تقل شيئاً في اللحظات التي كانت تضمني إلى صدرها... ولكنّها حين أخذت ترقأ دموعها بمنديل في صدرها جعلتني أقف أمامها... ورفعت وجهها تنظر إليّ نظرة حائرة ساهمة، ثمّ قالت:

- أبو الحمام، قاعد مع رفيقته... أم عياله... لكن أبوك إنت سافر يا عزيز.. ومع أنّي كنت أتحاشى أن أسمع شيئاً عن الموضوع الذي أحسست بأنّه أزعجها فقد وجدت نفسي أقول:

- سافر؟؟؟ لكن نحن كمان سافرنا.. ليه ما سافر معانا؟؟

- سافر لوحده.. قبلنا.. قبل ما يسفرنا فخري..

- طيّب.. يا فقَم... لكن ليّه ما جا معانا؟؟؟. اللّي سافروا، خالة فاطمة بتقول، إنّهم بيرجعوا.. ليه هوّه ماجا؟؟؟

وكأنّها لم تطق أن تسمع المزيد، فقد استعادتني إلى حضنها... وضمت رأسي إلى صدرها.. وعادت تجهش بالبكاء.. وعدت أنا أبكي معها.. وكانت المفاجأة، أن يرتفع نشيج الدادة عالياً.. وأن نراها تنطرح حيث هي...

ارتبكت أمّي... أزاحتني عنها... وهي تقول:

- القرينة؟؟؟؟

«القرينة»..

أسرعت أمّي إليها، بينما تهيّبت أنا الموقف لحظات، إذ سرعان ما تذكرت مشهدها، وهي صريعة هذه القرينة، يوم قام الشيخ الزاكور بعملية إخراج "الساكن" من تلك الحنيّة اللعينة.. لكن ما لبثت أن تقدمت ووقفت إلى جانب أمّي التي أخذت رأس الدادة بين يديها، لنرى وجهها الأسمر وقد غمرته الدموع، ونشيجها يتعالى، بحيث كان يمكن أن يُسمع في الزقاق، لو أن أحداً كان عابراً فيه... ولا أدري، كيف قدّرتْ أمّي أن حالة الدادة ليست (القرينة)... إذ أخذت تربت على خدّها وتكرّر نداءها باسمها، وتقول بالتركية كلاماً لم أفهم منه شيئاً، ولكن الدادة نفسها أخذت تتكلّم هي أيضاً... ثم جلست، وبسطت كفيها، ورفعتهما، وهي تردد: (إن شاء الله...) فترددها معها أمي.. ثم ما لبثت الدادة أن نهضت واتجهت بخطوات تتعثر إلى باب المجلس، بينما التفتت أمّي إليّ وهي تقول بصوت يزحمه البكاء:

- قول يا عزيز... قول إن شاء الله... قول يا رب..

فأسرعت أقول إن شاء الله يا رب... إن شاء الله يا رب.. ولم أفهم شيئاً من كل هذا، إلا بعد فترة، عندما خرجت الدادة تتسوّق... فقد فهمت أن الدادة المسكينة قد تأثرت لبكائنا وللكلام الذي دار بيننا عن أبي... وأنها في النهاية كانت تتضرّع إلى الله أن يعيده إلينا من رحلته في وقت قريب.

منذ ذلك الصباح، وما دار فيه من حوار بيني وبين أمي، ثم ما شهدته من انفعال الدادة وتأثرها، بدأت عندي رحلة التعلّق بذلك الأبّ، الذي سافر وحده قبلنا... والذي لم يعد وقد عدنا، وأخذ الذين سافروا مثلنا يعودون.. وهو وحده الذي لم يعد.

وإذْ لم أكن قد نسيت ألوان ومشاهد العذاب التي عشتها مع هذه الأمّ، بعد أن مات

الجميع، ولم يبق لنا أحد... تلك المشاهد في شوارع حلب وطرقاتها، وعربات نقل الموتى، تجمعهم من الأرصفة ليتلامح بينها إنسان، لا أكاد أتبيّن صورته... ملامح وجهه، حتى تزحمه عشرات أو مئات الملامح والصور.. تزحمه فيغمرها ما يشبه غيوماً داكنة السواد، ولكنّها تظلّ مع ذلك هناك... مع الوجوه المُزرقّة... وجوه الموتى الذين تنقلهم العربات من الأرصفة والطرقات، وقد ترتسم صورة لرصيف ذلك المسجد الذي ذهبتُ مع أمّي إليه بحثاً عن إنسان تستعين به على حلّ مشكلة الأوراق التي تحتاجها للسفر إلى المدينة... رصيف ذلك المسجد بالذات، ترتسم في ذهني له صورة غريبة... ولا أدري حتى الآن، لِمَ كان يخيّل إليّ أن أبي قد سقط على ذلك الرصيف... وأن عربة نقل الموتى قد التقطته من هناك... ويخالجني شبه يقين بأن الأمر كان هكذا... ألم تقل أمّي أكثر من مرة، إنه (عالم!) وإنه صلّى بالناس صلاة التراويح وختم القرآن في تلك الصلاة في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان؟؟ فلا بد إذاً أنه كان يصلي بالناس في ذلك المسجد، وعندما خرج يبحث عنّا، وقد هدّ قواه ذلك الجوع، وحمى التيفوس، سقط على الرصيف... مات... ولم يقف أحد من الذين خرجوا من المسجد... كانوا هم أيضاً مجرد هياكل عظمية، مصيرها أن تسقط.. وجاءت تلك العربة الطويلة، التي تجرّها بغال أو خيل، وهبط منها اثنان، حملوه... من دون أن يُعنوا حتى برؤية ملامحه، وقذفوا به على تلك الجثث، بوجوهها المُزْرقة، وأفواهها المفتوحة، وذهبوا به... بهم... بمئات من أمثاله... ذهبوا بهم إلى تلك المقبرة!!! بلى لا أزال أذكرها... فقد رأيت تلك العربات، وعليها الجثث، يوم ذهبت مع الصبية إلى تلك الربوة، حيث عدت وعُبّي ممتلئ بالخبيزة... إنه... أبي... هناك... وما دام جدّي قد مات، وسبقته خالتي... فلا بد أنهم جميعاً في تلك المقبرة في حلب. ولا أكاد أستوعب هذه الصورة بتفاصيلها حتى ألوب حولها... أحاول أن استوضح ملامحه بين العشرات والمئات من ملامح الخلق الذين ظَلَلْت أراهم منذ اللحظة التي ركبنا فيها البابور من المدينة إلى أن عدت إليها مع أمّي على الجمل من ينبع... ولكن لا سبيل مع تلك الغيوم داكنة السواد التي تغمر الصورة كلّها....

***

في مكاني عند النافذة التي تسكنها الحمامتان، والزغلولان في عشهما، كنت أعايش حمّى الذكريات التي يبدو أنها استغرقتني تماماً، بحيث لم أتنبّه إلى أن أمّي قد خرجت من المجلس، لا أدري إلى أين من غرف البيت، وإذ دَخَلَتِ الآن سمعتها تقول:

- قوم معايا... المنجّد جا... بيدق الباب.

لست أدري كيف لم أسمع الطرق على الباب... وكيف عرفتْ هي أنه المنجّد الذي اتفقت معه على أن يجيء في ضحى ذلك اليوم... وحزرت، وهي تطلب أن أقوم معها لنفتح الباب، إنها تتهيّب أن تهبط وحدها إلى الدهليز المعتم، وأن تفتح للرجل الغريب...

فتحنا الباب، لأرى الرجل وقد حمل على رأسه تلك المرتبة الكبيرة والوسائد التي اشترتها أمّي من الحراج، وفي يده عدة التنجيد، وهي تلك الأداة التي يمتد بطولها بين الرأس والقاعدة وتَر ثخين طويل، ومطرقة أو ما يشبهها غليظة من الخشب. وقبل أن يدخل، قالت لي أمّي:

- امشي مع الرجال.. خلّيه يدخل الديوان.

قالت ذلك... ثم اتّجهت نحو السلالم تحتجب عن الرجل.. وهي تقول له:

- ادخل مع الولد... في الديوان... ودحّين أرسل لك القماش.

لم يتكلّم الرجل... ومشيتُ أمامه إلى الديوان... وقبل أن يلقي على أرض الدكة ما كان يحمله على رأسه.. التفتَ إليّ يقول:

- إجري يا وليدي.. جيب لي كاسة موية.. بس باردة.. باردة.. فاهم؟

أسرعت كما طلب.. وجدت أمّي أمامي على السلالم.. وقد سمعتْه يطلب الماء، فقالت: دحّين تيجي منكشة تودّيله الموية والشاهي كمان.. تعال أنت ودّيله القماش.

***

كانت عملية تنجيد المرتبة مسلّية جداً بالنسبة لي... إذ ما كاد يبدأ في ممارستها، وأرى القطن ينتفش، ويتكاثر بعد ندفه حتى أخذت أتساءل بيني وبين نفسي: كيف يا ترى سيصنع الرجل من هذا الحجم الكبير مرتبة ووسائد تصلح للنوم... وجاءت منكشة بالشاي، وعندما ارتفع صوت المؤذن لصلاة الظهر... ولم يكن المنجّد قد فرغ من عمله بعد، جاءت تقول له:

- تنجيد مرة ثانية... دحّين فيه غدا..

قصدت أن عليه أن يعيد ندف القطن، وأنها ستأتيه بوجبة الغداء..

لم يقل الرجل شيئاً.. هزَّ رأسه موافقاً.. وعاد إلى عمله، ورفع عقيرته بغناء لم

يتوقف عنه منذ بدأ العمل، وإن كان صوته يكاد يبدو مخنوقاً، بالغبار الذي لا شك أنه كان يستنشقه من دون انقطاع.

ظللت أتفرّج على عملية التنجيد، منبهراً بحجم القطن الذي أخذ يملأ حيزاً كبيراً من دكة الديوان، يتجمّع في الركن، كلّما أزاح الرجل، الكمية التي يتم ندفها إليه... وجاءت منكشة بالغداء... فما كاد يراها داخلة بالـ(تبسي) حتى توقّف، ونهض.. وتمطى، ثم شمّر عن ساعديه، وطلب ماء للوضوء.. وهو يقول:

- لا يفوتني الظهر.

ما كادت تقع عينا أمّي عليّ، وأنا أسرع إلى المجلس لتناول طعام الغداء، حتى خفقتْ صدرها بيدها، وهي تقول:

- وَهْ... وَهْوَهْ... إصحا تدخل.. خليك واقف عندك...

لم أفهم شيئاً.. ولكني وقفت مندهشاً، ورأيتها تنهض عن المائدة المبسوطة على الأرض وتسرع إليّ... تسحبني من يدي بشيء من العنف.. إلى (بيت الماء..) ... حيث جرّدتني من ملابسي كلّها، وقامت بغسلي، ودعك كل جسمي بالصابون والليفة... وبهذا أدركت، أن غبار القطن، وما يتناثر منه، كان قد لفني في أبشع كسوة تخطر على بال. وعندما عدنا إلى المجلس ألبستني الجديد من الملابس الداخلية للمرة الثانية.. ثم فتحت لفافة كبيرة من الورق الأسمر، علمت أن الدادة قد جاءت بها من مغازة العم إسماعيل وفيها الثياب الجديدة التي جهّزها ذلك الخياط من الأقشمة التي اشترتها يوم ذهبنا إليه. ألبستني أحد هذه الثياب.. وتحققت من طوله واتّساعه وطول أكمامه.. وزرّرت لي فتحة الصدر.. وأخذت تتأمّلني بنظرة راضية معجبة.. وهي تقول:

- هيا اجلس نتغدّى...

والتفتت إلى الدادة تقول:

- التوب اللّي في (بيت الما)، وكمان التوبين اللّي في البقشة القديمة... كلهم ما عاد أشوفهم... أحرقيهم.

وقبل أن تتناول أول لقمة من الأرز (البخاري) الذي كانت رائحة نكهته الشهية تملأ صدري، رفعت كفيها ورأسها إلى السماء وقالت:

- يا ربي لك الحمد.

وقبل أن نفرغ من تناول الطعام سمعنا صوت المنجّد يقول:

- هيا يا هوه... تعالوا شوفوا الشغل.. فين تبغوا المرتبة والمخدات؟؟

***

قبيل المغرب.. وقد بدأت العتمة تتسلّل إلى المجلس... سمعنا (صفقة) وصوت الخالة فاطمة جادة تنادي من بيتها.. من مجلسها الذي يقابل مجلسنا بالضبط... أسرعت أمّي إلى النافذة بينما كانت الدادة تملأ (زنبرك) القَمَريَّة، وتشعلها... ثم تعالج إشعال اللمبة التي تعلّق على الجدار... لم أتابع الحوار الذي كان يدور بين أمّي والخالة فاطمة، إلى أن سمعت صوت (بدريّة)... أسرعت أقف إلى جانب أمّي لأراها... بدريّة... واقفة خلف أمي... كانت نافذة الخالة فاطمة خالية من (الشيش) الذي كان في نافذتنا... فكان يتاح لي أن أرى بدريّة، وفي نفسي أن لو تراني هي أيضاً، وقد ارتديت هذا الثوب الجديد الأنيق، بل لو أن هذه الفجوة بين النافذتين تتلاشى، فأقترب منها، لترى كيف أمسيت بهذا الثوب، وبعد أن قامت أمّي بدعك كل جزء من جسمي... عادت بي الذاكرة إلى الليلة التي قضيتها ساهراً إلى جانبها، وهي تتحدث إلى أمّي عن أبيها وحكايته مع بنت نجم الدين أفندي وقد كنت في ذلك الثوب الرث، الذي أمرت أمّي بحرقه هو وغيره من الملابس الرثة المهترئة لئلا تقع عيناها عليها مرة أخرى... كانت تقف هناك خلف أمّه جميلة، رائعة الجمال... لو لا أن شعرها كل معصوباً في ما يسمّى (المحرمة)... وذلك العطر... ذلك العطر الذي عشت مشاعر أريجه الغريب طوال تلك الساعات التي سهرتها إلى جانبها، وشعرها الوحف، يملأ الوسادة بيني وبينها... لا سبيل إليّ أن أعب منه.. وهي هناك بعيدة... خلف أمّها... لم أتصور أنها يمكن أن تراني في موقفي خلف شيش النافذة... ولكن ها هي تسأل أمي:

- هادا عزيز اللّي جنبك يا ستيتة؟؟؟

- إنتي شايفته.. أيوه... هادا عزيز... لتشوفيه دحّين... بعدما روشْتُه ولبس التوب الجديد... قعد اليوم يتفرّج على تنجيد المرتبة... وطِلْع لي... الله لا يورّيكي... يخوّف...

كانت المفاجأة التي كدت أقفز فرحة بها، أن سمعت الخالة فاطمة تقول:

- دحّين تجيكي بدريّة... وأنا ألحقْها بعد شوية... نبغا نبارك لك... ونقرأ الفاتحة على أرواح اللّي راحو. رحمة الله عليهم..

استدارت الخالة فاطمة ذاهبة عن موقفها من النافذة... بينما ظلّت بدرية واقفة لأسمعها تقول:

- اسمعي يا ستيتة... إبغا إحكيكي... عن بنت نجم الدين... جاء واحد خطبها وسّط أبويا...

ووضعت كفّها على فمها تكتم ضحكة.. ثم قالت:

- دّحين أجيكي.. وأغلقت النافذة.. لتلتفت أمّي إلى الدادة التي كانت تتهيّأ لصلاة المغرب... وكلّمتها باللغة التركية، ما فهمت منه أنها تطلب منها أن تستعد بوجبة العشاء للضيوف... وأن تأخذ اللمبة التي تعلّق في الجدار لتعلّقها في الدهليز... وأن تشعل اللمبة (أم فتيلتين).

قالت أمّي هذه الكلمات.. وقد شعت في وجهها فرحة عبّرت عنها عيناها اللتان أعتقد بأني كنت أرى فيهما بريقاً وألقاً لم يسبق أن رأيت مثلهما في هاتين العينين من قبل... وأسرعتْ إلى البقشة التي لا تزال تلف فيها فساتينها... فتحتْها... وأخذت تنشر ما فيها... تقلب هذا... تتأمله ثم تعيده... وتأخذ الآخر... وهكذا... ثم ألقت نظرة عليّ... وطفرت من عينيها دموع، لم تستطع أن تمنعها... ثم قالت في هدوء:

- نسيت.. نسيت اشتري لنفسي شيء.

لم أقل شيئاً.. وإن كنت قد أدركت أنها تريد أن تظهر أمام (الضيوف) بمظهر لائق... ولم تكن الفساتين التي تأملتها، مما يصلح لسهرة مع (ضيوف) يجيئون لأول مرة بعد أن تأثث المجلس... وأضاءتْه القمرية... واللمبة (أم فتيلتين).

رجّال البيت

لم يطل إنتظارنا للضيوف... فقد أسرعت منكشة تفتح الباب، حين سمعتُه معها يطرق... كنت أسابقها في السلالم القليلة إلى الدهليز... كاد الثوب الطويل يتسبب في تدحرجي وسقوطي على حجر السلالم، ولكن استطعت أن أسيطر على خطوتي... بل لقد سبقت الدادة إلى رفع رتاج الباب. وحين أُشرع مفتوحاً، كانت (بدريّة) هناك... وقد لفّت نفسها في (شرشف) مرقط الألوان، بحيث ينسدل من قمة الرأس إلى أخمص القدمين. ولكن إحدى يديها كانت تمسك بالشرشف بحيث يحجب الفم وجزءاً من الوجنتين، لتظهر العينان والحاجبان... ولعلّ القارئ يستكثر أن أقف عند تفاصيل من هذا النوع، وقد كنت الطفل الذي لا ينتظر أن يقف عندها... ولكن ليعجب القارئ وليستكثر كما يطيب له، فإن الصورة التي أجدها الآن تسطع في ذاكرتي تستحق في تقديري، أن ترسم، لو كنت أجيد الرسم، أو لو كنت أستطيع أن أصف المشهد، كما رأيته يومها، وكما أراه الآن لفنّان يتسع صدره - وخياله - لاستيعابه... إنه الانبهار العفوي بالجمال يحفر في الذاكرة حتى أدق التفاصيل... حتى تلك الحبّات الصغيرة من الأزهار تصنع من ألوان الحرير، وتُسيّجُ منديل الرأس، لتضيف إلى الجبهة أو الجبين (طعماً) حلواً... بلى... حتى تلك الحبات من الأزهار، لا أنساها حين رأيتها تتلهّف على الجبين، وتكاد تتوخى موقعها من الحاجبين.

كان الدخول عبر الباب إلى الدهليز يستلزم الانحدار درجتين أو أكثر... ولم تكن بدرية تجهل ذلك، إذ لم تكن هي المرة الأولى التي تدخل فيها البيت... ولذلك، كان لا بد أن تستعين بمن يمد يده لها. أو أن ترتكز على الجدار... فإذا بها تضع يدها على رأسي... ترتكز عليها، ثم تهبط، وتدخل الدهليز الذي كانت (اللمبة المعلّقة) على الجدار تنشر في جوانبه ضوءاً كافياً - ربما لأول مرة - منذ عدنا من الشام.

كانت ضحكتها تملأ ذلك الدهليز وهي تداعبني قائلة:

- أظنك رايح تِفْضَلْ (قُصمة إفرنج)...

لم أفهم، في تلك اللحظة أي معنى لـ(القُصمة) أو لـ(الإفرنج)... وفي غمرة فرحتي البالغة برؤيتها تجيء إلى بيتنا، نسيت أن أسأل أمّي عن (قُصمة الإفرنج) هذه... ولكن في ما بعد - مع الأيام - عرفت أن من يكون بالغ القصر قامة، يطلقون عليه أو يمازحونه في المدينة بلقب (قصمة إفرنج)... ولا أدري فلعلّ لها أصلاً مهجوراً في الفصحى. كأن بدرية حين ارتكزت على رأسي وجدتني أكثر قصراً مما كانت تتوقع فقالت إنها تخشى أن أظلّ قصيراً أو (قُصمة إفرنج).

حين وقفت بدريّة على عتبة باب المجلس، وكانت تضيئه القَمَرية واللمبة (أم فتيلتين) قالت وهي تدير بصرها في ما تراه:

- أظن يا ستيته، هادا هوّه المجلس، اللّي كان يجلس فيه سيدي أحمد صفا، رحمة الله عليه...

وقبل أن تجيبها أمّي بشيء أردفت تقول، وهي تضحك ضحكة خفيفة:

- لا تقولي لأمّي... أنا كنت أشوفه، من عندنا... في الظلام، وهو قاعد هناك... في يده الكتاب الكبير... وعلى عينه (المِنْضرة)... والرجال قاعدين حواليه... كان يقرّبها من الكتاب.

- أيوه يا بدرية... هادا هوّه مجلسهم... اتفضلي... ادخلي.. اهلا وسهلا يا مرحباً.

- المرحّب يسلم... يا ستيته، إنتي تعرفي نجم الدين أفندي؟؟؟

ألقت سؤالها وهي تخطو، بضع خطوات لتجلس هناك في ما يلي النافذة التي تطل على مدخل الزقاق. فتقدّمت منها أمّي تأخذ الشرشف الذي تتلفع به لتثنيه... ثم قالت:

- من اسطنبول؟؟

- أيوه... كده سمعت.

- ما دام جا من اسطنبول لازم يا ستيته يكون مرسول من السلطان.

وضحكت أمّي وهي تقول:

- ليه هوّه كل واحد يجي من اسطنبول، لازم يكون مرسول من السلطان؟؟؟ الناس كلّهم يروحوا اسطنبول ويجوا منّها.. حتى عم محمد سعيد... يا ما راح اسطنبول ورجع منها.

- أيوه صحيح.. أنا باسمع من أمّي أنّو أبويا، كان يسافر... يروح بلد اسمها "مشقلب" شويّه... من بلدان الكفار... المسكوف... وكان لازم يقعد في اسطنبول، لمّا يروح من هنا... وكمان لمّا يرجع من هناك...

- كلّهم.. كلّهم كانوا لازم يروحوا بلدان الآباء والأجداد.. بلدان المسلمين اللّي في التركمان... والقازاق... وبخارى... لكن ما في طريق إلا من اسطنبول.. وبلدان المسكوف.

- المسكوف من بلدان الكفار يا ستيته؟؟؟

- أيوه... المسكوف، همّ الكفّار... همّ اللّي قاعدين للمسلمين في الطريق بين اسطنبول... وبين بلدان التركمان والقازاق وبخارى.

وفي اللحظات التي كان يدور فيها هذا الحوار بين أمّي وبدرية، كنت أنا أتساءل بيني وبين نفسي: أين يا ترى ينبغي أن أجلس؟؟ في نفسي طبعاً أن أجلس بجانبها.. ولكن ماذا يمكن أن تقول أمي؟؟ لم أكن أعرف (الأصول!) التي تعلمتها مع الأيام... وهي أن أجلس بعيداً عمّا يصطلحون على أنه (الصدر)... وهو دائماً لـ(الكبار)... وللضيوف... أما الأطفال فلا مكان لهم إلاّ هناك... بالقرب من الباب.. وقد رأيتُ أمّي تجلس بالقرب من بدريّة فاخترت أن أجلس بينهما...تقدّمت بخطوات مترددة... وإذْ لم يمنعني أحد جلست حيث أريد... ليس بجانبها... ولكن بالقرب منها... ولم يكن في الحوار، ما يَفهمُ منه مثلي شيئاً ولذلك، وكالعادة تقريباً... التزمت الصمت، ولكن ما أكثر ما كنت أنظر إليها... لو أنها لاحظتني، لرأت كيف كانت نظراتي تتلاحق، ولكن... الدادة قطعت قوافل هذه النظرات، حين لمحتها من بعيد، تشير بيدها، أن أذهب إليها... نهضت مسرعاً ولكن قبل أن أوافيها حيث كانت تقف، سمعت أمّي تقول وهي تضحك:

- أيوه يا عزيز... روح معاها... من بَدْري قالت لي إنها ما تقدر تقعد في المطبخ وحدها.

وضحكت بدريّة من جانبها وتساءلت:

- يعني بتخاف يا ستيته؟؟

- كده بتقول... من بعد ما جا الزاكور... وخرّج الساكن من الحنيّة اللّي في الديوان وهيّه دايماً خايفة...

- لكن يا ستيته، أمّي تقول إنها ما سافرت معاكم... قعدت في المدينة طول أيام

سفر برلك... وفي هادا البيت... كيف تخاف بعد ما كانت قاعدة لوحدها.

- هيّه بتقول كلام ما له أول وما له آخر... كلام يخوّف اللّي ما يخاف... ولو أخذت على كلامها كان لازم ما أقعد في البيت... ولكن فين نروح؟؟؟ بيتنا.. ما لنا غيره...

مشيت مع الدادة، إلى المطبخ، وهي تضيء الطريق بتلك "المسرجة"، التي اعتادت أن تستعين بضوئها منذ كنا في الديوان... لم تقف شفتاها عن الهمهمة، بكلام أو أدعية أو لعلها قراءة آيات من القرآن... كانت تمسك بيدي في يدها، حين دخلنا المطبخ فعلاً... كانت له نافذة صغيرة جداً، في أعلى الجدار.. لعلّها مسرب للدخان، أو للقليل جداً من الهواء... كان الظلّام حالكاً، رابضاً في كل شبر من هذا المكان، الذي أدخله لأول مرة... أحسست بيدها ترتجف قليلاً.. ثم فجأة رأيتُها تستدير وتتجه نحو الباب.. فقد قررت أن تخرج من دون أن تفعل شيئاً على الإطلاق.. كانت خطواتُها خفيفة أو مسرعة... أدركني إحساس بالخوف بحيث كدت أصرخ... ولكن كنا قد خرجنا من باب المطبخ، حين سمعنا من بعد صوت أمّي في حوارها مع بدرية... ثم، حركة أقدام مسرعة اكتشفت حين وصلنا المجلس أنها حركة أمّي وبدرية معاً، وهما تتجهان إلى النافذة التي تطل على مدخل الزقاق... وقبل أن أستوعب شيئاً مما أرى سمعت صوت رجل ينادي:

- شيخ أفندي... شيخ أفندي...

لم أكن أجهل أن الشيخ أفندي هو جدّي رحمه الله... وما هي إلا لحظة حتى رأيت أمّي تقترب من فتحة النافذة وهي ترفع صوتها قائلة:

- مين... مين؟؟؟

لم يكن في وسعي أن أفهم شيئاً... كان أول ما أبرق بذهني أنه صوت (أبي) قد عاد من سفره البعيد... وهو الذي ينادي جدّي... ولكن..

- مين... مين؟؟؟

ليس معقولاً أن تقول أمّي (مين؟؟؟) هذه، إذا كان الذي ينادي جدّي هو (أبي)... كان هذا منطقي... إنها تعرف صوته طبعاً فكيف تقول (مين؟؟).. اقتربت من النافذة.. ووقفت بينهما.. أمّي وبدرية، وحاولت أن أرى شيئاً. ورأيت فعلاً على ضوء شعلة يرفعها أحدهم أكثر من ثلاثة أو أربعة أشخاص، بينهم امرأتان، إحداهما في (الملاية)

التي تشبه تلك التي ترتفقها أمي... والأخرى.. والأخرى في ما عرفت مع الأيام أن اسمه (جامة) وهي حجاب المرأة المسلمة في الهند... حجاب له ما تدخل في أعلاه رأسها بالكامل، ثم ينسدل الباقي على جسمها بالكامل أيضاً فلا سبيل إلى أن يرى أي مخلوق منها شعرة أو ظفراً... أما كيف ترى هي طريقها والناس حولها، فعبر ثقبين أو خرمين بقدر فتحة لكل من العينين... وكل فتحة لها ما يشبه الشبكة تسمح للعين أن ترى، ولكن من دون أن يراها من يحاول أن ينظر إليها.

وعاد الصوت الذي ينادي (شيخ أفندي) يقول:

- فين شيخ أفندي؟؟؟ أنا عبدالرحيم... افتحوا الباب.

التفتت أمّي إلى بدرية، بنظرة فيها دهشة واستغراب، ولكنّها تمالكت نفسها لتقول:

- عبدالرحيم... هادا أبو خاتون.. بس..

ولاحقتها بدرية تقول:

- يبغاكي تفتحي الباب.. باين عليهم يبغوا ينزلوا عندك..

- يا مرحباً بهم.. بس كيف؟ يعني.. واستدركت، وهي ترفع صوتها تجيب عبدالرحيم:

- طول بالك شوية يا عم عبدالرحيم.. نحنا فوق..

- لكن.. لكن الشيخ أفندي.. الشيخ أفندي فين؟؟

كان واضحاً أن أمّي مرتبكة جداً.. لا تدري كيف تتصرف ولا ماذا تقول... لم يكن في وسعها أن تقول للرجل إن (الشيخ أفندي) غير موجود... مات... راح مع (اللي راحوا!).. وليس في البيت رجل غير هذا الطفل... عزيز ولد زاهد. وعاد الرجل يرفع عقيرته قائلاً:

- الشيخ أفندي غير موجود؟؟؟ طيب فين عبدالغني... مراد... زاهد؟؟

وكانت المفاجأة الصاعقة أن تسقط أمّي على الأرض... وأن أسمعها تجهش بالبكاء ويختنق صوتها فتقول:

- كلهّم.. كلهّم يا عبدالرحيم.. كلهّم راحوا..

***

الخالة فاطمة جادة، هي التي استطاعت أن تستوعب الموقف كلّه... فقد كانت

في طريقها من بيتها إلينا.. لتلحق ببدرية كما وعدت.. ولقد رأيتها تدخل وراء الدادة، ثم تتقدّم مسرعة حيث كنا بدريّة وأنا عاكفين على أمّي وقد وضعت رأسها في حضن بدرية وما زالت تبكي بحرقة.. قالت:

- هادا عبدالرحيم، أبو خاتون... دوبهم وصلوا من ينبع... الجمّال ما قدر يدخل بالجملين كان يبغا أحد يفزع له.. ما يدري أنهم كلهم رحمة الله عليهم..

لم تقل أمّي شيئاً فقد كانت لا تزال تكابد نوبة البكاء والانفعال التي طرأت عليها حين سمعت الأسماء التي سأل عنها عبدالرحيم... ولكن بدرية قالت:

- طيب يا أمي.. لكن هادا كان يبغا ينزل عند ستيته.. كان يقول افتحوا..

- هادا يا بنتي ما يدري عن شيء.. يظن الدنيا زي ما يعرفها سافر مع خاتون قبل فخري ما يسفر الناس...

- طيب وكيف يسوّي الليلة... فين ينام هوَّه والجماعة؟؟؟

- بيتهم موجود... أنا فهمّته كل شيء... وما دام عندهم (المشعل) يقدر يدخل البيت... والحوايج اللّي على الجمال... يخليها عند دخلة الزقاق... ينام عندها واحد من اللّي جايين معاه.. أظنهم من جماعته الهنود.

***

أخذت الخالة فاطمة مجلسها في الصدر... وهي تقول:

- هيا يا فاطمة.. بلاش بكا.. البكا عمره ما يرجّع اللّي راحوا... إذا كنت متوضية قومي صلّي ركعتين... وتعالي نقعد نقرأ على روحهم الفاتحة... ونقول الحمدلله.

وما هي إلاّ دقائق حتى ارتفع صوت المؤذن لصلاة العشاء... لتقول الخالة فاطمة إنها متوضئة، ونهضت بدرية وأمي، إلى بيت الماء للوضوء والصلاة... وقراءة الفاتحة على أرواحهم.

والتفتت الخالة فاطمة إليّ بعد الصلاة وقالت:

- إنت يا ولدي.. أنت رجّال البيت... ليه ما ردّيت على عبدالرحيم وهوَّه رافع جاعورته بينادي الشيخ أفندي؟؟

لم أحر جواباً... ولكن استقرّ في نفسي منذ تلك اللحظة إحساس بأنني (رجّال البيت).

الخوف.. ورجّال البيت..؟

رغم دراما الذكريات التي أثارها العم عبدالرحيم، أبو خاتون الهندية وجعلت أمّي تستسلم لتلك النوبة من البكاء، فقد كانت السهرة بعد ذلك من الليالي التي لا تنسى بالنسبة لي أنا على الأقل، إذ كادت تزول الفجوة بيني وبين (بدرية)، وأعني فجوة أنها فتاة كبيرة ومتزوجة وبينما أنا لا أزال ذلك الطفل الصغير، الذي وصفتْه بأنه (قصمة إفرنج). وكان أول ما أفسح لي مجال الثقة بنفسي في الاقتراب منها في مجلسي، هو كلمات أو عبارات التدليل التي غمرتْني بها الخالة فاطمة، بعد أن قالت عني إني (رجّال البيت).

ومع أن الكثير من الحوار الذي أخذ يدور بين أمّي وبين الخالة فاطمة، لم يكن ممّا يهتم به طفل في مثل سنّي، فقد كانت كلمة (رجّال البيت) هذه بعيدة التأثير في نفسي بحيث وجدتني أصغي إلى ذكريات الخالة فاطمة عن جدّتي لأمي واسمها (حميدة)، وكيف كانت (رحمة الله عليها!)... تستقبل ضيوفها من العوائل الكبيرة، في القاعة، منذ أول ليلة يغادر فيها (الشيخ أفندي) المدينة، إلى اسطنبول ومنها إلى بلاد التركمان... وكيف كانت تستعدّ لهن، بعدد من (الشِّيشْ) المفضّضة... و(الحُمَّى العجمي) و(الكيزرون)... ثم لعبة (البَشيسْ)، التي تستمر إلى ما بعد (كلْ عِشا)، والمقصود بهذا التوقيت، هو ساعات تصل إلى ثلاث بعد صلاة العشاء. وطوال السهرة تتلاحق فناجين الشاهي الأحمر والأخضر... تطوف بها عليهن الصبايا، ومنهن خالتي خديجة وأمّي، وأخريات ظللت أسمع إما أنهن لم يعدن من (الشام)، وإما (رحمة الله عليهم). وتركّز الخالة فاطمة على حكاية (السَّحلب) التي تقيم لها وزناً كبيراً، لأن جدّي كان يجيء به من (اسطنبول)، والذي يجيء من اسطنبول هذه شيء مختلف تماماً عن الموجود في الأسواق.. وتعقّب بعد ذلك قائلة:

- ما أدري يا فاطمة.. يا ترى يجيبوا هادا السحلب من اسطنبول بعد (السفر برلك)؟ وتجيبها أمّي بنبرة مفعمة بالحزن:

- منين يا خالة؟؟؟ خلاص طريق اسطنبول مقفول من زمان... وإنتي عارفة كمان إنهم بيقولوا بدّهم يعزلوا السلطان رشاد.

لا تكاد أمّي تقول هذا الكلام، حتى تخفق الخالة فاطمة صدرها بيدها، وهي تقول:

- يعزلوا السلطان؟؟؟ مين يا بنتي اللّي يقدر يعزل السلطان؟؟؟ إنتي يدخل في عقلك زي هادا الكلام؟؟؟

- طيب يا خالة، مَهُو عزلوا قبله السلطان عبدالحميد...

وتعود الخالة فاطمة إلى خفق صدرها بيدها لتقول:

- ومين اللّي قال إنهم عزلوا "الباديشاه"؟؟ لا.. لا.. لا.. يا فاطمة يا بنتي لا تقولي زي هادا الكلام... "الباديشاه" هوّه اللّي أمر إنهم يسوّوا السلطان رشاد، عشان يبغا يفضّي نفسه للذكر والصلاة.

وتتخابث أمي.. وألمحها تغمز بدرية غمزة خفيفة لتقول:

- يعني "الباديشاه" دحّين قاعد... ما أحد عزله.. وكمان ما مات؟؟

- يا بنتي يا فاطمة، لا تقولي زي هادا الكلام... أنا سمعت عمّك محمد سعيد كم مرة بيقول إنّو "الباديشاه" موجود في (يلديز)... وكم مرة ورّاني أوراق المحكمة وعليها (الطرّة).. طرّة السلطان عبدالحميد نفسه.. وكمان هادي الفلوس اللّي بنسمّيها (مجيدي) عمّك محمد سعيد ورّاني كتير منّها عليها طرة السلطان.. قصدي الباديشاه عبدالحميد.. لم تتمالك أمّي نفسها من زحمة الضحك، التي حاولت جهدها أن تتأدّب فتكتمها.. ثم لم تر ما يمنع أن تقول:

- يا خالة إنتو مو كنتو في الشام...؟؟ وما سمعتوا إنّو الشريف، والنصارى اتعاونوا على عساكر السلطان وطردوهم من أرض الشام كلها... وكمان ادينا جينا المدينة، وما عاد بنشوف فيها عساكر السلطان... راحوا مع فخري... وأنا سمعت إنّو فخري باشا ما خرج من المدينة إلا غصباً عنّه... خرج هوّه ومعاه كل عساكر السلطان...

- هادا اللّي حصل في أرض الشام، وعندنا هنا في المدينة... كله.. كله يا فاطمة بأمر الباديشاه.. بأمر السلطان.. إنتي ما سمعتي (عن حرّيت.. عدالت.. مساواة باديشاهم شوق يشا).

هنا رأيت أمّي ترسلها ضحكة عالية، وهي تقول:

- إلاّ يا خالة.. سمعت هادي الغناية... وأنا أقول له معناها.

ولكن سرعان ما قاطعتها الخالة فاطمة بقولها:

- وهوّه أنا ما أعرف معناها.. معناها إنو الباديشاه، يبغا الحرّية.. والعدالة وكمان هادي (المساواة) اللّي ماني قادر افهمها... يبغاها للناس اللّي ما يعرفوا تركي... يعني للعرب اللّي في الشام.. وللعرب اللّي في المدينة.

- طيب يا خالة.. وهادي الحرب.. هادي اللّي بنسمّيها (سفر برلك)... كيف حصلت.. ومين اللّي أمر إنهم يتحاربوا... يعني يقتلوا بعض.. إنتو ما شفتو الأموات اللّي كانوا بينقلوهم في العربيات الطويلة ويدفنوهم مع بعض.. كلهم في حفرة واحدة؟؟

- هادول اللّي كانوا بينقلوهم في العربيات اللّي بتقولي عليها... كانوا بيموتوا من (الشوطة)... والشوطة يا بنتي اسمها شوطة... يعني لمّا تيجي في بلد من البلدان - والعياذ بالله - تاخد خلق الله بالعشرات والميّات... والشوطة شيء ربنا رايده. لكن أنا ما شفت أبداً عساكر السلطان بيقتلهم أحد.

- طيب والحرب... يعني ضرب المدافع... والرصاص اللّي زي المطر في الليل... وحتى في النهار.

- في الليل... كان عمّك محمد سعيد يأمرنا ننام قبل العشا... وفي النهار اللّي سمعته شيء كدة... يمكن (طراطيع)..

- طراطيع؟؟؟

قالت أمّي هذه الكلمة وانفجرت تضحك بكل ما زحم صدرها من الضحك... وضحكت معها بدرية التي سمعتها تقول لأمها:

- يا أمّي - إنتو الصادقين - هادا كان رصاص... ومدافع ترمي الناس باللي يسمّوها (الدانة) و(القلّة)... وياما سمعنا في الشام، عن بيوت اتهدّمت على السكان اللّي فيها... هادي كانت حرب... يعني (السفر برلك) اللّي ما في بلد في الدنيا كلّها إلا وعرفتها... إنتي لو تسمعي الكلام اللّي بيقراه عبدالمنّان في الكتب اللّي بيسموها (جازيتّا)... تعرفي...

وهنا قاطعتها الخالة فاطمة وهي تقول وقد بدا عليها الضيق والحنق:

- بهواكم... قولوا اللّي تبغو تقولوه... ونادوا لي منكشة... خلّيها تروح البيت وتجيب لي الشيشة والكيزرون...

ثم التفتت إلى أمّي وهي تقول:

- ايش بكم يا فاطمة؟؟؟ يعني ما تبغينا (نتعتّم)...؟؟؟

- إلاّ يا خالة... دحّين... بعدما تروح منكشة وتجيب الشيشة والكيزرون... أصلها في هادي الأيام طالعتلنا بأنها تخاف من المطبخ...

- أيوه سمعتك تقولي إنها بتخاف، من يوم ما جا الزاكور وخرّج الساكن... طيب هادي بدرية... وهادا عزيز... يروحوا معاها المطبخ... ولكن بعدما تجيب الشيشة... ثم توقفت لحظات، وكأنها تستدرك، أو تفكر لتقول:

- اسمعي يا بدرية... صفّقي لدادتك حسينة... خليها هية اللّي تجيب الشيشة وإنتي وعزيز ادخلوا مع منكشة المطبخ، وخلّوها تجهز (التعتيمة).

***

كانت تلك أول ليلة أحسست فيها بأن الحياة تتغير، وأن حياتنا في الشام وحلب وإلى أن عدنا إلى المدينة، كانت سلسلة من المآسي والأحزان والحرمان... إذ أين هذه الحياة في هذه الليلة، والمجلس مؤثث، وقد أضاءته القمريّة من جانب واللمبة (أم فتيلتين) من جانب وفي الصدر منه الخالة فاطمة جادة، وقد جاؤوها بالشيشة، وعمّروها لها، وأخذت تنفث الدخان من منخريها الواسعين، وهي في فستانها الأزرق، وقد لفّت رأسها بما تعلمت في ما بعد أن اسمه (المسفع) من الحرير المطرّز الأسود، على (المحرمة) التي تجمع كل الشعر، وتستدير به حول الرأس ليختفي فلا تظهر منه إلا خصل خطها الشيب...

ثم تلك اللحظات التي قضيتها مع بدرية في المطبخ، حيث نشجع منكشة على تجهيز الشاهي وما يسمّى (التعتيمة) وهي ألوان من الجبن والزيتون والمربّى و(الشريك أبو السمسم) ومع كل ذلك أطباق طافحة بالعنب... والرمان... والرطب... وهي تقدم في السهرات بديلاً للعشاء، الذي جرت العادة أن يقدم للضيوف الذين يُدْعَون... وليس للضيوف الذين يتزاورون من دون دعوة مسبقة... أو بحكم أنهم الجيران والأهل.

وفي الفترة التي كانت منكشة تجهّز فيها هذه التعتيمة، كانت بدرية تمازحها

بتخويفها من (الساكن)، الذي توهمها بأنه يتسلل من هنا أو هناك... فتكاد الدادة أن تصرخ أو هي تتصنّع الخوف، وتتظاهر به، لترضي روح الفكاهة والمزاح في الشابة، ولقد انطلقت على سجيتها، فلفت نظرها، أني كنت أضحك من تصرفات الدادة، فالتفتت بدرية وهي لا تخفي دهشتها لتقول:

- يعني إنت ما تخاف يا عزيز؟؟؟

- إلاّ أخاف... ولكن من الحنيّة...

- الحنيّة اللّي كان فيها الساكن؟؟

- أيوه... لكن... لكن...

وتلجلجت... كنت أحاول أن أقول لها، إني لا أخاف، ما دمت إلى جانبها.

بيت خاتون... والصُّلاّح...

وضعت منكشة، ومعها بدرية وأنا، أطباق التعتيمة على أرض المجلس، وقد حرصنا جميعنا على ألا نترك في المطبخ، ما يستلزم أن تذهب منكشة، أو أي واحد منّا إليه منفرداً... لأن المخاوف، مع المزحات المتتالية، عن الساكن الذي نوهم منكشة أنه يتسلل أمامنا، لم تعد مزاحاً... سيطر الوهم على بدرية نفسها، ولم ألبث، أنا أيضاً أن وجدت نفسي أقفز وأصرخ متوهّماً أن الثعبان الخطير يتجوّل في ساحة المطبخ، وتصرخ معي بدرية ضاحكة تارة... وجادة مرتعبة، مرّة أخرى.

كانت نظرات اللوم والتأنيب تصوّب نحونا من الخالة فاطمة، بحيث لم تتردد في أن تقول لمنكشة:

- ما دام بتخافي من المطبخ... وقبل كده جاتِك القرينة من الحنية... طيّب يعني فين تبغي فاطمة وولدها يروحوا؟؟؟ يا منكشة إنتي طول عمرك في هادا البيت... ايش اللّي جَدْ فيه عشان اصبحتي (تجعَرِي) من الخوف... وتخوّفي معاكي بدرية وعزيز؟؟

وكانت مفاجأة لنا جميعاً أن ينطلق لسان منكشة، بلكنتها العربية المكسّرة لتقول:

- إنتو يا هانم افندي... كلّكم كنتوِ في الشام... أنا بس هنا في المدينة... في هادا البيت... في هادا الزقاق.. البيت كله ما في حدا... الزقاق كمان ما في حدا... الساحة... كلْها الين حرم الشريف... ما في أحد... كمان أموات... ناس كتير ماتوا... في الصبِح... عساكر فخري باشا... في الساحة... كمان في هادا الزقاق... كمان في زقاق الطوال... في حوش الجمال... في زقاق الحبس... عساكر فخري باشا يشيلوا ناس ماتوا في الليل... كيف ماتوا؟ انا ما يعرف؟ دكتور في خستخانة قالوا يمكن

كوليرا... قالوا يمكن تيفوس... كمان ناس قالوا يمكن (تاؤون)... هادا (تاؤون) يا لطيف... لازم يموِّت ناس قوام قوام...

أخذت أرى في وجوه الخالة فاطمة وأمّي وبدرية سحابة الرعب والتفجّع... بل بلغ الخوف بأمي بالذات، أن أخذت تدير بصرَها في النوافذ، كأنها تتوهّم أن هذا الموت سيقتحم علينا مجلسنا، رغم ضوء القمرية... واللمبة (أم فتيلتين)، بل واللمبة التي علّقت الآن في الجدار بعد أن فرغنا من الحاجة إليها في المطبخ. ساد الغرفة صمت ثقيل بحيث ظلّ كل منّا - حتى الخالة فاطمة، وليّ الشيشة في يدها، قضت أكثر من بضع دقائق لا تتقدم نحو (سفرة) التعتيمة وأطباقها... كانت ملامحها تعبّر عن شرود وكأنها تتذكّر سلسلة من الذكريات... أما أمي، فقد رأيتها تقرأ همساً آيات من القرآن، ولا تكف عن التلفّت حولها... لم تكن بدرية أقل رعباً، إذ تسمّرت نظراتها على منكشة، التي استغرقتها ذكرياتها، بحيث أخذ بياض عينيها يحمرّ، والدموع تنذرف، فتلتمس من صدرها ذلك المنديل بني اللون، الذي اعتادت أن ترقأ به دموعها..

إنتبهتْ أمّي إلى أن التعتيمة على الأرض وإلى أن أحداً لم يقترب منها فنهضت من مجلسها بجانب الخالة فاطمة وهي تقول:

- طيّب يا خالة (بسمِ الله)... الشاهي لا يبرد..

و"بسم الله" هي الجملة، التي ترادف كلمة (اتفضّلوا بين الأهل)... ولم تخف الخالة فاطمة إلى المائدة قبل أن تسحب نَفَساً طويلاً من الشيشة وهي تقول:

- اللّي قالته منكشة، يا فاطمة فكرني بأحباب، ما رضيوا يسافروا الشام.. سمعت أنهم كمان ما كانوا يتحصّلوا على التعيين... على الأكل اللّي كان الباشا يقسّموا على الناس اللّي ما رضيو يسافروا الشام... عشان الأكل اللّي كان عنده كان لازم ما يعطوه إلاّ للعسكر اللّي بيدافعوا عن المدينة، من النصارى، وعساكر الشريف.. سمعت يا فاطمة يا بنتي، الناس، أكلوا الحمير الميّتة... والخيل اللّي ماتت من الجوع... وبعدين.. تدري ايش أكلوا كمان؟؟؟ يا بنتي، أكلوا الكلاب... والبساس... وبعدين... قولوا يا لطيف.. بعدين فيه ناس وصل بهم الحال، أنهم كانوا ينَدّروا الأموات اللّي اندفنوا جديد... يندّروهم وياكلوهم... أيوه يا بنتي... أكلوا الأموات... ومين يدري يمكن صحيح اللّي سمعناه في الشام، فيه ناس والعياذ بالله، أكلوا بزورتهم.. يعني كان لازم يموتوا من الجوع... وكان لازم يلتقوهم مرميين في الأزقة، ويشيلوهم ويدفنوهم...

وما هو في البقيع... لا... أنا سمعت أنهم كانوا يحفروا لهم في قُبا وقربان وحتى في العيون... ويدفنوهم كل خمسة... وكل عشرة مع بعض... يا لطيف... قولوا يا لطيف... وهيّا نقرأ على أرواحهم الفاتحة...

هنا - والجميع قد رفعوا أكفهم يقرأون الفاتحة - نسمع صوت منكشة المرتعش تقول:

- هانم أفندي... أنا بعيني هادي، واحد يوم بعد صلاة الصبح.. شفت.. واحد ولد صغير ميّت في زقاقنا.. قدّام بيت الصافي... وكمان واحد كلب كبير.. ياكل وجهه.. بعدين عسكر فخري باشا جا شاله.. أم الولد قالت... مع العسكري... أبو الولد كمان مات هناك عند دكان العم صادق... في أول الزقاق.

ساد الغرفة، والجلسة كلها جو قاتم مقبض... بحيث بدا، كأن أولئك الموتى... والمرضى وتلك القبور التي يحفرها الجنود هنا وهناك، ويدفنون فيها الموتى جماعات... بل وعساكر فخري باشا أنفسهم، وإن كانوا قد خرجوا من المدينة معه بعد أن استلمها جيش الشريف... فإن أشباحهم، وجميع المشاهد الرهيبة التي كانوا يعيشونها، لا تزال تضطرب، وتلقي ظلالها في كل زقاق... وعلى الخصوص في مثل زقاق القفل، هذا الذي نعيش في بيتنا فيه.

وكرّرت أمّي جملتها وتقدمت من السفرة وهي تقول:

- يا خالة.. بسم الله... الشاهي برد خلاص... يا ريت يا أمّي منكشة تلقمي لنا براد جديد...

لكن الخالة فاطمة، كانت قد استوعبت الموقف كله... وحملتها موجة الذكريات البعيدة التي عصفت بها... ولذلك، وبهدوء، وعيناها هي أيضاً قد احمرّتا وبدتا دامعتين، قالت:

- لا يا فاطمة يا بنتي...لا تكلّفي عليها... وبدرية وعزيز، قاطع قلبهم الخوف، ما يقدروا يروحوا معاها المطبخ... خلاص... بسم الله... والشاهي برضه طيّب... بس هيّا يا بدرية صُبّيه... ومرة تانية قولوا: يا لطيف... يا لطيف..

أخذنا نردد معاً كلمة (يا لطيف)، وامتدت أيدينا إلى الشريك أبو السمسم، وأخذنا نتناول، ما في أطباق التعتيمة... ولكن من دون أن ينبس أحد منا بكلمة واحدة..

أصبح مجلسي المألوف أو هو المقرر، بجانب بدرية، وحتى ونحن نتناول

التعتيمة... أخذت تصب الشاهي في الأكواب، كنت أنا أرمق يدها... أجل يدها... ومرة أخرى، لا أنسى اليوم وأنا أكتب هذه السطور، أن هناك الكثيرين الذين يستكثرون على طفل وقفاته، أو هي ملاحظاته عند مشهد (يدها)... أجل يدها... كانت لها في نفسي مشاعر عجيبة، لا أزال عاجزاً عن فهمها حتى اليوم... كل ما يمكن أن أعبّر به عن هذه المشاعر، هو أني كنت أتابع هذه اليد بنظراتي، وهي تتحرّك بين هذا الكوب وذاك، تزوّده بملعقة أو اثنتين من السكر، ثم تقلّبه، فأتلهّف للمسها وتقبيلها... ومع أن الأحاديث التي دارت، وملأت نفوسنا ضيقاً، وأذهاننا خيالات وأشباح أولئك الموتى، فإني - ربّما وحدي - كنت مشغول الذهن بشيئين: بفرحتي الطاغية بأني جالس إلى جانبها، ثم بأني منذ الليلة، قد أصبحت المخلوق الذي تمازحه، وتداعبه، وتضحك تعليقاً على حركاته ساعة كان يقفز رعباً في المطبخ، وهي تمازح منكشة وتخوّفها من الساكن الموهوم. ولي أن أقول اليوم إن بدرية هذه، كانت هي الإنسانة التي ذكّرتني، وظلّت تذكّرني بعد ذلك لفترة طويلة، جدّت فيها أحداث مصيرية على حياتي،... ذكّرتْني.. وتذكّرني بخالتي خديجة، تلك التي ما أكثر ما كانت تضمني إلى صدرها، وتحيطني بذراعيها، وترفع وجهي بين كفيها، وتنظر إليّ والابتسامة الحلوة تشرق وترقرق في عينيها، وعلى شفتيها، ثم تغمرني بقبلاتها: بين عيني، وعلى جبهتي، وعنقي... كأنها كانت تروي ظمأها إلى الحب، الذي لم تجده في زوجها الذي ضاع... ثم ابنها الذي مات. ثم في تلك الحياة، مع سعلة السل، وقد كانت لا تجهل أبداً أنه العلة، التي ستزفّها إلى قبرها... وقد كان... فهي، هناك... في تلك المقبرة التي رأيت شواهدها، الكثيرة، في رحلاتنا إلى الرابية الخضراء... رابية الخبيزة والأزهار الصفر في ما وراء قلعة حلب.

***

ظللنا نتناول طعامنا من الألوان التي تجمّعت في (التعتيمة)، ولا أدري كيف لم تجد منكشة ما يمنع أن تجلس بالقرب منا، وأن تأخذ كوب الشاي في يدها، وقطعة الشريك، مع حبات من الزيتون... وقطعة من الجبن.. كان ذلك غريباً بالنسبة للمألوف من تأدّبها وحرصها على ألا تسقط الكلفة بينها وبين أمّي... فضلاً عن ضيوفنا.. وحين التفتّ إليها رأيتُها لا تزال دامعة العينين... وانتهزتْ فرصة الصمت الذي بدا كأن الجميع التزموه في هذه اللحظات لتقول في عربيتها المكسّرة:

- هانم افندي... إنتي كمان فاطمة هانم... هادا البيت... كمان هادا الزقاق، يمكن

كلّه مليان أرواح... أرواح ناس ماتوا في المدينة... كمان ناس ماتوا هناك في الشام... في المدينة، حميدة هانم... بنات وأولاد... صفية... عمر، جميلة... في الشام سيدي شيخ أفندي... عبدالغني... خديجة... مراد... زاهد...

والتفتت إليها أمّي منفعلة، وقالت بالتركية كلاماً معناه كما فهمت:

- ماذا تريدين أن تقولي... وما لزوم هذا الكلام؟؟

ولكن الخالة فاطمة تدخّلت تقول:

- خليها تتكلّم يا فاطمة يا بنتي... أنا أظن كلامها صحيح... إنتي عارفة إنو أرواح الناس اللّي بيموتوا... ما بتموت... الروح حيّة... وما دام كلّهم أهل الزقاق... وأهل هادا البيت.. لازم يكونوا حايمين حوالينا... يعني زي ما قالتْ... البيت والزقاق وحتى المدينة كلها مليانة بأرواح الناس اللّي ماتوا.. لكن إبغا اعرف ايش تبغا تقول.
ثم التفتت الخالة فاطمة إلى منكشة وهي تقول:

- أيوه يا منكشة، لكن ايش قصدك تقولي؟؟؟ كيف نسوّي مع هادي الأرواح؟؟؟

ولعلّها المرة الأولى، التي نجد أنفسنا، كلّنا، نصغي إليها وهي تقول:

- هانم افندي وعزيز، لازم بيتْ تاني... بيتْ بعيد عن هادا الزقاق.

وقاطعتْها الخالة فاطمة تقول:

- لكن يا منكشة فين يروحوا؟؟؟ هادا بيتهم بيت أبوهم وجدّهم؟؟؟

- أنا ما يعرف فين يروحوا... لكن لازم... لازم إن شاء الله بيت تاني... في هادا البيت... في هادا الزقاق (القَفَلْ)... أرواح... أرواح كتير... عشان كده دايماً فيه زَعَل.. فيه خوف... فيه بُكا.. كمان هدا صغير.. عزيز.. مسكين.. مين يعرف أرواح، ايش يسوّي معاه.. إنتي ما تخافي من (قرينة).. من ساكن.. جن.. عفريت... كلّه... كلّه، هانم أفندي، كله موجود في هادا البيت.. في هادا الزقاق.

ما كادت تكمل آخر جملة من هذا الكلام الخطير الذي أصبحت تتوسّع فيه، حتى فوجئنا جميعاً بصوت الحاج عبدالرحيم... يرتفع في الزقاق مبحوحاً أو مخنوقاً... ينادي.. لا بل يطلب أن نفتح له الباب.

قبل أن ينهض أحد... لاستطلاع الخبر... سمعنا صوت (العم محمد سعيد) زوج الخالة فاطمة جادة... يقول:

- خير... خير إن شاء الله يا حج عبدالرحيم... ايش فيه..

- خاتون... كمان ما شاء الله... ما يدري عن أنفسهم... خوف... خوف... يا شيخ محمد سعيد...

- خوف من إيه؟؟؟

- صُلاّح... صُلاّح في الديوان... في القاعة...

- صُلاّح؟؟؟

- ايوه... صُلاّح... مشايخ... خاتون شافتهم... وطاحت ما تدري عن نفسها... وزيّها كمان "ما شاء الله".

- لكن أنت... إنت شفت هادول الصُلاّح؟؟

- لا... أنا ما شفت... لكن سمعت كلّهم يقروا دلائل الخيرات...

- سمعتهم بيقروا دلائل الخيرات؟؟؟

ولم يعد الحاج عبدالرحيم يطيق مزيداً من الحوار بينه وبين العم محمد سعيد، إذ رفع صوته منفعلاً ساخطاً يقول:

- خاتون... و"ما شاء الله"... وبيبي روحية... لازم يطلعوا عند بيت شيخ افندي.

هنا ارتفع صوت الخالة فاطمة تخاطب زوجها (العم محمد سعيد) وتقول:

- طيب... وليه ما يناموا في بيتهم؟؟

وانفجر الحاج عبدالرحيم وهو يقول:

- أنا ما قلت، عندك يا فاطمة جادة... أنا أعرف إنتي ما تبغي خاتون... ما تبغي ما شاء الله... ما تبغي أحد منّنا...

ثم رفع صوته عالياً يقول:

- فاطمة... فاطمة بنت شيخ أفندي... افتحي الباب...

- وتناولت منكشة اللمبة العلاّقي... وأسرعت بخطاها الثقيلة تفتح الباب.

لم تمض أكثر من عشر دقائق أو ربع ساعة... حتى كان الحاج عبدالرحيم يحمل خاتون... ويسحب في يده (ما شاء الله)... وخلفه (بيبي روحية) العجوز... يحتلّون المجلس... والتفت إلى أمّي يقول:

– أنا أنام، في الدهليز... بس خاتون... ما شاء الله... وبيبي... عندك هنا...

– أهلاً وسهلاً بهم...

وتدخلت الخالة فاطمة تقول:

– بس يناموا فين؟؟

– على الأرض.. ما هو لازم مَرتبة... ما هو لازم مخدة.. على الأرض.. على الأرض.

وهنا.. نهضت الخالة فاطمة.. ونهضت معها بدرية.. وهما تقولان لأمي:

– خليناكي بعافية يا فاطمة... ولا تخافي من كلام منكشة... بكرة إن شاء الله ما يكون إلا كل خير.

الصُّلاّح في دهليز بيتنا...

بينما كان الحج عبدالرحيم، يُضجع خاتون على الطُّوّالة، كانت الصغيرة (ما شاء الله) تقف وهي تدعك عينها بجُمع يدها، واليد الأخرى في يد (بيبي روحية) العجوز، وأمّي تهمس كلاماً بالتركية لم أفهم منه شيئاً، ولكنّي رأيت منكشة تسرع باللمبة العلاّقي تشيّع الخالة فاطمة وبدرية إلى الدهليز... تابعت بدرية وهي تودّع أمي، وقد انتشرت على ملامحها مسحة الارتباك أو هو الخوف من كل الذي سمعته من منكشة، ثم من الحج عبدالرحيم الذي استطاع أن يفرض وجودَه مع أسرته في المجلس، لتنام فيه هذه المجموعة من أهل بيته. وقبل أن تأخذ طريقها في نزول السلالم، التفتت بدرية إليّ... وقالت:

- لا تنسَ يا عزيز... أنت رجّال البيت...

كانت تلك هي الكلمة التي سمعتها لأول مرة من أمّها الخالة فاطمة، وأصبحتُ بعدها التمس كل تصرف يؤكد أني هذا الرجّال...

وقبل أن نعود أنا وأمّي إلى المجلس، كان الحج عبدالرحيم يتعجّل الهبوط إلى الدهليز وقد حمل تحت إبطه أحد المساند، من المجلس، وهو يقول:

- هادا المسند كفاية.. ما في لزوم شي تاني أبداً...

ثم قبل أن يرى منكشة تصعد وفي يدها اللمبة، رفع صوته عالياً يقول:

- ممكن يا بنت شيخ افندي هادي اللمبة في الدهليز؟؟؟

وتكفّلت منكشة بالرد العاجل إذ قالت:

- مِسْرجة... مِسْرجة موجود حج عبدالرحيم.

لم تعلّق أمّي بشيء... بل دخلنا المجلس، لنرى الصغيرة (ما شاء الله) مضطجعة بطولها في وسط المجلس، و(البيبي روحية) منكفئة على خاتون، تحاول تفويقها من حالة الإغماء التي ما زالت تلازمها... بدتْ أمّي مرتبكة ومتضايقة من الظرف الجديد الذي وجدتنا فيه... تقدمت من الصغيرة (ما شاء الله)، وحملتها لتضعها جانباً... ثم اتجهت إلى خاتون... ويبدو أن أمّي لم تر (بيبي روحية)، أو تتعرف بها من قبل... وهذه (البيبي) من جانبها بدَتْ مشغولة بإيقاظ خاتون من غفوتها، أو هو اغماؤها، فلم تلتفت إلى أمّي وهي تراها تجلس إلى جانبها... وبدأت أمّي تنادي خاتون بصوتٍ أقرب إلى الهمس، وتربت خدّها بيدها:

- خاتون... خاتون...؟؟

فإذا بـ(البيبي) تلتفت لأرى أنا وجهها لأول مرة... كانت عجوزاً حادّة السمرة وقد تلفّعت بالحجاب الهندي الذي يسمونه (الجامة)... إلا وجهها الأسمر الذي أزاحت عنه ما يحجبه، وقد تناثر عليه شعرها متهدلاً من الصدغين إلى العنق... كانت عيناها واسعتين جاحظتين، تحت حاجبين مقرونين بالغي الكثافة... ويبدو كأنها لم تَرتحْ لوجود أمّي إلى جانبها، ولا إلى نداءتها الهامسة المتكررة... فلم يطل بها الأمر حتى أمسكت بيد أمّي تمنعها أو توقفها عن أن تربت على وجه خاتون... وكانت حركة لم تخل من عنف وتوتّر.

رأيت ملامح أمّي يغشاها ذلك التعبير الذي أعرفه حين تتوتّر وتغضب... حتى لقد خَشِيْت ألا تتردد في صفع العجوز، أو دفعها إلى الوراء... ولكنّها تذرّعت بالصبر.. وابتعدت ثم نهضت، وأخذت يدي في يدها - وتلك هي عادتها - واتجهت بي إلى الجانب الذي فيه النافذة التي تواجه شبّاك منزل الخالة فاطمة... وجلست ثم أجلستني إلى جانبها... بينما كانت الدادة منكشة تجمع أطباق التعتيمة، وأكواب وبراد الشاهي... ولأول مرة منذ عرفت الدنيا سمعت خروج الريح طويلاً آتية من حيث انكفأت العجوز على خاتون... صوت لا أدري حتى اليوم إن كان من المغمى عليها خاتون، أم من الـ(بيبي) العجوز... وما هي إلا لحظات حتى امتلأ جو المجلس برائحة بالغة العفونة، مما اضطرنا - أمّي وأنا - أن نمسك أنفينا بأيدينا وراح كل منا ينظر إلى الآخر...لا أشك اليوم، أن أمّي في تلك اللحظة، كانت تفكر كيف سيطيب لنا النوم إذا تكرر خروج مثل هذه الريح، وإنتشار هذه الرائحة الكريهة في المجلس... وليس هناك مكان آخر يمكن أن ننام فيه نحن، أو ننقل إليه هؤلاء. لكن ما أكثر وأشد

ما زحمنا الضحك حين رأينا منكشة لا تكاد تخطو في الغرفة خطوتين حتى بدا عليها الاشمئزاز، وتجعّد أنفها تعبيراً عن ضيقها بالرائحة... ولم تسكت بل سرعان ما قالت بالتركية كلاماً معناه:

- ما هذا... ماذا في الغرفة؟؟؟

ضحكنا... وأدركت منكشة من نظراتنا في اتجاه الـ(بيبي) وخاتون، أن إحداهما مصدر الرائحة... كما أدركت أن أمّي متضايقة جداً... فأسرعت تقول بالتركية ما معناه:

- ما دام الحج عبدالرحيم ينام في الدهليز... فلماذا لا ينام هؤلاء أيضاً معه؟؟

لكن أمّي رفعت أصبع السبابة إلى فمها تحذّرها مما تقول... فالتزمت منكشة الصمت وهي تردد بعربيّتها المكسّرة:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

أخيراً استيقظت خاتون من غفوتها، أو هو إغماؤها الطويل... وسمعناها تتحدث إلى (البيبي) باللغة الهندية، لتلتفت العجوز وهي تقول:

- باني... باني...

لا أدري كيف فهمتْ أمّي أن (باني) هذه التي ردّدتها العجوز بعصبية واستعجال، تعني (الماء)... أي أن خاتون تريد أن تشرب ماء... وأسرعت منكشة... وجاءت بكأس الماء. ولأول مرة رأيت خاتون، تجلس حيث هي، وتدير نظراتها حولها، بينما تناولت كأس الماء وأخذت تشربه بلهفة عبّرت عمّا كانت تعانيه من الظمأ... ولكن قبل أن يفرغ ما في الكأس... فتحت كفّها ودلقت ما بقي فيه، ولطمت به وجهها... وهي تقول:

- أشهد أن لا إله إلا الله...

كأن العجوز، وقد سعدت باستيقاظ خاتون، قد حققت إنجازاً كبيراً، لم تجد ما تعبّر به عن سعادتها إلا بأن ترفع كفّيها ورأسها إلى سقف الغرفة، وأن ترفع صوتها بأدعية (منغّمة).

لكن خاتون قاطعتها، حين التفتت إلى أمّي تسألها عن حالها، وبطبيعة الحال بدأت الأخبار عن الموتى من أهلنا، واحداً بعد الآخر... والتعقيب على خبر كل منهم هو كالمعتاد.

- رحمة الله عليه... رحمة الله عليه.

وعقبت بعد ذلك خاتون تقول:

- يعني دحّين ما بقي أحد منهم؟؟؟ غيرك إنتي وهادا الولد؟؟؟

- أيوه... ما بقي منهم أحد... كلهم... كلهم راحو..

وعن أخبار خاتون، لم يكن هناك موتى... فزوجُها أبو ابنتها (ما شاء الله).. لا يزال في الهند... والحج عبدالرحيم أبوها، تزوّج في الهند... وزوجته سوف تجيء مع زوجها بعد أسابيع... أما هذه الـ(بيبي روحية) فهي خالتها أخت أمها... وقد جاءت لأداء فريضة الحج وزيارة الرسول... ثم يمكن أن تعود إلى الهند...

كل هذه الأخبار لم تكن ذات بال بالنسبة للأهم، والأكثر إثارة وغموضاً، وهو حكاية (الصُّلاح... المشايخ)، الذين قال الحج عبدالرحيم إن (خاتون شافتهم) و(طاحت ما تدري عن نفسها...) وزيّها كمان (ما شاء الله)... وإنه هو (ما شافهم... ولكن سمعهم كلّهم يقرأون دلائل الخيرات)..

أنا من جانبي، لم يكن قد بقي في ذاكرتي شيء من هذه الأخبار.. ربّما لأني بطبيعة سنّي لم أكن أفهم ما هم أو مَنْ هم هؤلاء (الصُّلاح)!! وكيف يتواجدون في البيت المهجور؟؟ ثم كلمة (مشايخ) هذه... تُلمح قليلاً إلى أنهم رجال يرتفقون على رؤوسهم عمائم كتلك التي كان يرتفقها جدّي أحمد صفا... أو كتلك التي رأيتها على رؤوس كثير من الرجال يوم ذهبت مع أمّي إلى المسجد النبوي الشريف... فما الذي يخيف الحج عبدالرحيم، وقبله خاتون منهم؟؟؟ ما هي (دلائل الخيرات) التي سمعهم الحج عبدالرحيم يقرأونها؟؟؟ وبينما كانت أمّي تسأل خاتون عن مواضيع مختلفة إنتهت بعدها إلى حكاية (الصلاّح...)، كنت أنا مشغول الذهن بحكايات الأموات... الموتى... وليس الذين تحدّثت عنهم منكشة في المدينة، بل عن جميع الموتى الذين اختزنت ذاكرتي عنهم أعداداً كبيرة، رأيتهم ينقلون مكدّسين في تلك العربات الطويلة التي تجرّها البغال، ليدفنوا هناك في تلك المقبرة، وراء أو في محاذاة الرابية الخضراء التي جمعت منها الخبيزة، مرة، وتلك الأزهار الصفر والحمر التي قدّمتها إلى خالتي مرة أخرى... وقبل هؤلاء أو معهم، خالتي خديجة وقبلها ابنها الرضيع عبدالمعين وقبلهما أخي عبدالغفور... وأخيراً جدّي (الشيخ أحمد صفا)... الذي اسمع دائماً أنه (الشيخ أفندي...)... كل هؤلاء موتى... دفنوا في المقابر...؟؟

في حلب، وفي غيرها من الدنيا فإذا كانت أرواحهم موجودة، كما قالت الخالة فاطمة.. وإنها لا تموت.. وإنهم (لازم يكونوا حايمين حوالينا... إذن البيت والزقاق، وحتى المدينة كلها مليانة بأرواح الناس اللّي ماتوا..)... إذا كانت أرواحهم جميعاً موجودة وتحوم حولنا في الزقاق، أو في غيره، فلماذا لا نراها؟؟؟ لماذا لا نشعر بوجودها؟؟؟ تسمعنا صوتها على الأقل... ومع أني أحسست بأن حكاية أرواح الموتى هذه محيّرة، يعجز عقلي عن استيعابها، فقد تذكّرت قول الحج عبدالرحيم، أنه سمع أصواتهم وهم يقرأون (دلائل الخيرات)... ومع أني لا أعرف ما هي دلائل الخيرات هذه... فقد عوّلت بيني وبين نفسي أن أجعل الحج عبدالرحيم يأخذني معه إلى حيث سمعها؟؟؟ لأسمعها معه، ومن يدري فقد أسمع بينهم صوت جدّي، إذا كانت روحه من الأرواح التي أصبحت تحوم حولنا، ومن الذين سمعهم الرجل يقرأون (دلائل الخيرات).

أما حكاية (الصُلاّح) الذين تحدث عنهم، الحج عبدالرحيم وكانوا السبب في الإغماء الذي أصيبت به خاتون... فكانت خلاصتها - ولا بد لها من خلاصة إذ هي طويلة - خلاصتها أنهم دخلوا بيتهم، ومعهم (المشعل)، وبعض الأفرشة، إذ تركوا بقية أمتعتهم عند مدخل الزقاق، وبدأوا يفتحون أبواب القاعة والديوان وغيرهما، ليناموا إلى الصباح... ولكن فجأة انطفأ المشعل... وحاول الحج عبدالرحيم إشعاله، بالكبريت، فكان يشتعل بعض الوقت ثم يعود فينطفئ مع أن رزمة الفتيلة مشبعة بالزيت... وأخيراً، وهم يشعلونه... سمعوا صوت (نفخة)... كأن مخلوقاً ينفخ في الشعلة... فانطفأت... وفي الظلاّم الدامس، أحسّوا بحركة مخلوقات تجري في الديِوان... كأنها تتسابق... ثم أخيراً تقول (خاتون) إنها رأت على ضوء (الجِلا) رجالاً في ثياب بيض وعلى رؤوسهم عمائم كبيرة بيض أيضاً... يخرجون من بَاب القاعة... ويدورون في دكة الديوان، ويتحركون حركة (الذكر)... فغابت عن صوابها... أغمي عليها... ولم تصح إلا وهي في هذا المجلس..

كان وجه أمّي وهي تصغي إلى كلام خاتون، رغم مسحة الرعب الخفيفة، لا يخلو من نوع من التفكير المتشكك، ليس في صحة أقوال خاتون... وإنما في أن ما تقول إنها رأته فعلاً، هم رجال، في ثياب بيض وعلى رؤوسهم عمائم كبيرة بيض أيضاً... التزمت الصمت هنيهة ثم قالت:

- طيّب يا خاتون... ما دام إنتي شفتي هادول اللّي بتقولي عليهم... ليه ما شافهم

أبوكي... والبيبي... ما كانوا معاكي في الديوان؟؟

- كانوا كلهم معايا... لكن ما أدري... أنا شفت، وهمَّ ما شافوا..

ثم التفتت إلى الـ(بيبي)... وكلّمتها بالهندية تسألها: كيف لم تر هي أيضاً الرجال في الثياب البيض والعمائم الكبيرة... وأخذت العجوز، تقول كلاماً طويلاً وتشير بيديها إشارات معينة... وتمسح برؤوس أصابعها عينيها.. وأخيراً قالت خاتون:

- تقول بيبي روحية... إنها لم ترهم... ولكنها سمعت الحركة... حركة المخلوقات التي تجري في الديوان..

تريثت أمّي لحظات لتقول:

- اللّي شفتيهم إنتي ما أقدر أقول شيء... لكن الجرى اللّي سمعتوه.. يمكن يا خاتون يكون فيران... أو بساس... البيت مهجور من زمان... ولازم الفيران كتروا فيه... وكانوا خايفين منكم ومن النور..

كانت منكشة، جالسة إلى جانبي... ويدها تداعب شعري في حركة تدليل وتحبّب... عندما سمعنا صوت الحج عبدالرحيم يرتفع من الدهليز شبه مخنوق... وهو يقول:

- هنا.. هنا كمان... هنا كمان مشايخ... صُلاّح... الدنيا ظلام.. المسرجة ما في زيت...

امتلأنا رعباً ساحقاً.. كلّنا، صُعقنا تقريباً... وأخذ كل منا ينظر إلى الآخر.. إلا الدادة منكشة... فقد رأيناها تكاد تضحك... وهي تقول:

- حج عبدالرحيم خوف... خوف... من ظلام... مسرجة ما في... خوف كتير..

نهضت، وهي تتناول اللمبة العلاقي... واتجهت إلى الباب.. ولكن قبل أن تخرج رأينا الحج عبدالرحيم يندفع... ووجهه في صفرة الأموات... وهو يقول:

- صُلاّح... مشايخ... شيخ أفندي أحمد صفا... كلّهم في الدهليز.

***

«عزيز» هوّه عريسي ...

كان وجهه ممتقعاً أصفر فعلاً، وجسمه كله يرتعش، وأسنانه تصطك بحيث ذكرني بما كان يحدث لأمي حين تعاودها حمى الملاريا... كلّنا ظللنا ننظر إليه، ولا شك أننا نحن أيضاً قد انتابنا خوف صاعق... ولم نتحرك من أماكننا... كل الذي استطاعت أن تفعله أمّي هو أن تضع على رأسها شرشف الصلاة الذي تناولته بيدها... ولم يكتف الحج عبدالرحيم بهذه الاندفاعة الصاروخية، بل زاد على ذلك أن ظلّ يلتفت إلى الباب، حيث جعلنا نتوقع أن هؤلاء الذين قال إنهم - كلهم - في الدهليز، سيدخلون علينا... كان مشهد (البيبي)، وقد حملقت عينيها تحت حاجبيها الكثين ورفعت كفيها، تملأهما ترتيلاً، ثم تقذف بهما إلى الباب قد زاد من إحساسنا بالرعب الصاعق، إذ توهّمتُ أنا أنها ترى القادمين، وتحاول صدّهم عن الدخول علينا بهذا الذي تقرأه وتملأ به الكفين.

ارتمى الحج عبدالرحيم بطوله على الأرض وهو يقول بالهندية أيضاً:

- باني... بوني ليو... بهوتبيمار...

بطبيعة الحال لم يفهم أحد منا شيئاً... الدادة منكشة وأنا وأمي... ماذا يريد... فهمته ابنته (خاتون)... فقالت تخاطب منكشة بلهجة متعجّلة:

- مويه... مويه قوام.

لكن منكشة.. لم تتحرك، ولم تُعْنَ حتى بالالتفات إليها... وعندما تكرر الطلب.. التفتت منكشة إلى أمّي وقالت بالتركية، ما معناه:

- كيف أخرج، ما دام المشايخ، مجتمعين هناك...؟؟

وأشارت إلى الباب... الذي كان الحج عبدالرحيم يلتفت إليه.. و(البيبي) تصدّهم

عن الدخول بما تقذفه من كفّيها بعد أن تملأهما تلاوة أو كلاماً أو شيئاً لا يعرفه أحد سواها.

فما كادت خاتون ترفع صوتها مستعجلة الماء لأبيها وقد بدا كأنه وأنفاسه تتحشرج حتى التفتت إليها أمّي وقالت:

- مين يا خاتون يقدر يخرج من باب المجلس، ما دام هادول اللّي بيقول عليهم العم عبدالرحيم موجودين في الدهليز؟؟؟ وباين عليه شايفهم عند باب المجلس كمان؟؟؟

وكان أغرب ما سمعناه من خاتون، قولها وفي وجهها ضحكة تغالب حبسها:

- يا فاطمة... عمك عبدالرحيم يتهيأ له أنه شايف هادول اللّي بيقول عليهم... هوَّه طبيعته كده... ما يقدر أبداً يجلس في الظلّام... طول عمره، ما ينام إلا والفانوس والع جنبه.

- طيّب يا خاتون واللي بتقولي إنك إنتي شفتيهم في بيتكم..؟؟ وهوَّه سمعهم بيقروا دلائل الخيرات.

- اللّي شفتهم أنا... شفتهم من جِدْ يا فاطمة... واللي بيجروا ورا بعض في الديوان كان بيجروا ورا بعض... وعشان كده أنا طحت على الأرض ما أدري عن نفسي.

وهنا تدخّلت الدادة منكشة بلغتها العربية المكسّرة تقول:

- ما دام هادا مشايخ فيه... حج عبدالرحيم شفتو... إنتي... خاتون هانم... كمان شفتي... خلاص... أنا لازم اجلس هنا... مويه ما في... ما في... أبداً ما في...

رأيت أمّي تحبس ضحكة تكاد تنفلت، وهي ترى التعبير الذي بدا على وجه منكشة وهي تؤكد بطريقتها أنها لن تجيء بالماء المطلوب... لكن الحج عبدالرحيم حسم الموقف فجأة، حين نهض من استلقائه وجلس حيث هو في وسط المجلس وقال:

- منكشة... هاتي القمرية... نمشي سوا سوا... نجيب مويه... كمان نولّع نار.. عشان نحرق بخور، نقرأ الفاتحة... هيّا منكشة..

كانت القمرية هناك على الرف الخشبي الصغير... ألقى الحج عبدالرحيم عليها نظرة، ثم نهض، ومد يده إلى منكشة يستنهضها معه... لم تخيّب ظنّه فقد نهضت، وحملت القمرية وخرجا معاً من باب المجلس، وعلى ضوء القمرية، لم نر خارج

باب المجلس شيئاً... لكن (البيبي) عاودت رفع كفيها منحنية برأسها، ووجهها الأسمر، وعينيها الجاحظتين تحت حاجبيها الكثيفين، وخصل شعرها الأشيب، تحيط بخديها إلى عنقها... عادت تملأ كفيها دعاء وترتيلاً ثم تقذف ما امتلأ فيهما في اتجاه الباب...

***

ربّما كانت تلك الليلة من أطول وأعجب الليالي التي عشتها في طفولتي... كانت حكاية أو هي حكايات (الصُّلاّح) هذه تتلاحق واحدة بعد الأخرى، والذي يرويها هو الحج عبدالرحيم... والعجيب، أنهم (هؤلاء الصُّلاّح) موجودون، ليس فقط في بيتنا أو في بيتهم، وإنما حتى في الهند... وما أكثر، وأغرب حكايات (صُلاّح) الهند... إذ لا يكتفون بالظهور في الظلام، مثلاً... بل يظهرون للناس في وضح النهار... فما أكثر ما رآهم على الصخور بالقرب من أشجار جوز الهند في البلدان التي يذكر اسماءها باللغة الهندية، في بومبي... وفي دلهي، وحتى في القطار وهو مسافر إلى حيدر آباد... بل وفي الباخرة التي جاء بها مع خاتون و(ما شاء الله) والبيبي...

استطاع الحج عبدالرحيم أن يحيي الليلية، فيحرمنا النوم الذي لم نذق له طعماً مع جو الرعب والقلق، والحكايات التي تتناسل واحدة إثر الأخرى بلا انقطاع... ورأتني أمّي أنعس، ورأسي يسقط على صدري فإنتهزتْها فرصة فنهضت إليّ وهي تقول:

- يا خاتون.. الولد تعب.. لازم ننام.. وإنت يا عم عبدالرحيم.. قلت تبغا تنام في الدهليز... منكشة تولع لك المسرجة...

لكن ما كادت أمّي تلفظ كلمة (مسرجة) حتى انتفض الحج عبدالرحيم كمن لسعته عقرب وهو يقول:

- مسرجة؟؟؟ ودهليز كمان؟؟ لا... لا يا بنت شيخ أفندي... في الدهليز صُلاّح... وكمان شيخ أفندي يمكن يخرج من الديوان...

- طيب ما هو خلاص، بعد ما بخرنا الدهليز والبيت كله... وإنت قريت الفاتحة... لازم الصُّلاّح راحوا...

- لكن يا بنت شيخ افندي... إذا كان ممكن القمرية!!!

ضحكت أمّي ضحكة خفيفة، وقالت:

- القمرية تحت أمرك يا عم عبدالرحيم... خدها.

مع ذلك تلجلج صوته وبدا كأنه يتحشرج وهو يقول:

- دهليز؟؟ في الدهليز لا... لا

- طيب يا عم عبدالرحيم فين تنام...؟؟ نحن هنا في المجلس... وإنت لازم في مكان تاني، هنا تدخّلت منكشة وقالت:

- حج عبدالرحيم... ممكن... ممكن في السطوح... سطوح بارد... كمان قمر فيه. ولكن قبل أن تتم جملتها بلهجتها الغريبة، التفت إليها الحج عبدالرحيم يقول:

- منكشة؟؟؟ إنتي لا زم ما في عقل... ما في مخ... إنتي ما تعرفي هادا الصُّلاّح... مشايخ كلهم يحبّون السطوح... يحبون نور القمر... نور النجوم طول الليل إلى صلاة الصبح دلائل الخيرات... وفاض الحال بأمي، فانفجرت في وجهه تقول بحدة بالغة وصوت مرتفع:

- طيب وبعدين؟؟؟ نحن حريم وما يسير أبداً إنك تنام معانا في المجلس... ما تهرجي إنتي خاتون؟؟! وإنتي يا بيبي... ما تقولوله، إننا نبغا ننام شوفي الولد تعبان... والصبح قرّب ونحنا ما عندنا إلا هادا البَرابَنْد... يعني لِمَتى؟؟؟ يا عم عبدالرحيم خد القِمرية... وخد معاك بيبي... ولاّ إنتي يا خاتون قومي معاه خدوا المرتبه.. خدوا الطّوالة... الحاصل نبغا ننام.

لا شك أبداً في أن الحج عبدالرحيم كان رجلاً ماكراً، إذ قبل أن تنتهي أمّي من كلامها رأيناه يعود إلى الاستلقاء بطوله على الأرض... وقد أغمض عينيه... وبادرت خاتون إليه، وهي تقول مستعجلة مرتبكة، أو متظاهرة بكل ذلك:

- مويه... مويه يا منكشة.

ثم أضافت تقول لأمي:

- هو كده لمّا يزعل ويخاف...

كانت هناك كأس الماء. تناولتها خاتون من البيبي... ودلقت منها على وجه أبيها الذي بدا كأنه يصحو من إغماء... ولكن من دون أن يتحرّك..

أخيراً حسمت أمّي الموضوع كله... استنهضت منكشة... وجعلتها تحمل المرتبة واللحاف والوسائد، وأخذت يدي في يدها، وفي اليد الأخرى حملت (القمرية) وخرجنا معاً من المجلس... ولكن قبل أن نخطو إلى حيث تريد، أغلقت باب المجلس على من فيه، صفقَتْه بعنف شديد، وقد احتقن وجهها... واتجهت بي ومنكشة خلفنا إلى حيث أخذنا نطلع السلالم إلى السطح.

هناك... على أرض السطح... وضوء القمر ساطع، وإن كان في نصف حجمه، والنجوم تملأ السماء بقدر ما يسعها البصر... افترشنا المرتبة.. واضطجعنا... وكانت كأنها تصفعني... وضعت ذراعها تحت رأسي... وجعلتني استدير فالتصق بها تقريباً... ثم قالت للدادة منكشة ما فهمتْ منه هذه أن عليها أن تضطجع هي أيضاً إلى جانبي... كان مضجعي بينهما... كان من تأدّب منكشة ما جعلها تتمنع، مستكثرة أن تنام على الفراش نفسه الذي ننام عليه... ولكن سرعان ما شدّتها أمّي من ذراعها... لتحسم الموقف... ولنأخذ في الاستسلام للنوم بعد كل الذي عانيناه من خاتون، وفريق حاشيتها طوال الليل... وكان أعجب ما طرأ على ذهني وأنا بين أمّي والدادة ذكرى تلك الليلة التي سهرتها إلى جانب بدرية، ورائحة عطر البنفسج في شعرها على الوسادة، التي اتسعت لرأسي وأنا أصغي إلى حكاياتها عن بنت نجم الدين أفندي ذات الشعر الأشقر ولونها الأبيض الجميل.

* * *

توالت الأيام والليالي في بيتنا في زقاق القفل... وكان المبلغ الذي استلمته أمّي لقاء تأجير الدكاكين في زقاق الزرندي، قد أتاح لها أن تستكمل الكثير مما يحتاجه البيت، من أواني المطبخ ولوازم صنع الشاهي، والفناجين، والأطباق والـ(تباسي) إلخ.

هذا إلى جانب عدد من قطع الأقمشة الحرير والقطن... ومن الحرير ما كان يسمى (الجَنْفَص) وهو من أغلى الأقمشة، ومثله المخمل... ولا أزال أذكر لون قطعة (الجَنْفَص) تلك.. كانت خضراء خضرةً تميل إلى السواد، أعني اللون الأخضر الغامق، فإذا تحركت، تظهر عليها تموُّجات متباينة التفتح، والعمق... أما قطعة المخمل (القطيفة) فهي أيضاً سمعت منها أنها غالية أيضاً وقد اختارت لوناً أحمر غامقاً أيضاً، أظن أننا نسميه في هذه الأيام (نبيذي)... وإضافة إلى الثياب التي اشترتها لي والأحذية، فقد اشترت ثياباً أخرى، ملابس داخلية لنفسها ولي... ومن الحراج التقطت صندوقاً من نوع (السيسم) الثمين... قالت إنه يشبه الصندوق الذي نهبه اللصوص بعد خروج فخري من المدينة... ولا أزال أذكر أنها كانت بعد أن نعود معاً من التسوق، في (جُوَّه المدينة)... تجلس، وتخرج النقود الفضي والنيكل، وتعدها أو تحسبها وتحسب ما أنفقت وما بقي... ولم أعد أرى الجنيهات الذهبي، إذ أصبحت تصُرُّ ما بقي منها في منديل تشبكه في صدرها. ولا أشك في أنها كانت لا تأتمن منكشة... ولا أعرف سبباً لذلك، إذ كانت تحرص على أن تحسب نقودها، أعني ما

يبقى منها بعد التسوق، في غياب منكشة دائماً... والأقمشة التي اشترتها، كلها ومعها النقود، كانت تضعها في الصندوق (السيسم) الذي يُقفل بمفتاحٍ مزخرف تحرص دائماً على أن يكون مع صُرّة الجنيهات الذهبي في صدرها.

وفي ذات ليلة بعد أن اشترت الأقمشة أخذت تتحدث، مع منكشة عما إذا كانت تعرف (خيّاطة)... وكانت منكشة لا تخيب الظن في معرفة الكثير... ومنه خياطة قالت إنها ساكنة في منطقة اسمها (دار الضيافة) بالقرب من كهرباء الحرم... وأضافت أن مدير هذه الكهرباء (خليل أفندي) يسأل عن جدي، وعنها، فهو من (قازان) ويريد أن يراها وأن يراني أنا أيضاً فهو يعرف أبي...

لا أزال أذكر تلك الليلة، التي زارتنا فيها الخالة فاطمة وابنتها بدرية وأخريات من الجارات، ومنهن تلك الخيّاطة التي في دار الضيافة... عرضت أمّي الفساتين الجديدة من (الجنفص) و(القطيفة)... ولكن الخالة فاطمة، لم تكتف بأن تراها هكذا... توسلت هي وبدرية، والخياطة أيضاً، أن يروا أمّي في الفستان القطيفة الأحمر...

غابت أمي عن المجلس... لحظات، وعادت وهي في هذا الفستان القطيفة الأحمر... ما كادت النسوة يرونها فيها، حتى شهقت الخياطة إعجاباً... وحتى بدرية أخذت تتأمّل أمّي بنظرة فيها إعجاب بالغ، أما الخالة فاطمة جادة، فقد أخذت تكرر (ألف ما شاء الله... ألف ما شاء الله)... يا فاطمة... أقولك الحق... وتلعثمت قليلاً، وهي تلتف إليّ... ثم قالت:

– أنتي ما يسير... ما يسير يا بنتي، تستنيه وهوه لا حس ولا خبر.. ولست أدري كيف أدركت أنا أنها تعني (أبي) الذي كثيراً ما دار الحوار بين أمّي وبين الأخريات عن أنه سافر، ولم يرسل حتى (مكتوب) يقول: أين هو؟؟

وأضافت الخالة فاطمة، وهي لا تزال تتلعثم:

– يعني يا فاطمة يا بنتي ناوية تقعدي كده؟؟؟ تنكفي على الولد؟؟ طيب لِمتَى؟؟؟
وهنا تدخلت الدادة منكشة بلغتها العربية المكسرَة تقول:

– فاطمة هانم... عريس... عريس فيه... بس؟!!

وما أسرع ما قاطعتْها أمّي بحدة وعنف تأمرها بالسكوت... والتفتت إليّ، وقد كنت أقف إلى جانبها... وأخذتْني في حضنها... ضمتني بحرارة... وهي تقول:

– هادا عريسي... أيوه يا خالة فاطمة عزيز هوّه عريسي.

كيف أكون عريسها..؟

حتى اللحظة التي سمعت فيها هذه الكلمة من أمي، وهي ترد على ما سمعته منكشة عن وجود عريس، لم يكن قد تبلور في ذهني معنى تلك الجملة التي قالتها الخالة فاطمة منذ أيام ثم رددتها بعد ذلك بدرية أيضاً وهي: (إنت رجّال البيت)... لكن لا شك أنها بعثت في نفسي إحساساً غامضاً بأن (البيت) - وهو في مفهومي يومئذ، هذا البيت الذي نسكنه في (زقاق القفل) - وأخرج الزاكور من الحنية اللعينة فيه ذلك (الساكن) وقد فهمت أنه ثعبان أسود كبير، ثم ما جعل يتلاحق من الكلام، عن الأشباح، أو هم (الصُّلاّح) الذين قالت منكشة إنها رأتهم فيه... إن هذا البيت يحتاج إلى (رجّال)... وإني قد أصبحت هذا (الرجّال)... وإن كنت لا أدري في الواقع ماذا ينبغي أن يقوم به (الرجّال) في بيت كهذا تملأه الثعابين والأشباح، وأولئك الصُّلاّح الذين قال أخيراً الحج عبدالرحيم إنه رآهم في الدهليز، فهرب إلينا في المجلس وفرض علينا مع ابنته (خاتون) وابنتها (ما شاء الله)... وتلك (البيبي) الرهيبة، أن نترك لهم المجلس، لننام على السطح تحت ضوء القمر والنجوم... بل كانت المعضلة الحادة المعقّدة في ذهني، هي هؤلاء الأشباح أو (الصُّلاّح) كما يسميهم الحج عبدالرحيم... كيف أمكن أن تراهم (منكشة)... والحج عبدالرحيم... بل و(خاتون)، وأن تكون أمي... وأنا... الاثنين اللذين لم نر منهم أحداً... ثم أي نوع من المخلوقات هم؟؟؟ واضح من الكلام الذي دار ويدور أنهم آدميون مثلنا، ومثل جميع الرجال الذين نراهم في كل وقت... فما الذي يجعلهم مخيفين إلى هذا الحد؟؟؟ وما الذي يجعلهم يتخفون، ولا يظهرون إلا في الظلّام... وفي ثيات بيض وبلحى طويلة؟؟؟ ويتطلبون أن نحرق لهم البخور... وأن توالي منكشة والبيبي، وغيرهما قراءة هذه الأدعية التي أرى شفاههن تهتز بها، وهن مرعوبات، والحج عبدالرحيم يبلغ به الرعب أن تسري في وجهه صفرة الموت؟؟؟

على أية حال، يمكن القول إني فهمت من (رجّال البيت) هذه التي ارسلتها الخالة فاطمة ثم بعدها بدرية، أني مطالب بأن أتصرف كما يتصرف الرجال... ولكني - وأنا أطيل التفكير في هذا الأمر - لم أملك إلا أن أتساءل: كيف يتصرف الرجال يا ترى؟؟؟ الحج عبدالرحيم رجّال بالطبع، ولكني رأيت وعايشت تصرفاته منذ اللحظة التي وصل فيها في الليل، وبيده ذلك المشعل الذي دخل به بيته، ثم قال إن مجهولاً كان يطفئه عليه مرة بعد أخرى، فاضطر إلى أن يلجأ إلى (بيت الشيخ أفندي) وأن يجيء بابنته وحفيدته والبيبي الرهيبة، ليناموا عندنا ثم يهرب من الدهليز، الذي رأى فيه (الصُّلاّح) وحتى الشيخ أحمد صفا نفسه (جدي) ليلقي بطوله وعرضه على أرض المجلس بيننا.. هذا (رجّال) وهذا تصرفه... فما الذي يطلب مني أنا من التصرفات... وتذكرت في غمرة تفكيري الساذج، أني أنا الذي فتح الباب، وأنا الذي يتناول الجنيهات الذهب من العم عثمان الذي استأجر الدكانين، بينما تحتجب أمّي عنه وعن كل رجل... واسترحت في النهاية إلى مفهوم بسيط وهو أن أمي، ما دامت تحتجب بالملاية عندما تخرج، أو عندما تضطر لمقابلة أي رجل، فإنها لا تستطيع أبداً أن تستغني عن رجل... وقلت لنفسي: (ما زلت صغيراً... وبدرية قالت عني إني "قصمة إفرنج"... ولكن ها هي أمّي تعتمد عليّ... ولا تخرج إلا وأنا في يدها... وحتى أيام كنا في حلب، ثم في الطريق منها... في القطار... وفي تلك الخيمة التي كانت تنام فيها وحدها تطحنها حمى الملاريا في القنطرة، واشترت لي من المجيدي الواحد الذي تملكه (البرشومي)... ثم في مكاننا على سطح الباخرة، التي انتقلنا بها إلى ينبع.. ومنها على الجمل إلى المدينة... في جميع هذه الأحوال، كان لا بد أن أكون في يدها... إلى جانبها في اليقظة وفي النوم على السواء... ولا يعني هذا شيئاً إلا أني، وإن كنت صغيراً... فإني (رجّال)... رجّالها... أو كما قالت الخالة فاطمة: (رجّال البيت).

أما هذه الكلمة الجديدة، التي قالتها أمّي نفسها هذه المرة وهي (عزيز هوّه عريسي). فإني لم أفهم لها معنى... لقد سمعت الكلمة قبل ذلك عن آخرين، تدور على ألسنة النساء، ليس في المدينة فقط، بل حتى في حلب، وحتى في كل حوار بين من يحدث أن تجتمع بهن أمي... بل تذكرت أني سمعتها قبل ذلك، وإحداهن تتحدث إلى خالتي خديجة فتسألها عن (عريسها) متى يجيء؟؟؟ وأنها هي (عروسة) جميلة... إلخ... فما معنى (عريس) هذه؟؟؟؟ وكيف أكون أنا عريس أمي؟؟؟ ودار

بذهني أن (العريس) يجب أن يكون رجلاً... كبيراً، إن لم يكن كالعم محمد سعيد زوج الخالة فاطمة... أو كالحج عبدالرحيم أبو خاتون، فليس أقل من أن يكون كعبد المنان زوج بدريّة... وأنا؟؟؟... أنا ما زلت طفلاً، فكيف أكون عريساً؟؟؟ بل كيف يمكن أن أكون (عريس أمي)؟؟؟

ولكن، فجأة!!! وأنا أسمع صوت المؤذن لصلاة الفجر، وقد استيقظتُ من نومي وظللت مضجعاً إلى جانب أمي، واللحاف الجديد نلتحف به معاً... فجأة طرأ على ذهني سؤال، كدت أوقظ أمّي لأوجهه إليها بالذات!!! وهو: لماذا لا أكون أنا عريسها؟؟؟ وكيف ظلّت هي حتى اليوم من دون عريس؟؟؟؟ في ذهني مفهوم غامض، عن أن أبي هو (زاهد)... وأنها هي (ففّم) أمي... فلا بد أن يكون (زاهد) هذا الذي هو أبي... هو أيضاً عريسها... فكيف أكون أنا عريسها إذاً؟؟؟

لست أدري حتى اليوم، كيف أحسست بما يشبه ارتجاجاً عنيفاً في صدري، أو هو يد صلبة قوية عصرت قلبي عصراً رهيباً ثم تركته... وذلك في اللحظة التي تذكرت فيها كلمة منكشة وهي تقول في حوارها مع الخالة فاطمة: (فاطمة هانم... عريس؟؟؟ عريس فيه..؟؟) وتذكرت في الوقت نفسه أن منكشة قالت هذه الكلمة، بعد أن سمعت من الخالة فاطمة إعجابها بأمي في فستانها القطيفة وهي تردد (ألف ما شاء لله.. ألف ما شاء لله) ثم تقول: (ما يسير... ما يسير يا بنتي تستنيه وهوّه... لا حِسْ ولا خبر...)...

انجلى في ذهني هنا، وفي هذه اللحظة، كل الغموض... لكن كان من المتعذر أو غير المعقول أن أربط وأرتب سلسلة المفاهيم التي تتابع كل منها الأخرى... تبلورت الصورة في ذهني لتبعث في نفسي إحساساً عميقاً بالانكسار والحزن، لعلّي لم أحسه قبل هذه اللحظة طوال الأيام وعلى مر الأحداث، التي عشتها، منذ ذلك اليوم الذي غادرنا فيه هذا البيت بالذات، لنركب ذلك البابور إلى الشام... وظلّت جملة الخالة فاطمة (ما يسير يا بنتي تستنيه، وهوّه لا حس ولا خبر...) تفرض نفسها - وبصوت الخالة - على ذهني عدة مرات... أنّه... أنه أبي... الذي (ما يسير تستنّيه)... ماذا يعني هذا يا ترى؟؟ بل ما الذي جعل منكشة، تعلّق قائلة: (عريس فيه)؟؟؟ فتقاطعها أمّي غاضبة وتقول لها بحدة وعنف أن تسكت... ثم تأخذني في حضنها لتقول: (عزيز هوّه عريسي...).

لا شك أنهم تحدّثوا في هذا الموضوع، أمامي وعلى مسمع مني، وهم أو هنّ على الأصح يعتقدون بأني لا أفهم شيئاً... في الواقع أني دخلتُ دوّامة الغموض وعدم الفهم، وتعلّقت بمحاولة الفهم، في اللحظة نفسها التي كان رأسي على صدر أمّي وهي تضمني بحرارة وتقول: (عزيز هوّه عريسي...).. وها أنا الآن أفهم، أن منكشة تعرف (عريساً)... وأنه (موجود) أيضاً، فالسؤال الذي لا بد أن أجد إجابته عندها... عند هذه العجوز (منكشة) هو:

من هو هذا العريس الموجود؟؟؟

كنت أنا الوحيد التي استيقظ، وصوت المؤذن يرتفع لصلاة الفجر... وكنت أنا أيضاً الوحيد الذي يستعيد في ذهنه، وفي أعماق نفسه، كلَّ ما سمعه، بعد أن ظهرت أمّي بفستانها الجميل من القطيفة الحمراء... استعيد كل ما سمعت، وأناقش أو أحاور، وأدور حول الكثير الذي أصبح يحتاج عندي إلى مزيد من الفهم.. أو إلى شيء من الاطمئنان إلى أن القليل الذي فهمته هو الواقع.. وهذا القليل هو؟؟.

أحسست كأن الدم يقف في عروقي، عند كلمة (هو...) هذه... إذ ما هو؟؟؟ لم أجرؤ أن أتمم الجملة ومضمونها... أحسست بالغثيان... وبالعرق البارد، كأنه يتدفق من جسمي كله... ومع أني كنت إلى جانبها... وتحت اللحاف، فقد أحسست ببرد شديد... وأخيراً تقيّأت فعلاً...

إنتفضت أمّي من نومها وجلستْ، وأسرعتْ تأخذني في حضنها وهي تردد:

- ايش بك؟؟؟ ايش بيك يا عزيز؟؟؟

لم أكن في حالة تسمح بأن أقول شيئاً.. إذ بدا كأني قد أُغمي عليّ بعد الاستفراغ... وسمعتْ الحركة وصوت أمّي المرتعب، الدادة منكشة... فنهضت هي الأخرى... ولما رأت وجهي... والفراش وقد انتشرت عليه السوائل التي أفرغها جوفي، أسرعت تجيء بما تمسح به الفراش، وبفوطة أخذتها أمّي وشرعت تجفف بها وجهي... وهي تردد:

- عزيز... ايش بك يا عزيز؟؟؟

سمعت منكشة تتكلّم بالتركية، كلاماً معناه: إنه البرد... وحلوى (المشبّك) التي كانت بين أصناف التعتيمة التي أكلناها في الليل. ثم أسرعت مرة أخرى، رغم ثقل خطواتها، وجاءت بكأس من الماء، نَصَحَتْ أن ترش أمّي به وجهي...

لم يطل الأمر... فقد استعدت قواي المتخاذلة... ووجدتُني، أحيط بعنق أمّي وهي عاكفة عليَّ، بذراعي، وأقرّب وجهها إلى وجهي... وأنا أنظر إلى عينيها.. وزحمني البكاء، لكني تماسكت، وبلعت ريقي بصعوبة، بينما انذرفت من عينيّ دموع لم استطع إمساكها... رأتها أمي...لم يخنها ذكاؤها، إذ لا شك عندي حتى اليوم، أنها قد حزرت ما أعانيه من انفعال وأن السبب هو ذلك الحوار الذي دار بينها وبين الأخريات في الليل. فعادت توسعني ضماً إلى صدرها وترفع وجهي بين يديها وتقبّلني، ليس مرة واحدة.. وإنما مرات وعدداً من القبلات النهمة المتلهّفة... وحين فتحت عيني، رأيت الدموع تملأ وجهها... لم تقل شيئاً... كأنّها اكتفت بهذه الدموع، عن كل ما يمكن، أو ما ينبغي أن تقوله.

من جانبي... مع أني قد التزمت الصمت، وأحسست بالارتياح والرضا، حضنتها وذراعي ملتفة حول عنقها... فقد استطعت أن أكمل في ذهني أن القليل الذي أصبح الآن مفهوماً عندي هو أن منكشة عندها (عريس) لأمي... وأن الخالة فاطمة جادة، تستنكر أن تظلّ أمّي تنتظر هذا الذي طال انتظاره، من دون (حس ولا خبر)... أن تظلّ تنتظر (أبي)!!

ومنذ ذلك الصباح، الذي عشت فيه، ما لم يسبق أن عشت مثله قط، من الانكسار والحزن والقلق والهواجس العاصفة، ساد بيني وبين أمّي نوع من التفاهم الصامت، الذي استغنى عن الكلام، بل حتى عن التلميح، حول موضوع أبي الذي لا تزال تنتظر عودته، رغم أن المدينة المنورة، كانت تشهد الآن، يوماً بعد يوم قوافل الذين كتب الله لهم السلامة، وأصبحوا يعودون إلى منازلهم وأهلهم... بحيث أصبح يقول الناس إنه لم يبق أحد، إلا الذين ماتوا من الجوع والمرض (الشوطة) التي كانت تخترم أرواحهم بالعشرات والمئات، في كل يوم.

لكن الصمت، والحرص على تجنب الموضوع، لم يكن في الواقع يعني أنه تلاشى أو حتى توارى في نفسي أنا على الأقل... كلا.... فقد وجدت نفسي، أعيش ظاهرة لا عهد لي بها من قبل، وهي حالة توقع أن يجيء أبي في أي لحظة من ليل أو نهار... فلا أكاد أسمع الباب يطرق أو حركة مشي في الزقاق، أو صوت رجل يتحدث في البيوت القليلة المجاورة ومنها بيت الخالة فاطمة، وبيت خاتون... وبيت (النوار) إلخ... حتى يقفز في نفسي وهم أنه (هو)... أبي قد وصل أخيراً بعد طول إنتظار... ويتبدّد الوهم بطبيعة الحال، ولكن التوقع في ما يشبه اليقين، يظلّ يلازمني

من دون انقطاع... ومع هذه الظاهرة، التي حرصت أن أخفيها على أمي، افترستْني حالة أخرى... ليست وهماً، وإنما هي انفعال صاخب عاصف، ينتابني، وأحرص مع ذلك على ألا يشعر به أحد، حتى أمي... وهو الغيظ، أو ربما الحقد، على الأطفال من سنّي الذين كنت أراهم، يمسكون بأيدي آبائهم، حين نذهب للصلاة، في الحرم بينما أنا أمسك بيد أمي... لم أكن أجرؤ على أن أقول شيئاً... إذ الواقع ماذا يمكن أن أقول؟ غير أن هؤلاء الأطفال كلهم... يمسكون بأيدي آبائهم... أو يمشون إلى جانبهم... وأنا... أنا فقط الذي أمسك بيد أمّي وهي تمشي بي إلى (قفص الحريم)... بينما الأولاد كلهم على الحصوة مع الرجال... مع آبائهم.

أعتقد أن أمّي من جانبها لم تكن أقلّ قلقاً مني توقعاً لعودة أبي... إذْ ما أكثر ما كانت، تسرع إلى من تسمع أنهم وصلوا من الشام أو من غيرها، من معارف أسرتنا، لتسأل عنه... هل سمعوا هم عنه؟؟؟ هل رأوه؟؟؟ هل عاد أحد من الذين سافروا معه لجمع التبرعات لبناء الجامعة الإسلامية من مسلمي روسيا؟؟؟ وبطبيعة الحال لم يكن أحد يعلم شيئاً... خصوصاً وأن كل الذين سافروا إلى تركيا أو روسيا... لم يعد منهم أحد، لأن الطرق لا تزال مغلقة بسبب الحرب...

الأولاد على الحصوة...

في ذلك المجلس، الذي شهد تلك الليلة التي لا تُنسى... وما زلت أسميها (ليلة خاتون الهندية)، تلاحقت ليالٍ كثيرة، وأخذ يتكاثر عدد النساء اللائي يزرننا أو هن يسهرْن عندنا بعد الغروب. كما أخذت تتعدّد الأمسيات التي نذهب - أمّي وأنا - لقضائها عند صديقاتها، ومعارفها الكثيرات... وبطبيعة الحال، كان مجلس الخالة فاطمة... أعني بيتها - هو أحب المجالس والبيوت عندي، لأني أجد فيه (بدرية) بكل ما كنت أشعر أنها تخصني به من الرعاية والعطف والمزاح بكلمات مثل (قُصمة إفرنج) و(العفريت)... (ورجّال البيت)... إلخ... ولم يكن يحز في نفسي شيء، كما كان يحزّ فيها الليلة التي لا تجيء أو لا تكون موجودة فيها عندنا ولا عند أمها... كنت أفهم من الخالة فاطمة أن زوجها، (عنده ضيوف)... ولذلك فهي لا تستطيع أن تجيء وكان يتعذر عليّ أن أفهم العلاقة بين الضيوف الذين يجيئون عند زوجها وبين تخلّفها عن المجيء... واقتضى الأمر وقتاً أصبحت أدرك معه، أن عليها أن تجهز لضيوف زوجها الشاي، وربّما التعتيمة، أو حتى العشاء..

لم تنقطع، في كل اجتماع أو سهرة، سواء عندنا، أو عند الأخريات من صديقات أمّي الأحاديث عن أبيٍ... بحيث أصبح من المألوف عندي أن أسمع إحداهن وهي لا تكاد تواجه أمّي مسلّمة، أو معانقة، كما هي عادة النساء، حتى تهمس أو تقول من دون حذر:

- لسه يا فاطمة؟؟؟

وأفهم أنا من هذه الجملة على قصرها أنها تسأل عنه... عن أبي... هل لا تزال الأخبار عنه منقطعة... ألم تسمع عنه شيئاً؟؟؟ ألم يره أحد في اسطنبول؟؟؟ فلان

ممّن سافروا قبل الحرب... يقال إنه الآن في الشام... لماذا لا تكتبون إليه تسألونه عنه؟؟؟ يجوز أنه يعرف عنه شيئاً.

لم تكن أمّي تحير جواباً... ما أكثر ما كنت أراها ترتبك، ويبدو عليها الضيق، ولكنها - رغم ذلك - تردد الإجابة نفسها التي تعبّر عن الكثير من الرجاء في لطف الله وكرمه إن لم تكن تحمل الكثير من اليأس، بل والرغبة الصامتة في ألا تسمع هذه الأسئلة من أي مخلوق، وهي: الله كريم.

وفي ذات ليلة، عدنا معاً إلى البيت، بعد صلاة العشاء في الحرم... كانت يدي في يدها كما هي العادة منذ كنا في الشام... لمحنا العم صادق، في دكانه على رأس الزقاق... فاستوقفنا وهو يقول:

- كيف حالك يا بنتي يا فاطمة؟؟؟ البنات عندي، بيقولوا لي كلام فرّحني يا بنتي.

- خير يا عم صادق... أيش قالوا...

- بيقولوا... يعني... يعني... إنتي ما تدري؟؟؟

- أدري؟؟؟ عن إيه يا عم صادق؟؟؟

- طيب... طيب... مو وقْته... بعدين... بعدين تجيكي سعدية، وتقول لك... هيّا تصبحي على خير.

ونمشي، حيث نتسلل في ذلك الزقاق المظلم، لنرى الأنوار الخافتة في المجالس، على جانبي الزقاق، ومنها نور المجلس في بيتنا، فنفهم، أن "منكشة" هناك، وأنها تنتظرنا وقد جهزت لنا العشاء.

في ذلك الدهليز المعتم الرهيب، نرى (المسرجة)، تضيء لنا الطريق إلى المجلس، فإذا أحسّت منكشة بوقع خطواتنا، تسرع رغم ثقل خطواتها وفي يدها (اللمبة)، وأحياناً (القمرية)، تضيء لنا السلالم... وترحّب بنا بكلمات الترحيب التركية التي أصبحت أتقنها أنا أيضاً، وأتقن كلمات الشكر على الترحيب... ولا نكاد نستقر في المجلس، حتى تأخذ في تزويدنا بآخر أخبار الزقاق... ومنها أخبار الحج عبدالرحيم، الذي سمعت أنه تخاصم مع (البيبي)... وأن خاتون غاضبة، لأن البيبي، تصرّ على السفر إلى مكة، لأنها لم تأتِ من الهند إلا للحج... وها هو وقت الحج قد اقترب، والحج عبدالرحيم يؤجل، ويقول إنه هو قد حج عدة مرات... ولا بد أن يجد لها من يرافقها... وهو لا يجد هذا الذي يرافقها في هذه الأيام. ومن الأخبار التي تحرص

منكشة ألا تفوتنا، ولا أدري من أين تجيئها، أخبار (فخري باشا)، و(الباديشاه) وهو (السلطان)... وقد سمعت أن الباشا لا بد أن يعود إلى المدينة... لأن السلطان غضب عليه وأمره بالعودة مهما كلفه الأمر... فإذا ضحكت أمّي ساخرة من هذا النوع من الأخبار، وقالت لها إن (الباشا) لن يعود... وإن (الباديشاه) نفسه، أصبح لا يستطيع الخروج من (يلديز)، لأن النصارى قد دخلوا اسطنبول، فإن منكشة، تبدو وكأن أحداً قد ضربها على رأسها... إذ سرعان ما تضع يديها على رأسها، وتأخذ ترديد كلمة أعتقد الآن أنها نوع من الاستغاثة بالله:

- أمان... أمان يا ربي...

وافهم أنا، أن منكشة، مؤمنة بأن الباشا، لا بد أن يعود... وأن (الباديشاه) مخلوق لا يمكن أن يموت أو يمس بسوء من أي نوع... وأرى منكشة بعد ذلك، تمسح دموعاً انذرفت من عينيها، ثم تخرج من المجلس، لتجهّز لنا العشاء.

وعلى المائدة... على الأرض، ونحن نتناول عشاءنا... تأخذ منكشة، في الكلام بلغتها التركية التي أصبحت أفهم الكثير منها... تأخذ في الكلام عن (أبي)... وأنه لا بد أن يعود، وأن يصل في اليوم الذي يصل فيه فخري باشا... فإذا انتهرتْها أمّي بلطف وحذّرتها من الكلام عن أبي، فإنها تشرع في ملء أكواب الشاي، وهي تقول بما معناه:

- حسناً... وإذا لم يعدْ هو... ولا الباشا... فهل تظلّين تنتظرينه؟؟؟

ويبدو الضيق الشديد على أمي.. فتضطر إلى رفع صوتها، منهية الكلام... وهي تقول:

- يا دادة منكشة... ألف مرة بأقول لك... ما أبغاكي تجيبي هادي السيرة... تقول أمّي هذه الكلمات بالعربية... وكأنها تريد أن أفهم أنا أيضاً أنها لا تحب أن تسمع هذه (السيرة).

من جانبي، كنت ألتزم الصمت بالطبع، ولكن أي صمت؟؟؟ إنه صمت يجد طريقه إلى أعماق نفسي، ليقول الكثير، الكثير الذي يدور حول هذه السيرة بالذات؟؟؟ وكانت بداية الدوامة، عند هذا المخلوق الذي هو أبي... كيف؟؟ كيف يعود الناس جميعاً من البلدان التي سافروا إليها، - كما سافرنا نحن - وهو وحده الذي لا يعود. أتراه قد مات؟؟؟ كثيرون... كثيرون جداً، قد ماتوا في الشام.. وفي حلب... رأيتهم

بعيني ينقلون في تلك العربات الطويلة التي تجرّها البغال... ليدفنوا... مع بعض.. في الحفر الكبيرة، في تلك المقبرة... وربما في غيرها من المقابر التي أصبحت أعي الآن أنها لا بد أن تكون موجودة ليس في الشام وحلب فقط، وإنما في كل بلد من بلدان الدنيا.. فإذا كان قد مات... فكيف لم يعلم بموته أحد؟؟ كيف لم تعلم بموته أمي، وهي التي مات على يدها، عبدالغفور - أخي - وعبدالمعين... وخالتي... وجدي... وقبلهم جميعاً جدتي حميدة التي قالوا لي إنها في الجنّة... وأنا أتصورها دائماً، وفي يدها ليّ الشيشة، مثل الخالة فاطمة، في هذه الجنة التي يذهب إليها جميع الذين يموتون... وأجد نفسي، كأني أتعزّى عن موت أبي... إذْ أقول: إذا كان قد مات فعلاً.. فهو أيضاً في تلك الجنة... ولكن هنا يستوقفني سؤال عن سبب موته... هل هي هذه التي يسمونها (الشوطة)؟؟؟ وقد اخترمت أرواح الألوف من الناس؟؟؟ أتراه قد سقط ميتاً في الشارع... على أحد أرصفة الشوارع، التي كان يتساقط عليها الذين يموتون، وتجيء عربة نقل الموتى تلتقطهم، وتذهب بهم إلى هناك؟؟.. ثم هل كان جندياً؟؟؟ لقد سمعت أكثر من مرة أن الجنود يموتون بالرصاص... وبالمدافع... وأنهم يتركون حيث يسقطون، ولا يدفنون إلا بعد وقت طويل.. لا شك أبداً أنه قد مات هكذا بشكل من هذه الأشكال... ولذلك فإن الذين ماتوا على يد أمّي كانوا أحسن حظاً وحالاً... وما زلت أذكر كيف أراقت أمّي على جثمان جدّي قبل أن يحملوه ويذهبوا به، عطر الورد الذي قالت إنه من عطر (الحجرة)...

العجيب بعد ذلك، أني لم أكن أشعر بالحزن والأسى رغم كل الصور التي أتصورها لموته... مع أني ما زلت أشعر بحرقة الحزن، والأسى، لموت خالتي خديجة، وبعدها جدي... حتى هذه اللحظات التي أكتب فيها هذه السطور، لا أشعر بالحزن عليه ميتاً، غائباً.. كان الشعور الذي يمزق نفسي عندما أرى الأولاد في أيدي آبائهم في الحرم أو في الأسواق هو أني دائماً في يد أمي... ربما نوع من الغيرة، ولكنه ليس الحزن أو الأسى أو التفجع على موته أو غيابه... وأذكر اليوم... بعد أن أخذت مراحل العمر تنطوي واحدة بعد الأخرى لأصل إلى مرحلة الشباب، أني تشاجرت مع أمّي شجاراً عنيفاً، لأنها وهي تتحدث عنه، وعن الليلة التي صلى فيها التراويح في الحرم، وختم (الختمة) كلها في تلك الليلة من ليالي رمضان، رأيت في عينيها دموعاً... مما أشعرني أنها تبكي عليه أو على ذكراه... وسمعتها تتنهّد وتترحّم عليه... أذكر أني انفجرت فيها أقول:

- تبكي عليه؟؟؟ وتدعي له بالرحمة؟؟؟ ليه؟؟؟
- هادا أبوك يا عزيز.
- طيب أنا عارف إنو أبويا... لكن كيف سافر؟... وفضل مسافر؟... وما عرف يرسل لك كلمة... كلمة وحدة يقول لك فيها هوّه فين؟؟
- يا عزيز.. قلت لك ألف مرة إنو سافر عشان يجمع تبرعات لهادي اللّي بيسموها الجامعة الإسلامية... سافر... مع اللّي سافروا قبل (سفر برلك)... وفضل مسافر عشان الحرب... الحرب، اللّي قفلت الطريق بيننا وبين روسيا..
- طيب... لكن الحرب إنتهت من زمان... إنتهت يا أمي... والطرق كلها انفتحت...
- إنت عارف إنها انفتحت... ولكنها رجعت انقفلت... عشان هادول الروس اللّي بيسموهم البلشفيك...

لا أذكر كيف وجدت نفسي، أرفع صوتي حانقاً، وأقول لها كلاماً فيه ما لا ينبغي أن يقول ابن عن أبيه... وكانت لا تتساهل أبداً، في أن يرتفع صوتي أمامها، ليس فقط من أجل موضوع أبي، وإنما لأي سبب من الأسباب... فأخذت تعنفني تعنيفاً شديداً... ومما قالته رحمها الله:

- إنه سبب وجودك في الدنيا.. ولا أحد يدري ما الذي منعه من أن يعود... وواجبك أن تترحّم عليه...

***

ظلّت الأيام تتلاحق، ونحن في منزلنا ذاك في زقاق القفل.. وظلّت أسئلة النسوة لا تنقطع عن أخبار أبي.. وحدث ذات مرة، أن زارتنا إحداهن لأول مرة... وسألت عني (من أكون؟؟؟)... وعندما قالت لها أمّي إني ابنها... وضعت يدها على كتفي وهي تقول:

- مسكين.. يتيم موكده؟؟؟ لا بد من اللّي ماتوا في الشام.

فإذا بأمي تنتفض، ويبدو عليها الحنق والغيظ... وهي تقول:

- برَّه وبعيد... لا يا أختي... عزيز ما هو يتيم...

لم أكن أعرف معنى الكلمة.. ولكن أدركت، بطبيعة الحال أني لست يتيماً وأن أبي ليس من الذين ماتوا في الشام.

«عزيز».. ما هو يتيم..

كانت الدادة منكشة، كما تجيئنا بأخبار الزقاق، هي التي تعتمد عليها أمّي غالباً في التسوّق... في شراء اللحم والخضار والسكر والشاهي... فكان من أخبارها أيضاً، أسعار هذه المواد التموينية في السوق.. لا تكاد تضع (الزنبيل) جانباً، حتى تسترد أنفاسها اللاهثة، ثم تشرع في كلامها عن أسعار هذا أو ذاك من المواد التي اشترتها. ثم، وهذا هو الأهم، تمد يدها إلى صدرها لتخرج كيساً تستخرج منه قطع النقد التي بقيت لديها من (المجيدي) أو (نصف المجيدي)... وبمرور الأيام أخذت ألاحظ أن أمّي لا تخفي قلقها ولا تتردد في أن تحاسب منكشة على ما أنفقته... فإذا تناولت منها قطع النقد وكلها من النيكل أو النحاس، تحرص على أن تنهض، لتضعها في ذلك الصندوق الذي يحتل مكانه في الجانب الأيسر من الباب، منذ اشترته مع ما اشترت من الأثاث، بعد أن استلمت أجرة الدكانين في زقاق الزرندي.

ومع أننا - أمّي وأنا - لم نعد نعاني من ذلك الجوع الذي عرفناه في حلب، بل لقد أصبحنا ننعم بوفرة المآكل وأنواعها التي تتفنن في طهوها أمّي أحياناً، ثم منكشة في كل يوم... مع ذلك فقد أحسست بأن أمّي لم تنس تلك الأيام، وأنها كلما تناولت من (منكشة) قطع النقود الباقية من (المجيدي أو نصفه)، تأخذ في عدّها، وهي تقول لمنكشة كلاماً بالتركية، لا أفهم منه شيئاً في الواقع، ولكن أحزر أنه عن الذي بقي، من الجنيهات العسمنلي الستة... ثم يكاد يكون مألوفاً عندي، أن أسمع أمّي تقصّ على منكشة حكايا الجوع، وتلك الأكلات التي تعلمت تجهيزها من (عصير الرمان الحامض والملح) أو من الطماطم، والخيار والليمون، - وأحياناً، (الجبن)، نتناوله مع تلك الأرغفة الصغيرة الجافة، من خبز الشعير أو (الكِرْسنّة)... ولا تكاد تنتهي إحدى هذه الحكايات حتى تأخذ في حساب الشهور الباقية على أول السنة،

وهو الموعد الذي يتجدد فيه إيجار الدكانين، إذا قرّر المستأجر هذا التجديد. كان واضحاً، وأدرك منذ ذلك اليوم، أن الجوع... أو معاناة هذا الجوع لأي سبب بعد العودة من الشام، هو الرعب الأعظم الذي تعيش أمّي كوابيسه، كلما تناقص الباقي من الجنيهات.

كانت منكشة من جانبها، لا تخفي قلقها هي أيضاً، ولكنها تنتهزها فرصة لتتسلل إلى موضوع أبي الذي لم يعد، ولا نسمع عنه أخباراً من أي نوع، ثم أرى صوتها ينخفض، وتدير عينيها نحوي حيث أجلس، إذ يهمها ألا أفهم أنا، ما ستقوله، في الموضوع.. لكن أمّي تسرع إلى صرفها عن الكلام، حين تقول بنبرة فيها حدتها المعتادة وبالعربية:

- ألف مرة قلت لك، ما أبغاكي تجيبي هادي السيرة.

لعلّي اليوم، وبعد الذي أبحرت ورسوت عنده من مراحل العمر - لا أظلّم أمّي رحمها الله، إذا قلت إني أصبحت أحزر، أنها تقول هذه الجملة، وبتلك النبرة الحادة، ولكن لا تخفي في الوقت نفسه، نوعاً من الاهتمام بالحديث... لذلك، فقد كانت المرة الأولى في إطار هذا الموضوع، والحوار الذي يدور، أو هو الكلام حوله من جانب منكشة... التي وجدت أمي، تساير منكشة في رغبتها ألا أفهم ما ستقوله، فتقول لي:

- أنت لا بد إنك طفشان يا عزيز من البيت... ما تبغا تروح تلعب عند دكان عمّك صادق؟؟؟ أنا شفت أولاد بيلعبوا هناك كل يوم.

ولي أن أزعم أني كنت أتمتع في تلك السن الصغيرة، بذكاء يكفيني لإدراك أن منكشة ستقول كلاماً لا تريد أن أفهمه أنا... ولكن أمّي لا تكره أن تسمعه... وهو بالتأكيد عن أبي وحكاية أنه لم يعد... ولم نسمع عنه أخباراً من أي نوع، ولم يكن يهمني أن أفهم شيئاً... واقتراح أمّي بأن أذهب إلى رأس الزقاق، حيث دكان العم صادق والأولاد الذين يلعبون، كان عندي أهم ألف مرة من كل هذا الكلام... لذلك، ما كدت أسمع هذا الاقتراح حتى أسرعت أنهض لأتجه إلى الباب... ولكن ها هو صوت أمّي يستوقفني وهي تقول:

- لا تمشي حفيان... إلبس الكندرة... ولا تلعب في التراب... وتعال... تعال خد عشان تشتري حلاوة (سكرية)...

ولا أتردّد في ارتفاق (الكندرة)... وأتناول منها قطعة نقد من النحاس، ثم انطلق إلى رأس الزقاق، عند دكان العم صادق... وهناك... كان الأولاد يلعبون فعلاً... وأذكر أني لم أجرؤ في بادئ الأمر، على المشاركة في اللعبة التي تعلمت في ما بعد أن اسمها (بِرْبِرْ)... أخذت مجلسي على طرف دكة دكان العم صادق... حيث التفت إليّ وهو يقول:

- اقعد عندك... أيوه عندك... وقللي... أمّك ما جاها مكتوب من أبوك؟؟؟

أدهشني في الواقع، أن يهتم حتى العم صادق بحكاية أبي... وفي نفسي قلت: (لا بد أن السبب، هو أنه لم يمت، كما مات جدّي وغيره في الشام). ثم التفت إلى العم صادق وقلت:

- لا... أمّي ما جاها مكتوب من أبويا... ودادة منكشة، قاعدة تهرج معاها عن أبويا في البيت...

ثم أخرجت من جيبي قطعة النقد النحاسية الحمراء، وقدّمتها إليه وأنا أقول:

- أمّي قالت اشتري بها حلاوة (سكرية).

تناول العم صادق القطعة، وهو يقول:

- بكل هادي الفلوس حلاوة سكرية؟؟؟ أبشر... وجهّز قرطاساً كبيراً من الورق ملأه بحبات هذه الحلاوة السكرية بلونيها الأبيض والأحمر... وهو يقول ضاحكاً:

- إصحا العيال يشوفوها...

- ليه ما يشوفوها يا عمي؟؟؟

- كل واحد يجي يقول لك: (هات...) واللي ما تعطيله منها يمد يده بنفسه وياخد من القرطاس... وبعدين تروح البيت، وما عندك ولا حبة.

كان القرطاس كبير فعلاً... بحيث كان لا يمكن أن أدخله في جيبي الصغير.. ولذلك ظللت أحمله في يدي... ولم تمض سوى لحظات... حتى رأيت أحد الأولاد يقف إلى جانبي وهو يقول موجهاً الكلام إلى العم صادق:

- هادا ولد مين يا عم صادق؟؟؟

- ولد واحد رجال ما تعرفه.

- طيب... وساكن فين؟؟؟

وتتغير نبرة العم صادق، وهو يقول:

- الله؟؟؟ وإنت أيش لك شغل؟؟؟ ما تمشي في حالك.

وهنا... تقدم الولد مني وهو يقول:

- هيا... هات... أنا إبغا الحمرا.

وأخذت أمد يدي في القرطاس المفتوح لأعطيه، عندما رأيت ولداً آخر، ثم ثالثاً يقفون حولي... وكل منهم يقول:

- وأنا كمان... وأنا كمان إبغا الحمرا...

ورفع العم صادق صوته ينتهرهم.. ولكن الأول من هؤلاء الأطفال، وكان أكبرهم أخذ يقول:

- يا عم صادق... هوّه يبغا يعطينا... وبكرة نحنا كمان نشتري ونعطيله.

وضحك العم صادق وهو يقول موجهاً كلامه إليّ:

- إصحا يضحك عليك بهادا الكلام... شيل قرطاسك وروح عنهم... روح البيت...

ولكني، كنت أمرّ بتجربة هي الأولى من نوعها... ولم أشعر نحو الأطفال حولي بتلك المشاعر التي لا أنساها مع الأطفال في حلب... حيث كانوا يتضاربون... وكل منهم يحاول أن يطرح الآخر على الأرض... أحسست كأني أنتقل بذاكرتي ومشاعري نحو تلك الأيام، حيث كنا نعيش في البيت الذي ماتت فيه خالتي وجدي، ثم في بيت الجيران والرعب الذي لم نعرف الخلاص منه إلا بعد أن وصلنا إلى بيتنا هذا في (زقاق القفل)... ويبدو أن هذه الذكريات قد استغرقتني، إذ لم أشعر بالأيدي التي أخذت تمتد إلى القرطاس وتأخذ منه حبات الحلوى السكرية... ثم بالعم صادق وهو يرفع صوته منتهراً... وهو يقول لي متوتراً:

- قلت لك شيل قرطاسك وروح عنهم... روح البيت...

وقبل أن أتحرك... انزلق القرطاس بما فيه على الأرض... وتناثرت حبات الحلاوة كلها فإذا بالأطفال الثلاثة، وآخرين تركوا لعبتهم، واندفعوا يلتقطون حبات الحلاوة، متزاحمين، وكل منهم يسبق الآخر في عملية الالتقاط، حيث يضع واحدة في فمه... وأخرى في جيبه... وكل ذلك مع ارتفاع أصواتهم وضحكاتهم، وما هي إلا لحظات

حتى كانت جميع حبات الحلاوة قد انتقلت إلى جيوبهم... ولم يسع العم صادق أن يفعل شيئاً، سوى أنه التقط من أحد أرفف الدكان (خيزرانة) طويلة معقوفة، ورفعها يهددهم بالضرب...

انصرفوا... أو هم ابتعدوا عني وعن الدكان.. وأكبرهم يقول:

- بكره... بكره لما نشوفه، نعطيله... وما هو حلاوة سكرية بس... نعطيله حمص وفشار وكمان أنا جيب له (نبق) من السدرة اللّي في الحوش عندنا..

لم أشعر بغيظ، أو غضب... رغم أن العم صادق كان متأثراً إلى أقصى حد... ورفع صوته يقول لهم:

- ما تروح لك يا يحيى... وإنت يا حمزة... أبوكم دحين يجي وأقول له على كل اللّي حصل، أقول له إنو ما عندكم تربية... ولا أدب... ولازم...

وعادوا جميعاً إلى لعبة (البربر)، وإلى الصخب في ما بينهم... إلى أن ارتفع صوت الأذان لصلاة الظهر... فإذا بهم يسرعون في الانصراف، متجهين نحو زقاق، عرفت في ما بعد أنه (زقاق الحبس)... وأنه الذي ينتهي إلى ساحة اسمها (دار الضيافة)، ومنها إلى مبنى (كهرباء الحرم)، وباب المجيدي من أبواب الحرم النبوي الشريف.

منذ ذلك اليوم، عرفت طريقي إلى (الزقاق)... وإلى اللعب في الزقاق كما يلعب أولئك الذين يلعبون فيه من الأولاد... وعرفت بطبيعة الحال أسماءهم، بل وأسماء عوائلهم الذين يسكنون حي الساحة، والأزقة المتفرعة من شارعها الكبير، ولم يكن يخطر لي ببال أبداً، أن هناك يوماً سوف ننقطع فيه عن اللعب في الزقاق... منذ الصباح الباكر وإلى أن نسمع أذان الظهر... ثم منذ صلاة العصر إلى المغرب... بل وأحياناً إلى ما بعد غروب الشمس... وأما ارتفاق الحذاء، كما هي أوامر أمّي رحمها الله، فقد أصبح في خبر كان... كنت ارتفقه أمامها، حين أخرج من المجلس أو من المكان الذي نكون فيه... ثم لا أكاد أصل إلى باب الزقاق كما نسميه في العادة، حتى أخلعه، وأعالج إخفاءه بطريقة لئلا تراه منكشة أو أمي... وكان هذا التصرّف شيئاً لا بد منه مع الأولاد الذين ألعب معهم، لأنهم كانوا جميعاً يلعبون حفاة، ويضايقهم كل من يرتفق حذاء... لأن أنواع الألعاب التي نمارسها، قد تستلزم تصادم الأقدام، والسيقان، وفي هذا التصادم تتعرض قدم الحافي إلى للألم البالغ، الذي يستتبع (المضاربة) وسيل الشتائم، إلى جانب الإصرار على المقاطعة، فلا يلعب مرتفق الحذاء، حتى

يخلع حذاءه... كانت المشكلة في العودة إلى المنزل، وما أتوقعه من العقاب، إذا اكتشفت أمّي أني كنت طوال الوقت ألعب حافياً... ولذلك، كنت ألجأ إلى فنون من التصرفات، التي تخفي كل أثر لهذه المخالفة أو هي (الجريمة) في منطق أمّي رحمها الله... وآخر ما تفتق عنه ذهني، هو أن أستعين بإبريق املأه ماء، وأخفيه مع الحذاء في الدهليز... فإذا عدت، ومن دون أن أطرق الباب.. أتسلل، وأغسل رجليَّ بالماء من ذلك الأبريق، ثم ارتفق الحذاء، ثم أطرق الباب، لأوهم منكشة، أني جئت في تلك اللحظة... والعجيب أن هذا اللعب قد استهواني، فلم أعد أهتم كثيراً بالجلوس مع السيدات اللائي يزرننا، أو اللائي تذهب أمّي لزيارتهن... وحتى (بدرية) أصبحت لا أشعر نحوها بتلك المشاعر الغامضة التي كانت تلازمني، وتجعلني أتوخى أن أراها، عندما تجيء أمها إلى الخالة فاطمة... كنت أفرح كثيراً حين أسمع أنها عند أمها، ولا أتردد في الذهاب إليها متسللاً، فلا تكاد تراني حتى تتألق على محياها تلك الابتسامة الحلوة، وتأخذ في ممازحتي... والسؤال عن أمي... وهي أيضاً أصبح لها ذلك السؤال التقليدي عن أبي هل تلقينا منه رسالة أو سمعنا عنه خبراً... وأشعر بالضيق، ولا إجابة عندي إلا اننا لم نتلق ولم نسمع شيئاً... فأرى كيف تبدو وكأنها مشفقة أو حزينة عليّ...

وفي أحد الأيام التي كنت أقضيها في اللعب مع الأولاد، ومنطقتنا المختارة هي تلك التي يقع فيها دكان العم صادق... أو زقاق الحبس... وأحياناً مدخل زقاق القفل...

... ناداني العم صادق... وقال:

– اسمع يا عزيز يا ولدي... قول لأمك... الليلة بعد المغرب، البنات يبغوا يجو يهرجوا عندها... سامع؟؟؟

وأسرعت أجيبه بأني... سامع... فعاد يقول:

– ترى إصحا تنسى... يعني أمك لا تخرج، ويجوا ما يلتقوها...

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يزرننا فيها بنات العم صادق... وقد قمنا نحن أيضاً بزيارتهن... أكثر من مرة... ولكن تأكيد العم صادق على ضرورة إنتظارهن جعلني أتوقف عن اللعب، واذهب إلى البيت... وأمارس عملية إزالة آثار المشي حافياً، ثم أخبر أمّي بما قاله العم صادق... وأضيف... أنه حذّرني بألاّ أنسى.

كانت منكشة، تسمع ما أقول، فأخذت تتحدث إلى أمّي بالتركية كلاماً لم أفهم منه شيئاً، ورأيت وجه أمّي يبدو حانقاً أو مشمئزاً وهي تجيبها بكلام لم تخل نبرته من حدة... وعندما التفتت إليّ... قالت:

- روح قول لعمّك صادق... (يا مرحباً بهم...).

لا أخفي أني شغلت بالموضوع، منذ سمعت ذلك الحوار بين أمّي ومنكشة باللغة التركية... ورأيت ما بدا على وجه أمّي من الحنق والضيق...

وعندما كان صوت المؤذن يرتفع بأذان المغرب، أسرعت إلى البيت، وفي ذهني هذا الاهتمام بمجيء البنات كما يسميهن أبوهن.

كانت أمّي قد دعت الخالة فاطمة لزيارتنا هي أيضاً، ولم يطل إنتظارنا، إذ كانت الخالة فاطمة أول من جاء... لأن البيت أمام البيت... وما كادت تراني، حتى ابتسمت وقالت:

- خالتك بدرية، دحّين تيجي... خليك عند الباب، عشان تطلع معاها.

***

حرصت، بعد أن عمر المجلس ببنتيْ العم صادق، والخالة فاطمة، وبدرية التي إنتظرتها عند الباب وصعدت معها إلى المجلس.. حرصت على ألا أغادر مكاني فيه... وعلى الخصوص حين لاحظت أن البنتين تتهامسان... وتشترك في المهامسة الخالة فاطمة أيضاً، وكان واضحاً أن الهمس أو المهامسة، لأنهن لا يردن أن أسمع أنا شيئاً مما جئن لأجله.. ولكن كان واضحاً في الوقت نفسه، أن أمّي متوترة، وأنها تشعر بضيق لم تستطع أن تخفيه طويلاً إذ سمعتها تقول:

- يا خالة فاطمة... بنات العم صادق، زي ما سبق إني قلت لك، جايين يقولوا الكلام اللّي سبق أنهم قالوه...

كانت الخالة فاطمة، متأهبة للموضوع، فلم تكد تسمع أمي، حتى قالت:

- يا فاطمة يا بنتي... أنا سألت عمك محمد سعيد... وهوه سأل الشيخ الكماخي.

وقاطعتها أمّي تقول:

- لكن يا خالة فاطمة... أنا... قلت لك... قلت لهم كمان... أنا ما يمكن اتجوز إلا لما يجيني خبر إنو زاهد مات...

وقالت الخالة فاطمة:

- وعمك محمد سعيد قال إن الشيخ الكماخي قال هادا الكلام... ما يمكن تتجوزي إلا إذا ثبت بشهادة الشهود أنه مات...

وهنا قالت إحدى بنتي العم صادق وهي تبتسم:

- بس يا خالة فاطمة... هادا المذهب الحنفي... وأبويا يقول...

وقاطعتها أمّي بحدة:

- يا أختي، من دون ما نطول الكلام... أنا ما إبغا إتجوز... لا إذا مات... ولا إذا كان... وقالت الفتاة:

- الخطيب اللّي موسِّط أبويا... تاجر كبير... استلم تجارة أبوه اللّي مات في الشام... ولو شفتيه...

- يا أختي... الله يسلّمك... خلاص ما ابغا إسمع هادا الكلام...

***

منذ تلك الليلة... أصبحت الصورة واضحة تماماً... إنهم يقترحون على أمّي أن تتزوج وأن هناك من يخطبها لنفسه، وقد وسّط العم صادق، الذي سبق أن قال إن بناته سمعن الكلام الذي فرحن لأمي به...

بدأت أشعر من جانبي، بالدوامة الرهيبة التي أخذت تلتف على حياتي... على ذهني... وإن كانت أمي قد حسمت الموقف برفضها الصريح بل والعنيف أيضاً.. وزادت بعد أن خرجن، أن أخذتني في حضنها... ورفعت وجهي بين يديها... وأخذت تقبّلني... وملء عينيها الدموع...

خشب «الكينا» وحبوب «منكشة»

مع بداية أيام الصيف، لم نعد نستطيع النوم في المجالس، وكان السطح - ويسمونه في المدينة "السطوح" - هو الملاذ... أما السهرة أو هو الوقت إلى ما بعد صلاة العشاء فقد كان الديوان هو المكان الذي نقلنا أثاث المجلس إليه.. ولا أنسى أبداً أن تلك (الحنية) اللعينة، التي أخرج الزاكور ذلك الثعبان الهائل منها، تقع على يمين الداخل إلى هذا الديوان. وقد ظللنا بعد نقل الأثاث إليه أياماً وليالي طويلة نتوقع أن تطلع علينا منكشة بخبر جديد عن (ساكن) من أبناء أو أحفاد الساكن الذي أخرجه الزاكور. لذلك لم يكن لنا مفر من أن نتحمل المخاوف، وأن تستعين أمّي كل ليلة جمعة، وليلة اثنين بقراءة أدعية، وسور من القرآن الكريم، وهذا مع البخور، الذي قالت الخالة فاطمة جادة، إنها هي التي جمعت مواده من العطّار بنفسها، كما تعلمت أسماء هذه المواد من أمها، التي تلقتها بدورها عن الجدة (ألف رحمة عليها...).

وفي ذات ليلة، بعد أن فرغنا من وجبة العشاء في الديوان، وصعدنا إلى السطح، وقد بسطت منكشة فيه فراشنا، و(برداية) الماء، وما كدنا نستلقي لنستسلم للنوم، حتى سمعت أنفاس أمّي تتلاحق، وجسمها بجانبي يرتعش أو ينتفض، وهي تقول لمنكشة:

- إلحقيني باللحاف... قوام...

أسرعت منكشة تهبط الدرج الطويل إلى الديوان أو إلى أي مكان وضع فيه اللحاف من البيت وعادت به، وألقته على جسم أمي، ومع ذلك، فقد ظلّت تنتفض وأسنانها تصطك وسرعان ما تذكرت أنا، أنها تلك الحمى التي لازمتها أياماً أو شهوراً منذ كنا في حلب، ولم تشف منها، أو معاودتها في وقتها المحدد (بعد العصر)، إلا بعد وقت طويل من عودتنا عن طريق ينبع (على الجمل النطاطي) إلى المدينة. بل تذكرت

(خشب الكينا)، الذي ظلّت أمّي تحرص على شرب منقوعه أو مطبوخه فترة طويلة من أوائل أيامنا في المدينة.

اقتربت منها، بل دخلت معها تحت اللحاف... وكانت المرة الأولى التي وجدت نفسي فيها أضمها إلى جسمي بحرارة، وفي نفسي من القلق والخوف، ما لم يسبق أن أحسست بمثله قط... وتنبهت هي إلى حركتي، فأحاطتني بذراعها، وهي لا تزال تنتفض، وأسنانها تصطك، وهي تقول:

- لا تخاف... أنا طيبة... هادي الحمى اللّي إنت عارفها... دحّين أدفا وتروح.

- طيب ليه ما تجيب لك دادة منكشة قارورة خشب الكينا من تحت؟؟؟

أجابت وهي تنتفض والكلمات تتبعثر:

- خشب الكينا... ما عاد جبناه... بكرة تروح منكشة تشتري لنا... هيّا نام...

ولكن كان مستحيلاً أن أنام، وهي تنتفض، وأسنانها تصطك وجسمها كلّه يتأرجح على الفراش... وساد بيننا صمت استمر ربّما دقائق، وذراعي تحيط بها، ثم سمعتها تتكلّم كلاماً طويلاً، يتقطع، ويتناثر، بحيث أدركت أنه يسمّونه (الهدرشة)، التي يهذي بها المحموم... ولكن كانت هناك كلمات ذكّرتني بحكاية زواجها... وحكاية غياب أبي، وعدم وصول أي خبر عنه منذ سافر وحتى اليوم... وكانت أوضح جملة قالتها:

- يعني كان لازم؟؟؟ لازم يروح يجمع لهادي الجامعة الاسلامية فلوس؟؟؟ والسلطان اللّي قالوا إنّو هوّه اللّي أمر....

يبدو أنها بعد ذلك أخذت تدفأ وترتفع درجة حرارتها، وتتصبّب عرقاً، فرفعت صوتها، وطلبت من منكشة بالتركية أن تأتيها بغيار ملابسها، وبمنشفة تجفف بها العرق..

***

ومنذ تلك الليلة، التي عادت فيها الملاريا، أخذت الأمور تسير في اتجاه جديد، إذ عندما عادت منكشة في اليوم التالي بزنبيلها، وفيه ما تسوَّقتْه من اللحم والخضار أخرجت من الزنبيل زجاجة سوداء كبيرة ومختومة الفوّهة بلون أحمر... ووضعت يدها في صدرها لتخرج علبة صغيرة، فتحتها، لتخرج منها حبّة بيضاء وهي تقول بالتركية كلاماً فهمت في ما بعد - وبالتدريج - أن في الزجاجة الكبيرة دواء للحمى اسمه (كينا لاروش) وأن هذه الحبوب هي حبوب الكينا... وأن على أمّي أن تتناول حبّتين في أوقات محددة، وأن تشرب من هذه الزجاجة، بالكأس التي تصاحبها، وهي كأس صغيرة مرقمة. ثلاث مرات في اليوم.

ظلّ الحديث يدور بين أمّي وبين منكشة باللغة التركية وقد حزرت، أنها جاءت بهذه الأدوية من (دكتور) تعرفه، وكانت تقوم بخدمته قبل خروج الأتراك من المدينة وأنه لم يخرج مع الباشا، لأنه كان مريضاً طريح الفراش، وهو لا يزال منهكاً، وهي تقوم بزيارته وخدمته، كلّما خرجت للتسوّق... ثم أخذت تكرر أسفها واعتذارها عن تصرفها من دون إذن أمي ومن دون أن تقول لها شيئاً عن (الدكتور) إلى ذلك اليوم.

ظلّت الملاريا تعاود أمّي بضعة أيام أو أسابيع، بحيث فرغت الزجاجة الكبيرة والحبوب، فإذا بالدادة تجيء بزجاجة أخرى، وكمية من هذه الحبوب البيض.. وتوقفت نوبة الحمّى في النهاية فعلاً... ولكن أخبار (الكينا لاروش)، والحبوب البيض، التي أراد الله أن تشفى بها أمي، أخذت تنتشر بين النسوة اللائي نزورهن أو يزرننا، لأن حمى الملاريا كانت منتشرة في أكثر البيوت، بل بلغ من انتشارها أنها كانت مرضاً مألوفاً أو مستوطناً. وكان اعتماد الناس على أدوية العطارين من جهة، وعلى خشب الكينا، الذي عرفه بعضهم من الشام من جهة أخرى... ومع إنتشار هذه الأخبار، بدأت حملة الاسئلة والاستفسار عن هذا (الدكتور)... أين يجدْنه؟؟؟ وما دام تركياً فلماذا لم يسافر مع الأتراك؟؟؟ هل هو من الأسرى الذين يرحّلهم الشريف إلى ينبع ومنها إلى الهند؟؟؟؟ وبعض الأسرى مسجونون في (القشلة) فهل هو معهم؟؟؟ وإذا كان معهم فكيف تصل إليه منكشة؟؟؟

كنت أسمع هذه الأسئلة، وفي الوقت نفسه، أسمع من تقول لمنكشة...:

- طيب... ما تشوفي لنا نحن كمان شويّة حبوب... وهادا الشراب اللّي بتجيبيه لبنتك.

وتلتزم منكشة الصمت المطبق وبعد أن تنتهي الجلسة، تأخذ في الحديث مع أمّي ومحوره دائماً هو (الدكتور) الذي أفهم من بعض ما تقوله إنّه قد استرد شيئاً من صحته الآن... وقد وجد خادمة عجوزاً، هي زوجة من قالت إن اسمه الحاج إسماعيل أو (إسماعيل بابا) كان يعمل خادماً لإمام (الطابور)... وهو، أوْ هُم ينادون الخادمة العجوز بكلمة (باجي) التي تجيد طهو وتجهيز أنواع من المآكل التركية... وزادت في ذات يوم على أخبارها أنهم - ولا أدري من تقصدً- قد أعادوا إليه العساكر الذين كانوا في خدمته قبل خروج الباشا من المدينة... وهما اثنان من العساكر الأتراك، اسم أحدهما (محمد علي) واسم الآخر (إسماعيل أويغور)...

لا ينبغي أن أخفي، أني أخذت ألاحظ اهتمام أمّي بأخبار منكشة عن (الدكتور).

بل لاحظت أنها لم تكن تؤنّبها أو تؤاخذها على غيابها في التسوق، لأنه قد أصبح من المفهوم أو المسلّم به أنها تكون في خدمة الدكتور، وإن كان هذا الدكتور، لم يعد محتاجاً لخدمتها بعد أن وجد (الباجي) التي تجيد طهو أنواع المآكل التركية، وبعد أن أعادوا إلى خدمته (الجندييان)... بل لقد لاحظت أن الحديث، بينها وبين الخالة فاطمة بالذات كان يدور عمّا سمعته منكشة عن (الدكتور)... إلى أن حدث أن جاءت بدرية ذات يوم تخبر أمّها أن زوجها (عبدالمنان) يلازم الفراش منذ ثلاثة أيام، لأنه يشكو مما يسمّونها (العُصْرة) وأنها قد جرّبت له ما وصفته لها الخالة فاطمة، وهو (الخولَنْجان) ومنقوع (العفْص)، ولكن من دون فائدة... أصبح الآن يذهب إلى (بيت الماء) أكثر من عشرين مرة في النهار ومثلها في الليل...

كانت أمّي تصغي إلى حديث بدرية، وفي الوقت نفسه تلتفت بنظراتها إلى منكشة ولكن من دون أن تقول شيئاً... إلى أن قالت الخالة فاطمة:

- ما دام الخولنجان وموية العفص ما وقفت التردد على (بيت الماء)... يا ريت يا بنتي يا فاطمة، تخلّي منكشة تجيب له دوا من الدكتور اللّي تعرفه.

التزمت منكشة من جانبها صمت القبور... رغم أن الخالة فاطمة كانت تلتفت إليها وهي تتحدث إلى أمي... وتساءلت بدرية من جانبها عن هذا (الدكتور)، فأخذت أمّها تزوّدها بأخباره التي سمعتها من أمي... وأضافت:

- باين عليه دكتور على أصلُه... أحسن من (أمين أفندي) اللّي في (خستخانة الغربا، واللي ما راح له أحد عشان يكشف عليه، يقول له: (اشرب الموية بعدما تفوِّرها... ولا تنام من دون ناموسية)... وما يعطيله الدوا إلا على قد ما يكفي يوم واحد أو يومين.. أصلهم بيقولوا.. (خستخانة) الغربا هادي، ما عاد فيها أدوية.

***

أخذتْ المعلومات عن (الدكتور) تتطوّر، فقد وافقت منكشة أخيراً أن تذهب إليه وترجوه، أن يقوم بزيارة زوج بدرية.. لأن حالته تزداد خطورة يوماً بعد يوم... وهو لا يستطيع أن يغادر الفراش أبداً ليجيء إلى الدكتور في منزله.

وحتى ذلك اليوم، لم تقل منكشة شيئاً عن منزل، أو محل عمل الدكتور... وقد فهمنا في ما بعد، أنه هو الذي كان يحذرها من أن تخبِّر أحداً عن موقع منزله... ولكنها لم تر ما يمنع أن ترجوه أن يقوم بزيارة عبدالمنّان...

كانت المفاجأة، التي ظلّت تختزنها وتخفيها منكشة، عن الجميع، هي أن (الدكتور) يسكن في منزل لا يبعد كثيراً عن زقاق القفل الذي نسكن فيه... وعلى التحديد في (زقاق الطوال)، وهو أحد الأزقة المتفرعة من الشارع الرئيسي في حي الساحة. ولذلك، فإنها حين ذهبت لاصطحابه إلى بيت (عبد المنان) الذي يقع هو أيضاً في هذا الزقاق، ولكن في آخره، وكانت معها الخالة فاطمة بنفسها، ترشدها إلى بيت عبد المنّان، أزيح الستار أخيراً عن بيت (الدكتور).

***

كان الحديث عن الدكتور وعن براعته ويده (المبروكة) لا ينتهي، كلّما اجتمعت النسوة عندنا، فقد كشف على عبدالمنّان... وأعطاه الدواء الذي أوقف (العصرة) وآلامها في أقل من ثلاثة أيام... وكانت بدرية تشكو من سعلة و(لبْطة) شديدة، فأعطاها الدواء الذي شفيت به من السعلة، ولم تعد تشكو من شيء... وكان موضوع الدهشة والاستغراب عندهن جميعاً، انه يرفض أن يأخذ (القدمية) أو قيمة الأدوية... بالعكس، كان هو الذي يدفع (المجيدي) للمرضى الذين يراجعونه في منزله، لشراء ما ينصحهم بتناوله من الأغذية الدسمة، وهذا ما كان يرويه عبدالمنّان الذي اعتاد أن يراجعه في منزله ويرى بعض المرضى الفقراء الذين يشكون من الدكتور (أمين أفندي) في (خستخانة) الغرباء.

كل هذا كان يدور وكنت ألاحظ ما يبدو على أمّي من الارتياح وهي تسمع الثناء عليه، إلى أن فاجأتنا منكشة ذات يوم، وقد عادت بزنبيلها من السوق، وهي تحمل (صينية) متوسطة الحجم، تفوح منها نكهة لذيذة شهيّة... وقالت باختصار إنها هدية (الباجي) التي تخدم الدكتور إلى أمي. وكانت الأكلة التي يسمّونها (صوبُريك)...

لم تستطع أمّي أن ترفض الهدية... ولكنّها انتهرت منكشة، وحذرتها أن تحمل مرة أخرى أي هدية من (الباجي)، أو غيرها... وأضافت:

- أنا أعرف (الصوبُريك) وأعرف أسوّيه كمان... وما أبغا أزعّلك. لكن هادي آخر مرة..

***

وعلى غير عادتها، اقترحت منكشة ذات يوم، قبيل المغرب أن تأذن لها أمّي بزيارة الخالة فاطمة جادة... وزعمت أنها تريد أن تتحدث إليها في أمر يخص (بدرية)...

ورغم إلحاح أمّي عليها أن تخبرها عن هذا الأمر فقد أصرّت العجوز على ألا تفضي بشيء..

وقبيل صلاة العشاء في اليوم نفسه... زارتنا الخالة فاطمة - على غير إنتظار... وحين رأتني جالساً في ركن الديوان قالت:

- يا عزيز يا ولدي... روح شوف بدرية في البيت تبغاك..

وأدركت أنها تريد أن تتحدث إلى أمي حديثاً تحاول أن تخفيه عنّي... ولا حاجة بي إلى القول، إني فرحت بأن بدرية هي التي تريد أن تراني... فنهضت وأسرعت بالذهاب.. وارتفع صوت المؤذن لصلاة العشاء... بل وانقضت فترة طويلة، قبل أن تعود الخالة فاطمة إلى منزلها وتقول لي إن أمّي تنتظرني... وإن منكشة عند الباب... وكانت هذه هي الطريقة التي تلتزمها أمّي في حراستي، أو تشجيعي على العودة إلى المنزل في الليل..

***

لم استطع أن أفهم أي شيء عن الحديث الذي دار بين الخالة فاطمة وبين أمّي بعد أن ذهبت إليها منكشة... ولكني لم أستبعد أن الموضوع له علاقة بحكاية زواجها أو بحكاية أبي الذي لم تصلنا عنه أخبار... ولكن ما هي علاقة الخالة فاطمة بكل هذا؟؟؟ ثم ما هو دور منكشة إذا كان هناك كلام عن الزواج...

لم يطل بي إنتظار الإجابة عن هذه الأسئلة... إذ فوجئت في أحد أيام الأسبوع التالي، بالدادة منكشة، ومعها الخالة فاطمة، ينتظران أن تذهب أمّي معهما إلى بيت الدكتور.

هل ستتزوج أمّي هذا الرجل؟

كان الموقف لغزاً شديد الغموض والتعقيد بالنسبة لي... وكان السؤال الذي وجدت نفسي أطرحه على نفسي، هو: (لماذا أمّي إلى بيت الدكتور؟؟؟) لقد شفيت من تلك الحمى بعد أن ظلّت تتناول كؤوس (الكينا لاروش) وحبوب أو هي أقراص الكينا... ولم أسمعها تشكو من مرض أو ألم... بل هي اليوم تتمتع بصحة جيدة، تعبّر عنها النضرة في ملامحها، والحيوية في نظراتها، والمرح في ما يدور بينها وبين النسوة من أحاديث. كان يبدو عليها القلق في كل مرة تدفع فيها نقوداً تتسوّق بها منكشة حاجتنا من الغذاء أو غيره، كالغاز أو الصابون. لم تخف على منكشة، وكنت أسمعها، وهي تقول إنها لم تعد تدّخر من الجنيهات العسْمنلي شيئاً، فقد ذهبت كلها، ولم يبق إلا بعض قطع النقود الفضة... وحتى المجيدي، لم يبق منه إلا ثلاثة فقط... ولا يزال أمامها أكثر من شهرين لاستلام أجرة السنة التالية للدكانين في زقاق الزرندي. وفي ما عدا هذا القلق، كانت تبدو دائماً مطمئنة وادعة البال، وكأن اللائي كن يفاتحنها في غياب أبي، ثم في أمر زواجها، قد اقتنعن بأنها لن تتزوج، فأصبحن أكثر حذراً في تناول الموضوع معها.

وفي اللحظات التي كانت منكشة تعالج شعري، بالمشط، وتنبّهني إلى أن أمسح حذائي وأزيل عنه الغبار، كنت أستعيد الكثير من الذي كنت أسمعه عن هذا (الدكتور)... وأربط بيني وبين يده (المبروكة) وبراعته في علاج عبدالمنّان من (العصرة) وبدرية من (اللبطة) إلى جانب الثناء عليه والحديث عن المجيدي الذي يعطيه للمريض الفقير، ليشتري غذاءً دسماً وما أكثر ما قيل إن عبدالمنّان معجب به وبأخلاقه، وأنه أصبح صديقاً له يزوره ويقدم له بعض الخدمات الصغيرة، ومنها شراء بعض قطع الأثاث من الحراج.

لكن، لا أدري لماذا لم يخطر لي قط، أن لأمي علاقة تستلزم الذهاب إليه، ومعها الخالة فاطمة ومنكشة، التي كنت أعلم بطبيعة الحال، أنها هي التي تعرف منزله، وهي أيضاً التي تجيء بالأخبار عنه، ومن هذه الأخبار أنها رأت عبدالمنان عنده أكثر من مرّة، بل وإن العم محمد سعيد بنفسه، رأته وهي ذاهبة إلى السوق، منذ أيام، يدخل بيته قبل صلاة الظهر.

بينما كانت الخالة فاطمة تستعجل أمّي في التهيؤ للخروج، ومنكشة تبالغ في تمشيط شعري، وتلميع أو تنظيف الحذاء الذي ارتفقه، وكل ذلك يتم في الدهليز، وباب الزقاق مواربأ إذا ببدرية تدخل ولـم أكن أعرف أنها هي، ووجهها وراء (البيشة الثقيلة) لو لم أسمع صوتها وهي تهمس، مجهدةً متلاحقة الأنفاس، بأن عبدالمنان (زوجها) ينتظرنا عند مدخل الزقاق.

مجيء بدرية، ونحن نتأهّب للذهاب إلى الدكتور، زاد اللغز في ذهني غموضاً وتعقيداً... فماذا هناك يا ترى؟؟؟ وكانت أمّي قد خرجت من الديوان، ووقفت إلى جانب الخالة فاطمة، وهي تعالج إصلاح وضع (البيشة) على وجهها، ثم سمعتها تقول:

– لكن يا خالة... أنا ما أدري، أيش اللّي يخلّينا نروح للدكتور في بيته، وهوه رجّال عازب؟؟؟

– طيب... وهوّه نحن رايحين لحالنا من دون رجّال؟؟؟ هادا عبدالمنان معانا... ويمكن يكون عمّك محمد سعيد سبقنا، ونلتقيه عنده.

التقطت الدادة منكشة طرف الخيط لتقول بعربيتها المكسّرة:

– في البيت فيه باجي... فيه إسماعيل ببا... كمان فيه اتنين عسكر.

لا شك أن ما أفضت به منكشة، كان لطمأنة الجميع بأن هذا (الدكتور) العازب ليس وحده، وإنما هناك هذه (الباجي) التي سبق أن وصفتها، وتحدثت عنها... امرأة عجوز من جواري الأتراك، ومعها زوجها (اسماعيل ببا).

مع ذلك بقي السؤال الذي وجدت نفسي أطرحه على نفسي، وهو: (لماذا تذهب أمّي إلى بيت الدكتور؟؟؟)... بقي هذا السؤال حائراً من دون إجابة حاسمة... وقد زاد من التعقيد والغموض، وجود بدرية، زوجها عبدالمنان، معنا... ثم الأعجب، أو هو الأكثر إثارة للدهشة هو أن العم محمد سعيد بنفسه يمكن أن يكون قد سبقنا إلى هناك؟؟؟

رغم كل هذه المعلومات المطمئنة بالنسبة لأمي، فقد عادت تقول:

- بس، يا خالة فاطمة... أنا ماني شايفة إني لازم أروح معاكم... ما دام العم محمد سعيد رايح يكون هناك... وهوّه يعرف تركي.

وكان جواب الخالة فاطمة جاهزاً وعجيباً في الوقت نفسه، إذ خفقت صدرها بيدها خفقة خفيفة وهي تقول:

- وهوّه عمك محمد سعيد - يا حسرة - يعرف تركي؟؟؟ إنتي عارفة أنّو بخاري... وأيام ما كنّا في الشام، كان ما يدور ويتفاهم مع المأمور اللّي يعطينا ورقة العيش وعلبة المفرومة، إلا بعد ما يفضل يلتّ ويعجن... والمأمور ما يفهم منّه شي... أصله حتى كلامه البخاري ما يفهمه إلاّ اللّي من بلده، اللّي ما أدري أيش اسمها في بخارى.

هنا أحسست بأن بعض عقد اللغز تنحل وتتفكك... أمّي ذاهبة لأنها تتكلّم التركية التي يتكلّمها الدكتور، وهي التي سيفهم منها، ما يبدو أن الخالة فاطمة تريد أن تقوله ربّما عن بدرية أو نفسها... لقد اقتنعت أخيراً بأن الموضوع لا علاقة له بالهواجس التي كانت تدور في نفسي عن زواجها، وهو الموضوع الذي حسمته أمّي بالرفض، ولكنّه ظلّ مع ذلك يتردد أو يُطرح، بطريقة أو بأخرى كلما اجتمعت النسوة عندنا، أو عند من أصبحت أمّي تزاورهن بين الحين والحين.

***

عند خروجنا إلى الشارع الرئيسي في حي الساحة في طريقنا إلى منزل الدكتور، ارتفع صوت المؤذن لصلاة الظهر... وكالعادة رأيت الأطفال الذين ألعب معهم يسرعون بالتفرّق والانصراف والعم صادق في دكانه، وعلى عينيه نظارة بيضاء الإطار، ذكرتني بتلك التي كان يرتفقها جدّي رحمه الله... كان من عادة العم صادق، أن يقضي الوقت في قراءة القرآن الكريم، من مصحف صغير في يده، ولا يتوقف عن القراءة، إلا عندما يقف عليه زبون. والأرجح أنه لمحنا جميعاً، ولكنّه أغضى مستمراً في القراءة، متحاشياً إحراج النساء الثلاث، اللائي لا أشك أنه قد عرفهن، وإن كنَّ في حجابهن، لأنه - كما قيل لي - يسكن هذا الدكان على مدخل الزقاق منذ أكثر من عشرين عاماً.

كان عبدالمنّان يمشي متقدماً عنّا بحيث يبدو كأنّه لا علاقة له بنا، إلى أن أخذنا ننعطف نحو مدخل (زقاق الطّوال)... حيث وقف أمام باب، ما كاد يطرقه، حتى فتحه

رجل عجوز، بلحيته البيضاء، وما يشبه العمامة الصغيرة على رأسه، ويتوكأ منحني القامة على عصا في يده، وهو يقول بالتركية ما معناه: (تفضلوا...) ومشى أمامنا، وأخذنا نتبعه يتقدمنا عبدالمنان ومنكشة، ثم الخالة فاطمة تليها أمي، ثم (بدرية) وإذ كنت إلى جانبها، فقد سمعتها تقول في ضيق وتأفف بصوت أقرب إلى الهمس:

- يعني كان لازم آني آجي؟؟؟ أبويا وعبدالمنّان وإنتو يا أمي، تقدروا تفهّموه كل شيء. واختصرت الخالة فاطمة إجابتها في كلمات مسرعة هامسة:

- خلاص... ما دام قال لازم يكشف عليكي... أديكي جيتي، وما يسير إلا الخير إن شاء الله، وإنتي عارفة زوجك، ونَقّه.

إنتهت خطواتنا إلى الديوان... حيث وقف الرجل العجوز، وعاد يكلّم منكشة بما يفهم منه أن الدكتور لم يعد من (الخستخانة) - وهي كلمة تعني في اللغة التركية: المستشفى-وكنت قد أخذت ألقي نظرة على الأثاث في الديوان، إذ كان مختلفاً عن الأثاث في بيتنا أو في بيوت الذين كانت أمّي تزاورهم، ومنها بيت الخالة فاطمة... لم تكن فيه المراتب وعليها المساندة تكسو صدر الديوان وجانبيه، وإنما هناك ما نسميه الآن (الكَنَبْة) وإلى جانب الكنبتين المقاعد، وفي الوسط منضدة طويلة، مغطاة بقطعة من قماش مزخرف.

كان العم محمد سعيد جالساً على أحد هذه المقاعد، حيث تقدم منه عبدالمنان، وتناول يده يقبّلها ثم جلس على مقعد بجانبه، والتفت إلينا، وهو يقول:

- اتفضلّوا... اقعدوا... الدكتور له يومين، بيروح (الخستخانة) العسكرية... الحكومة قالت لازم يشتغل، عشان العسكر اللّي ما قدروا يسافروا مع الباشا... يعني اللّي كانوا وجعانين لمّا خرج فخري باشا من المدينة، لازم يشتغلوا.

وعلى الكنبة، جلست الخالة فاطمة وإلى جانبها أمي، ثم بدرية، ووجدت نفسي اختار المقعد الذي يتيح لي أن أجلس بجوار بدرية...

***

كنت أسمع صوت منكشة، وهي تتحدث باللغة التركية بعيداً عن باب الديوان... كما كنت أسمع صوت العجوز التي تحادثها... ولم يطل بنا الإنتظار، فقد جاءت هذه العجوز، ومعها منكشة... أخذت ترحّب بنا، بينما أخذت منكشة تعرفها بنا، وقد لفت نظري، أنها -منكشة - كانت تتحدّث ونظراتها تتراوح بين أمّي وبيني... مما فهمت

منه أنها تتحدث عنّا. ولكن من دون أن أفهم ما كانت تقوله... وكان واضحاً أن أمّي تتابع منكشة وتلاحقها بنظرات لم تخل من شيء من الدهشة والاستغراب، ولكن من دون أن تعلّق بشيء... إلى أن التفتت إليها العجوز، وأخذت تخصها بنصيب أوفر من الترحيب، ثم التفتت إليّ، وهي تردد كلمات حزرت أنها تعني الإشفاق والتحسّر، وقدّرت أن السبب هو حكاية أبي الذي لا يزال غائباً ولم تصلنا عنه أخبار حتى اليوم.

أخيراً جاء الدكتور.. سمعنا قبل أن تتحرك (الباجي) مسرعة، ومعها منكشة، وقع خطواته بحذاء ثقيل على الممر الحجري الموصل إلى الديوان... لم يكد يدخل حتى نهض العم محمد سعيد وعبدالمنّان، ووقفا يستقبلانه، فإذا بنا جميعاً ننهض ونقف مثلهما. وكانت المفاجأة - حتى بالنسبة لأمّي - أنه كانت يتكلّم اللغة العربية، إذ أخذ يقول بصوت فيه نبرة التحبّب والتواضع:

- استغفر الله... استغفر الله... اتفضلوا... استريحوا...

وكأنّه لاحظ أن العم محمد سعيد ظلّ واقفاً بعد أن جلست النسوة، وعبدالمنّان فأخذ يكرر:

- استغفر الله... عم سعيد... أرجوك تستريح..

كانت الخالة فاطمة وحدها التي أزاحت عن وجهها (البيشة)... بينما ظلّت كل من أمي، وبدرية مسدلة (البيشة) على وجهها، ولاحظت أنه التفت نحوي أكثر من مرة... ثم أخذ مجلسه على الكنبة المقابلة بحيث أخذت أتأمّله، وذلك ما لا بدّ أن بدريّة وأمّي كانتا تفعلانه أيضاً وراء الحجاب على وجهيهما... وكان أهم ما لفت نظري هو أنه يرتدي الملابس نفسها التي كنت أرى الضباط يرتدونها قبل خروج الأتراك من حلب... فهو إذاً ضابط، وليس دكتوراً كما ظللنا نسمع حتى هذه اللحظة.

كان بادي الهزال، كما كان شعر رأسه يغلب عليه البياض... ولم أفهم كيف يمشي حاسر الرأس هكذا، بينما الضباط الذين كنا نراهم في حلب، يرتفقون لباس الرأس الذي أذكر أنهم يسمّونه كلبك.

***

فاجأتني الخالة فاطمة، بالتفاتها إليّ من دون غيري من الجالسين لتقول: وهي تمد يدها بقطعة نقد فضة... نصف مجيدي:

- خد يا عزيز يا ولدي... تروح تجري تشتري لي من عمّك صادق، ربع اقة شاهي أخضر، وبالباقي، حمّي عجمي... اجري يا عزيز قبل ما يعزِّل للغدا.

لم أجد ما يمنع أن أذهب كما طلبت فنهضت، وأنا أرمق أمّي منتظراً أن أسمع منها ملاحظة أو تعليقاً، إذ أصبح من المألوف، ألا أخرج سواء من البيت، أو من أي مكان أكون فيه معها، من دون أن تأذن... ولكنّها لم تقل شيئاً... ولكن ما كدت اتجه نحو الباب حتى كان الدكتور هو الذي يتكلّم قائلاً:

- إسماعيل ببا ممكن يروح... فين دكان صادق هادا؟؟؟

لكن الخالة فاطمة التفتت إليه وهي تقول في نبرة متلطفة:

- لا... عزيز أخف... يقدر يروح ويجي زي الطير.

وضحكت ضحكة خفيفة، بينما انطلقت أنا أخرج من الديوان.

لا بد أن أقول إن ذكائي قد خانني، إذ لم أدرك وأنا أخرج لتلبية رغبة الخالة فاطمة، أن إرسالي لشراء الشاهي الأخضر والحمّي من العم صادق، كان أسلوباً مهذباً في إبعادي عن المجلس مع الدكتور، الذي علمت في ما بعد... وبعد بضعة أيام أنّه بعد أن سمع من الخالة فاطمة عن الحالة التي تعاني منها بدرية، اعتذر عن الكشف عليها، واقترح أن تراجع طبيباً ذكر اسمه لها، وهو يعمل في المستشفى العسكري. واستطعت أن أفهم - على مراحل - من الأحاديث التي أخذت تدور بين الخالة فاطمة وبين زائراتها من النسوة، أن مشكلة بدرية أنها لم تحمل رغم مرور أكثر من سنة على زواجها من عبدالمنّان... وأنها تشكو من حالة لم تنفع معها الأدوية والوصفات التي اقترحتها (الداية رشا المولّدة)...

في الواقع أني عدت إلى مجلس الدكتور، أو هو الديوان، بالشاهي الأخضر والحمّي، ولكن في اللحظات التي وجدت فيها الجميع يخرجون من الديوان، والدكتور واقفاً، يودعهم بكلمات رقيقة، وعبارات شكر... ثم في اللحظة التي رآني فيها أدخل بما أحمل ابتسم ابتسامة عريضة، وأخذ يتحدث باللغة التركية، وهو يلتفت إلى حيث كانت أمّي واقفة تهمّ بالخروج وخلفها منكشة... ثم وضع يده على رأسي... وأردف الحركة، بأن وضع يده على كتفي وبالأخرى أمسك بذقني، ورفع وجهي إليه وهو يقول:

- إنت ما تتكلّم تركي؟؟

هنا سمعت منكشة تتكلّم بالتركية، وحزرت أنها تقول له: (إنه يفهمها... ولكنه لا يتكلّمُها).

أما أنا فلم أقل شيئاً... فقد التزمت الصمت، وفي ذهني الكثير مما أحسست بأني أريد أن أقوله، ليس له... وإنما لأمي بالذات، ولهذه الدادة منكشة، التي لم أنس بعد أنها التي جاءتنا بـ(الكينا لاروش) وحبوب (الكينا) عندما عادت حمى الملاريا تزور أمي، ثم تلك الصينية من الأكلة التي يسمّونها (الصوبريك) وقالت إنها هدية من (الباجي) التي تخدم الدكتور... وأخيراً تلك الزيارة التي قامت بها عند الغروب إلى الخالة فاطمة، من دون أن تقول شيئاً عن الغرض منها وكانت على غير المألوف من تصرفاتها... فإذا بالخالة فاطمة تجيء بعد هذه الزيارة مباشرة، وتصرفني عن البقاء حيث كنت أجلس عادة، بذريعة أن بدرية (تبغاني) وتذكرت الآن، أن كل الذي وجدت بدرية (تبغاني) لأجله هو أنها وحدها ودادتها حسينة لم تعد من زيارة (سَنْدولَتْها)... وجال بذهني الآن أن الخالة فاطمة لم تجئ في ذلك الوقت مباشرة بعد ذهاب منكشة إليها لتتحدث مع أمّي حديثاً أرادت ألا أسمعه... وماذا يمكن أن يكون الحديث الذي يريدون إخفاءه عني؟؟؟ كلهم... منكشة... وأمي... والخالة فاطمة... بل وحتى بدرية... ماذا يمكن أن يكون إلا عن زواجها... وفي اللحظات التي كنا نمشي فيها متجهين نحو زقاق القفل يتقدمنا العم محمد سعيد وزوج بدرية، تساءلت: (هل ستتزوج أمّي هذا الرجل؟؟؟) ولا أدري كيف وجدت نفسي أقول: (لا... لا... أبداً...)... والأعجب من ذلك أني وجدت نفسي أمسك بيد أمي، وأرفع وجهي إليها، وهي لا تزال تغطي وجهها بـ(البيشة) وأقول:

- يا فقَّم... جاكي خبر عن أبويا؟؟؟ جاكي خبر أنّو مات؟؟؟

قلت... أو وجهت هذه الأسئلة، في صوت أقرب إلى الهمس... ولكن ما أسرع ما نفضت أمّي يدها من يدي... بل وتوقفت ونحن لا نزال في منتصف الزقاق، ورفعت عن وجهها (البيشة) وقالت:

- إيش بتقول؟؟؟

***

خبر «أبويا»؟

مع أني تعودت أن أهابها إذا بدتْ منفعلة أو غاضبة، فلا أدري كيف وجدت في نفسي الجرأة على أن أرفع صوتي أكرّر:

- إنتي جاكي خبر أنّو مات؟؟

مشت وفي ملامحها سحابة حيرة، وكأني رأيت عينيْها تكادان تذرفان دموعاً، فأغضيت وأخذت أتقدمها في المشي إلى البيت، وكان موقفنا لا يبعد عن الباب أكثر من بضعة أمتار، وقد تقدمتنا وفتحته منكشة، التي لا أشك في أن أذنيها كانتا معنا، فما كدنا نتوسط الدهليز المعتم، حتى رأيت أمّي تسرع إلى الديوان وهي تطلب منكشة بالتركية أن تسرع إليها بكوب ماء... وكان الانفعال في نفسها عاصفاً، ولكنّها تحاول أن تكبته بكثير من الجهد... ورأيتها تخلع القسم العلوي من الملاية والبيشة، وتلقي بهما جانباً، ثم تلقي بنفسها على "الطُوَّالة" في أحد طرفي الدكة... جاءتها منكشة بالماء، فنهضت وشربت جرعة أو اثنتين، ثم عادت إلى الاستلقاء ونظراتها إلى الأرض... وقفت بالقرب منها لحظات ثم حين وجدتها لا ترفع بصرها إليّ، أو هي تتجاهل وقوفي، تراجعت إلى الطرف الثاني من دكة الديوان وجلست، مغضياً، شاعراً بأن سؤالي قد تسبّب في إزعاجها. ولكن ما لا أزال أعجز عن تفسيره حتى اليوم، هو أني ظللت بدوري أكابد حالة نفسية لا أستطيع أن أحددها حين وجدتها تلتزم الصمت... لا تجيبني على السؤال الذي طرحته... السؤال الذي لا أدري لم طرحته أصلاً، بعد تلك الوقفة ونحن نخرج من منزل ذلك الدكتور... ترى ما الذي جعلني أربط بين سلسلة الأحداث، منذ تلك الأحاديث التي ظلّت تدور حول غياب أبي، وذلك الخطيب الذي توسّط العم صادق فأرسل ابنتيه لمفاتحة أمّي عنه... ثم

ما تلاحق بعد ذلك من الكثير الذي يبدو أنه ظلّ يترسّب في ذاكرتي، ويعنكب في مشاعري عن زواجها الذي حسمت الموقف منه بالرفض، ومع الرفض تلك الكلمة التي قالتها، ولا تزال ناميةً مزدهرة في نفسي وهي: عزيز هوّه عريسي..

وأكثر من ذلك كله، أني - في تلك السن - قد ربطت بين خبر موت أبي، وبين احتمال زواجها... بعبارة أخرى... كان قد استقرّ في نفسي، أنها لن تتزوج إلا إذا جاءها خبر عن موته... وإذ ظلّت مستلقية، ونظراتها إلى الأرض، بينما انصرفت منكشة، إلى تجهيز وجبة الغداء، فقد ذهبت إلى ترجيح احتمال أنها قد تلقت خبراً عن موته فعلاً. ولذلك فهي ستتزوج من دون شك.

لكن ما علاقة الدكتور بحكاية زواجها؟؟؟ ووجدتني أتذكر زجاجة (الكينا لاروش) وحبوب الكينا... ثم صينية (الصوبريك)... وهنا وجدت نفسي أكاد أتمنى لو أني أستطيع أن أنشب أظافري في وجه منكشة الأسود.. إذ لم يعد عندي أي شك في أنها هي... هي التي تقوم بدورها... ولكن كيف؟؟ ما هو الدور الذي تقوم به هذه العجوز السوداء اللعينة؟ كيف استطاعت أن تجيئنا بتلك الزجاجات من (الكينا لاروش) وحبوب الكينا من دون أن يرى الدكتور أمي؟؟ أو يكشف عليها كما هي عادة الأطباء؟... ثم تلك الصينية من (الصوبريك)... ما الذي جعل خادمة الدكتور تصنعها وترسل بها هدية من دون سابق معرفة أو علاقة؟؟؟

لم تتكلّم أمي... وطال صمتُها، وحين رمقتها من مكاني رأيتها وكأنها قد استغرقت في النوم.. فالتزمت من جانبي الصمت.. ولكن من دون أن يكف تفكيري في الكثير والأهم الذي ظلّ يلح في ذهني هو الخبر عن موت أبي.. هل جاءها هذا الخبر؟؟ متى؟؟؟ ومن الذي جاءها به؟؟؟ إني لا أفارقها لحظة واحدة من ليل أو نهار، ويندر أن أغيب عندما تزورنا الخالة فاطمة أو غيرها من النساء، وهن اللائي يجئن بالأخبار... وبطبيعة ملازمتي لمحلي بينهن، فأنا لا يفوتني ما يروينه أو يتحدثن عنه من الأخبار.. ثم وجدتني أتساءل: أتراها قد غيّرت رأيها في الزواج؟؟؟ ألم تقل أكثر من مرة إنها لن تتزوّج حتى لو مات أبي وإن (عزيز هوّه عريسي)؟؟؟

***

في ذلك اليوم ساد بيني وبينها صمت بدا لي مقصوداً، أما بينها وبين منكشة، فقد كان الحوار يدور بالتركية التي يفوتني الكثير جداً من مفرداتها، ولكني كنت أحزر

الموضوع الذي يدور حوله الحوار بينهما... في البداية بدت أمّي منفعلة ثائرة، ولكن تلك العجوز التي أخذت أفقد شعوري الطيب نحوها، كانت تلتزم ضبط النفس، وقد يبلغ بها الأمر أن تحتدم وأن يتسع حملاقاها المحمرّان أحياناً، وعلى الخصوص حين تكرر عبارة معينة فهمتها في ما بعد وهي (أنت فتاة شابة...)، ثم كلمات مثل: (ليس لك أب.. ولا أخ... ولا رجل قريب...) ثم قد تستدير بنظرتها نحوي، وهي تقول ما معناه: (وهذا ولد صغير.. ومتى يكبر؟؟ ومتى يمكن أن تعتمدي عليه؟)... وكان غالب ما تجيبها به أمي: (الله كريم.. يمكن يجي أبوه في يوم ما... ونحن بخير... دكاكين زقاق الزرندي ستؤجر... والأجرة تكفينا... ولن نحتاج إلى أحد). ثم تضيف أنها سوف تشتري مكنة خياطة (سنجر).. وهي تجيد أشغال الأبرة.. حتى التطريز بالقصب تجيده، وسوف تشتري منسجاً من النوع الممتاز... بل أضافت أنها تستطيع أن تعلّم الفتيات الخياطة والتطريز، والقراءة والكتابة أيضاً... بل تستطيع أن تعلمهم الفارسية إذا أردوا فهي قد تعلّمتها من جدي، الذي قالت في مناسبات أخرى - أكثر من مرة- إن بنات العوائل الراقية (الأكابر) لا بد أن يعرفن الفارسية، إلى جانب التركية والعربية، وأهم ما يجب أن يتعلّمنه منها هو (تجويد) قراءة القرآن الكريم.. وتحمّست وهي تتحدث عن فكرتها لتقول ولكن بالعربية وبنبرة فيها اللهفة والجدّية والعزم:

- خلاص يا منكشة... هادي القاعة أيش بها؟؟؟. نقدر نخلّيها (كُتّاب) وتعليم خياطة وتطريز... والبنات رايحين يجو... وكل وحدة تدفع مجيدي كل شهر.. ولا حتى نص مجيدي... يعني عشرين بنت بعشرة مجايدة... يعني جنيهين عسملني دهب...

لكن منكشة كانت تصغي إليها من دون أن يبدو أنها تهتم بشيء مما تسمع... ولقد أدركت أن شأنها الأهم، الذي تستهدفه وتكاد لا تتهاون أو تتراجع عن تحقيقه هو إقناع أمّي بالزواج... ومن هذا الدكتور بالذات... الذي ما أكثر ما كانت تثني عليه وتطريه، وتردِّد الكثير من مزاياه فهو من أكبر العوائل في اسطنبول... وعلى كتفه ثلاثة نجوم، وفي هذه الأيام أعطوه حصاناً يذهب به إلى (الخستخانة العسكرية) وسائساً خاصاً.. غير الجنديين اللذين يخدمانه ثم الأهم من كل ذلك أنه (دكتور)... وإذا تم علاج الجنود الجرحى من عساكر الباشا، سوف يبقى في المدينة، إلى أن يتم (الصلح الكبير)... فيسافر إلى اسطنبول...

***

لا بد أن أقول إن الأحداث في هذا الاتجاه أخذت تتسارع. ليس فقط في إتجاه زواج أمّي من هذا الدكتور، وإنما في اتجاهين معاً... أحدهما ضد الآخر... ولم يكن في الإتجاه المضاد إلا موقف أمّي وحدها في مواجهة الخالة فاطمة وابنتها بدرية، بل وفرضت نفسها على الموقف (خاتون الهندية)، التي كانت لا تتردد في أن تقول لأمّي أو عنها إذا كان الحوار بينها وبين الخالة فاطمة:

- هادي مجنونة... ما هي دارية أنّو الناس اللّي ما رجعوا من الشام كلّهم ماتوا... وأما الناس اللّي كانوا في بلدان تانية... كلّهم كمان ماتوا بالرصاص والمدافع يعني لما تفضل تنتظره عشرين سنة كمان، ما هي رايحه تشوفه...

وتقول الخالة فاطمة وليّ الشيشة في يدها، وهي تنفث دخانها من منخريها الواسعين في جلستها في صدر الديوان:

- لكن.. برضه عمّك محمد سعيد، بيقول ما يمكن فاطمة تتجوز، إلا بعد ما يغلّق الولد سبعة سنين، ويشهدوا الشهود أنّو ما في عن أبوه حِسْ ولا خبر من يوم ما سافر.

من جانبي، لم أكن أدري هل (غلّقت السبعة سنين) التي يتحدثون عنها... ولذلك اتجهت إلى أمّي وأنا نائم إلى جانبها ذات صباح وسألتها:

- يا فقّم... قوليلي... أنا غلّقت سبعة سنوات؟؟؟

- وليه بتسأل؟؟؟

- عشان سمعت خالة فاطمة بتقول...

وقبل أن أتم جملتي قالت:

- أنت قل لي... أنت تبغا تغلّق سبعة سنوات ولاَّ لأ...؟؟؟

- لأ... ما إبغا أغلّق سبعة سنوات.

وضحكت ضحكة خفيفة وأحاطتني بذراعها وهي تقول:

- خلاص... ما دام ما تبغا تغلّق سبعة سنوات... إنت ما تغلّق سبعة سنوات إلا بعد سنة ونصف...

- هيّه النص قد أيه يا فقّم؟؟؟

- نص السنة ستة أشهر...

أحسست كأني قد حققت نصراً لم يكن يخطر لي على بال... فأنا لا أعرف عدد

شهور السنة... ولكنني استطعت أن أصل إلى ان هناك ثمانية عشر شهراً (لأغلّق) سبع سنوات... وسألت أمّي بلهفة:

- طيب... طيب.. يا أمي... السنة كم يوم؟؟

وعادت تضحك... لم أفهم شيئاً من حسابها لعدد الأيام... ولكن وجدت أن هناك مئات من الأيام بيني وبين أن (أغلِّق) سبع سنوات... فضحكتُ، بل كدتُ أقفز فرحاً وأنا أقول لها:

- خلاص يا فقّم... ما في جواز... موكده؟؟

ما كادت تسمع هذه الجملة، حتى ضمّتني إلى صدرها بشدّة، وأخذت تقبّلني بحرارة، ثم شرعت تمسح وتحك رأسي بيدها، وهي الحركة التي تعودت أن أجد النعاس يثقل جفني معها.

***

لكن، رغم هذه المئات من الأيام التي لا بد أن تمر (لأغلّق) سبع سنين، فقد بدا واضحاً أن موضوع زواجها، إذا إنتهت هذه الأيام، قد أصبح مفروغاً منه... وأن الذي سوف يتزوّجها هذا الدكتور الذي لم تنقطع منكشة عن نقل أخباره بمناسبة وبلا مناسبة.

خلال هذه الأيام، انتهت السنة، وبحلول السنة الجديدة، استلمت أمّي أجرة الدكاكين في زقاق الزرندي... ومرة أخرى ستة جنيهات عسمنلي ذهب... والعجيب أن منكشة كانت أكثر فرحة بها من أمّي نفسها... وبعد الغروب من اليوم الذي استلمت فيه أمّي هذا المبلغ، كانت منكشة تحتفل بتجهيز وجبة دسمة من "الرز البخاري"، ومعها (المعرّق) وتتحرك بكثير من الخفة، وفي صوتها نبرة مرح.. لم أكتشف سببها إلا بعدما فرغنا من تناول العشاء، وأخذت تملأ أكواب الشاي، إذ سمعتها تقترح على أمّي أن تشتري أقمشة، قالت إنها رأتها في السوق، وأن تجهّز لنفسها فساتين تقوم بخياطتها خيّاطة اسمها (هديّة) لا تأخذ لخياطة الفستان أكثر من (مجيدي ونصف)... ثم تضيف تلك العجوز باللغة التركية كلاماً لا أفهم منه شيئاً، ولكني أحزر أنه عن الزواج.. وعن الدكتور.. والشهود.. والسنوات السبع إلخ...

***

مع أن الأمور كانت تسير في اتجاه الزواج، ومع أن أمّي كانت دائماً تبدو مشغولة

البال أو مرتبكة أو محرجة، فإني لا أنسى حتى اليوم، أن عاطفتها نحوي كانت تزداد حميميّة. ولعلّي لا أخطئ إذا قلت إني كنت أرى في نظراتها، شيئاً أفسّره اليوم بأنه الإشفاق والأسى... فإذا حان وقت النوم - وكانت عادتي أن أنام إلى جانبها - تحرص على أن تضع إحدى ذراعيها تحت عنقي، ثم تضمّني إليها.. فإذا كان ضوء الفانوس أو القمرية على وجهها فإني كثيراً ما كنت أرى في عينيها دموعاً تحرص على أن تحبسها، وأسمعها تبتلع.. ربما كان ما تبتلعه هو إنفعالها... لا أشك في أنها كانت لا تجهل أنها مقدمة على أمر فيه الكثير الذي يخيفها عليّ... إذاً، ماذا يا ترى سوف يكون مصيري، بعد زواجها إذا تزوّجت؟؟؟ لم أكن أعرف شيئاً مما يتعرّض له ابن الزوجة من زوجها... ولكن هي لا شك كانت تعرف الكثير. وفي اللحظات التي تلفّ ذراعها حول جسمي الصغير وتخنقها العبرات، كانت ترى عشرات الاحتمالات.. عشرات الاحتمالات التي لن تخلو من تعرّض الابن - الذي هو أنا - لقسوة الزوج بل ربما لضربه، وبالعصا أو بالحبل، كما سمعت أو تسمع عمّن تزوّجن، من أمهات أولاد أو بنات.

***

لم يعد أحد من اللائي يزرن أمّي أو تزورهن يتحرّج في أن يتحدث عن زواجها أمامي وعلى مسمع منّي.. وكانت لبعضهن طريقتها في تهنئتها بأنها سوف تتزوج الدكتور، بحيث تعقب منكشة بعد أن يخرجن، بكلام طويل أحزر أن معناه أنهن يحسدنها، ولذلك فإنها تسرع لتشعل النار، وتفتح كيس مجموعة أعشاب البخور، تحرقها في وعاء نحاسي صغير وتتجوّل بها في الديوان والدهليز، وهي ترتّل أو تقرأ، ثم تقف على رأس أمّي في مجلسها وتدير الوعاء حوله... وهو إجراء أو تصرّف تعودت أن أراه، منذ ذلك اليوم الذي قام فيه الزاكور بإخراج (الساكن) من الحَنِية.

أخيراً... بعد غروب يوم الخميس، سمعنا تصفيق الخالة فاطمة من دهليز، ثم عندما أسرعت إليها أمّي سمعتها تقول:

- عمّك محمد سعيد رايح يجيكم - وأنا معاه، بعد صلاة العشا... عشان يقول لك ايش تقولي للقاضي لمّا تروحي مع عزيز إلى المحكمة يوم السبت.

بالفعل، جاء العم سعيد في الموعد، وجاءت معه الخالة فاطمة، وكانت أمّي قد لفت نفسها في "شرشف" وأسدلَتْ على وجهها قطعة من (الشاش).. وحين كانت منكشة تعد الشاي.. بدأ الحديث عن المحكمة.. وعن الكلام الذي سوف تقوله أمّي للكماخي.

في المحكمة

لم أكن وحدي الذي لا يعرف شيئاً عن (المحكمة) التي سوف تذهب إليها أمّي معي... كانت أمّي أيضاً تجهل كل شيء عنها. ولذلك فقد ظلّ الحديث يدور في تلك الليلة بين الخالة فاطمة وبين أمّي عن هذه المحكمة، ثم عن الكماخي... دار في وهمي عن كلمة (كماخي) هذه أنها تعني شيئاً معيناً يكون في المحكمة. ولكن لا أدري كنهه وحقيقته. لكن ما دار من الحوار، جعلني أدرك أنه إنسان اسمه (الشيخ الكماخي) وهو (قاض) والقاضي كلمة لم يكن لها معنى عندي في تلك الليلة، وقد ظلّت غامضة حتى بعد أن ذهبنا إلى المحكمة يوم السبت.

لا أحتاج أن أتحدث، أو أطيل الحديث، عن المحكمة... بابها الواسع، وأرض دهليزها من الحجر الأسود، والدّكة الطويلة في هذا الدهليز، يجلس عليها الناس في إنتظار موعد الجلسة المقررة لهم. لم يطل إنتظارنا.. وأعني أمي، والشيخ محمد سعيد، والعم صادق، والعم إسماعيل (صاحب المغازة في جوّه المدينة)... إذ ما كدنا نقف دقائق في هذا الدهليز الواسع، حتى خرج رجل كهل يقول:

- فاطمة أحمد صفا وولدها.

كانت يدي في يد أمّي كما هي العادة دائماً فمشينا، ومشى حولنا العم محمد سعيد، والعم صادق والعم إسماعيل... ومن باب واسع دخلنا ديواناً واسعاً، في الصدر من دكته مقعد رحب كبير جلس عليه رجل أدركت أنه الشيخ الكماخي وأنه هو القاضي. أمامه منضدة صغيرة، يجلس إليها رجل كهل، عرفنا في ما بعد أنه الكاتب الذي يدوّن في دفتر كبير بين يديه ما عرفنا في ما بعد أنه يسمّى السجل.

وقفنا جميعنا أمام القاضي... حيث بدأ يوجّه الحديث إلى أمي:

- إنت يا بنتي اسمك فاطمة؟؟

- أيوه أنا اسمي فاطمة.

- اسم أبوكي؟؟

- أحمد صفا.

- رحمة الله عليه.. هادا ولدك؟؟؟

- أيوه هادا ولدي.

- واسم ولدك يا فاطمة؟؟

- اسمه عزيز.

- عبدالعزيز يا فاطمة.

- أيوه.. عبدالعزيز.. بس أنا، أناديه وأقول اسمه عزيز.

- وكم عمره اليوم يا بنتي.

- عمرة ستة سنين وتسعة أشهر.

- ما تعرفي متى ولد؟؟

- ولد في صُبْحية عيد مولد النبي قبل ستة سنين وتسعة أشهر.

- ومين أبوه يا فاطمة يا بنتي؟؟

- أبوه اسمه زاهد بن سلطان بن مراد.

- وفين زاهد هادا دحّين؟؟؟

- ما أدري فين... ما جانا منّه حس ولا خبر.

- يعني سافر من المدينة يا فاطمة مع اللّي سفًّرهم فخري؟؟

- لأ.. سافر قبل اللّي سفّرهم فخري.. سافر لمّا كان عمر عزيز تسعة أشهر.

- سافر راح فين؟؟

- سافر بلاد القازاقْ... أورونبورغ... عشان يجمع الفلوس اللّي يبغوا يبنوا بها الجامعة الإسلامية... اللّي أمر بها السلطان.

- ومن يوم ما سافر ما كتب لكم... ولا أخبركم متى رايح يرجع؟؟

- يمكن كتب لأبويه.. لكن أنا ما أدري عنه شي.

- وطول هادي السنين ما جاكم منّه خبر..

- ما جانا منّه خبر أبداً.

- وطول هادي السنين ما أرسل لكم فلوس.. يعني نفقة لكي وللولد؟؟

- وطول هادي السنين ما سمعنا عنّه شي.. وما استلمنا منّه فلوس.. ولا شي.

- طيّب يا بنتي.. ومين اللّي يشهدوا انوا الكلام اللّي قلتيه هوّه الحقيقة؟؟

- الشهود همّ.. العم محمد سعيد.. والعم صادق.. والعم إسماعيل..

- الشهود موجودين في المجلس؟؟

وهنا تقدم الشهود. وكل منهم رفع صوته يقول:

- أشهد أن جميع ما قالته فاطمة بنت أحمد صفا عن زوجها الغائب زاهد بن سلطان بن مراد، أبو ولدها الحاضر عبدالعزيز... جميع اللّي قالته صحيح..

وبعد أن أدّى كل منهم شهادته نصاً رافعاً صوته، والكاتب خلف المنضدة الصغيرة، وأمامه الدفتر الكبير يكتب أو يدوّن كل ما دار من حوار بين أمّي وبين القاضي، ثم كل كلمة قالها الشهود، طلب القاضي منه هذا السجل، وعكف يقرأ ما دوّنه الكاتب، ثم التفت إلينا وهو يقول:

- خلاص.. فاطمة.. بعد ثلاثة أشهر، إذا ما رجع زاهد، وما جاكي منّه حس ولا خبر، تيجي تاخدي الحكم.

وهنا تقدم العم محمد سعيد يسأل القاضي:

- الحكم بطلاقها يا مولانا؟؟؟

- ما أقدر أقول لك الآن.. خلّي الأشهر الثلاثة تنتهي، وبعدين الحكم...

- يعني يا مولانا دحّين هيّه ما هي في العدّة؟؟؟

- لأ... ما هي في العدّة... إلا بعد الحكم... بعد ثلاثة أشهر..

كانت يدي لا تزال في يد أمي.. وقد لفت نظري أني أحسست بها باردة كالثلج، وحين رفعت رأسي أنظر إلى وجهها خلف (البيشة)، رأيت البيشة مبلّلة.. أدركت أنها تبكي في صمت... واستدارت في طريقنا للخروج، وقد تقدمنا الشهود الثلاثة.. ولم تكن المحكمة بعيدة عن زقاق القفل.. ما هي إلا خطوات قصيرة قليلة، حتى وجدت نفسي أمام دكان العم صادق، ومجموعة الأطفال الذين ألعب معهم، يملأون المنطقة

ضجيجاً، فقد كانوا يلعبون ما يسمّى (الكَبَتْ)... كانت لعبة يمارسها أولئك الذين يكبرونني سناً. ولكني كنت أتمنّى أن يسمحوا لي بالمشاركة فيها.. ولا أدري لِمَ كانوا يصرّون على أن أبتعد عنهم وأكتفي بـ(الفُرْجَة) ومع الفرجة صيحات الإعجاب، والعجيب، أن رجالاً من أعمار مختلفة كانوا يقفون يتفرّجون، ويرفعون أصواتهم بهذه الصيحات.

حاولت أن أخلّص يدي من يد أمّي... وكأنها أدركت غرضي من حركة يدي، فإذا بها تشدّد قبضتها، وتقول لي:

- امش.. امش يا عزيز.. ما هو وقته..

مشيت ودخلنا زقاق القفل.. وحين وصلنا باب البيت، رأينا منكشة جالسة على العتبة، والباب مفتوح... وأمامها في بيت الخالة فاطمة، الدادة حسينة وخلفها بدرية. لا شك أن الحديث كان يدور بين الطرفين... كُلٌ في مكانه أو بيته.. ولا شك أنه كان عنا.. أمّي وأنا والشهود... وحين التفتُ نحو باب بيت الخالة فاطمة ورأيت بدرية أحسست كأني أخرج من ظلّام كان يلفُّ مشاعري، فإذا بي أترك يد أمّي وأسرع إليها... وكأنّها من جانبها قد أحسَّت بلهفتي عليها فأسرعت تفتح ذراعيها وتضمني إلى صدرها، ثم تقبّلني... ولكن... ما الذي جعل عينيها تدمعان؟؟؟ بل تذرفان أكثر من دمعة؟؟؟ لم تقل شيئاً، ولكن كان في وجهها وفي الدموع في عينيها تعبير عن الإشفاق والأسى.. لم أفهم ساعتها شيئاً بالطبع سوى هذه السعادة التي غمرت نفسي، وهي تضمّني، وأشم في ذلك الصدر رائحتها... كلا ليست رائحة البنفسج، وإنما هي رائحتها هي التي لا أجد لها وصفاً ولا اسماً.. ظللت هكذا بين ذراعيها وعلى صدرها لحظات تمنيت ألا تنقضي... ولكنها رفعت صوتها تنادي أمي..

- يا ستيتة تعالي استريحي عندنا.. أمّي في (المِركّب) عمّال تطبخ لنا رز وعدس وحوت ناشف، جابوا عبدالمنّان.

- أجي يا بدرية بعدما أدخل وأفسِّخ (قُنْعَتي)...

- طيب خلي عزيز معايا..

- أيوه خلّيه معاكي... بس لا تخلّيه يروح يلعب مع الأولاد في رأس الزقاق.

ووجدت نفسي أبادر إلى الرد فأقول لها وهي تدخل البيت:

- يا فقَّم.. أنا أقعد مع خالة بدرية.

هنا تدخلت (منكشة) التي ظلّت تلتزم الصمت حتى الآن لتقول:

- أنا كمان فيه (يالانجي ضولمة).

تقصد أنها جهّزت أكلة يسمّيها الأتراك (يالانجي ضولمة) ومعناها (المحشي الكاذب أو الكذاب) وهو الباذنجان يحفر، ويُحشى أرزاً، ويطهى بالزيت، ويؤكل بارداً..

أجابتها بدرية بنبرة مرحة ضاحكة:

- خلاص.. إنتي تجيبي (اليالانجي) حقّتك.. ونحن عندنا الحوت الناشف والرز والعدس ونتغدّى كلنا مع بعض..

كان هذا الذي أسمع سارّاً مُفرحاً، وكأنّه يرفع عن قلبي، أو هي عن نفسي ما ظللت أعانيه منذ اللحظات التي مشينا فيها إلى المحكمة، وما دار فيها، وإلى أن رجعنا إلى البيت.. وأخذت مجلسي إلى جانب بدرية، على (شِلْتَة) افترشَتْها.. فأحاطتني بذراعها وقالت:

- خلاص يا عزيز... إنت دحّين عمرك سبعة سنين... موكده؟؟
- لأ.. ستة سنين وتسعة أشهر.

وضحكت ضحكة مرحة حلوة وهي تقول:

- ما شاء الله عليك.. صِرْت تعرف الستة سنين والتسعة أشهر كمان؟؟
- كده أمّي قالت في المحكمة.
- طيب قل لي.. فين بَدِلْتك البحّاري... ليه ما لبستها لمّا رحت المحكمة؟؟
- عند أمي... وهيّه تقول ألبسها لمّا يجي العيد.
- طيب ومتى يجي العيد يا عزيز..
- العيد الكبير؟؟ ما أدري؟؟
- لا.. خلاص، بعد كم يوم الناس يحجّوا... ولمّا ينزلوا من عرفات يجي العيد الكبير.
- أمّي قالت، في العيد الكبير، ندبح طَلي كبير..
- ونحن كمان.. وكلّ الناس لازم يدبحوا الطليان.. في العيد الكبير.
- بس ليه؟؟؟ ليه يدبحوا الطليان... الطليان طيبين ما يئذوا أحد... لو يدبحوا الكلاب اللّي بِتْهَوْهَوْ، طول الليل، وتخوّفنا مو أحسن؟

وقهقهت قهقهة عالية... وعادت تضمّني إلى صدرها، وهي تقول:

- والله صادق يا عزيز... يا ريت يدبحوا الكلاب... يدبحوهم كلّهم..

- أيوه.. بس هادول ما أحد يقدر يمسكهم زي الطليان.. هادول يعضّوا.. وياكلوا اللّي يمسكهم.

***

كان الحوار، ونحن نتناول غداءنا في بيت الخالة فاطمة وعلى مائدتها، يدور بين أمّي وبين الخالة فاطمة، وحتى منكشة، عن تفاصيل ما تم في المحكمة... كانت أمّي رغم عبارات الترفيه والتسرية التي ظلّت تفضي بها الخالة فاطمة، كانت لا تخفي استياءها أو هي مشاعر الحزن التي تملأ نفسها.. وسمعتها تقول:

- الحقيقة يا خالة... أنا ما عاشرت زاهد إلا ثلاثة سنين... وسافر لمّا كان عمر عزيز تسعة أشهر.. وعبدالغفور في بطني.. لكن زاهد كان بيتمنّى أنو يسير صاحب حلقة في الحرم.. يسير من العلما.. إنتي عارفة أنو صلّى التراويح ليلة 27 بالختمة كلّها من "الفاتحة"، إلى "قل أعوذ برب الناس..." وعشان كده أنا ما أصدق أنو يكون حي، وما يرسل خبر.. أو نفقة زي ما قال القاضي.. لازم... واختنق صوتها بالعبرات... قبل أن تكمل جملتها لتقول:

- لازم مات.. بس مات فين؟؟ في بلدة - أورونبورغ - ولّا في الطريق؟؟؟ ولّا في اسطنبول وهوّه راجع أيام الحرب؟؟ هادا اللّي ما أحد يدري عنّه.

وهنا قالت الخالة فاطمة:

- قوليلي يا فاطمة... لو رجع أو جاكي عنّه خبر إِنُّو حَيْ .. بعدما يحكم القاضي بطلاقك منّه.. تِرْضي ترجعيله؟؟؟ ولّا...

ولم تكمل جملتها.. ردّدت (ولّا) هذه مرتين.. وأدركت أو حزرت أنها تريد أن تقول:

- ترجعيله ولّا تتزوجي غيره؟؟

لم يطل إنتظار جواب أمّي فقد أسرعت تقول:

- أرجعله يا خالة.. هادا أبو عزيز... يا ترى مين رايح يربّي عزيز غير أبوه؟؟ ايش يدرّيني يا خالة، كيف رايح عزيز يعيش مع جوز الأم؟؟

ومرة أخرى اختنقت بالعبرات وهي تقول:

-إنتي عارفه.. عزيز دايماً ينام جنبي... عمره ما نام لوحده.. ولا حتى مع منكشة.

هنا أحسست أنا، بما يشبه لطمة قاسية تنهال على قلبي... إذ أدركت لأول مرة أني لن أنام إلى جانبها إذا ما تزوجت، ووجدت نفسي أتساءل:

ترى كيف؟؟؟ كيف تنام هي مع رجل؟؟؟ وأين أنام أنا؟؟؟ وحدي؟؟؟ ومع منكشة؟؟؟ ورغم حرارة هذه الأسئلة فقد فوجئت بأني أتمنّى.. لو أنام إلى جانب بدرية.. وألقيت عليها نظرة.. بهرني جمالُها، ولاحظتُ لأول مرة أن في الجانب الأيسر من جيدها (خالاً) صغيراً يتألّق، بحيث قررت بين وبين نفسي.. أن أنتهز أول فرصة تضمني فيها، لأقبل هذا الخال..

***

كان لا بد لي أن أعود إلى عدِّ أيام الأشهر الثلاثة.. وكانت زجاجة (الكينا لاروش) في مخبئها ولا يزال في الكيس الصغير الكفاية من حبات الفاصوليا... أخذت ألقي بها في الزجاجة يوماً بعد يوم في انتظار انقضاء أيام الأشهر الثلاثة، وهي كما علمت من أمّي تسعون يوماً.. ومع كل يوم كان يكبر في نفسي الإحساس بالفجيعة.. فجيعة أني سأنام وحدي.. وأن أمي.. أجل أمّي ستنام مع رجل هو زوجها.. ومع ذلك فقد كنت أتمسّك بأمل ظلّ حياً، ولكن من دون أن أفصح عنه لأي مخلوق حولي.. وهو أن أبي هذا يمكن أن يدخل علينا في أي لحظة... صحيح أن أمّي قالت إنه لا بد أن يكون قد مات.. ولكن لِمَ لا يكون في الطريق... والطريق يمكن أن يكون طويلاً جداً... أطول من ذلك الذي قطعناه إلى الشام ومنها إلى المدينة.. ومن يدري فقد يكون يقطع هذه المسافات البعيدة جداً مشياً على قدميه... ربّما لم يبقَ (بابور).. ولا باخرة.. حتى ولا جَمل...

إنتهت الأشهر الثلاثة أخيراً... وجاء العم محمد سعيد يقول:

- يوم السبت يا بنتي تروحي المحكمة عشان تستلمي الحكم.

***

الحكم على المذهب المالكي

لم أكن في السن التي أفهم فيها معنى كلمة (حُكْم)... ولكن المراحل الطويلة التي ظلّت أمي، ومعها الخالة فاطمة، والعم محمد سعيد وغيرهما، يطوونها للوصول إلى هذا الذي أسمع إن اسمه (الحُكم)، جعلتني لا أشك في أنه شيء مهم جداً، يتوقف عليه الكثير من الأمور، ومنها، أو في مقدمتها كلها، زواج أمي، ومنها حكاية أن أبلغ من العمر سبع سنوات بالتمام والكمال، حين جاء العم محمد سعيد، ذات يوم ليقول:

- القاضي كتب يطلب فتوى مفتي المذهب المالكي، لأن المذهب الحنفي لا يجوز فيه الحكم بالطلاق، حتى ولو بلغ الولد السبع سنين، ما دام لم يثبت أن زاهد قد مات.

كلام كهذا.. أو قريب منه، كان بالنسبة لي غامضاً، وغائماً، ولكنّه مع ذلك أحيا في نفسي أملاً، في ألا يصدر حكم أو فتوى من الشيخ أو هو المفتي المالكي، يجيز الطلاق، وكان مما بعث نوعاً من الارتياح في نفسي - وهو أمر غريب بالنسبة لتلك السن - أن أحداً لم يقلْ حتى الآن أن أبي قد مات... وما دام المذهب الحنفي لا يجيز الطلاق إلا إذا ثبتتْ وفاة أبي، فبارك الله في هذا المذهب، وألف الحمدلله.. وبهذه المشاعر انتهزت فرصة اللحظات التي تأخذني أمّي في حضنها للنوم في الليل لأقول لها:

- يا فقَّم.. جاكي خبر إنّو أبويا مات؟؟

أحسست بارتباكها، أو بوقع مفاجأة السؤال عليها، حين قالت بعد لحظة صمت وتردد:

- لأ.. لأ.. يا عزيز.. ما جاني خبر إنو مات؟؟

- ما دام كده يا فقَّم.. أنا سمعت العم محمد سعيد يقول ما في طلاق، ما دام ما جاكي خبر إنّو أبويا مات.

- صحيح.. المذهب الحنفي كده يا عزيز..

- طيب، وإنتي ايش مذهبك؟؟؟

- مذهبي حنفي...

قالت الجملة الأخيرة وصوتها يكاد يكون همساً لا يسمع، ولو أني كنت أنظر إليها لرأيت في عينيها... ولكني لم أكن أنظر إلى وجهها، كنت في ما يشبه دوامةً تدور بذهني بحثاً عن أي سبيل يوقف حكاية الطلاق، وبالتالي هذا الزواج، الذي أصبحت أعي تماماً أنه لن يتم إلا بحكم الطلاق.. ولذلك وجدت نفسي كأني أكاد أقفز فرحاً بأن مذهبها (حنفي) فألُفُّ ذراعي حولَ عنقها وأنا أقول:

- خلاص يا فقَّم.. ما دام ما جاكي خبر موت أبويا.. وإنتي مذهبك حنفي.. يسير ما في طلاق.. وكمان ما في جواز.

لا أشك في أنها ذُهلت، وهي تسمع كلَّ هذا مني، وأنا في سن تعتقد هي، ومعها الجميع، أني لا أدرك شيئاً من هذه الأمور.. وأني مجرد طفل صغير، ليس عليّ إلا أن أسير في الدرب الذي يريدون لي أن أسير فيه.

التزمت أمّي الصمت وذراعي يلتف حول عنقها... وقد زدت على ذلك أن أخذت أقبّلها... ليس مرةً واحدة وإنما مرات وبلهفة لم أعهدها في نفسي أو في تصرفاتي من قبل.

وكأنها - في هذه اللحظات، ومع هذا التصرف من جانبي - قد استوعبت جميع احتمالات المستقبل الذي ينتظرنا معاً، إذا لم تتزوّج، ولا سبيل إلى الزواج ما لم يتم طلاقها أو تطليقها فإذا بها تجلس في الفراش وترفع ذراعي عن عنقها بلطف، وتلتفت إليّ ناظرة في وجهي الذي كانت تعصف بملامحه اللهفة على أن تظلّ تنتظر أبي، أو تنتظر إلى أن يجيئها خبر موته، وقالت بصوت لم تحاول أن تجعله هامساً، كما هي عادتها في هذه اللحظات التي تسبق النوم:

-اسمع يا عزيز.. إنت دحّين سرت تفهم كتير.. وعشان كده لازم تفهم أكثر.. إنت فاهم إنّو أبوك سافر من زمان.. من يوم ما كان عمرك تسعة أشهر.. ومن يوم ما سافر أنا ما استلمت منه حِسّ ولا خبر.. وكمان ما أرسل لي ولا مجيدي، أصرف على

نفسي وعليك.. وأنت كمان لا بد ما نسيت.. أيامنا في حلب بعد موت جدّك رحمة الله عليه.. ما نسيت عيش الشعير الأسود والكِرسنّة.. اللّي نغمّسه في موية الرمان والملح. ما نسيت يا عزيز كيف سافرنا من حلب... والحمى اللّي كانت تجيني كل يوم... هاديك الحمّى اللّي لو كانت موّتتْني، زي الكثيرين اللّي ماتوا... كان أيش اللّي يجرالك؟؟؟ كنت تروح فين..؟؟ مين اللّي يربّيك؟؟ مين اللّي يعرفك؟؟؟ نحمد الله اللّي ربّنا أراد ورجعنا المدينة... لا بد أنك متذكر كيف وصلنا المدينة على الجمل وقبل الجمل.. البحر، إلى ينبع... أنت متذكر كيف لما وصلنا المدينة في الصبح أنا صلّيت، ولحست تراب الأرض.. وحمدت الله.. علشان كنت بأقول في نفسي.. لو أنا مت.. فيه في المدينة اللّي يعرفوك... ويعرفو جدَّك أحمد صفا.. ويعرفوا أبوك.. ويعرفونا كلنا.. يا عزيز.. حتى دحّين.. حتى اليوم، لو أراد الله أني أموت.. وتفضل أنت وحدك مين اللّي يربّيك؟؟؟ ما لك أحد أبداً... إلا الله.. وعشان كده.. عشان كده..

لم تكمل كلامها... وزحمها البكاء... وفي هذه الفترة التي كانت تتحدث فيها أمّي بصوت مسموع، كانت منكشة قد استيقظت، ولعلّها لم تكن نائمة، فجلست في فراشها ولكن ملتفتة إلى الجدار، ومرت لحظات من دون أن تكمل أمّي جملتها، لأسمع منكشة تقول بعربيتها المكسّرة:

- عشان كده.. أنتي لازم واحد رجّال.. لازم واحد بابا..

وفهمت ما ظلّت ترطن به من كلام خلاصته، أن هذا الزواج لا بد منه، وأن الرجل الدكتور رجل طيب، - وبطريقتها في التعبير - ظلّت تكرر أنه طيّب جداً وإلى أقصى حد، ولكن أمّي التي التزمت الصمت لحظات.. التفتت إلى منكشة، وأخذت تحدّثها بالتركية كلاماً طويلاً، ثم التفتت إليّ تقول:

- أيوه يا عزيز.. هادا الرجّال طيّب زي ما بتقول دادتك منكشة.. وكمان أنا شرطت عليه إنك تكون زي ولده... يعني...

ومرة أخرى زحمها البكاء.. وعادت تكلم منكشة بالتركية.. ثم قالت:

- لو كنت يا عزيز كبير شويّه.. يعني لو كان عمرك عشرة ولا اتناشر سنة أنا ما كنت أتجوز أبداً.. كان يمكن إنك تكون إنت رجّالنا.. يمكن تشتغل... أعلمّك في البيت القراية والكتابة.. وتتعلم حسن الخط عند الخطاط.. وتصير كاتب... عند واحد

من التجار.. لكن أنت عمرك سبع سنين بس.. ايش اللّي يمشّي السنين إلينْ تسير رجّال؟؟

من جانبي وأنا أصغي إليها، واسترجع في ذهني الكثير الذي مر بنا منذ ذلك اليوم الذي خرجنا فيه من هذا البيت إلى (البابور) وإلى أن عدنا إليه.. وعلى الخصوص منها تلك التي عشناها بعد موت جدي.. استطعت أن أتصوّرها تماماً.. أياماً رهيبة، أشعر اليوم بعد هذه المراحل التي قطعتها في مسيرة العمر، بالمصير الذي كان يمكن أن أنتهي إليه لو ماتت أمّي وأنا في الشامِ قبل أن نعود إلى المدينة؟؟ مرّت بذهني مشاهد أولئك الذين كانوا يموتون جوعاً ويتساقطون في الشوارع، وعلى الأرصفة وتنقلهم عربات نقلِ الموتى... أحس الآن وأنا أكتب هذه السطور، بقلبي يغوص في صدري رهبة ورعباً فلا أملك إلا أن أحمد الله على ما أغدق عليّ من النعم... بل لا أملك إلا أن أسلّم بأن ما تقبّلتْه أمّي في النهاية من نصيحة مَنْ حولها من الصديقات وفي مقدمتهن، الخالة فاطمة، بالزواج من هذا الدكتور، كان قدراً مقدوراً، أراد الله به لي خاصّة... ولها كل الخير.

لم تمض أيام طويلة، وأجواء الحياة بيني وبين أمّي والدادة منكشة، لا تخلو من الضيق والترقّب، في إنتظار هذا الذي يسمّى (الحُكم)، إذ جاءنا العم محمد سعيد ذات يوم في الصباح الباكر، ليقول لأمي:

- تبغي تروحي عشان تستلمي الحكم وحدك.. ولاَّ تبغي أحد يجي معاكي؟؟؟

وكلمة (الحُكم) هذه كان لها في نفسي وقع لا شك أنه يختلف عن وقعه في نفس أمي. إذ بينما رأيت في وجهها ما يشبه الارتياح، أحسست كأن شيئاً يضغط على صدري، وكأن قشعريرة بردٍ شديد تسري في جسمي... ولا أدري من أين أخذ العرق يتفصَّد من جبيني بارداً.. مسحت العرق بكمّي،... لم أشعر بالبكاء أو الرغبة فيه... ولكن من أغرب ما يمر بالمرء أحياناً .

وهذا ما عرفته بالتجربة في ما بعد من أيام العمر - إنّه يتمنّى أن يبكي... أن يذرف دفقاً من الدموع تحجَّرت في عينيه، فلا يستطيع.

سمعت أمّي تقول:

- يا ريت يا عم محمد سعيد أروح معاكم.

- يكون أحسن.. لكن أنا لازم أروح السوق، أقضّي.. أصله خالتك فاطمة عندها

اليوم ضيوف مقيّلين.. لمّا أرجع، قبل الضهر نروح سوا... بس إنتي خليكي جاهزة.

قال العم محمد سعيد هذه الكلمات، ومشى... والتفتُّ إلى أمّي لأراها وإبهام يدها اليسرى على خدّها... وكان هذا يعبّر عن حيرتها وارتباكها... ولكن لم يطل وقوفها إذ اتجهت إلى الديوان، وكانت منكشة قد جهّزت وجبة الصباح.. وجلست على طرف الدكة تنتظر، وما كادت ترى أمّي داخلة حتى نهضت وهي تقول بالتركية كلاماً فهمت أنه يعني الدعاء إلى الله بأن (يتمّم بخير).

عاد العم محمد سعيد في الموعد الذي حدّده، وكانت أمّي في ملايتها، وقد لفت نظري أنها - ربما لأول مرة - لم تجهّزني بالثوب النظيف، والحذاء، وتمشيط الشعر، كما هي عادتها منذ عدنا إلى المدينة واشترت لي من (مغازة) العم إسماعيل تلك الثياب والأحذية الجديدة وزاد المسألة تعقيداً، عندي، أنها التفتت إليّ وهي تقول:

- إنت خليك مع دادتك منكشة... ما هو لازم تيجي معايا.

لم أحاول أن أتشبّث بها.. وكأني تذكرت، أنها تصطحبني إذا كانت تخرج وحدها.. ولكن لا حاجة بها إليّ، ما دامت ستذهب مع العم محمد سعيد. ولكن ظللت أشعر بذلك الشي الذي يخمش صدري أو هو قلبي.. وكلمة (الحُكْم) إياها تطن في كياني كلّه... إنها الحكم بطلاقها من أبي.. وكما قال العم محمد سعيد (المذهب المالكي)...

كانت حكاية المذهب المالكي هذه بالنسبة لي لغزاً، لم أفلح في حله إلى سنين طويلة من عمري... ولا بد أن أقول إني اختزنت في أعماق نفسي ما يشبه الحقد أو الغيظ على هذا المذهب، الذي كان السبب في طلاق أمي، وبالتالي في الإذن بزواجها... كان الذي استقرّ في نفسي، أنه لولا هذا المذهب لما أتيح لأمي أن تتزوج... وكان مما ظللت أحاور به نفسي، هو: ما الذي يمنع أن أبحث عن عمل... حتى ولو لم أتعلم الكتابة والقراءة ولم أبلغ الثانية عشرة من عمري... لقد رأيت، أكثر من مرة أطفالاً، في سنّي - السابعة من العمر - يعملون في سوق الخضار... يحملون على أكتفاهم وأحياناً على رؤوسهم، ما يشتريه بعض الناس فلا يحملونه بأنفسهم في الزنبيل... وإنما يحمّلونه لهؤلاء الأطفال الصغار الذين سمعت أنهم يذهبون بما يحملون خلف الرجل، إلى أن يصل بيته.. فيعطيهم نقوداً... وهم يقومون بهذه العملية مرات عديدة في اليوم... وفي كل مرة يأخذون نقوداً... وأنا أعلم أن النقود

هي التي نحتاجها لنعيش... وهنا لم أنس أن أمّي عندها الجنيهات العسمنلي، التي استلمتها من الرجل الذي يستأجر الدكانين في زقاق الزرندي... فوجدتني أتساءل في حَردٍ وغيظ:

- (وما دام عندها الفلوس... فما الذي يجعلها تتزوج؟؟؟)... لم نعد نجوع، ونأكل خبز الشعير والكِرسنّة نغمسه في عصير الرمان والملح، كما كان الحال في حلب... أيام الحرب...

على أية حال ذهبت أمّي مع العم محمد سعيد لتستلم الحكم... وها أنذا في البيت ومعي هذه العجوز... منكشة... التي لم أعد أحبها... كنت أشعر نحوها بعداء وبغضب أتمنى معهما لو أنها تموت... فهي... هي سبب جميع ما يحل بي من بلاء. وعندما كنت مستقلياً على الطُوّالة في الدكة والأفكار الكثيرة تعصف بذهني ومشاعري، في انتظار (الحُكم) الذي ستستلمه أمي، فوجئت بمنكشة تقترب مني بخطوات ثقيلة متئدة، وفي يدها طبق صغير، فيه كمية من قطع الحلوى (السكرية)... تقدمه إلي، وفي عينيها وقد تدلى عليهما جفناها الثقيلان، ما يُعبر عن الرغبة في استرضائي وتدليلي... ولا أدري كيف تجرأت على أن أرفع يدي، وأنسف الطبق بما فيه من الحلوى عن يدها... ثم أستدير مواجهاً الجدار لا أريد أن أراها... فإذا بها لا تقول شيئاً، ولا يبدو على وجهها أنها قد انزعجت أو تألمت من الحركة.

... انحنت تجمع حبات الحلوى السكرية... وحين التفتّ إليها أكاد أسمِعُها شتيمة من تلك التي تعلّمتها من الأطفال الذين ألعب معهم، رأيت عينيها تذرف الكثير من الدمع... أحسست بالندم والأسف.. ولكني التزمت الصمت... كأني كنت أريد أن تفهم أني كرهتها، وأني لم أعد أطيق أن اراها.

***

ارتفع صوت المؤذن لصلاة الظهر... ولم تعد أمّي بعد... وقدّرت أنها لا تزال تنتظر الحكم في المحكمة... وعادت إلى ذهني مشاهد المحكمة.. والقاضي جالساً على مقعده الضخم، وأمامه تلك المنضدة الصغيرة التي يجلس وراءها الكاتب... ووجدت نفسي أتساءل ترى إلى متى يجب أن تقف أمّي أمام القاضي لتستلم الحُكم... ثم كيف تستلمه؟... هل هو يا ترى شيء ما؟.. صندوق مثلاً...؟؟ عصاة؟؟؟ قطعة قماش؟؟؟ أم هو شيء أضخم من كل ذلك... يستلزم أن يحمله لها

حامل؟؟؟ فإذا حمله وخرجت من المحكمة لا بد أن يراها الناس ويروا معها هذا الذي يحملُ لها الحكم.

إنتهى سيلِ الأسئلة ودفقُ الأفكار، حين سمعت باب الزقاق يفتح ويغلق... فنهضت مسرعاً كالملسوع... وأسرعت أقابلها، فأدهشني أن لا أرى معها حاملاً، ولا أراها هي تحمل شيئاً سوى ورقة... مجرد ورقة لا أكثر ولا أقل.

لم تتكلّم، وهي تدخل... لكن كان وجهها محتقناً أشد احتقان لم أرَ مثله من قبل.. وجلست على طرفِ الدكة وطلبتْ من منكشة ماءً... ثم خلعتْ عن رأسها الملاية و(البيشة) وبعد أن شربت جرعتين أو ثلاثاً.. نشرت الورقة التي في يدها... وأخذت تقرأها... واستغرقت القراءة وقتاً، كنت أنا خلاله أنتظر أن تقول شيئاً... أي شيء... إلى أن قالتِ في النهاية:

- خلاص... هادا هوّه الحكم على المذهب المالكي... ومن هادي الساعة أنا لازم أمسك (العِدّة)..

بطبيعة الحال لم أفهم أكثر من أن الورقة التي في يدها، وظلّت تقرأها، هي الحكم بطلاقها من أبي... أما حكاية أن (تمسك العدّة)، فلم تفهمها حتى (منكشة) إذ رطنت بالتركية كلاماً كان من دون شك حول الموضوع، فأجابتها أمّي بالعربية تقول:

- العدّة يعني ما أخرج من البيت.. ولا أتجوز إلا بعد ثلاثة أشهر..

ثم بعد أن التزمت الصمت دقائق، ولا تزال الورقة منشورة بين يديها التفتت إليّ وهي تقول:

- إنت ما تقدر تفهم هادي الأشياء... لكن شوف... القاضي المالكي قايل هنا إنه حَكَم بطلاقي طلقة واحدة رجعية... يعني يا عزيز... لو جا أبوك في هادي الأشهر التلاتة يمكن أرجع له... قول يا رب...

وفعلاً... كان هذا الكلام مفاجأة بالنسبة لي... إذ وجدت نفسي أقفز إليها وأُلف ذراعي حول عنقها وأنا أهتف بصوت مرتفع... يا رب... يا رب..

***

أيام العدّة... وليلة لن تنسى

استطعت أن أفهم، أن شهور العدّة ثلاثة أشهر وبضعة أيام، لا تخرج أمّي خلالها من البيت، ولا تقابل أو تتحدث إلا إلى النساء... والأهم من ذلك أنها يمكن أن تعود إلى عصمة أبي، إذا جاء قبل أو خلال هذه الثلاثة الشهور. والشهور الثلاثة تسعون يوماً... فسرعان ما تذكرت حبات الفاصوليا، ألقي في كل يوم حبة منها في زجاجة (الكينا لاروش)... ولست أدري، لِمَ أخذ الإحساس بأن أبي لا بد أن يظهر خلال هذه الفترة القصيرة، يتنامى ويلح، ويشتد في الإلحاح مع الكثير من القلق، وحريق يجتاح أعمق أعماق النفس، إلى جانب التخوّف إلى حد الفزع والرعب من ذلك اليوم الذي سوف تنتهي فيه الشهور الثلاثة، وأسمع أو أشهد زواج أمّي من هذا الذي لا تزال منكشة تتحدث عنه، وتكاد تجعل منه ملاكاً، هبط من السماء، ولا هم له أو لها إلا الزواج من أمي. ولا أحتاج أن أقول إني في كل يوم أتخفّى فيه في المكان الذي أخبئ فيه زجاجة (الكينا لاروش) لألقي فيها حبة الفاصوليا، كنت أحاول أن أتصوّر أبي داخلاً علينا... ولكن... أغرب ما في هذا التصور أني لم أستطع قط - وحتى اليوم - أن أرسم لوجهه، أو قوامه، أو هيئته، ملامح معينة بحيث أقول إنه هو هكذا لوناً أو طول قامة، أو هنداماً... أو صوتاً... ولا بأس بأن استطرد عن الموضوع بهذه المناسبة إلى حكاية حُلم... حلم رأيته عندما كنت نائماً في سريري في فندق (امبيريال) في تايبيه... رأيت في ما يرى النائم رجلاً شيخاً ربما تجاوز السبعين أو الثمانين من العمر، عاري الرأس بشعر فضي يتهدّل على كتفيه وحول عنقه في أردية بيض... يقف على عتبة باب الغرفة... وكان الباب مفتوحاً... تمتد وتترامى عبره مساحة لا حدود لها من فضاء، يشبه ذلك الذي نشاهده حين نكون في الطائرة.. فضاء غائم، بحيث بدا لي في الحلم، كأنه يدخل من باب طائرة إلى الغرفة... ومن دون أن

يداخلني خوف أو توجّس من أي نوع بدا لي أن أسأله: من هو؟؟ ماذا يريد؟؟ فإذا به قبل أن أنبس بكلمة واحدة.. يقول لي:

- زاهد.. زاهد..

- أبويا؟؟؟

- زاهد... زاهد.

ثم... استيقظت من نومي، وصورة ذلك الشيخ، بشعر رأسه الفضي المتهدل على كتفيه واقفاً على عتبة باب الغرفة، وخلفه ذلك الفضاء الغائم، وهو لا يقول شيئاً سوى كلمة واحدة... كرّرها: (زاهد.. زاهد..)... كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة - طيلة حياتي التي رأيت فيها مخلوقاً، استقرّ في ذهني أنه أبي.

وأعجب ما في قصة هذه الرؤيا، أني حين عدت من تايبيه إلى بيروت ومنها إلى جدة، فوجئت بأن زوجة ابني ضياء حامل في شهرها الثاني.. وأن ابني وزوجته قد اتفقا، من دون سابق علم بالحلم الذي رأيته في تايبيه، أن يكون اسم وليدهما إذا جاء ذكراً... (زاهد)... والأعجب أنهما لم يقولا لي شيئاً عن اختيارهما هذا الاسم... وللأمانة أقول إني لم أقص عليهما قصة الحلم الذي رأيته في الصين... بل وللأمانة أيضاً، لم أكن أعلق، أو اهتم كثيراً، بإحياء أبي (زاهد)، في شخص حفيدي... كانت هذه المسألة لا تعني شيئاً بالنسبة لي... فإذا بهما يفاجئاني عندما رزقا بوليد ذكر، بأنهما سمياه (زاهد)..

وزاهد ضياء عزيز ضياء بن زاهد اليوم في الرابعة عشرة من عمره، في السنة الثالثة من مرحلة الكفاءة... وهو وحيد أبويه... وما زال كلما دخل عليّ مكتبي، أتذكر ذلك الشيخ الذي تجاوز الثمانين من العمر، لم أره قط إلا في الحلم... كما لم أره بعد ذلك، ويدور في ذهني سؤال:

- ترى هل زارني في ذلك الحلم... ليقول لي، إنه سيظهر في شخص هذا الحفيد؟؟؟

***

مع مرور الأيام، إنتهت الشهور الثلاثة، وأيامها التي أدخلتها في زجاجة (الكينا لاروش)... وبطبيعة الحال من دون أن يظهر لأبي أثر... ولا زلت أذكر ذلك اليوم أو تلك اللحظة التي ألقيت فيها الحبة التسعين من حبات الفاصوليا في الزجاجة... يبدو

أن إحساسي بالفجيعة قد تبلّد، بحيث ألقيت الحبة... وأعدت الزجاجة إلى مكانها، وخرجت إلى باب الزقاق، وفي ذهني أن الأمر قد انتهى، ولم يعد أمامي إلا إنتظار زواجها... والزواج في منطقي تلخّص وتضاغط، في مضمون واحد وهو أن أمّي، هذه التي لم أنم قط إلا إلى جانبها وفي حضنها، بعد وفاة جدي رحمه الله، سوف تتزوج، وسوف أنام/ أنام أنا...؟؟؟

سوف أنام أنا... أين؟؟؟ لن أكون إلى جانبها وفي حضنها... وهي أين سوف تنام أيضاً؟؟.. مسألة لا تحتاج إلى ذكاء بالنسبة لطفل حكم القاضي بأني في السابعة من العمر... سوف تنام إلى جانبه هو... هو ذلك الرجل الذي تقرر تماماً أن تتزوجه بعد أن ألقيت آخر حبة فاصوليا في زجاجة (الكينا لاروش)... الحبة التسعون، تمامَ أيام الشهور الثلاثة، وما هي إلا أيام حتى يتم هذا الزواج، الذي كنت أرى خلال الأيام الأخيرة من أيام (العدّة) كيف أصبحت أحاديث الخالة فاطمة جادة... وبنتي العم صادق، وأخريات، ومعهن منكشة، تدور حوله فقط، وحول ما لا بد أن تستعدّ له أمّي بشراء أشياء كثيرة، من (جوّه المدينة) ومن (مغازة العم إسماعيل)، وليس لها وحدها، وإنما لي أيضاً، ومنها أحذية جديدة وجوارب وملابس داخلية، وأقمشة من (اللاس) و(القرمسود)...

ولأول مرة، سمعت، كلمة (المَهْر)... والنقاش الذي يدور حوله... كم ينبغي أن يكون؟؟؟ فإذا التزمت أمّي الصمت، تقول الخالة فاطمة:

- هوّه صحيح إنتي يا فاطمة (عَزْبَة) وعندك ولد... لكن برضه، إنتي شباب... اللّي قدّك لسه لا اتجوزوا... ولا جابوا بزورة... يعني لازم يكون المهر... وتتردد في إكمال الجملة لتقول أخرى:

- يعني ما هو أقل من عشرين جنيه عُسمنلي.

وهنا تتدخل منكشة لتقول بعربيتها المكسرة:

- هادا دكتور، ما في معا ش كتير... كمان هوّه إسراف... إسراف..

وتستمر السهرة، على هذه الأحاديث تتخللها حكايات من تزوجْن من البنات، في تلك الأيام... وتلك الأيام هذه، تعني ما قبل الحرب، وهنا تتساءل الخالة فاطمة:

- يا ترى كم كان المهر اللّي دفعه زاهد يا بنتي يا فاطمة؟؟؟

وتجيبها أمي:

- الحقيقة أبويا (الله يرحمهم) هو اللّي يعرف... لكن أنا سمعت أمّي (الله يرحمها) قالوا، إنو المأخر هو اللّي عليه الكلام... وأبويا هو اللّي اشترى الفرش والمفارش، وحتى طقم السفرة، وكل شي... اشترى كل شي من اسطنبول ثم، يربدُ وجهُها، وهي تقول:

- وكله راح... الحرامية في حماة سرقوا كل شي... حتى الحُجَج...، ومنكشة تقول البدو، اللّي دخلوا بعدما خرج فخري، نهبوا كل شيء.

وفي ليلة من هذه الليالي التي كانت تنقضي، في بيتنا أو في بيت الخالة فاطمة وأحياناً عند (خاتون الهندية)، لاحظت أن بعض الأحاديث كانت تدور في ما يشبه الهمس مع النظرات التي ترامقني، بينما أتظاهر أنا بأني لا ألاحظ شيئاً... ولم أحتج إلى ذكاء أو تفكير طويل لأدرك، أنهم قد قرروا أن يكون زواجها (غداً...) ولأول مرة أسمع أيضاً كلمتي (المِلْكة) بكسر الميم وتسكين اللام... (والدُّخلة)... بالدال المضمومة المشددة واللام المفتوحة... ولم أفهم ما تعنيه، ولمن ما كان يقال، هو أن (الملكة والدخلة سوا)... وفهمت في ما بعد، أن العقد، والدخول بالزوجة، سيتمان في ليلة واحدة..

وإن هذه الليلة... هي (القابلة)... أي (الآتية) غداً.

في اللحظات التي كنت أسمع فيها هذا الكلام كنت أتابع كل كلمة وأجهد نفسي لأفهم ما تعنيه من دون أن أستفسر عن شيء، لأني اقتنعت، بحس لا أشك في أنه قد تبلّد تماماً بأن لا فائدة من الاستفسار عن أمور يفهمونها، وليس عليّ إلا أن التزم الصمت حيالها.

وكان مما قذف بي في أحشاء وحشة قاسية، عبر ذهول وبلاهة، أن (بدرية) قد انقطعت عن التواجد معنا في هذه السهرات... أصبح من النادر تقريباً أن تجيء... وفهمت من الهمس الذي كان يدور عنها أيضاً أنها (ما شاء الله تبارك الله) حامل... ولم أكن أجهل أن الحامل تعاني من متاعب، وقد تضطر إلى التزام الفراش... ولم تغب عن ذاكرتي صورة خالتي خديجة، أيام كانت حاملاً في عبدالمعين...

لكن... في تلك الليلة... فوجئت بأن بدرية جاء بها زوجها بعد صلاة العشاء... أحسست وأنا أراها تدخل الديوان، كأنها لم تجئ إلا لإنقاذي من الوحشة التي أصبحت أعيش بين براثنها... وفي الحقيقة.. كان من أسباب الإحساس بهذه الوحشة

أن أمّي نفسها قد باتت مشغولة عني... أو هكذا كان يخيل إليّ... بل الجميع كانوا مشغولين عني، إما بتجهيز الفساتين الجديدة.. أو استعجال خياطة الثياب لي...

كان التعب والإرهاق بادياً على بدرية، ولكن ذلك الشحوب الذي سرى في محياها زادها جمالاً وتألقاً... فما كادت تأخذ مجلسها، حتى أسرعت تاركاً مكاني لأجلس إلى جانبها... والتفتت إليّ وابتسمت... وأحاطتني بذراعها... وهي تقول:

- ما تيجي، أنا وإنت، ومنكشة... نسوّي شاهي... أنا ما شربت شاهي من بعد العصر.

ونهضَتْ... فأسرعت انهض معها... وكانت منكشة في تلك الحنية، وقد أضاءتها باللمبة العلاقي... وما كدنا نجد أنفسنا وحدنا حتى أخذت بدرية وجهي بين يديها تتأملني وفي عينيها تعبير عن الإشفاق والرثاء، عبّرت عنهما بالدمعة التي جهدت أن تحبسها، ولكنها انذرفت، فلم أملك إلا أن أرتمي في حضنها... وأن أجد نفسي أجهش باكياً.. مختنقاً بانفعال هزّ كياني كله... كما هزّ كيانها هي أيضاً... وكان من حسن حظنا أن منكشة كانت مشغولة عنا بما في يدها من أطباق تغسلها.

***

جاءت الليلة التي سموها (القابلة)، والتي تقرر أن تكون فيها (الملكة والدُّخلة معاً)... تركوني مع بدرية، التي اتفقوا معها أن تظلّ معي، إلى أن يتم كل شيء... إلى أن يتم العقد، الذي علمت في ما بعد أن الذي حضره مجموعة منهم العم محمد سعيد، ورجل آخر هو العم (عبدالنبي)... ولعله هو الذي قام بقراءة الفاتحة وما إليها والعم صادق، وآخرون ذكروا أسماءهم في ما بعد، ومعهم أو في مقدمتهم الدكتور بطبيعة الحال.

لم أكن أجهل عندما تركوني مع بدرية أنهم فضّلوا أن يبعدوني عن مشهد قدروا أنه يمكن أن يحملني على البكاء، أو على أي تصرف يحرج الموقف كله... مع أن المجلس العلوي كان مظلّماً، فقد اقترحتْ بدرية أن نصعد إليه لنرى من نافذته التي تطل على الزقاق الرجال الذين سوف يخرجون من بيت العم محمد سعيد...

لم يطل تربصنا في النافذة... فقد أخذ الرجال يخرجون واحداً إثر الآخر... وكل منهم يردد (مبارك... مبارك)... وساد الشارع الظلام بعد ذلك... هبطنا بدرية وأنا، إلى الديوان... في إنتظار ما لا بد أن يتم... وهو أن تذهب أمّي إلى بيته... إلى بيت الدكتور الذي أصبح زوجها...

وكالصاعقة تحرق الأشجار العاتية، كان السؤال الذي وجدت نفسي أوجهه إلى بدرية:

- وأنا؟؟؟ وأنا يا خالة بدرية... فين أروح؟؟؟

وبصوت مختنق... ويدها الرقيقة على كتفي قالت:

- إنت؟؟ إنت تروح معاها يا عزيز..

- مع أمي؟؟

- ايوه يا عزيز مع أمك... على بيته... بيتكم الجديد..

وهذا ما كان... إذ ما هي إلا بضع دقائق حتى جاءت أمّي ومعها منكشة والخالة فاطمة... واسرعوا يلبسونني الملابس الجديدة... والحذاء الجديد... ومشينا... إلى ذلك البيت... بيت الدكتور... في زقاق الطوال...

وبعد... فإني أكتب هذه السطور وقد تجاوزت السبعين من العمر... ولا أستطيع أن أنسى تلك الليلة التي نمت فيها على سرير صغير... وحدي... في غرفة حسنة الأثاث... وحدي تماماً لأول مرة... بعيداً عن أمي... عن ذراعيها وعن حضنها... لأنها نامت مع زوجها.

***

وبعد، فتلك نهاية الجزء الثاني من هذه الحياة... ولا أكاد أبدأ الجزء الثالث إلا وأدخل معركة...؟؟ معركة وضعتُ أنا خطتها منذ اللحظة التي استلقيت فيها على ذلك السرير الصغير، في الغرفة وحدي؟؟؟... ثم معركة أخرى... بدأت مع رياح الحرب... حربٌ ما أقلَّ من يذكرها في هذه الأيام.

***

الفهرس

عزيز ضياء

حيـاتي

مع الجوع والحب والحرب

بسبب الحصار والخوف من الجوع تمّ تهجير عدد كبير من أبناء المدينة المنوّرة، إلى سوريا ومناطق أخرى كانت لا تزال خاضعة لسيطرة السلطنة العثمانية.

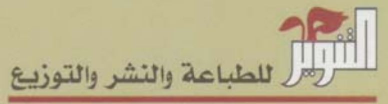
كانت عائلة عزيز ضيا من بين هؤلاء. وهناك عانت العائلة، كما غيرها، حياة قاسية: الجوع، البرد، المرض الذي كان يحصد الناس، فيتم جمعهم في عربات ودفنهم في حفر جماعية...

مع نهاية الحرب العالمية كانت العائلة قد فقدت أربعة من أفرادها، ولم يبق سوى عزيز ووالدته، فقررت الوالدة العودة إلى المدينة فوجدت منزلها فارغاً وقد سُرق منه كل شيء، وبدأت مرحلة أخرى من شظف العيش، لم تنته إلا مع انتهاء الحرب الأخرى، التي أنهت حكم الشريف حسين وأولاده.

يسرد عزيز ضيا للقارئ سيرة حياته، التي هي سيرة حياة المدينة المنوّرة، بلغة بسيطة جميلة، فيقدم لنا مرحلة من التاريخ كما عاشها ذلك الطفل، وعاشها معه أبناء جيله.

إنها سيرة الجوع، والحرب، والحب، سيرة الأحلام والآمال. تترافق مع سيرة الكفاح التي خاضها عزيز الشاب، ومن خلال هذه السيرة نتعرف الى الحياة في تلك الحقبة المليئة بالأحداث والتغيّرات التي انتهت إلى قيام المملكة العربية السعوديّة. كما نتعرّف الى العادات والتقاليد، ونمط العيش، والطعام، والعلاقات الاجتماعيّة في مجتمع متنوّع يعيش فيه العربي مع التركي مع الهندي مع القازاقي والبخاري...

" إنها قصّة التفتح للحياة، وسط الخرائب والأنقاض.. تماماً، كما تتفتح زهرة يتيمة وسط حقل مهجور... كنت أنا أيضاً كهذه الزهرة.. كنت أتفتح للحياة بقوّة، رغم ما يحيط بي من الخرائب والأنقاض... "



الجناح - مقابل السلطان ابراهيم - سنتر حيدر التجاري
الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 00961 1 843 340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.altanweer.com


ISBN 978-6589-09-828-X
9 786589 098287